

أحدها: أَنْ كُلَّ نَفْسٍ تَمُوتُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ يَبْدُو اللَّهُ تَعَالَى كَمَا قَالَ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى^(٣)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(٤).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا^(٥).

و غيرها من الآيات والمراد بالإذن في الآية قيل هو التحلية والإطلاق و ترك المنع بالقهر والإجبار و عليه فيكون المعنى ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله أي تبحلي الله بين القاتل والمقتول، وقيل المراد به هو الأمر وهو قول أبي مسلم والمعنى أن الله يأمر ملك الموت بقبض الأرواح فلا يموت أحد إلا بهذا الأمر، وفي المقام قول ثالث وهو أن المراد به التكوين والتخليق والإيجاد لأنه لا يقدر على الموت والحياة أحد إلا الله فإذا المراد أن نفساً لا تموت إلا بما أماتها الله تعالى ترى أن هذا القول لا يرجع إلى محصل ذلك لأن الموت أمر عديم لأنه عدم الحياة أو قطعها فكيف يقال أن الإيجاد والتخليق والتكوين تعلق به وبعبارة أخرى لم يوجد هناك شيء بل قطع الوجود وعدم، وقيل أن المراد بالإذن العلم وقيل الإذن هو قضاء الله وقدره ولكل وجه ثم أن الكتاب في قوله: وَكِتَابًا مَنْصُوبٌ بِفَعْلٍ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ وَالتقدير كتب الله كتاباً مؤجلاً ومحصل الكلام أن الله تعالى خلق النفس، وهذا ممّا لا كلام فيه فهو يحكم عليها وعلى غيرها كيف يشاء وهذا ما صدقه العقل

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

٢- الأعراف = ٣٤

٤- نوح = ٤

١- المُلْك = ٢

٣- الأنعام = ٢

٥- المنافقون = ١١

و الشَّرْع و المراد بالكتاب المُؤَجَّل الَّذِي يَشْتَمِل عَلَيْهِ الْأَجَال و قد يقال أَنَّهُ عبارة عن اللُّوح المحفوظ لما ورد في الاخبار أَنَّهُ لَمَّا خَلَقَ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ اكْتُسِبْ فَكُتِبَ مَا هُوَ كَاتِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ انْتَهَى.

و اعلم أَنَّ الْكِتَابَ جَاءَ فِي الْكِتَابِ عَلَى أَقْسَامٍ مِنْهَا بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ وَمِنْهُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا^(١) أَي مَكْتُوبًا فِي اللُّوحِ المحفوظ.

و منها الفرض والوجوب:

قال الله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ^(٢) أَي فُرِضَ.

قال الله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ^(٣) أَي فُرِضَ.

قال الله تعالى: إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا^(٤) يعني مفروضاً.

و قال الله تعالى: فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ^(٥) أَي فُرِضَ.

و أمثالها كثيرة في القرآن.

و منها القضاء و الحكم:

قال الله تعالى: لَبِزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ^(٦) أَي لُقِضَ.

قال الله تعالى: قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا^(٧) أَي اللهُ لَنَا.

قال الله تعالى: كُتِبَ اللَّهُ لِأَعْلَبِ بْنِ أَنَا وَرُسُلِي^(٨) أَي قَضَى اللَّهُ وَحَكَمَ.

و منها الجعل:

قال الله تعالى: فَاتَّخِذْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ^(٩) أَي فَأَجْعَلْنَا مَعَهُمْ.

١- البقرة = ١٨٣

٢- النساء = ١٠٣

٣- آل عمران = ١٥٤

٤- المجادلة = ٢١

٥- الاسراء = ٥٨

٦- البقرة = ١٧٨

٧- البقرة = ٢٤٦

٨- التوبة = ٥١

٩- آل عمران = ٥٣

قال الله تعالى أي جعل: **أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ** ^(١) في قلوبهم الإيمان الأمر.

قال الله تعالى: **يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ** ^(٢).

أي أمركم أن تدخلوها والحق أن يحمل الكتاب في المقام على الأول أعني به كونه بمعنى المكتوب المسطور في اللوح المحفوظ.

ثانيها قوله: **وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا** أي ومن يرد في أعماله وأقواله ثواب الدنيا دون الآخرة نؤته منها أي من الدنيا وفيه إشارة الى أن الله تعالى لا يضيع عمل عامل كما هو مقتضى العدل والى هذا المعنى أشار بقوله: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ^(٣)

تقريب الاستدلال بها على المدعى هو أن الله تعالى لم يقل، يره في الآخرة بل أطلق الرؤية وهو دليل على أن جزاء العمل قد يرى في الآخرة فالجزاء تابع للقصد فمن قصد بعمله الدنيا يؤتى منها ومن قصد به الآخرة أيضاً كذلك

ثالثها قوله: **وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا** وظاهر أن ثواب الآخرة أكمل وأدوم من ثواب الدنيا لأن الدنيا فانية والآخرة وباقية خير من الفانية.

قال الله تعالى: **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ** ^(٤)

قال الله تعالى: **إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ** ^(٥)

قال الله تعالى: **أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ^(٦)

قال الله تعالى: **فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ** ^(٧) والآيات كثيرة جداً.

٢- المجادلة = ٢٠

٤- النحل = ٩٦

٦- القصص = ٦١

١- المجادلة = ٢٢

٣- الزلزال = ٧ و ٨

٥- ص = ٥٤

٧- التوبة = ٣٨

ومن المعلوم أن المؤمن لا يريد بعمله إلا الآخرة كما أن الكافر والمنافق لا يريد إلا الدنيا، قل كل يعمل على شاكلته وسيأتي الكلام في هذه المباحث في المستقبل إن شاء الله تعالى.

رابعها قوله: **وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** في الآخرة والمراد بالشَّاكرين من يرد ثواب الآخرة والظاهر أن كلمة، من، في المقامين للتبعية أي نؤته بعض ثواب الدنيا وبعض ثواب الآخرة وذلك لأن من طلب الدنيا أو الآخرة لا يَدَّ يَصِل بعض مقصوده لا كله وهو ظاهر ولعل الوجه فيه هو أن الإرادة ربما لا توافق تمام الأسباب المؤدية إلى تمام مراده فلا يرزق تمام ما أراده ولكنها لا تخلو من موافقة بالأسباب في الجملة دائماً فأن وافق الجميع رزق الجميع وافق البعض رزق البعض فحسب هكذا قيل والحق أن الجزاء بيد الله تعالى وهو لا يكون إلا مطابقاً للمصلحة التي رآها الله في الفعل لا مطابقاً لما أراده العبد:

قال الله تعالى: **وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا** ^(١).

قال الله تعالى: **وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ** ^(٢).

كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ

قرأ ابن كثير كأين على وزن كاعن والباقون كأين مشددة على وزن كعين ومعناها واحد وهو بمعنى كم.

فمن الأول: قول جرير:

وكائن بالأباطح من صديقي
يراني لو أصبت هو المصابي

من الثَّانِي: قول الشَّاعر:

كَأَيِّن فِي الْمَعَاشِرِ مِنْ أَنَاسٍ أَخُوهُمْ فَوْقَهُمْ وَهُوَ كِرَامٌ
 قِيلَ أَصْلُ كَأَيِّنَ (أَي) دَخَلَتْ عَلَيْهَا كَافُ التَّشْبِيهِ كَمَا أَنَّ أَصْلَ (كَذَا)،
 (ذَا) دَخَلَتْ عَلَيْهَا كَافُ التَّشْبِيهِ وَأَتَمَّا غَيَّرَتْ فِي اللَّفْظِ لِتَغْيِيرِهَا فِي الْمَعْنَى
 لِأَنَّهَا نَقَلَتْ إِلَى مَعْنَى، كَمْ، فِي التَّكْثِيرِ وَ مِنْ خَفَّفَ فَلِكِرَاهِيَةِ التَّضْعِيفِ كَمَا
 خَفَّفَ، لَا سَيِّمًا، وَ فِي قَوْلِهِ: رِيَّيُونَ أَقْوَالَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ الْحَسَنُ فَفَهَاءٌ وَ
 قَالَ مُجَاهِدٌ جَمُوعٌ كَثِيرَةٌ وَ قَالَ الْأَخْفَشُ هُمْ مَنْسُبُونَ إِلَى الرَّبِّ وَ قَالَ الزَّجَاجُ الرَّبُّ
 الْمَتَمَسِّكُونَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَ قَالَ غَيْرُهُ مَنْسُبُونَ إِلَى عِلْمِ الرَّبِّ وَ قَالَ الزَّجَاجُ الرَّبُّ
 عَشْرَةُ آلَافٍ وَ هُوَ الْمُرُويُّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ نَقَلَ هَذِهِ الْأَقْوَالَ فِي التَّبْيَانِ وَ قَالَ
 صَاحِبُ الْكَشَافِ الرَّيُّونَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ قُرِئَ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ وَ الْفَتْحِ عَلَى
 الْقِيَاسِ وَالضَّمِّ وَ الْكُسْرِ مِنْ تَغْيِيرَاتِ النَّسَبِ وَ حَكَى الْوَاحِدِيُّ عَنْ الْفَرَّاءِ أَنَّهُ
 قَالَ، الرَّيُّونَ، الْأَوَّلُونَ، وَ قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ أَصْلُهُ مِنَ الرَّبَّةِ وَ هِيَ الْجَمَاعَةُ يُقَالُ رَبِّي
 كَأَنَّهُ نَسَبَ إِلَى الرَّبَّةِ وَ قِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ.

قال المفسرون لما كان من المسلمين ما كان يوم أحد و عتب الله عليهم ما
 صدر منهم في الآيات التي تقدّمت أخبرهم بأن الأمم السالفة تأمل معهم كثير
 من المؤمنين بهم المنتسبين الى الرب في وجه قلوبهم و في اعمالهم
 المتقدمين ان النبى والمرسلين هداة و تعلمون لارباب تعبدون فما وهنوا لما
 اصابهم في سبيل الله اى ضعف مجموعهم بما اصاب بعضهم من الجرح و
 القتل و ان كان المقتول هو النبى نفسه و ذلك لأنهم كانوا يقاتلون في سبيل الله
 و هو ربهم لا في سبيل شخص نبىهم و أنما حظهم من نبىهم تبليغه عن ربهم و
 بيانه لهديته و أحكامه، و ما ضعفوا عن جهادهم و لا إستكانوا و لا ولّوا
 بالإنقلاب على أعقابهم بل ثبتوا بعد قتل نبىهم كما ثبتوا معه في حياته لأن
 العلة فيهما واحدة و هى كون الجهاد في سبيل الله فاذا كان الأمر على هذا

المنوال ينبغي لكم أيها المسلمون التأسي بمن مضى من صالحى الأمم السابقة هذا وأنتم خير الأمم ونبىكم خير الأنبياء ففي هذه الآية من العتب والتشنيع لمن فر عن الجهاد في سبيل الله يوم أحد وغيره ما لا يخفى وقد ذكر المؤرخون أن أكثر المسلمين فروا عن الجهاد يوم أحد ومنهم أبو بكر وعثمان وعمر وبقي مع رسول الله أمير المؤمنين عليه السلام وأبو دجانة الأنصاري وشرذمة قليلة من المؤمنين كما قال تعالى: **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ** ولذلك مدحهم الله بقوله: **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** أي الصابرين على الشدة والمصيبة في جنسه في إمتثال أوامره والقيام بواجباته التي من جملتها الجهاد في سبيل الله، إعلم أن أهل الكوفة وابن عامر قرأوا (قاتل) بصيغة الفاعل وقرأ الباقر (قُتِل) بصيغة المجهول فمن قرأ قاتل، نفاه عمّن ذكروا من قرأ قتل، نفى الوهن عمّن بقى.

وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَتَبَّتْ أَعْدَامُنَا وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

ثم حكى الله تعالى عن الرّبيّن الذين ذكرهم في الآية بأنهم كانوا يقولون **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا** أي أسترها علينا بترك عقابنا ومجازاتنا عليها **وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** الإسراف هو مجازاة المقدار الذي تقتضيه الحكمة وهو مذموم كما أن الإقتار أيضاً مذموم:

قال الله تعالى: **وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا^(١)**

قالوا في الإسراف والإفراط بمعنى وضدهما التّقصير والتّقيير:

قال الله تعالى: **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ^(٢)**

وَتَبَيَّنَتْ أَقْدَامُنَا عَنْ الْوَهْنِ وَالِاسْتِكَانَةِ فِي الْجِهَادِ أَوْ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ وَ
ثَبَاتِ الْقَدَمِ كُنَايَةً عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ فِي الْأُمُورِ وَعَدَمِ الْإِضْطِرَابِ فِيهَا:
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ
عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ
تُوَعَدُونَ^(١).

وَحَيْثُ أَنَّ الْإِسْتِقَامَةَ وَالثَّبَاتَ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بَعْدَ زَوَالِ الْخَوْفِ عَنِ الْقَلْبِ وَ
وَصُولِهِ إِلَى مَقَامِ الْإِطْمِنَانِ سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَثْبِتَ أَقْدَامَهُمْ بِإِزَالَةِ الْخَوْفِ عَنْ
قُلُوبِهِمْ وَإِزَالَةِ الْخَوَاطِرِ الْفَاسِدَةِ عَنْ صُدُورِهِمْ مَشْعُراً بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُقَلِّبُ
الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ فَهُوَ الَّذِي يَصْرِفُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ كَيْفَ يَشَاءُ وَانْصَرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ أَمَّا سَأَلُوا النُّصْرَةَ بَعْدَ التَّثْبِيتِ لِأَنَّ النُّصْرَةَ عَلَى الْعَدُوِّ لَا بَدَّ
فِيهَا مِنْ أُمُورٍ زَائِدَةٍ عَلَى ثَبَاتِ الْأَقْدَامِ وَأَنْ شِئْتَ قُلْتَ الْإِسْتِقَامَةَ وَثَبَاتَ
الْأَقْدَامِ بِمَنْزِلَةِ الْمُقْتَضِي وَهُوَ ظَاهِرٌ وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الْمَعْقُولِ أَنَّ وَجُودَ الْمُقْتَضِي
وَحَدَهُ لَا يَكْفِي الْمَعْلُولَ وَوَجُودَهُ بَلْ لَا بَدَّ فِيهِ مِنْ رَفْعِ الْمَانِعِ أَيْضاً فَكَمَا أَنَّ
وَجُودَ الْمُقْتَضِي أَعْنِي بِهِ الْإِسْتِقَامَةَ فِي الْأُمُورِ لَا يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِتَوْفِيقٍ مِنْهُ
تَعَالَى وَلِذَلِكَ يَقَالُ، ثَبَّتْ أَقْدَامَنَا، كَذَلِكَ رَفَعَ الْمَانِعَ أَيْضاً بِيَدِهِ تَعَالَى شَأْنَهُ وَ
لِذَلِكَ نَقُولُ، وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، فَإِنَّ النُّصْرَةَ لَا تَحْتَقِقُ إِلَّا بِرَفْعِ الْمَانِعِ
لِلْمُؤْمِنِ فِي الْغَلْبَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَإِيجَادِهِ فِي الْعَدُوِّ كَالرُّعْبِ الَّذِي يَلْقِيهِ فِي
قُلُوبِهِمْ وَأَحْدَاثِ أَحْوَالِ سَمَاوِيَّةٍ أَوْ أَرْضِيَّةٍ تَوْجِبُ إِنْهَازَهُمْ مِثْلَ هُبُوبِ الرِّيحِ
تَثِيرِ الْغُبَارِ فِي وَجْهِهِمْ وَمِثْلَ جَرِيَانِ سَبِيلٍ فِي مَوْضِعٍ وَقُوفِهِمْ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ
الْمَوَانِعِ وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ النُّصْرَةَ وَالْغَلْبَةَ عَلَى الْعَدُوِّ تَحْصُلُ بِرَفْعِ الْمَانِعِ
فِي الْمُسْلِمِينَ وَإِيجَادِهِ فِي الْكَافِرِينَ وَلِذَلِكَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٤

الجلد
نہ

فَاتِيهِمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ
 حيث أتى بكلمة الغاء مشعراً بأن الثواب متفرع على ما سبق أي لما قالوا
 كذلك فَاتِيهِمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ قيل المراد بثواب
 الدنيا النصرة والغنيمة وقهر العدو والثناء الجميل وإنشراح الصدر بنور الإيمان
 وزوال ظلمات الشبهات وكفارة المعاصي والسيئات وأما ثواب الآخرة فهو
 الجنة فيها من المنافع واللذات وأنواع السرور وأما حصص الله تعالى ثواب
 الآخرة بالحسن تنبيهاً على جلالاته وشرفه بخلاف ثواب الدنيا هكذا قيل
 والحق في الفرق بينهما هو أن ثواب الدنيا قليل وثواب الآخرة كثير **مَاعِذُكُمْ**
يَنْقُذُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ^(١) ومن المعلوم أن الكثير الباقي خير من القليل الفاني و
 في قوله والله يُحِبُّ المحسنين إشعار بأن من جمع بين الثوابين فهو محسن
 قطعاً وكل محسن محبوب له تعالى لأنه قديم الإحسان.

إِعلم أن الله تعالى قال فيما تقدم وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ
 مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ فذكر لفظة، من،
 الدالة على التبعض حيث قال (منها) وأما في هذه الآية قال فَاتِيهِمُ اللَّهُ
 ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ولم يذكر كلمة، من، الدالة على
 التبعض لوجود الفرق بين المقامين، وهو أن الذين يريدون ثواب الآخرة في
 الآية السابقة أتما اشتغلوا بالعبودية لطلب الثواب فكانت مرتبتهم فيها نازلة و
 أما المذكور في هذه الآية فليس كذلك لأنهم لم يذكروا في أنفسهم إلا الذنب و
 القصور المراد بقولهم أغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ولم يروا التدبير
 والنصرة والإعانة إلا من ربهم ولذلك قالوا: وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانْصَرْنَا عَلَى
 الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فكان مقام هؤلاء في العبودية في غاية الكمال فلا جرم

أولئك فازوا ببعض الثواب وهؤلاء فازوا بالكلّ وأيضاً أولئك أرادوا الثواب و
هؤلاء ما أرادوه وأنما أرادوا خدمة مولاهم فلا جرم أولئك حرموا وهؤلاء
أعطوا ليعلم أنّ كلّ من أقبل على خدمة الله أقبل على خدمته كلّ ما سوى الله
هكذا قال بعض المحققين والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٢٩﴾
بَلِ اللَّهُ مَوْلِيكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٣٠﴾
سَنَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا
أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوِيهِمُ
النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٣١﴾

◀ اللغة

سَنَلْقَى: بضم النون من، ألقى، يلقي إلقاء، والإلقاء يستعمل حقيقة في
الأجسام قال الله تعالى (واللقى الألواح) وقال: (فألقي موسى عصاه) وقال
الشاعر:

فألقت عصاها واستقر بها النوى

ثم أنه قد يستعمل مجازاً في غير الأجسام كما في هذه الآية

الرُّعْبُ: بضم الراء والعين وسكون الباء في قراءة ابن عامر والكسائي و
سكون العين في قراءة غيرهما وهما لغتان فيه ومعناه الخوف يقال رعبته
رُعْباً ورُعْباً فهو مرعوب ويجوز أن يكون الرُّعْب بسكون العين مصدراً و
بضمها الاسم منه وأصله من القَل، يقال سبَل راعب يملأ الوادي، ورعبت
الحوض ملأته والمعنى ستملاً قلوب المشركين خوفاً وفرعاً.

مَأْوِيهِمُ المأوى المكان.

مَثْوَى: المَثْوَى أيضاً المكان وقيل في الفرق أن المَثْوَى المكان الذي يقام
فيه يقال، ثوى، يثوى، ثواءً، والمأوى كل مكان يرجع إليه شيء ليلاً ونهاراً.

أولئك فازوا ببعض الثواب وهؤلاء فازوا بالكلّ وأيضاً أولئك أرادوا الثواب و
هؤلاء ما أرادوه وأنما أرادوا خدمة مولاهم فلا جرم أولئك حرموا وهؤلاء
أعطوا ليعلم أن كلّ من أقبل على خدمة الله أقبل على خدمته كلّ ما سوى الله
هكذا قال بعض المحققين والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ اللَّهُ مَوْلِيكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾
سَنَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا
أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوِيهِمْ
النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

◀ اللغة

سَنَلْقَى: بضم النون من، ألقى، يلقي إلقاء، والإلقاء يستعمل حقيقة في
الأجسام قال الله تعالى (وَأَلْقَى الْأُلُوح) وقال: (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ) وقال
الشاعر:

فَأَلَقْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى

ثم أنه قد يستعمل مجازاً في غير الأجسام كما في هذه الآية

الرُّعْبُ: بضم الراء والعين وسكون الباء في قراءة ابن عامر والكسائي و
سكون العين في قراءة غيرهما وهما لغتان فيه ومعناه الخوف يقال رَعِبَتْهُ
رُعباً ورُعباً فهو مرعوب ويجوز أن يكون الرُّعب بسكون العين مصدراً و
بضمها الإسم منه وأصله من المَل، يقال سبَّل راعب يملأ الوادي، ورعبت
الحوض ملأته والمعنى ستملاً قلوب المشركين خوفاً وفرعاً.

مَأْوِيهِمْ: المأوى المكان.

مَثْوَى: المَثْوَى أيضاً المكان وقيل في الفرق أن المَثْوَى المكان الذي يقام
فيه يقال، ثَوَى، يَثْوَى، ثَوَاءً، والمأوى كل مكان يرجع إليه شيء ليلاً ونهاراً.

◀ الإعراب

يَرُدُّوكُمْ جَزَمَ لِأَنَّهُ جَوَابُ الشَّرْطِ أَعْنَى بِهِ إِنَّ تُطِيعُوا عَظْفَ عَلَيْهِ خَاسِرِينَ
نَصَبَ عَلَى الْحَالِ وَكَلِمَةً بَلَّ حَقِيقَتَهَا الْإِضْرَابَ عَنِ الْأَوَّلِ إِلَى الثَّانِي أَللَّهُ
مَوْلَاكُمْ مَبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ وَأَجَازَ الْقِرَاءَ النَّصْبَ وَالتَّقْدِيرَ بَلْ أَطِيعُوا اللَّهَ أَلْزَعَبَ
بِكُسُونِ الْعَيْنِ وَضَمَّهَا الْغَتَانِ نَصَبَ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ لِقَوْلِهِ، سَنَلْقَى، بِمَاءٍ أَشْرَكُوا
الْبَاءُ تَتَعَلَّقُ بِنَلْقَى كَمَا أَنَّ فِي، أَيْضاً تَتَعَلَّقُ بِهِ وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ لِأَنَّ، فِي، ظَرْفٌ، وَ
الْبَاءُ بِمَعْنَى السَّبَبِ مَخْتَلِفَتَانِ وَ، مَا، مُصَدَّرِيَّةٌ وَ الثَّانِيَّةُ، نَكْرَةٌ مُوصُوفَةٌ أَوْ
بِمَعْنَى، الَّذِي، وَلَيْسَتْ مُصَدَّرِيَّةٌ بِشَيْءٍ مَتَّوًى الظَّالِمِينَ أَيِ النَّارِ فَالْمَخْصُوصُ
بِالذَّمِّ مُحذُوفٌ وَ الْمَثْوَى، مَفْعَلٌ مِنْ ثَوَيْتٍ وَ لَامُهُ يَاءٌ.

◀ التفسير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قِيلَ الْخَطَابُ خَاصٌّ بِمَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أَحَدٍ وَقِيلَ عَامٌّ يَتَنَاوَلُ أَهْلَ أَحَدٍ وَغَيْرِهِمْ إِنَّ تُطِيعُوا الَّذِينَ
كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ.

فَعَلَى الْأَوَّلِ: أَعْنَى بِهِ خُصُوصُ الْخَطَابِ فَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: إِنَّ تُطِيعُوا
الَّذِينَ كَفَرُوا أَبُو سَفْيَانَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمَشْرِكِينَ فِي أَحَدٍ.

عَلَى الثَّانِي: أَعْنَى بِهِ عُمُومُ الْخَطَابِ فَالْمُرَادُ مُطْلَقُ الْكُفَّارِ وَالْمَشْرِكِينَ
فَيَدْخُلُ فِيهِمْ أَبُو سَفْيَانَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي أَحَدٍ وَغَيْرِ أَحَدٍ فِي كُلِّ عَصْرِ وَزَمَانٍ وَ
مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ حَمْلَ اللَّفْظِ عَلَى الْعُمُومِ أَوْلَى لِكَوْنِهِ أَشْمَلُ وَأَفِيدَ وَأَوْفَقُ
بِالْقَوَاعِدِ الْعَقْلِيَّةِ بَلْ هُوَ مُقْتَضِي الْأَصْلِ أَنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى التَّخْصِيسِ
وَمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً^(١).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

قال الله تعالى: وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا أَنْ
تَكْفُرُوا^(١).

قال الله تعالى: مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ
يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ^(٢).

و الآيات كثيرة. تقريب الإستدلال بها أَنَّ الله تعالى علّق الرّد على العقب و
الإنقلاب بالخسران على مطلق طاعتهم و هذا غاية في التحرز منهم و المجانبة
لهم فلا يطاعون في شيء و لا يشاورون لأنّ ذلك يوجب موافقتهم و قال بعض
المفسّرين أنّ المراد بالكفّار في الآية أهل النّفاق حيث قالوا للمؤمنين لمّا
رجعوا من أحد لو كان محمّد نبينا ما أصابه الذي أصابه فأرجعوا الى أخوانكم،
نقلوا هذا القول عن ابن عبّاس و عن ابن جريح هم اليهود و النصارى أي إن
تستنصحو اليهود و النصارى و تقبلوا منهم يردّوكم على أعقابكم و ذلك لأنهم
كانوا يستغفونهم و يوقعون لهم الشبه و يقولون لو كان لكم نبياً حقّاً لما غلب و
لما أصابه و أصحابه ما أصابهم و أنّما هو رجل حاله كحال غيره من النّاس يوماً
له و يوماً عليه و غير ذلك من الأقوال، و الحقّ ما ذكرناه قال أبو بكر الرّازي في
الآية دلالة على النّهي عن طاعة الكفّار مطلقاً لكن أجمع المسلمون على أنّه لا
يندرج تحته من وثقنا بنصحه منهم كالجاسوس، و الخريت الذي يهدي الى
الطّريق و صاحب الرّأي ذي المصلحة الظّاهرة و الزّوجة تشير بصواب و الرّدة
هنا على العقب كناية عن الرجوع الى الكفر و خاسرين، أي مغبونين يبيعكم
الأخرة انتهى ما ذكره.

أقول ما قاله الرّازي لا يرجع الى محصلٍ أمّا أولاً فلا لأنّ النّهي في الآية عن
طاعة الكفّار راجع الى الدّين و الإعتقادات بدليل قوله تعالى: يَرُدُّوكُمْ عَلَى
أَعْقَابِكُمْ و أمّا في غيره من الأمور الدنيويّة فلا و عليه فخرج الجاسوس

والخريت وأمثالهما لا يحتاج الى اجماع المسلمين لأنّ المورّد ليس من موارد الإجماع بل الخروج تخصّصي لا تخصيصى.

ثانياً: أنّه ليس في الآية ما يدلّ على النهي عن طاعة الكفّار مطلقاً بل علّق الكفر والردّ على الأعقاب على إطاعتهم في مورد كانت توجهه وهو واضح الخسران في الآية فالظاهر أنّه عامّ يشمل خسران الدّنيا والأخرة كذلك فإنّ الطّاعة والإتيقاد لكفّار في الإعتقادات توجب الدّلة والحقارة في الدّنيا خسران فيها أعظم منهما، والعذاب في الأخرة ولا خسران أشدّ منه فيها ثمّ قال تعالى:

بَلِ اللَّهِ مَوْلِيكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ كلمة بل لترك الكلام الأوّل من غير إبطالٍ وأخذ في كلام غيره والمعنى ليس الكفّار أولياء ليطاعوا في شيء من الإعتقاد والذين بل الله مولاكم وهو خير الناصرين، أي أنّ الله تعالى خير ناصر لا يحتاج معه الإنسان الى نصرة أحد.

قال الله تعالى: **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ^(١).

قال الله تعالى: **بِئْسَ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ^(٢).

قال الله تعالى: **إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ** ^(٣) والآيات كثيرة.

قال بعض المفسّرين في المقام أي لا ينبغي أن تفكروا في ولاية أبي سفيان وحزبه ولا عبد الله بن أبي وشيعته ولا أن تصنعوا لإغواء من يدعوكم الى موالاتهم فأنهم لا يستطيعون لكم نصراً ولا أنفسهم ينصرون وأنما الله هو الموفي القادر على نصركم:

قال الله تعالى: **فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلِيكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ^(٤).

قال الله تعالى: **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ** ^(٥).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

١- محمّد ٧

٢- الزّوم ٥

٣- آل عمران = ١٦٠

٤- الأنفال = ٤٠

٥- محمّد = ١١

أقول ما ذكره أنما يتم بناء على معنى الخصوص و أما على العموم كما
أيدناه فليس لها اختصاص بما ذكره من ولاية أبي سفيان وابن أبي و أمثالهما
بل تشملهما وغيرهما الى يوم القيامة:

قال الله تعالى: **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ
الَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ^(١).

وإعلم أن المولى في الآية بمعنى الولي فهو من قبيل قوله تعالى و أن
الكافرين لا مولى لهم، أي لا ولي لهم وقوله: **وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ
مَوْلَاهُ** ^(٢) أي وليه بالنصرة.

أن قلت أن كلمة، خير، إسم التفضيل وهو في المقام على غير بابه لأنه لا
خير في أولئك الناصرين من الكفار الذين يعرض بهم.
قلت التفضيل أنما هو بالنسبة الى النصر لا الى الكفار يعني أن نصر الله
لعباده المؤمنين خير من نصر الكافرين لمن ينصرونهم من أولياءهم.

**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ.**

قرأ الجمهور سنلقي بالنون وهو مشعر بعظم ما يلقي اذا أسنده الى المتكلم
بنون العظمة، وقرأ أيوب السخيتاني، سيلقي، بالياء جرياً على الغيبة السابقة
فى قوله وهو غير الناونين ثم أنهم ذكروا فى القاء الرعب فى قلوب الكفار يوم
احد قصته طويلة مخلصها ان علياً اخبر الرسول بان اباسفيان واهما حين
ارتحلوا ركباً الابل و جنبوا الخيل فسر بذلك رسول الله ثم رجع رسول الله
الى المدينة فتنهز واتبع المشركين الى حمراء الأسد معبد الخزاعي جاء الى
الرسول ﷺ وهو كافر ممتعض مما حل بالمسلمين خزاعة تميل الى

الرَّسُولَ ﷺ وَأَنَّ الْمَشْرِكِينَ هَمُّوا بِالرَّجُوعِ إِلَى الْقِتَالِ فَخَذَلَهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ وَمَعْبُدٌ وَقَالَ مَعْبُدٌ خَرَجُوا يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرْ مِثْلَهُ وَلَمْ أَرْ إِلَّا نَوَاصِي خَيْلِهِمْ قَدْ جَاءَتْكُمْ وَحَمَلَنِي مَا رَأَيْتُ أَنِّي قُلْتُ فِي ذَلِكَ شِعْراً وَأُنْشَدَ:

كَادَتْ تَهْدُ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي إِذْ سَأَلْتُ الْأَرْضَ بِالْجَرْدِ الْأَبَابِيلِ
تَسْرِدِي بِأَسَدٍ كَرَامٍ لَا تَنَابِلُهُ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلَ مَهَازِيلِ
فَظَلْتُ أَعْدَاؤِي وَأُظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً لَمَّا سَمَوُا بِرِئِيسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ

فَوَقَعَ الرَّعْبُ فِي قُلُوبِ الْكُفَّارِ، فَقَوْلُهُ: سَنَلْقَى وَعَدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ بَعْدَ أَحَدٍ وَقَالَ ﷺ نَصَرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى صَدَقَ نَبُوءَتُهُ إِذَا أَخْبَرَ عَنِ اللَّهِ بِأَنَّهُ يَلْقَى الرَّعْبَ فَكَانَ كَمَا أَخْبَرَهُ وَأَمَّا قَوْلُهُ: بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا فَلَبَاءَ لِلْسَّبَبِ وَمَا مَصْدَرِيَّةٌ أَيْ بِسَبَبِ إِشْرَاكِهِمْ بِاللَّهِ أَلْهَةً لَمْ يَنْزَلْ بِإِشْرَاكِهَا حُجَّةً وَلَا بَرَهَانًا وَتَسْلِيطُ النَّفْيِ عَلَى الْإِنْزَالِ وَالْمَقْصُودُ نَفْيُ السُّلْطَانِ أَيْ أَلْهَةٍ لَا سُلْطَانَ فِي إِشْرَاكِهَا فَيَنْزِلُ نَحْوُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

عَلَى لَا حُبَّ لَا يَهْتَدِي بِمَنَارِهِ، أَيْ لَا مَنَارَ لَهُ فَيَهْتَدِي بِهِ وَقَوْلُهُ، وَلَا تَرَى النَّصْبَ بِهَا يَنْحَجِرُ، أَيْ لَا يَنْحَجِرُ النَّصْبُ فَيَرَى بِهَا وَالْمَرَادُ نَفْيُ السُّلْطَانِ وَالنَّزُولُ مَعًا فَكَانَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ سَبَبًا لِإِلْقَاءِ الرَّعْبِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْرَهُونَ الْمَوْتَ وَيُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلَا مُحَالَةَ يَكُونُ مَا وَاوَاهُ النَّارُ وَلِذَلِكَ قَالَ وَمَا وَاهُمُ النَّارُ وَبُئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ أَيْ وَبُئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ النَّارُ فَالْمَخْصُوصُ بِالدِّمِّ مَحْذُوفٌ وَالْمَأْوَى هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ وَنَبِيهِ عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ النَّارَ وَهُوَ الظُّلْمُ وَمَجَاوِزَةُ الْحَدِّ إِذْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ غَيْرُهُ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الشِّرْكَ لَكُفْرٌ عَظِيمٌ.

إِعْلَمُ أَنَّ فِي آيَةِ مَسَائِلَ لَا بَأْسَ بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهَا.

في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

المسألة الأولى: الرَّعْبُ الْخَوْفُ الَّذِي يَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ وَأَصْلُ الرَّعْبِ الْمَلْ يُقَالُ سِيلَ رَاعِبٍ إِذَا مَلَأَ الْأَوْدِيَةَ وَالْأَنْهَارَ وَأَنْمَا سُمِّيَ الْفَزَعُ رَعْباً لِأَنَّهُ يَمْلَأُ الْقَلْبَ خَوْفاً هَكَذَا قَرَّرَهُ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ أَقُولُ مَا ذَكَرَهُ فِي مَعْنَى الرَّعْبِ وَأَنَّ

أصله المِلْ لا إشكال فيه وأما قوله وأنما سُمِّي الفرع رعباً الخ ففيه أن الفرع لا يسمَّى رعباً بل الفرع ينشأ من الرُّعْب ويتولَّد منه فهو من فروعه وأثاره في الخارج لا أنه هو بعينه أو يُسمَّى به.

المسألة الثانية: قالوا أن الظاهر من قوله: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ أن وقوع الرُّعْب في جميع الكفار لأنه لا أحد يخالف دين الإسلام إلا وفي قلبه ضربٌ من الرُّعْب من المسلمين إما في الحرب وأما عند المحاجة ولكنه لا يقتضي وقوع جميع أنواع الرُّعْب في قلوبهم نعم وقوع هذه الحقيقة ثابت في قلوبهم من بعض الوجوه أقول ما ذكروه لا دليل عليه وأنما هو مجرد استحسانٍ من ظاهر الآية مع أن مورد الآية خاص به أحد وقد مرَّ منا مراراً أن خصوص المورد لا ينافي عموم المراد وكيف كان فهو أمرٌ لا يعلمه إلا الله تعالى.

المسألة الثالثة: يظهر من الآية أن السَّبب في إلقاء الرُّعْب في قُلُوب الكفار ليس إلا إشراكهم بالله بغير حجة وبرهان، وذلك لأن الباء في قوله، بما أشركوا، للسَّبب أي بسبب ما أشركوا وكلمة، ما، مصدرية والمعنى بسبب إشراكهم بالله.

أن قلت كيف يكون الإشراك سبباً للرُّعْب، قلت قد ذكرنا وجوهاً فيه:

أحدها: ما ذكره الرَّاظي في تفسيره قال وأعلم أن تقرير هذا بالوجه المعقول هو أن الدَّعاء أنما يصير في محلّ الإجابة عند الإضطرار كما قال أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه، ومن اعتقد أن لله شريكاً لم يحصل له الإضطرار لأنه يقول أن كان هذا المعبود لا ينصرني فذاك الآخر ينصرني وأن لم يحصل في قلبه الإضطرار لم تحصل الإجابة ولا النُصرة وإذا لم يحصل ذلك وجب أن يحصل الرُّعْب والخوف في قلبه فثبت أن الإشراك بالله يوجب الرُّعْب انتهى.

أقول ما ذكره الرَّاظي وسمّاه بالوجه المعقول غير معقول وذلك لأن الآية تدلّ على أن الإشراك سبب لإلقاء الرُّعْب في قلوب الكفار من الله تعالى

فالإشراك سبب للإلقاء لا للرعب نفسه و من المعلوم أن الملقى هو الله تعالى فالإلقاء مسبب عن الإشراك لا الرعب هذا أولاً.

ثانياً: قوله أن الدعاء أنما يصير في محل الإجابة عنه الضطرار كما لا قائل سخته اذ كثيراً ما يصير الدعاء في محل الإجابة من غير اضطرار كما اذا كان الدعاء لطلب زيادة النعمة تقول رب زدني مالاً او علماً فإى اظطرار فى امثال هذه الموارد والسير فيه هو أنه لو قلنا بأن كل مضطر اذا دعاه فهو تعالى يجيبه ويكشف السوء عنه كما هو مفاد الآية: **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ** الخ... ليس معناه أن كلما يجيبه ويكشف السوء عنه فهو مضطر لأن الموجبة الكلية لا تنعكس بنفسها فاذا قلنا كل إنسان حيوان كما هو كذلك لا يلزم من صدقه صدق عكسه و هو كل حيوان إنسان بل نقول بعض الحيوان إنسان و بعضه ليس بانسان و لذلك قالوا والموجبة الكلية تنعكس جزئية فقوله تعالى: **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**^(١) في قوة الموجبة الكلية لأن الهمزة للإستفهام الإنكاري أى لا يجيب المضطر إلا الله ولا يكشف السوء عنه إلا هو فكأنه قيل، كل مضطر اذا دعاه فهو يجيبه ويكشف السوء عنه وهذه القضية موجبة كلية لا كلام في صدقها وهى تنعكس جزئية أى بعض من يجيبه الله و يكشف عنه السوء مضطر وبعضه ليس بمضطر والعجب من الرّازي كيف غفل عن هذه الدقيقة وبنى كلامه على أن العكس في القضية أيضاً يصدق كلياً و قال و أن لم يحصل في قلبه الإضطرار لم تحصل الإجابة و لا النصرة و لم يعلم أنه لا ملازمة بين الإضطرار و الإجابة من الطرفين بل هي من طرف واحد لو قلنا به والحاصل أن الإشراك بالله يوجب إلقاء الرعب في قلوبهم من قبل الله تعالى كما أن التوحيد بالعكس فما ذكره الرّازي شيء آخر غير ما يستفاد من الآية و هو ظاهر.

ثانيها: ما ذكره بعض المفسرين وهو أنه لما نال المسلمون ما نالهم يوم أحد بمخالفة الرّماة أمر نبيهم ﷺ وكان من ظهور المشركين عليهم ما كان عزّهم الله عزّ وجلّ الحال في ذلك ثمّ وعدهم بالنّصر لهم والخذلان لأعداءهم بالرّعب.

ثالثها: ما نقل عن السّدي قال أنّ أبا سفيان وأصحابه همّوا بالرجوع بعد أحد لإستئصال المسلمين عند أنفسهم، فألقى الله الرّعب في قلوبهم حتّى إنقلبوا خائبين عقوبةً على شركهم.

رابعها: ما نقلوه عنه أيضاً أنّه لما إرتحل أبا سفيان وغيره من المشركين يوم أحد متوجّهين الى مكّة قالوا بشّ ما صنعنا قتلناهم حتّى اذا لم يبق منهم إلّا الشّريد تركناهم أرجعوا فإستئصلوهم فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرّعب حتّى رجعوا عمّا همّوا به وقال في تفسير المنار نقلاً عن إستاذه ما حاصله أنّ في الآية وجهان:

أحدهما: أنّ إلقاء الرّعب خاصّ بتلك الواقعة ولو كان عامّاً لشمل غزوة حنين وليس كذلك مضافاً الى أنّا نرى كثيراً من الكافرين قد حاربوا ولم يصيبهم الرّعب.

ثانيهما: أنّ الآية بيان لسنة إلهيّة عامّة وهو الحقّ فإنّ المؤمنين حيث كانوا في مرتبة من الإذعان واليقين قد صدقهما العمل الذي كان منه بذل الأنفس والأموال في سبيل الإيمان وأما الكافرون الذين دعوا الى الإيمان وأقيم لهم على الدّعوة الدليل والبرهان فجاهدوا وعاندوا وكابروا الحقّ وآثروا مقارعة الدّاعي ومن إستجاب له بالسيف فإذا نظرنا في شرك هؤلاء الكفّار نجد أنّ شأنهم مع المؤمنين كشأن من يرى نور الحقّ مع خصمه فيحمله البغي والعدوان على مجاحدته من غير حجّة ولا دليل وهذا هو الذي صار باعثاً على الرّعب ثمّ قال وبهذا يندفع قول من يقول ما بالنّا نجد الرّعب كثيراً ما يقع في قلوب المسلمين ولا يقع في قلوب الكافرين فإنّ الذين يسمّون أنفسهم

مسلمين قد يكونون على غير ما كان عليه أولئك الذين خطبوا بهذا الوعد من قوة اليقين والإذعان والثبات والصبر وبذل النفس والمال في سبيل الله فمعنى المؤمنين غير متحقق فيهم وأنما رعب المشركين مرتبط بإيمان المؤمنين يكون له من الآثار وساق الكلام الى أن قال وعلى هذا يكون الإشراف سبباً للرعب كسائر الأسباب العادية التي ربط الله بها المسببات كالشرب للزوي والأكل للشبع فمن وصل اليه الحق تزلزل الباطل في نفسه لا محالة ومن تمام التشبيه أن تكون بعض الوقائع التي لا يقع فيها الرعب في قلوب المشركين كالوقائع التي يشرب فيها المرء ولا يروي لعارض مريض فسنن الاجتماع كسائر الأجسام الطبيعية لها عوارض وشروط وموانع انتهى كلامه.

قال صاحب الكشف، قيل قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد فإنهم لما لم يكونوا في مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة انتهى.

أقول ما ذكره في تفسير الآية لا بأس به إلا أنهم قد غفلوا في المقام عن نكتة لطيفة وهي أن الرسول ﷺ كان منصوباً بالرعب وهو إحدى معجزاته لقوله ﷺ (نصرت بالرعب) والله تعالى قد حصنته بين الأنبياء بذلك فعلى هذا لا يكون الرعب معلولاً للشرك لوجوده مع عدمه فلياً فلو كان الشرك علّة للرعب يلزم منه أن يكون المشرك مرعوباً أينما وجد لأن العلّة يستلزم وجود المعلول وليس كذلك وهو ظاهر هذا أولاً

وثانياً، أن الآية صريحة في أن الملقى للرعب في قلوب المشركين هو الله تعالى لقوله: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فلو كان الأمر على ما ذكره لكان ينبغي أن يقال، سيوجد في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا، وحيث لم يقل ذلك وأسند الإلقاء الى نفسه وقال: سَنُلْقِي علمنا أن العلّة لوجود الرعب في قلوب الكفار هي إلقاء الله تعالى أيها في قلوبهم ليكون معجزة للنبي ﷺ فالشرك علّة للإلقاء لا للرعب في المقام والله أعلم بكلامه.

بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا قَالَ صَاحِبُ الْكُشَافِ فِي تَفْسِيرِ
الآيَةِ مَا لَفْظُهُ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا آلِهَةً لَمْ يَنْزِلِ اللَّهُ بِإِشْرَاقِهَا حُجَّةً، فَأَنْ قُلْتُ
كَانَ هُنَاكَ حُجَّةٌ حَتَّى يَنْزِلَهَا اللَّهُ فَيَصِحَّ لَهُمُ الْإِشْتِرَاكُ، قُلْتُ لَمْ يَعْزْ أَنْ هُنَاكَ
حُجَّةٌ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ الشَّرْكَ لَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَقُومَ عَلَيْهِ حُجَّةٌ وَأَمَّا
الْمُرَادُ نَفْيُ الْحُجَّةِ وَنَزُولُهَا جَمِيعاً كَقَوْلِهِ، وَلَا تَرَى الصُّبَّ بِهَا يَنْحَجِرُ انْتَهَى
كَلَامُهُ.

وَقَالَ صَاحِبُ تَفْسِيرِ الْمِيزَانِ مَعْنَاهُ إِتَّخَذُوا لَهُ مَا لَيْسَ مَعَهُ بَرَهَانٌ شَرِيكاً
يُكَرِّهُهُ الْقُرْآنُ أَنْ لَيْسَ لِإِثْبَاتِ الشَّرِيكِ لِلَّهِ سُلْطَانٌ وَمِنْ إِثْبَاتِ الشَّرِيكِ نَفْيُ
الصَّانِعِ وَإِسْنَادُ التَّأثيرِ وَالتَّدْيِيرِ إِلَى غَيْرِهِ كَالذَّهْرِ وَالْمَادَةِ وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ
مِنَ الْعَامَّةِ، أَيُّ لَمْ يَقُمْ بَرَهَاناً مِنَ الْعَقْلِ وَلَا مِنَ الْوَحْيِ عَلَى مَا زَعَمُوا مِنْ
أُلُوهِيَّتِهَا وَاسْطَةِ بَيْنِ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ وَأَمَّا قُلْدُوا فِي إِتَّخَاذِهَا وَإِعْتِقَادِهَا آبَاءَهُمْ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلِ انْتَهَى.

وَقَالَ الطَّبْرَسِيُّ رحمته أَيُّ بَرَهَاناً وَحُجَّةً يَعْنِي لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ حُجَّةً انْتَهَى.
وَنَظِيرُ ذَلِكَ مَا ذَكَرُوهُ سَائِرُ الْمُفَسِّرِينَ فِي الْمَقَامِ وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ
لَا تَرْجِعُ إِلَى مُحْصَلٍ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْآيَةَ تَدَلُّ بِمَفْهُومِهَا عَلَى أَنَّ الشَّرْكَ بِاللَّهِ إِذَا
نَزَلَ بِهِ سُلْطَانٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ فَلَا يُوْجِبُ الرُّعْبَ وَهُوَ كَمَا تَرَى وَالْعَجَبُ مِنْ
الْمُفَسِّرِينَ حَيْثُ لَمْ يَتَفَتَّحُوا لِهَذَا الْإِشْكَالِ فِي تَفْسِيرِهِمْ غَيْرُ صَاحِبِ الْكُشَافِ
حَيْثُ قَالَ، فَأَنْ قُلْتُ كَانَ هُنَاكَ حُجَّةٌ حَتَّى يَنْزِلَهَا اللَّهُ فَيَصِحَّ لَهُمُ الْإِشْتِرَاكُ،
قُلْتُ لَمْ يَعْزْ أَنَّ هُنَاكَ حُجَّةٌ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ عَلَيْهِمْ إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ وَقَدْ نَقَلْنَاهُ إِذَا
عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ، لَا شَكَّ فِي أَنَّ، مَا، فِي قَوْلِهِ: بِمَا أَشْرَكُوا مُصْدَرِيَّةٌ وَالبَاءُ
لِلْسَّبَبِ أَيُّ بِسَبَبِ إِشْرَاكِهِمْ وَهَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ وَأَمَّا الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ: مَا لَمْ
يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا فَهِيَ نَكْرَةٌ مُوصُوفَةٌ أَوْ بِمَعْنَى، الَّذِي، وَ عَلَيْهِ فَتَكُونُ مُوصُولَةً
فَعَلَى الْأَوَّلِ يَصِيرُ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ الشَّرْكَ يُوْجِبُ الرُّعْبَ فِي قَلْبِ الْمُشْرِكِ إِذَا

وصف بعدم نزول السُّلطان لا مطلقاً وأما إذا لم يوصف به وكان هناك حجة فليس كذلك وعلى الثاني فمعنى الآية الشُّرك الذي لم ينزل به سلطاناً يصير سبباً وداعياً إلى وجود الرُّعب وأما الشُّرك الذي لا يكون كذلك فلا وعلى التقديرين فالإشكال باق على حاله وهو أنَّ الشُّرك الذي نزل به السُّلطان لا يكون موجباً للرُّعب ولا يكون صاحبه ظالماً ولا يكون مأواه النَّار وهذا هو الإشكال المستفاد من مفهوم الآية فقول صاحب الكشاف أنَّ الشُّرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجة إلى آخر كلامه، لا يقوم عليه حجة وإنما هو مجرد إدعاء لا ينبغي أن يُسمع على إطلاقه، نعم هو كذلك ما لم ينزل به سلطاناً أي حجة وبرهاناً من العقل والنقل على ما يستفاد من الآية ولتوضيح الكلام نقول السُّلطان معناه في المقام الحجة والبرهان وأصله القوة فسلطان الملك قوته والسلطان البرهان لقوته على دفع الباطل قاله الشيخ الطوسي رحمته في التبيان و به قال الطبرسي في تفسيره وقال القرطبي من العامة في تفسيره في قوله تعالى: مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا أي حجة وبياناً و عذراً وبرهاناً ومن هذا قيل للوالي سلطان لأنه حجة الله في الأرض ويقال أنه مأخوذ من السليط وهو ما يضاء به السراج وهو دهن السَّمسم إلى أن قال فأصل السُّلطان القوة فإنه يقهر بها كما يقهر بالسُّلطان انتهى.

قال بعض المفسرين أنَّ المتبادر من الآية أنها تعليل أو تصوير لكونه تعالى خير الناصرين للمؤمنين الموحدين وبيانه أنه سيحكم في أعداءهم المشركين سنة العادلة وهي أنه يلقي في قلوبهم الرُّعب وهو بضم العين في قراءة الكسائي ويعقوب وبسكونها في قراءة الباقي ومعناه شدة الخوف الذي يملأ القلب بسبب إشراكهم بالله أصناماً ومعبودات لم ينزل بهما سلطاناً أي لم يقم برهاناً من العقل ولا من الوحي على ما زعموا من ألوهيتها واسطة بين الله وبين خلقه إلى أن قال والإشراك قد يكون سبباً طبيعياً لوقوع الرُّعب في القلب وما كان كذلك فأَنَّ الله يسنده إلى نفسه وأن لم يذكر السبب لأنه هو واضع

الأسباب والسُنن ولكنّه قد صرّح لنا هنا ليكون برهاناً على بطلان الشّرك و سوء أثره وهذا الوجه المختار في تفسير الآية يوافق قول من جعل الوعيد فيها عاماً وليس كلّ الكفر يثير الرّعب بطبيعته وأنّما تلك طبيعة الشّرك وهو اعتقاد أنّ لبعض المخلوقات تأثيراً غيبياً وراء السّنن الإلهية والأسباب انتهى كلامه. و قيل في الآية وجهان:

أحدهما: أنّ إلقاء الرّعب خاصّ بتلك الواقعة ولو كان عاماً ليشمل غزوة حنين ولم يكن الكفّار فيها مرعوبين وكذلك نرى أنّ كثيراً من الكافرين قد حاربوا ولم يصبهم الرّعب.

ثانيهما: أنّ الآية بيان لسنة إلهية عامّة وهو الحقّ وبيانه يتوقّف على فهم المعنى المراد من لفظ المؤمنين ولفظ الكافرين وما كان عليه المؤمنون والكافرون في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآيات قال الرّازي في تفسيره، المسألة الثانية، قوله: **مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا** يوهّم أنّ فيه سلطاناً إلا أنّ الله تعالى ما أنزله وما أظهره، إلا أنّ الجواب عنه أنّه لو كان لأنزل الله به سلطاناً فلما لم ينزل به سلطاناً وجب عدمه انتهى كلامه.

ولقائل أن يقول عدم النزول لا يدلّ على عدم وجوده في علم الله إذ من المحتمل وجوده فيه إلا أنّ المصلحة اقتضت عدم نزوله من الله تعالى في بعض الموارد وما نحن فيه من هذا القبيل قال بعض المُفسّرين من الصّوفية في المقام كلاماً لا بأس بذكره قال: **مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا** الباء في، به، ظرفية أو سببية أو للإلتصاق والمعنى بما أشركوا بالله شريكاً لم ينزل بسببه من حيث شركته برهاناً أو حجة دالة على جواز الإشراك به في الطّاعة وعلى جواز التوجّه والنّظر اليه ثمّ قال، أعلم أنّ الإنسان سوى المعصومين من أوّل الصبا كافراً محض حالاً و اعتقاداً إلى أوّان المراهقة والبلوغ فإن ساعده التّوفيق و إنجذب إلى الانقياد لبني وقته على الاعتقاد بالتّوحيد صار مسلماً موحداً اعتقاداً و أن كان كافراً حالاً لأنّه في دار الكثرة و مقام النّفس التي لا ترى إلا

الكثيرات ولا تتذكر في الفاعلين فاعلاً وحدانياً بل تعتقد فاعلاً وحدانياً فأن ساعده التوفيق وإنجذب من دار الكثرة الى دار الوحدة التي هي دار القلب و دار الإيمان وساق الكلام، الى أن قال فهو قد يجد وجداناً وحالاً فاعلاً إلهياً في الفاعلين فيخرج من الكفر الحالي الى الشرك الحالي ثم اليهودي ثم العياني حتى يخرج من دار الشرك الى دار التوحيد بحيث لا يرى في الوجود إلا الله و حصل معنى لا حول ولا قوة إلا بالله ثم معنى لا إله إلا الله وهنالك يخرج من الشرك و يصير مؤحداً فالإنسان ما دام في دار الكفر والشرك لا يخرج من الإشراف بالله في الوجود ولا في الطاعة لأنه أن لم يطع إنساناً يطع هواه و شيطانياً فأن كان ما أشرك به لله أنزل الله تعالى حجة وبرهاناً في صحة إشراكه حتى كان المشرك مؤحداً من طريق الإشراف وكان إشراكه مأذوناً فيه و مأجوراً فيه و أن لم ينزل في إشراكه برهاناً و سلطاناً كان إشراكه برهاناً و سلطاناً كان إشراكه كفراً و مهيمناً عنه و مورثاً لعقوبة الآخرة فقوله: **يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا** يفيد بمفهوم مخالفته أنه أن أشرك بالله من نزل به سلطاناً لم يكن مذموماً و قد فسر الإشراف في الأخبار بالإشراف بالولاية انتهى كلامه هذا تمام الكلام في نقل كلمات المفسرين في تفسير الآية الشريفة والذي يقوي في النظر في المقام هو أن الإشراف بالله قد يكون مقروناً بالحجة والبرهان و قد لا يكون مقروناً بهما والمراد بالحجة هو المعدورية للمكلف من قبيل الله تعالى كما في صورة التقية كما إذا كان الإنسان أسيراً أو مهجوراً أو مغلوباً أو مضطراً للمشرك ففي هذه الموارد يدور الامر بين الحياة والموت فان اظهر الشرك يسلم و الا يقتل و من المعلوم وجوب حفظ النفس في الشريعة وهذا هو الحجة والبرهان المنزل من عند الله و ذلك كما في قصة عمار بن ياسر حيث اظهر الشرك والبطن التوحيد في قلّة حفظاً للنفس وخوفاً من القتل و قد ورد في قوله تعالى: **إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ** ^(١) ولا شك أن نزول

في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

الآية في مدحه بمنزلة الأمضاء للشارع وهذا حكم عام في جميع الموارد وما بالنسبة الى جميع الناس فإن خصوص المورد لا ينافي عموم الآية نعم يستفاد من الآية أن الحجة قد تكون في الإشراك الظاهري وأما الواقعي القلبي فلا كما ذكره الزمخشري في الكشف وتبعه غير واحد من المفسرين من أن الشرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجة على إطلاقه لا يصح اللهم إلا أن يقال أن مراده بالشرك، الإعتقادي الواقعي وظاهر كلامه يأباه وعليه فمعنى الآية هو أن إلقاء الرعب كان في قلوب المشركين في أحد وغيره لأنهم لم يكونوا في إشراكهم على حجة والله أعلم بكلامه وأما قوله تعالى: **وَمَا أَوْيَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ** فقد أخبر الله تعالى بأن مصير هؤلاء إلى النار فهم في الدنيا مرعوبون وفي الآخرة معذبون والفرق بين المأوى والمثوى أن المأوى مكان الرجوع لأنه اسم مكان من أوى إذا رجع، والمثوى اسم مكان من ثوى يثوى إذا قام فالمأوى مكان الرجوع والمثوى مكان الإقامة جمع الله تعالى بين اللفظين في الآية، للتأكيد والمبالغة في الذم والمخصوص بالذم محذوف أي وبئس مثنوى الظالمين النار:

قال الله تعالى: **فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْئَسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ** (١)

قال الله تعالى: **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوِيكُمْ** (٢).

فقد نبه الله تعالى على الوصف الذي استحقوا به النار وهو الظلم ومجاوزة الحد إذ أشركوا بالله غيره وأي ظلم أعظم من الشرك قال الله تعالى حكاية عن لقمان **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (٣).

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ
 حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ
 مِنْ بَعْدِ مَا أُرْيَكُمُ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ
 الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ
 عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ
 عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنِ
 عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرِيكُمْ
 فَأُثَابِكُمْ عَمَّا بَغِمَ لَكُمْ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ
 لَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)

◀ اللغة

تَحُسُونَهُمْ: الحس هو القتل على وجه الاستستصال قال جرير:
 تَحَسَّبَهُم السُّيُوفُ كَمَا تَسَامَى حَرِيقُ النَّارِ فِي أَجْمِ الْحَصِيدِ
 وَأَصْلُهُ الْإِحْسَاسُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ^(١).
 فَشِلْتُمْ: الْفِشْلُ الْجُبْنُ يُقَالُ رَجُلٌ فَشِلٌ أَيْ جَبَانٌ وَالْجَمْعُ إِفْشَالٌ.
 صَرَفَكُمْ: يُقَالُ صَرَفْتُهُ عَنْ وَجْهِهِ أَيْ حَوَلْتُهُ.

تُصْعِدُونَ: بَضْمُ النَّاءِ مِنَ الْإِصْعَادِ وَبِفَتْحِهَا مِنَ الصُّعُودِ، قِيلَ الْإِصْعَادُ فِي
 مَسْتَوِي الْأَرْضِ وَالصُّعُودُ فِي إِرْتِفَاعٍ قَالَ أَصْعَدْنَا مِنَ الْكَوْفَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ وَقَالَ
 الْقَرَاءُ الْإِصْعَادُ إِبْتِدَاءُ السَّفَرِ وَالْمَخْرَجِ وَالصُّعُودُ مَصْدَرُ صَعَدَ رَقِيٍّ مِنْ سَفَلٍ
 إِلَى عَلَوٍ وَقَالَ الْقَتَبِيُّ أَصْعَدَ أَبْعَدَ فِي الذَّهَابِ فَكَأَنَّهُ إِبْعَادُ كِبَاعِدِ الْإِرْتِفَاعِ وَقَالَ
 الْمِفْضَلُ صَعَدَ وَأَصْعَدَ وَصَعَدَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَالصُّعِيدُ وَجْهُ الْأَرْضِ، وَصَعْدَةُ
 إِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَرْضِ وَأَصْعَدَ مَعْنَاهُ دَخَلَ فِي الصُّعِيدِ.

في بيان القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

لَا تَلُونَهُمْ لِأَنَّ الشَّيْءَ يَلِينُ فَهَوَلِينُ وَالْمَصْدَرُ لِيْنٌ يَفْتَحُ اللَّامُ وَأَصْلُهُ فِي الْجَرَمِ نَعُومَتُهُ وَإِنْتِفَاءُ خَشُونَتِهِ وَلَا يَدْرِكُ إِلَّا بِاللَّمَسِ ثُمَّ تَوَسَّعُوا وَنَقَلُوهُ إِلَى الْمَعَانِي.

◀ الإعراب

صَدَقَ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ فِي مِثْلِ هَذَا النَّمُو وَقَدْ يَتَعَدَّى إِلَى الثَّانِي بِحَرْفِ الْجَزْرِ يُقَالُ صَدَقْتَ زَيْدًا فِي الْحَدِيثِ إِذْ تَحْسُونَهُمْ إِذْ ظَرَفَ لَصَدَقَ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِلْوَعْدِ حَتَّى يَتَعَلَّقَ بِفِعْلِ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ دَامَ ذَلِكَ إِلَى وَقْتٍ فَشَلَكُمْ، إِذَا فُشِلْتُمْ جَوَابُ إِذَا مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ بَأَنْ أَمْرَكُمْ وَنَحْوَ ذَلِكَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ مَعْطُوفٌ عَلَى الْفِعْلِ الْمَحْذُوفِ إِذْ تُصْعِدُونَ أَيِ إِذْ كَرُوا إِذْ تَصْعَدُونَ لَا تَلُونَهُ الْجُمْهُورُ عَلَى فَتْحِ التَّاءِ وَيَقْرَأُ بَضْمَ التَّاءِ وَمَاضِيهِ، الْوَى وَهِيَ لَغَةٌ عَلَى أَحَدٍ يَفْتَحُ الْحَاءَ وَيَقْرَأُ بَضْمَهَا وَهُوَ الْجَبَلُ وَالرَّسُولُ يَدْعُوَكُمْ الْوَاوُ لِلْحَالِ يَغْمُ تَقْدِيرُهُ بَعْدَ غَمٍّ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ فِي مَوْضِعِ نَصَبِ صِفَةِ لَغَمٍ وَقِيلَ الْمَعْنَى بِسَبَبِ الْغَمِّ فَيَكُونُ مَفْعُولًا بِهِ التَّقْدِيرُ، بَدَلُ غَمٍّ، فَيَكُونُ صِفَةً لَغَمٍ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا قِيلَ، لَا زَائِدَةٌ وَقِيلَ لَيْسَتْ زَائِدَةٌ وَالْمَعْنَى عَلَى نَفْيِ الْحُزَنِ عَنْهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَكَيْ فِي الْمَقَامِ عَامِلَةٌ بِنَفْسِهَا لِأَجْلِ اللَّامِ قَبْلَهَا.

◀ التفسير

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ مَعْنَاهُ قَدْ وَفَى اللَّهُ لَكُمْ بِمَا وَعَدَكُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ عَلَى عَدُوِّكُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُفْعِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ^(١) وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالْوَعْدِ فِي الْآيَةِ هُوَ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِلرَّمَا لَا تَبْرَحُوا هَذَا الْمَكَانَ فَإِنَّا لَنَنْزِلُ غَالِبِينَ مَا ثَبَّتُمْ مَكَانَكُمْ فَكَانَ الْوَعْدُ مَعْلَقًا عَلَى الثَّبَاتِ وَالِاسْتِقَامَةِ إِذْ

تَحْسُونَهُمْ أَي تَقْتُلُونَهُمْ فَأَنْتُمْ تَحْسُوهُ الْغُلَّةُ هُوَ الْقَتْلُ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِصَالِ وَأَصْلُهُ الْإِحْسَاسُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ^(١).

وَحَسَّه، يَحْسَهُ إِذَا قَتَلَهُ لِأَنَّهُ أَبْطَلَ حَسَّهُ بِالْقَتْلِ وَقَدْ جَاءَ التَّحَسُّسُ بِمَعْنَى طَلَبِ الْأَخْبَارِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: يَا بَنِي آدَمَ أَهْبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ^(٢) وَذَلِكَ لِأَنَّهُ طَلَبَ لَهُمَا بِحَاسَةِ السَّمْعِ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ إِذَا تَحَسَّسْتُمْ يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ بِأَذْنِهِ أَي بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى قِيلَ أَي يَعْلَمُهُ وَقِيلَ بِلُطْفِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ أَي جَبَنْتُمْ عَنْ عَدُوِّكُمْ وَضَعَفْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ أَي إِخْتَلَفْتُمْ وَعَصَيْتُمْ الرَّسُولَ ﷺ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَيْكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنَ النَّصْرَةِ عَلَى الْكُفَّارِ وَالظُّفَرِ بِهِمْ، أَكْثَرُ الْمَفْسَّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْجَمِيعِ يَوْمَ أَحَدٍ خِلَافًا لِأَبِي عَلِيٍّ الْجَبَائِي حَيْثُ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: إِذَا تَحَسَّسْتُمْ أَي تَقْتُلُونَهُمْ هُوَ يَوْمَ بَدْرٍ وَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ هُوَ يَوْمَ أَحَدٍ وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ وَ عَصَيْتُمْ يَوْمَ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَيْكُمْ اللَّهُ مَا تُحِبُّونَ مِنَ النَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ يَوْمَ بَدْرٍ

قَالَ الطَّبْرَسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ وَالْأُولَى أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً عَنْ يَوْمٍ أَحَدٍ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا يَعْنِي الْغَنِيمَةَ أَوْ الْبَقَاءَ فِيهَا وَهُمْ الَّذِينَ أَخْلَوْا الْمَكَانَ الَّذِي رَتَّبَهُمُ النَّبِيُّ فِيهِ وَأَمَرَهُمْ بِلُزُومِهِ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ أَمِيرُ الْقَوْمِ وَمَنْ أَطَاعَهُ فِي الثَّبَاتِ وَالْإِسْتِقَامَةِ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ قَالَ الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ قِيلَ فِي إِضَافَةِ إِنْصَرَفَهُمْ إِلَى اللَّهِ مَعَ أَنَّهُ مَعْصِيَةٌ قَوْلَانِ:

أحدهما: أَنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقَيْنِ مِنْهُمْ مَنْ عَصَى بِإِنْصَرَفِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَعِصْ لِأَنَّهُمْ قَلُّوا بَعْدَ إِنْهَازِ تِلْكَ الْفِرْقَةِ فَأَنْصَرَفُوا بِإِذْنِ اللَّهِ بِأَنْ إِنْتَجَبُوا إِلَى أَحَدٍ لِأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَوْجَبَ ثَبَاتَ الْمَائَةِ لِلْمُتَيْنِ فَإِذَا نَقَصُوا لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَجَازَ أَنْ يَذَكَرَ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْجُمْلَةِ بِأَنَّهُ صَرَفَهُمْ وَبِأَنَّهُ عَفَا عَنْهُمْ وَيَكُونُ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي التَّفْصِيلِ هَذَا قَوْلُ أَبِي عَلِيٍّ.

ثانيها: قال البلخي **ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ** معناه لم يأمركم بمعاودتهم من فورهم لئيبثليكم بالمظاهرة في الأنعام عليكم والتخفيف عنكم، ونقل بعض المفسرين عن جعفر بن حرب قولاً ثالثاً وهو أن معناه رفع النصرة وكلكم أي أنفسكم بخلافكم النبي ﷺ، فأنهزمتكم لئيبثليكم أي ليختبركم أي يعاملكم معاملة المختبر مظاهرة في العدل وذلك أنه تعالى إنما يجازي عباده على ما يفعلونه دون ما قد علمه منهم قاله الطبرسي وقال في التبيان لئيبثليكم، بالمظاهرة في الأنعام عليكم والتخفيف عنكم **وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ** قيل أن العفو خاص لمن لم يعص بإنصرافه، وقيل عام في جميعهم إذ لا يمتنع أن يكون الله عفا لهم عن هذه المعصية وقال البلخي معناه **وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ** تتبعهم بعد أن كان أمرهم بالتتابع لهم فلما بلغوا حمراء الأسد أعفاهم من ذلك ولا يجوز أن يكون صرفهم فعل الله لأنه قبيح وهو تعالى منزلة عن فعله **وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** بنعم الدنيا والدين أو بغفران ذنوبهم وقيل بعدم استيصالهم كما فعل بمن كان قبلهم.

قال الرَّاغِب في المفردات، الفضل الزيادة عن الاقتصار، أقول قد ثبت أن الفضل في اللغة الزيادة ومنه قوله ﷺ (عَوِّدُوا بِالْفَضْلِ عَلَى مَنْ حَرَمَكُمْ) هذا تمام الكلام في تفسير الألفاظ وأعلم أن في هذه الآية أموراً لابد من التنبيه عليها، منها أنه لما رجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة وقد أصابهم ما أصابهم بأحد قال ناس من أصحابه من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم اختلفوا في النصر الموعود فقال بعضهم كان النبي رأى في المنام أنه يذبح كبشاً فصدق الله رؤياه بقتل طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين يوم أحد وقتل بعده تسعة نفر على اللواء فذاك قوله لقد صدقكم الله وعده يريد تصديق رؤيا الرسول ﷺ، وقال بعض آخر المراد بالوعد ما ذكره في قوله تعالى أن نصبر وتتقوا الآية وقد ذكرناها إلا أن هذا كان مشروطاً بشرط الصبر والتقوى.

و ثالث الأقوال هو أن المراد بالوعد قوله تعالى: **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ**^(١) وهو أيضاً مشروط ورابعها أن يكون الوعد هو قوله تعالى: **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** وخامس الأقوال هو أن الوعد أن النبي ﷺ قال للرماة لا تبرحوا من هذا المكان فإننا لا نزال غالبين مادمتم في هذا المكان إذا عرفت هذا فنقول لما وعدهم الله النصر بشرط أن يتقوا ويصبروا فحين أتوا بذلك الشرط لاجرم وفى الله بالمشروط وأعطاهم النصر فلما تركوا الشرط لاجرم فأنتهم المشروط فأفّ وجود المشروط قد توقّف على وجود شرط وأن شئت قلت المشروط يدور مدار الشرط وجوداً وعدمًا ولما كان التخلف عن الشرط فى اخذ منهم فلاجرم اصابهم ما اصابهم فصح قوله تعالى: **لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ** فإنه تعالى لا يخلف الميعاد الا ترى أنه تعالى يقول: **إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ** ثبت أن المسلمين غلبوا على الكفار فى أول الأمر ووضعوا فيهم السيوف وشرعوا فى نهب أموالهم حتى إذا خلى الرماة مكانهم حمل خالد بن الوليد وأصحابه على عبد الله بن جبير ومن بقى معه فقتلوه وحملوا على المؤمنين من ورائهم ورجع المشركون عن هزيمتهم ووضعوا السيوف فى المسلمين وقتلوا منهم سبعين.

الأمر الثانى: يستفاد من الآية أن الاختلاف والتنازع فى المسلمين يوجب غلبة الكفار عليهم كما قال الله تعالى: **وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا**^(٢).

و خصوص المورد لا ينافي عموم الآية ألا ترى أن المسلمين بعد الرسول لما تفرقوا وتشّتوا وافترقوا الى ثلاث وسبعين فرقة صاروا مقهورين مغلوبين ومع ذلك محتاجين الى الكفار فى جميع الشئون ومن المعلوم الثابت عند العقل والنقل أن الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه وقال الله تعالى: **وَلَا تَهِنُوا وَلَا**

ضياء القرآن فى تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

تَخْزَنُوا وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ^(١) صدق الله في وعده وكذب المسلمون في إدعائهم الإيمان فلا محالة وقعوا فيما وقعوا من الخسران في الدارين.

الأمر الثالث: ما المراد بقوله: مِنْ بَعْدِ مَا أُرِيكُمْ مَا تُحِبُّونَ قال المفسرون أي من النصرة على الكفار وهزيمتهم والظفر بهم والغنيمة وقال أبو علي الجبائي ومن تابعه، أي يوم بدر، والحق أن المراد بقوله: مَا تُحِبُّونَ متاع الدنيا أي تنازعتم وعصيتم الله ورسوله من بعد ما أريكهم الله الغنائم وفيه إيحاء إلى أن أكثر المسلمين في صدر الإسلام كان هدفهم الدنيا والوصول إلى زخارفها و لأجل ذلك أن القوم لما رأوا هزيمة الكفار وطمعوا في الغنيمة فشلوا في أنفسهم عن الثبات طمعاً فيها ثم إشتغلوا بطلبها.

الأمر الرابع: ما المراد بقوله: ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وكيف أضاف الله تعالى صرفهم إلى نفسه ومن المعلوم أن صرفهم عن الكفار معصية قال الرّازي في تفسيره لهذا الكلام ما هذا لفظه، أما أصحابنا (أي الأشاعرة) فهذا الإشكال غير وارد عليهم لأنّ مذهبهم أن الخير والشر بإرادة الله و تخليفه فعلى هذا قالوا معنى هذا الصّرف أن الله ردّ المسلمين عن الكفار وألقى الهزيمة عليهم و سلّط الكفار عليهم وهذا قول جمهور المفسرين وقالت المعتزلة هذا التّأويل غير جائز ويدلّ عليه القرآن والعقل، أمّا القرآن فهو قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا^(٢) فأضاف ما كان منهم إلى فعل الشيطان فكيف يضيفه بعد هذا إلى نفسه، وأمّا المعقول فهو أنه تعالى عاقبهم على ذلك الإنصراف ولو كان ذلك بفعل الله لم يجز معاقبته القوم عليه كما لا يجوز معاقبتهم على طولهم وقصرهم وصحتهم ومرضهم ثم عند هذا ذكروا وجوهاً من التّأويل انتهى.

أقول ثم ذكر الرّازي الوجوه وأحسنها الوجه الثّاني وحاصله أنّ المراد من قوله: ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ أَنَّهُ تَعَالَى أَزَالَ الرُّعْبَ عَنْ قُلُوبِ الْكَفَّارِ بِسَبَبِ عَصِيَانِ الْمُسْلِمِينَ عَقُوبَةً مِنْهُ عَلَى عَصِيَانِهِمْ وَفَشْلِهِمْ ثُمَّ قَالَ: لِيُبَيِّنَ لَكُمْ أَيُّ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ الصَّرْفَ مُحَنَةً عَلَيْكُمْ لِتَتُوبُوا إِلَيَّ وَتَرْجِعُوا إِلَيْهِ وَتَسْتَغْفِرُوهُ فِيمَا خَالَفْتُمْ فِيهِ أَمْرَهُ وَمَلْتُمْ فِيهِ إِلَى الْغَنِيمَةِ ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ قَدْ عَفَا عَنْهُمْ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِكَلَامِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اذْ تَصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرِيكُمْ فَأُثَابِكُمْ عَمَّا بَعِمَ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

اذ متعلق بقوله: وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَقِيلَ متعلق بمحذوف أي، أذكروا اذ تصعدون، والمشهور في القراءة، ضَمُّ التَّاءِ وكسر العين من الإصعاد والسَّير في مستوٍ من الأرض و بطون الأودية والشَّعَابِ وعليه فالمعنى لقد عفا عنكم، أو أذكروا اذ تذهبون في وادي أحد للإِهْزَامِ فراراً من العدو، وقرأ الحَسَنُ وقتادة وغيرهما بفتح التَّاءِ والعين من صَعَدَ يَصْعَدُ صُعُوداً والصُّعُودُ والإِرتِفَاعُ على الجبال والسطوح والسَّلاطِمِ والدَّرَجِ فالمعنى أذكروا، أو لقد عفا عنكم اذ صعدتم الجبل فراراً من العدو وقرأ بعض آخر بالياء فيهما أي في تصعدون تلون، قوله: وَلَا تَلْوُونَ فَقَدْ قرأ الحَسَنُ بواوٍ واحدة والباقي واضح بواوين ومعناه التَّوَجُّهُ والالتفات اى كنتم لا تلتفتون الى احد من الهرب والهزيمة قيل و اصله انّ المعرج على الشئى يلوى الله عنصة او عنان دابته فاذا مطى ولم يعرج قيل لم يلوى ثم استعمل يلوى فى ترك على الشئى وترك الالتفات اليه يقال فلان لا يلوي على شئى أي لا يعطف عليه ولا يبالي به اذا عرفت هذا فنقول فيه إشارة الى عدم مبالاهم بما فعلوا من الفرار من الرّحف ومخالفة الرّسول وهو دليل على عدم رسوخ الإيمان في قلوبهم اذ المؤمن بالله و

برسوله لا يفرّ من الجهاد ولا يترك الرّسول في معركة القتال فإنّ الفرار بهذا المعنى فرار من الدّين في الحقيقة ومن كان كذلك فلا كلام لنا معه وَالرّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَحْرَبِكُمْ أَي كَيْفَ تَفْرُونَ وَتَصْعَدُونَ الْجِبَلَ وَلَا تَلْتَفِتُونَ إِلَى وِرَاءِكُمْ وَالرّسُولُ يَدْعُوكُمْ، إِلَى الْجِهَادِ وَيَقُولُ أَي عِبَادَ اللَّهِ أَرْجِعُوا إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ، فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ، الْآخِرَى مُقَابِلَ الْأُولَى وَكَوْنِ الرّسُولِ يَدْعُوهُمْ وَهُوَ فِي أَحْرَبِهِمْ يَذَلُّ عَلَى أَنَّهُمْ تَفَرَّقُوا عَنْهُ ﷺ وَهُمْ سَوَادٌ مُمْتَدٌّ عَلَى طَوَائِفٍ أَوَّلِيهِمْ مُبْتَعِدُونَ عَنْهُ وَأَخْرَاهُمْ يَقْرُبُ مِنْهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ مِنْ غَيْرِ أَن يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ لَا أَوَّلِيَهُمْ وَلَا آخِرِيَهُمْ فَتَرَكُوهُ بَيْنَ جُمُوعِ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ يَصْعَدُونَ فِرَاراً مِنَ الْقَتْلِ وَقَالَ الرَّازِي يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عَنْده وَلَا يَتَفَرَّقُوا وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَحَارَبَةِ مَعَ الْعَدُوِّ ثُمَّ قَالَ، فِي أَحْرَبِكُمْ يَقَالُ جُنْتُ فِي آخِرِ النَّاسِ وَآخِرِيَهُمْ كَمَا يَقَالُ فِي أَوَّلِهِمْ وَأَوَّلَاهُمْ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَدْعُوهُمْ وَهُوَ وَاقِفٌ فِي آخِرِهِمْ لِأَنَّ الْقَوْمَ بِسَبَبِ الْهَزِيمَةِ قَدْ تَقَدَّمُوهُ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمِّ الْغَمِّ بَفَتْحِ الْغَيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ فِي اللَّغَةِ، التَّغْطِيَةُ يَقَالُ غَمَمْتُ الشَّيْءَ، غَطَيْتُهُ وَالْمَعْنَى فَجَازَاكُمْ اللَّهُ غَمّاً بِغَمٍّ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ، الْغَمُّ الْأَوَّلُ الْقَتْلُ وَالجِرَاحُ، وَالْغَمُّ الثَّانِي الْإِرْجَافُ بِقَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ صَاحَ بِهِ الشَّيْطَانُ، وَقِيلَ الْغَمُّ الْأَوَّلُ مَا فَاتَهُمْ مِنَ الظُّفْرِ وَالْغَنِيمَةِ، وَالثَّانِي، مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْهَزِيمَةِ.

وقيل الغمّ الأول الهزيمة والثاني إشراف أبي سفيان وخالد عليهم في الجبل، الحسن فَأَثَابَكُمْ غَمّاً يَوْمَ أَحَدٍ بِغَمِّ يَوْمَ بَدْرٍ لِلْمُشْرِكِينَ، وَقَالَ الرَّازِي نَفْلاً عَنِ الرَّجَاجِ، أَي أَنْكُمْ أَذَقْتُمُ الرّسُولَ غَمّاً بِسَبَبِ إِنْ عَصَيْتُمْ أَمْرَهُ فَاللَّهُ تَعَالَى أَذَاقَكُمْ هَذَا الْغَمِّ وَهُوَ الْغَمُّ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ بِسَبَبِ الْإِنْهَزَامِ وَقَتْلِ الْأَحْبَابِ وَالْمَعْنَى جَازَاكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْغَمِّ بِهَذَا الْغَمِّ، وَقَالَ الْفَيْضُ ﷻ فِي الصَّافِي فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمِّ أَي فَجَازَاكُمْ عَنْ فَشْلِكُمْ وَعَصِيَانِكُمْ غَمّاً مُتَّصِلاً

بِغَمٍّ، الْقَمِي عَنْ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَمَّا الْغَمُّ الْأَوَّلُ فَالْهَزِيمَةُ وَالْقَتْلُ، وَ الْغَمُّ الْآخِرُ إِشْرَافُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ عَلَيْهِمْ إِنْتَهَى.

أَقُولُ وَ عَلَيْهِ فَالْبَاءُ بِمَعْنَى، عَلَى، أَيْ غَمًّا عَلَى غَمٍّ أَوْ بِمَعْنَى، مَعَ، أَيْ غَمًّا مَعَ غَمٍّ.

إِنْ قُلْتُ لِمَ سُمِّيَ الْغَمُّ ثَوَابًا وَالْمَشْهُورُ أَنَّ الثَّوَابَ يَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ قُلْتُ قَدْ أَجَابُوا عَنْهُ بِوَجْهَيْنِ.

أحدهما: أَنَّ الثَّوَابَ كَمَا يَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ كَذَلِكَ يَجُوزُ إِسْتِعْمَالُهُ فِي الشَّرِّ لِأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ ثَابَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ أَيْ رَجَعَ إِلَيْهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَإِذْ جَعَلْنَا** **أَلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ** ^(١) أَيْ مَرْجَعًا لَهُمْ وَأَصْلُ الثَّوَابِ كُلُّ مَا يَعُودُ إِلَى الْفَاعِلِ مِنْ جِزَاءِ فَعْلِهِ سِوَاءَ كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا إِلَّا أَنَّهُ بِحَسَبِ الْعَرَفِ اخْتَصَّ لَفْظُ الثَّوَابِ بِالْخَيْرِ أَيْ النَّعِيمِ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْجِزَاءُ ثَوَابًا وَ مَثُوبَةً لِأَنَّ الْمُحْسِنَ يَثُوبُ إِلَيْهِ أَيْ يَرْجِعُ وَ أَثَابَهُمْ أَيْ جَازَاهُمْ وَأَثَابَهُ اللَّهُ مِثْلَهُ.

ثانيهما: أَنَّ يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ كَمَا يُقَالُ تَحَيَّتِكَ الضَّرْبُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ^(٢).

وَقِيلَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ: **غَمًّا بِغَمٍّ** إِنْشِينٍ وَإِنَّمَا أَرَادَ مُوَاصِلَةَ الْغَمُوضِ وَ طُولُهَا أَيْ أَنَّ اللَّهَ عَاقَبَكُمْ بِغَمُومٍ كَثِيرَةٍ مِثْلَ قَتْلِ إِخْوَانِكُمْ وَأَقَارِبِكُمْ وَ نَزُولِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ فَوْقِ الْجَبَلِ عَلَيْكُمْ بِحَيْثُ لَمْ تَأْمَنُوا أَنَّ يَهْلِكُ أَكْثَرُكُمْ وَ مِثْلَ إِقْدَامِكُمْ عَلَى الْمَعْصِيَةِ فَكَأَنَّهُ قَالَ، أَتُنَابِكُمْ هَذِهِ الْغُمُومُ الْمُتَعَاقِبَةُ لِيَصِيرَ ذَلِكَ زَاجِرًا لَكُمْ عَنْ الْإِقْدَامِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَالِإِشْتَغَالِ بِمَا يُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى، ذَكَرَهُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَالْحَقُّ أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ عَلَى خِلَافِهِ **لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** اخْتَلَفُوا فِي مَتَعَلْقِ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ: **لِكَيْلَا** عَلَى قَوْلَيْنِ.

في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

أحدهما: أنها متعلقة بقوله: **وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ** أي ولقد عفا عنكم لكيلا تحزنوا الآية **ثانيها:** أنها متعلقة بقوله: **فَأَثَابَكُمْ غَمًّا** أي كان هذا الغم بعد الغم لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنيمة ولا ما أصابكم من الهزيمة، وكلمة ما في قوله: **مَا أَصَابَكُمْ** في موضع خفض وقيل، لا، صلة أي لكي تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم عقوبة على مخالفتكم رسول الله ﷺ وهو مثل قوله: **مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** ^(١) أي أن تسجد وقوله تعالى لئن يعلم أهل الكتاب أي لعلم وهذا قول المفضل وأما قوله: **اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** قيل فيه معنى التحذير والوعيد وقيل فيه ترغيب للطاعة وترهيب للمعصية ومعنى الخبير العالم بما كان وما يكون لا يغرب عنه شيء ولا يفوته شيء الله اعلم.



ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

◀ اللغة

أَمَنَةً: بفتح الميم و سكنونها مصدر كالأمن و قيل إسمٌ للأمن، نقل عن الجبائي أنه قال، الأمانة مصدر كالأمن يقال أمن فلان يأمن أمناً و أَمَنَةً و أماناً: و قال صاحب الكشاف أنها مرّة من الأمن والميم ساكنة.

نُعَاسًا: النعاس بالضم النون أول النوم و هي ريح لطيفة تأتي من قبل الدماغ تغطي العين ولا تصل إلى القلب فاذا وصلت إليه كان نوماً.
يَغْشَى، غَشَى يَغْشَى غَشْيًا: و غشاية غَطَاه و حلَّ به.
يُبْدُونَ: أي يظهرون.

لَبَّرَ: يُقَالُ بَرَزَ بُرُوزاً خَرَجَ إِلَى الْبَرَزِ أَيْ الْفُضَاءِ.
وَلْيُمْحِصْ: مَحَصَ يُمَحِّصُ تَحْصِيصاً يُقَالُ مَحَصَ اللَّهُ عَنْ فُلَانٍ ذَنْبَهُ أَيْ
نَقَضَهَا وَطَهَّرَهَا مِنْهَا.
تَوَلَّوْا: التَّوَلَّى الْإِعْرَاضَ وَالْبَاقِيَ وَاضِحٌ.

◀ الإعراب

أَمَنَةً نُّعَاسًا الْأَمَنَةُ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ وَنُعَاسًا، بَدَلٌ مِنْهَا وَقِيلَ أَنَّ
النُّعَاسَ نَصَبٌ عَلَى الْمَفْعُولِ لَهُ كَأَنَّهُ قَالَ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ لِلْأَمَنَةِ نُعَاسًا وَقِيلَ أَنَّهُ
عُطِفَ بَيَانٌ لِلْأَمَنَةِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نُعَاسًا هُوَ الْمَفْعُولُ وَأَمَنَةٌ، حَالٌ مِنْهُ وَ
الْأَصْلُ، أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ نُعَاسًا ذَا أَمَنَةٍ لِأَنَّ النُّعَاسَ لَيْسَ هُوَ الْأَمْنُ بَلْ هُوَ الَّذِي
حَصَلَ الْأَمْنُ بِهِ يَغْشَى قَرَأَ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ الْيَاءَ لِلنُّعَاسِ، وَالتَّاءُ لِلْأَمَنَةِ وَهُوَ فِي
مَوْضِعِ نَصَبٍ لِمَا قَبْلَهُ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ مَبْتَدَأُ وَخَبَرٌ يَظُنُّونَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ
فِي أَهَمَّتْهُمْ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، أَهَمَّتْهُمْ، صِفَةٌ، وَيَظُنُّونَ الْخَبَرُ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ وَ
الْعَامِلُ، يَغْشَى وَتَسْمَى هَذِهِ الْوَاوُ وَوَاوُ الْحَالِ غَيْرَ الْحَقِّ الْمَفْعُولِ الْأَوَّلِ أَيْ أَمْرًا
غَيْرَ الْحَقِّ بِاللَّهِ الثَّانِي ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ مُصَدَّرٌ تَقْدِيرُهُ ظَنًّا مِثْلَ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ
شَيْءٍ مِنْ زَائِدَةٍ وَمَوْضِعُهُ رَفَعَ بِالْإِبْتِدَاءِ وَفِي الْخَبَرِ وَجْهَانِ:
أَحَدُهُمَا: لَنَا، فَمِنْ الْأَمْرِ عَلَى هَذَا حَالٌ إِذَا الْأَصْلُ هَلْ شَيْءٌ مِنَ الْأَمْرِ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَمْرِ هُوَ الْخَبَرُ، لَنَا تَبْيِينٌ وَتَمُّ الْفَائِدَةِ كَقَوْلِهِ: وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ كُفُوءٌ أَحَدٌ، كُلُّهُ لِلَّهِ يَقْرَأُ بِالنَّصْبِ عَلَى التَّوَكُّيدِ أَوْ الْبَدَلِ، وَلِلَّهِ الْخَبَرُ، وَبِالرَّفْعِ
عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَلِلَّهِ الْخَبَرُ وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ، أَنْ يَقُولُونَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي،
يَخْفُونَ، وَشَيْءٌ إِسْمٌ كَانَ، وَالْخَبَرُ، لَنَا، أَوْ مِنَ الْأَمْرِ مِثْلَ هَلْ لَنَا، لَبَّرَ الَّذِينَ
بِالْفَتْحِ وَالتَّخْفِيفِ وَيُقْرَأُ بِالتَّشْدِيدِ عَلَى مَا لَمْ يَسْمَ فَاعِلُهُ أَيْ أَخْرَجُوا بِأَمْرِ اللَّهِ
إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ النَّفْيِ الْجَمْعَانِ مَبْتَدَأُ وَإِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ
بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا خَبَرُهُ.

◀ التفسير

ثم ذكر الله تعالى ما أنعم به عليهم بعد هذه العُوم في يوم أحد بالنعاس حتى نام أكثرهم فقال: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ أَي وَهَبَ اللَّهُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ نَعَسًا أَي نَوْمًا قِيلَ وَهُوَ بَدَلُ الْإِشْتِمَالِ عَنْ، أَمْنَةٍ، لِأَنَّ النَّوْمَ يَشْتَمِلُ عَلَى الْأَمْنِ فَأَنَّ الْخَائِفَ لَا يَنَامُ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ غَشَيْنَا النَّعَاسَ وَنَحْنُ فِي مَصَافِنَا يَوْمَ أُحُدٍ فَجَعَلَ سِفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدَيَّ وَأَخَذَهُ وَيَسْقُطُ وَأَخَذَهُ ثُمَّ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي الْوَقْتِ الَّذِي غَشِيَهُمْ فِيهِ النَّعَاسُ فَقَالَ الْجُمْهُورُ حِينَ ارْتَحَلَ أَبُو سَفِيَانٍ مِنْ مَوْضِعِ الْحَرْبِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِّي وَكَانَ مِنَ الْمُتَحِيزِينَ إِلَيْهِ أَذْهَبَ فَأَنْظِرْ إِلَى الْقَوْمِ فَإِنْ كَانُوا جَنَّبُوا الْخَيْلَ فَهُمْ نَاهِضُونَ إِلَى مَكَّةَ وَأَنْ كَانُوا عَلَى خَيْلِهِمْ فَهُمْ عَائِدُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْبِرُوا وَوَطَّنْهُمْ عَلَى الْقِتَالِ فَمَضَى عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ رَجَعَ فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ جَنَّبُوا الْخَيْلَ وَقَعَدُوا عَلَى أَثْقَالِهِمْ عَجَالًا فَأَمَّنَ الْمُؤْمِنُونَ الْمَصْدُقُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَأَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعَاسَ وَبَقِيَ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ لَا يَصْدُقُونَ بَلْ كَانُ ظَنَّهُمْ أَنَّ أَبَا سَفِيَانٍ يَوْمَ الْمَدِينَةِ فَلَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ النَّوْمُ وَأَتَمَّاكَانَ هَمَّهُمْ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هَذَا أَشَارَ بِقَوْلِهِ: يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَطَائِفَةً قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ مِثْلَ مَعْتَبِ بْنِ قَثِيرٍ وَأَصْحَابِهِ وَكَانُوا خَرَجُوا طَمَعًا فِي الْغَنِيمَةِ فَلَمْ يَغْشِهِمُ النَّعَاسُ وَجَعَلُوا يَتَأَسَّفُونَ عَلَى الْحُضُورِ وَيَقُولُونَ الْأَقْوِيلُ وَمَعْنَى قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ حَمَلَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ عَلَى الْهَمِّ، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ الْمَعْنَى أَنَّ نَفْسَهُمُ الْمَرِيضَةُ وَظَنُّوهُمْ السَّيِّئَةَ قَدْ جَلَبَتْ إِلَيْهِمْ خَوْفَ الْقَتْلِ، وَ قَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ مَنْ هَمَّ بِالشَّيْءِ أَرَادَ فَعَلَهُ وَالْمَعْنَى أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمُ الْمَكَاشِفَةُ وَ نَبَذَ الدِّينَ وَهَذَا لِقَوْلِ لِمَنْ قَالَ قَتَلَ مُحَمَّدٌ فَلَنَرْجِعَ إِلَى دِينِنَا الْأَوَّلِ وَقِيلَ مَعْنَاهُ مَا بِهِمُ إِلَّا هُمْ أَنْفُسُهُمْ لَا هَمَّ الدِّينَ وَلَا هَمَّ رَسُولَ اللَّهِ وَالْمُسْلِمِينَ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ

غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ كما هو شأن المنافق مثل ظَنَّهُمْ أَنَّ الإسلام ليس بحقٍّ وأن أمر رسول الله يذهب ويزول ومعنى ظَنَّ الجاهلية عند الجمهور المدة الجاهلية القديمة قبل الإسلام كما قال حمية الجاهلية، وقال ولأتبرجن تبرج الجاهلية وقال بعض المفسرين المعنى ظَنَّ الفرقة الجاهلية والإشارة إلى أبي سفيان ومن معه ومال إلى هذا القول الطبري وفتادة وقال مقاتل، ظَنُّوا أَنَّ أمره مضمحل، وقال الزجاج أَنَّ مدته قد إنقضت، وعن ابن عباس أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ مُحَمَّدًا قد قتل وقيل ظَنَّ الجاهلية إبطال الشرائع والنُّبُوت وغير ذلك من الأقوال والحقُّ أَنَّ المراد بذلك الظَّنَّ أَنَّهُمْ كانوا يقولون في أنفسهم لو كان مُحَمَّدٌ محققاً في دعواه لَمَا سَلَطَ الكفار عليه أو أَنَّ المراد به أَنَّهُمْ كانوا ينكرون إله العالم بكلِّ المعلومات والقادر على كُلِّ المقدورات وينكرون النبوة والبعث فلا جرم ما تَقَوُّوا بقول النَّبِيِّ ﷺ في أَنَّ الله يَقْوِيهِمْ وينصرهم والإحتمالات كثيرة يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قِيلَ هذا تفسير لظَنَّهُمْ يعني يقول بعضهم لبعض هل لنا من النَّصْر والفتح والظَّفَر نصيب وأما قالوا ذلك على سبيل التعجُّب والإنكار وقيل أَنَّ معناه إِنَّا أخرجنا كرهاً ولو كان الأمر لنا ما أخرجنا قال الزبير أرسل علينا النَّومُ ذلك اليوم وأتني لأسمع قول معتب بن قتيير والنَّعاس يغشاني يقول لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هما هنا وقيل المعنى يقول ليس لنا من الظَّفَر الذي وعدنا به مُحَمَّدٌ شيء وقيل غير ذلك والأمر سهل بعد وضوح المراد، ثُمَّ أَنَّ الاستفهام معناه الجحد، أي ليس لنا من الأمر شيء وأما أخرجنا كرهاً قل: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ أي قل يا مُحَمَّدُ لهؤلاء المنافقين إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ لا لكم ولا لغيركم لأنَّ الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وليس لغيره ذلك قَرَأَ أبو عمرو ويعقوب، كُلَّهُ، بالرفع على الابتداء وخبره، لله، والجملة خبر أَنَّ والباقون بالنَّصب أما الرفع فواضح وأما على القول بالنَّصب فهو توكيدٌ للأمر والمعنى أَنَّ الأمر أجمع لله ومن المعلوم أَنَّ، أجمع،

لا يكون إلا توكيداً وقيل، نعتٌ للأمر وقال الأخفش، بدل أي النصر بيد الله ينصر من يشاء ويخذل من يشاء والمراد أعم من التكويني والتشريعي يعني فكما أن الإيجاد بأمره تعالى كذلك التشريع ولا خلاف فيه بين المسلمين و أنما الخلاف في جواز تخلف المراد عن الإرادة وعدمه في التشريعات. وأما الأمر التكويني الإيجادي فلا خلاف في عدم تخلف المراد عن الإرادة.

قال الله تعالى: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ^(١).

قال الله تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٢).

قال الله تعالى: وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٣).

قال الله تعالى: إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٤).

قال الله تعالى: فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٥) والآيات كثيرة.

إذا عرفت هذا فنقول، قال الرازي في تفسيره في هذا المقام:

المسألة الثالثة: إحتج أصحابنا بهذه الآية على أن جميع المحدثات بقضاء الله وقدره وذلك لأن المنافقين قالوا أن محمداً لو قبل منا رأينا ونصحننا لما وقع في هذه المحنة فأجاب الله عنه، بأن الأمر كله لله، وهذا الجواب أنما ينتظم لو كانت أفعال العباد بقضاء الله وقدره ومشيتته اذ لو كانت خارجة عن مشيتته لم يكن هذا الجواب دافعاً لشبهة المنافقين فثبت أن هذه الآية دالة على ما ذكرنا وأيضاً فظاهر هذه الآية مطابق للبرهان العقلي وذلك لأن الموجود أمّا واجب لذاته أو ممكن لذاته والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه إلا عند الانتهاء الى الواجب لذاته فثبت أن كل ما سوى الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ٤

الجلد الرابع

٢- يس = ٨٢

٤- مريم = ٣٥

١- الأعراف = ٥٤

٣- يوسف = ٢١

٥- غافر = ٦٨

مستند الى ايجاده وتكوينه وهذه القاعدة لا إختصاص لها بمحدثٍ دون محدثٍ أو ممكن دون ممكن فتدخل فيه أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم وذلك هو المراد بقوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ وهذا كلام في غاية الظهور لمن وفقه الله للإبصار انتهى كلامه بألفاظه وعباراته.

أقول أما قوله أَنَّ جميع المحدثات بقضاء الله وقدره، فلا كلام لأحد فيه و يؤيده العقل والنقل وستكلم في القضاء والقدر في موضعه إن شاء الله تعالى مفصلاً والذي نقول في المقام هو أَنَّ القضاء في الأصل بمعنى فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً وكل واحدٍ منهما على وجهين:

إلهي وبشري، فمن القول الإلهي قوله:

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ^(١).

أي أمر بذلك وقوله:

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ.

أي اعلما و اوحينا اليهم و حياً جزماً و على هذا قوله:

وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ^(٢).

ومن العقل الالتي قوله:

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ^(٣).

وقوله: فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ^(٤).

وهو اشارة الى ايجاده والابداعي والفراغ منه و على هذا قوله:

فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٥).

إذا عرفت هذا فنقول، قضاء الله وقدره ليس في جميع الموارد من القسم الثاني وهو الإيجادي الإبداعي حتى كان جميع ما سوى الله تعالى مستنداً

الى إيجاده و تكوينه كما زعمه الرّازي و أصحابه بل قد يكون من القسم الأوّل و هو الأمر التّشريعي أو الإعلام والفصل في الحكم و ما نحن فيه من هذا القبيل و في هذا القسم من القضاء قد يتحقّق المراد و قد لا يتحقّق لأنّ إرادة العبد و إختياره في فعله واسطة بين تحقّق المراد و عدمه ألا ترى أنّ قوله: وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ^(١) يدلّ على المدعى حيث إنّنا نرى أكثر النّاس يعبدون غيره و يشركون به فلو كان الشّرك والكفر بقضاء الله بهذا المعنى يلزم التّناقض في الآية من حيث المعنى و أن شئت قلت لو كان القضاء بمعنى الإيجاد و الإبداع في هذه الآية وأمّثالها يلزم إيجاد الكفر والإيمان في قلوب النّاس و من المعلوم أنّ الإيجاد فرع الإرادة و المشيئة وكيف يعقل إرادتهما و هل هذا إلّا إجتماع التّقضيين.

ثانياً: إيجاد الكفر في قلب العبد و إلزامه عليه ثمّ بعد ذلك عقابه و عتابه من الظلم الفاحش الذي لا يقبل العقل السليم إنتسابه اليه تعالى.

و أمّا قول المستدلّ الموجود أمّا واجب أو ممكن والممكن لذاته لا يترجّح وجوده على عدمه إلّا عند الإنتهاء الى الواجب.

فجوابه أنّ هذا ممّا لا كلام فيه عند الكلّ لأنّ الممكن في حدّ ذاته متساوي الطرفين أي نسبته الى الوجود والعدم على حدّ سواء بمعنى أنّه لا يقتضي أحدهما في حدّ ذاته فإنّ الممكن من ذاته أن يكون ليسا و من علته أن يكون أيضاً فلا محالة يحتاج الى مرّجح خارج من ذاته دفعاً للتّسلسل ولزوم الترجيح بلا مرّجح اذ لو كان المرّجح ممكناً يلزم التسلسل و أن خرج عن حدّ الإستواء من غير مرّجح يلزم الترجيح بلا مرّجح وكلاهما محال فلا بدّ في خروجه عن حدّ الإستواء من وجود مرّجح خارج عن ذاته وهو لا يكون إلّا واجباً لإنحصار الموجود في الممكن و الواجب ثبت و تحقّق أنّ الممكن في خروجه عن

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

الإستواء محتاج الى الواجب وهو المطلوب وهذا ممّا لا كلام فيه وقد أشار اليه المستدل إجمالاً وإغتربه وزعم أن كلّ مرجّح خارج عن ذات الممكن فهو واجب لذاته ولذلك قال فثبت أن كلّ ما سوى الله مستند إلى إيجاداه و تكوينه، ولم يعلم أن هذا يتم في أفعال الله تعالى أي إيجاداه الممكنات وإخراجها عن حدّ الإستواء وأمّا أفعال العباد فليس الأمر فيها كذلك لأنّ المرجّح فيها هو إرادة العبد ولذلك يسند الفعل اليه وأن شئت قلت إرادة العبد واسطة بين الفعل وإرادة الله وقد يعبر عنها بالواجب الغيري ألا ترى أن الله تعالى يقول في كتابه:

قال الله تعالى: **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ^(١).

قال الله تعالى: **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** ^(٢).

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** ^(٣).

وأمثال ذلك من الأوامر الشرعية والعبد المخاطب بها لا يصلي ولا يزكي ولا يعبد الله يصوم بإختيار منه وكذلك في التواهي فإنّ الله تعالى نهى عن القتل والزنا والشرك وأمثال ذلك والعبد يقتل ويَزني ويشرك ومن المعلوم أن القتل مثلاً في حدّ ذاته ممكن من الممكنات ونسبته إلى الوجود والعدم على السواء في حدّ ذاته فلو كان المخرج هو الواجب بالذات وهو الله تعالى كما زعم المستدل وأصحابه لزم أن يكون القاتل هو الله تعالى وإذا كان كذلك يجب القصاص عليه لا على العبد وهذا ممّا لا يقبله العقل السليم مضافاً إلى أنّه مخالف للحسّ أيضاً بل يوجب تعطيل الشرائع والأديان والنبوة وذلك لأنّ المفروض أن العبد غير مختار في أفعاله وأقواله فأبى نفع في النبوة وجعل الأحكام وإرشاد الخلق وغيرها ثمّ ما معنى قوله تعالى: **إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا**

شَاخِرًا وَإِمَّا كَفُورًا^(١) وبذلك ظهر لك بطلان قوله حيث قال وهذه القاعدة لا اختصاص لها بمحدثٍ دون مُحدث أو ممكن دون ممكن فتدخل فيه أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم وذلك هو المراد بقوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ وذلك لأنَّ المحدث إن كان فعل الله تعالى كالأوامر الإيجابية في التكوينات فالمرجح هو الواجب لذاته وأن كان فعل العبد فالمرجح هو إرادة العبد وبعبارة أخرى المَرَّجَح في الأول هو الواجب لذاته وفي الثاني الواجب بغيره فقوله فتدخل فيه افعال العباد وكأنهم عاطل باطل فان موجود ستيند الى فعله ولنعم ما قيل غيرى جنى وانا المعاقب فيكم فكأنني سبابة المتندّم، وأما قوله في آخر كلامه، وهذا كلامٌ في غاية الظهور لمن وفقه الله للإبصار، فيقال له و أيُّ ظهورٍ في هذا الكلام فيما أنت بصدد إثباته اللهم إلا أن يراد بالظهور الظهور في البطلان وبالإبصار، الإعوجاج و الإنحراف وإلا فمن وفقه الله للإبصار لا يسند فعل العبد الى الله هذا كله مع خروج الآية عن طور البحث وذلك لأنَّ الآية بصدد بيان أنَّ الأمر كله لله وهذا مسلمٌ مقطوع به عقلاً ونقلاً وذلك لأنَّ الأمر الحقيقي سواء كان في الإيجاد أم في التشريع مختصّ به تعالى فلا أمر في الحقيقة لما سواه.

قال الله تعالى: وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ^(٢).

قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُبُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ

قال الله تعالى: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ^(٣).

قال الله تعالى: وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ^(٤).

قال الله تعالى: بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا^(٥).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

٢- البقرة = ٢١٠

٤- يونس = ٣١

١- الانسان = ٣

٣- الأعراف = ٥٤

٥- الرعد = ٣١

و الآيات كثيرة وكلّ هذه الآيات يدّل على أنّ الأمر الحقيقي له تعالى أولاً وبالذات ولغيره ثانياً وبالعرض وأي ربط بينه وبين ما ذكره المستدلّ في تفسير الآية من أنّها تدلّ على أنّ أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم مستندة اليه تعالى فلو كانت الآية بصدد إثبات ما ذكره الرّازي كان حقّ الكلام أن يقال قل أنّ الفعل كلّّه لله وحيث لم يقل ذلك فما إستنبطه منها ليس في محلّه وللبحث فيه مقام آخر ولكنّي أسففت إذ أسفّوا وطرّ حيث طاروا والحمد لله.

يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى نِفَاقِهِمْ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُنَافِقَ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، وَ لِذَلِكَ ذَمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ كَمَا قَالَ.

قال الله تعالى: **وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا^(١)**.

قال الله تعالى: **إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ^(٢)**.

و النفاق أشدّ من الكفر ولذلك ترى الآيات النّازلة فيهم أكثر وأغلظ من الآيات في حقّ الكفار يقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتِلنا ههنا أي ما قتل عشائرنّا وأخواننا، و قيل أنّهم قالوا لو كان لنا فعل ما خرجنا إلى قتال أهل مكة و لما قتل رؤساءنا، إن قلت، كلامهم هذا يدّل على صحّة ما ذهب إليه الأشاعرة من أنّ العبد لا يقدر على شيء، قلت كلامهم ليس بحجة في الإعتقادات حتّى يؤخذ به في مقام الإستدلال هذا أولاً.

ثانياً: أنّهم نفّوا عن أنفسهم الأمر وهو كذلك فإنّ الأمر كلّّه لله و قد مرّ الكلام فيه و أمّا قولهم: **مَا قُتِلْنَا ههنا** فمعناه لو علمنا الغيب ما قُتِلنا هاهنا وهو كذلك إذ لا يعلم الغيب إلّا هو و أمّا أنّهم مجبورون في خروجهم إلى القتال فلا يستفاد من الآية أصلاً.

قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَغِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ فِي الْمَقَامِ أَبْحَاثَ:

أحدها: قوله: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ إِلَى قوله: مَضَاجِعِهِمْ.

ثانيها: قوله: وَلِيَبْتَغِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ.

ثالثها: قوله: وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ.

رابعها: قوله: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

أما البحث الأول: فللمفسرين فيه قولان:

الأول: معناه، لو جلستم في بيوتكم وأعرضتم عن الخروج إلى القتال لخرج منكم من كتب الله عليهم القتال إلى مضاجعهم ومصارعهم حتى يوجد ما علم الله أنه يوجد.

الثاني: معناه لو تخلفتم عن الجهاد وجلستم في بيوتكم لخرج المؤمنون الذين كتب عليهم القتال إلى مضاجعهم ولم يتخلفوا عن هذه الطاعة بسبب تخلفكم عنها وعلى هذين القولين فحاصل المعنى هو أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَتَبَ عَلَى بَعْضِهِمُ الْقِتَالَ وَالْبَرَازَ وَهُوَ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةً فَتَخَلَّفَ بَعْضُ النَّاسِ عَنْهُ لَا يَجِبُ تَخَلُّفَ الْكُلِّ حَتَّى لَا يَقَعَ مَا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْقِتْلَ، قَالَ الرَّازِيُّ وَالْمَعْنَى أَنَّ الْحَذَرَ لَا يَدْفَعُ الْقَدْرَ وَالتَّدْبِيرَ لَا يَقَاوِمُ التَّقْدِيرَ فَالَّذِينَ قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقِتْلَ لَا بَدَّ وَأَنْ يَقْتُلُوا عَلَى جَمِيعِ التَّقْدِيرَاتِ لِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ يَقْتُلُ فُلُوهُ لَمْ يَقْتُلْ لِإِنْقِلَابِ عِلْمِهِ جَهْلًا وَقَدْ بَيَّنَّا أَيْضًا أَنَّهُ مُمْكِنٌ فَلَا بَدَّ مِنْ إِنْتِهَاءِهِ إِلَى إِيجَادِ اللَّهِ تَعَالَى فُلُوهُ لَمْ يَوْجَدْ، لِإِنْقِلَابِ قُدْرَتِهِ عَجْزًا وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَحْقِيقِ الْوُجُوبِ كَمَا قَرَّرْنَا، قَوْلُهُ: الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتْلَ وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ تَفِيدُ الْوُجُوبَ فَأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ فِي قَوْلِهِ: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصَ تَفِيدُ وَجُوبَ الْفِعْلِ وَهَاهُنَا لَا يُمْكِنُ حَمْلُهَا عَلَى وَجُوبِ الْفِعْلِ فَوَجِبَ حَمْلُهَا

على وجوب الوجود وهذا كلام في غاية الظهور لمن أيده الله بالتوفيق انتهى كلامه.

قال بعضهم في حل الاشكال وليس في ذلك ان المشركين غير قادرين على ترك القتال من حيث علم الله ذلك منهم وكتبه لانه كما علم انهم لا تختارون ذلك علم انهم قادرون ولو وجب ان لا يكون تعالى على ما علم انه لا يفعل والقول بذلك كفر انتهى والحق في الجواب هو ان العلم الأزلي ليس علة لفعل العبد لأن إرادة العبد الناشئ عن إختياره واسطة بين الفعل والعلم الأزلي اللهم إلا أن يقال أن المراد بالعلم الأزلي هو العلم بوجود الفعل أو عدمه بإختيار المكلف وإنتخابه وبعبارة أخرى أن الله تعلم يعلم ما يختاره العبد و يفعله بارادته لا أن العلم علة لصدور الفعل و عليه فقوله تعالى: **لَبَّرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ** معناه كُتِبَ عليهم القتل في اللوح المحفوظ لعلمه تعالى بأنهم يقتلون.

وأما أن العلم سبب و علة للقتل فهو أول الكلام و على المدعي الإثبات مضافاً الى أن الموت والحياة بيد الله و لا إختيار للعبد فيهما وبعبارة أخرى الإمامة فعل الله كما أن الإيجاد فعله سواء كان الموت طبيعياً أو قتلاً فقوله تعالى: **لَبَّرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ** معناه كُتِبَ عليهم الموت بسبب القتل والجهاد في سبيله كما كتب على بعض آخر الموت بطريق آخر فقياس هذه الآية بأية الصوم والقصاص قياس مع الفارق ألا ترى أن المكلف قد يصوم وقد لا يصوم لأنه قادر على الفعل والتترك وهذا بخلاف الموت والحياة فإنه لا يقدر على دفع الموت عن نفسه فلو قلنا بعدم الإختيار في الموت والحياة كان في محلّه وأعجب من ذلك كله قوله في كتب عليكم الصيام والقصاص بأن الآية تفيد وجوب الفعل وفيما نحن فيه تفيد وجوب الوجود ولم يعلم أن قوله تعالى: **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** وأمثاله لو كان مفيداً لوجوب الفعل أي وجوب

وجوده من العبد لما كان قادراً على ترك الصّوم والصّلاة وحيث نرى قدرته على التّرك بالحسّ والعيان نعلم أنّ الآية لا تدلّ على وجوب وجود الفعل أية القتل فقد دلّت على وجود القتل ووجوبه لأنّه ليس من فعل المكلف فقد ظهر الفرق ومحصل الكلام هو أنّ إثبات الجبر في فعل الله تعالى من تحصيل الحاصل وتوضيح الواضحات اذ لا خلاف فيه عقلاً ونقلاً وأما إثباته في أفعال العباد كما هو المدّعى ففي حيز المنع.

البحث الثّاني: في قوله: **وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ** أي ليختبر الله ما في صدوركم وفيه أقوال:

أحدها: معناه ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر لكم مظاهره في العدل عليكم وإخراج مخرج كلام المُختبر لهذه العلة لأنّه تعالى عالم بالأشياء قبل كونها فال يبتلي ليستفيد علماً.

الثّاني: معناه، ليبتلي أولياء الله ما في صدوركم إلاّ أنّه أضيف الإبتلاء إلى الله عزّ وجلّ تفخيماً لشأنه.

الثّالث: أنّه تعالى قد علمه غيباً فيعلمه شهادة لأنّ المجازاة أنّما تقع على ما علم مشاهدة لا على ما هو معلوم منهم غير معمول نقله الطّبرسي عن الزّجاج.

الرّابع: أنّه عطف على قوله: **ثمّ صرفكم عنهم** ليبتليكم و يبتلي ما في صدوركم.

الخامس: أي يقع ذلك لأجل أن يكون القتل عاقبة من جاء أجله منكم و لأجل أن يمتحن الله نفوسكم فيظهر لكم ما إنطوت عليه من ضعف وقوّة في الإيمان ويطهرها حتّى تصل إلى الدّرجات العلى من الايقان هذا ما وصل اليه من الأقوال.

أن قلت قد ثبت أنّ الله تعالى عالم بالأشياء ظاهرها وباطنها قبل كونها و

بعد كونها ولا يخفى عليه شيء حتى يحتاج الى الإمتحان والاختبار في حق العبد فما الوجه في هذه الآية وأمثالها في القرآن.

قلت قد مرّ البحث فيه مراراً وقلنا أنّ الإمتحان من الله تعالى ليس ليستفيد علماً بل ليفيد علماً للمختبر لأنّ الإنسان ما لم يختبر لا يعرف نفسه ويمكن أن يكون الوجه فيه أنّ الأثار مترتبة على الوجود الخارجي فالثواب والعقاب أيضاً عليها اذا وجدت في عالم الخارج وفائدة الإمتحان إخراج ما في القلب بواسطة الأعضاء والجوارح وأن شئت قلت بواسطة العمل ليترتب الثواب أو العقاب عليه، ووجه آخر وهو معرفة الناس إياه بعد الإختبار لا قبله لعدم إطلاعهم على ما في قلبه وباطنه ولذلك ترى الناس يعدّون بعض الأشخاص في عداد الصّالحاء والأخيار قبل الإمتحان و أمّا بعده فلا والوجوه المحتملة كثيرة.

الثالث: قوله: **وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ** التّمحيص التّخليص أي ليخلص ما في قلوبكم قيل هذا خطاب للمنافقين أي يأمركم بالخروج فلا تخرجون فيظهر للمسلمين معاداتكم لهم وينكشف أسراركم فلا يعدّكم المسلمون من جملتهم وقيل معناه ليبتلي أولياء الله ما في صدوركم كما في قوله: **الَّذِينَ يُخَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** وقيل أنّه عطف على قوله: **أَمَنَةً نُّعَاسًا** أي ليظهر عند هذه الأحوال موافقة باطنكم ظاهرهم ولیمحّص ما في قلوبكم أي يطهرها من الشكّ بما يريكم من عجائب صنعوا وصنعه ويخلص كلامه نياتكم وهذا التخصيص خاص للمؤمنين دون المنافقين قال الطبرسي في تفسيره وبه قال جميع المفسرين اقول قال الرّاعب في المفردات اصل المحصّ تخليص الشيء ممّا فيه من عيب كالمحصّ يقال محصّت الذّهب ومحصته الى إن قال فالمحيص هاهنا كالتزكية والتّطهير ونحو ذلك من الألفاظ ويقال في الدّعاء **اللّهم محّص عَنّا ذنوبنا** أي أزل ما علق بنا من الذّنوب ومحّص الثّواب اذا

ذهب زئيره ومَحْص الحبل يمحّص أخلق حتّى يذهب عنه وبره انتهى.
وعليه فالمعنى ولنخلّص ما في قلوبكم من الغلّ والغش وبعبارة أخرى
ليزيل ما في قلوبكم من الأخباث والأرجاس.
أن قلت لم حصّ الإبتلاء بالصّدر والتمحيص بالقلب أليس الصّدر والقلب
بمعنى واحد.

قلت الصّدر في الأصل الجارحة وجمعه صدور قاله الرّاعب في المفردات،
والقلب على ما قاله الرّاعب في الأصل التّصريف والتغيّير قال قلب الشّيء
تصريفه وصرفه عن وجهه إلى وجهه كقلب الثّوب وقلب الإنسان أي صرفه عن
طريقته إلى أن قال وقلب الإنسان، قيل سُمّي به لكثرة تقلّبه انتهى هذا بحسب
اللّغة.

وأما في الإصطلاح فهو يطلق على معنيين أحدهما اللحم الصّنوبري
المتشكّل المودع في الجانب الأيسر من الصّدر وهو لحم مخصوص باطنه
تجويف وفي ذلك التّجويف دمّ أسود وهو منبع الرّوح ومعدنه والقلب بهذا
المعنى موجود للبهائم أيضاً بل للميت.

والمعنى الثّاني، لطيفة ربّانية روحانيّة لها بهذا القلب تعلّق وتلك اللّطيفة
هي المعبر عنها بالقلب تارة وبالنّفس والرّوح والإنسان تارة أخرى وهو
المدرّك العالم العارف وهو المخاطب والمطالب والمعاقب وله علاقة مع
القلب الجسدي وقد تحيّرُوا في إدراك وجه علاقته وأن تعلّقه يُضاهي تعلّق
الأعراض بالأجسام والوصف بالموصوف أو تعلّق المستعمل للآلة بالآلة أو
تعلّق المتمكّن بالمكان وشبه ذلك وقد يتّحيرُوا في درك حقيقته وذاته أيضاً
قال تعالى وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي^(١) والذي هو مذكور في
الآيات والأخبار هو القلب بالمعنى الثّاني إذا عرفت هذا فنقول قال بعض

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد
نوع

الفلاسفة حيثما ذكر الله تعالى القلب بإشارة الى العقل والعلم كما قال أن في ذلك ذكرى لمن كان له قلب، أي عقل وعلم وحيثما ذكر الصدر بإشارة الى ذلك والى سائر القوى من الشهوة والغضب والهوى ونحوها فقوله: رَبِّ أَسْرُحْ لِي صَدْرِي^(١) فسؤال لإصلاح قواه وكذلك قوله: وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ^(٢) إشارة الى إشتغالهم إنتهى.

وقال بعض آخر النفس الناطقة الإنسانية لها جهتان جهة علو وجهة سفلى فباعتبار جهتها السفلية يُقال لها الصدر وباعتبار جهتها العلوية يُقال لها القلب و الروح والعقل وأمثالها إنتهى.

أقول قد ورد في الحديث، الفروض على الجوارح وأما فرض الله على القلب من الإيمان فالإقرار والمعرفة والعقل والرضا والتسليم، فقوله تعالى: وَ لِيُبَيِّنَ لَّهِ مَا فِي صُدُورِكُمْ إشارة الى الاعضاء والجوارح اذ العمل لا يكون إلا بها اى أن الله تعالى يختبر بأعمالكم التي تظهر بسبب الأعضاء والجوارح فأن العمل ما لم يوجد في الخارج لم يتحقق الإختبار، وأما قوله: وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ فهو إشارة الى تخليص القلب عن الخبائث وتطهيره عن الرجس والدنس فكأنه قال تعالى أن الله يختبركم بالأعمال والنيات والإخلاص فأن العمل الذي يقرب العبد الى ربه العمل الذي يصدر عن القلب السالم عن الآفات والصالح بالنية والإخلاص هذا ما فهمنا من الآية الشريفة والله تعالى أعلم بكلامه قوله: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ فهو إشارة الى أن الله تعالى عالم بكل الأشياء فلا يخفى عليه شيء والمعنى أن الله تعالى.

عالم بما في الصدور من الخير والشر وقيل المراد بذات الصدور هو الصدور نفسها لأن ذات الشيء نفسه فعلى الأول معنى الجملة أنه عليم بما أخفوه في صدورهم وعلى الثاني أنه علم بنفس الصدور وحقيقتها فضلاً عما فيها من الأسرار ومن المعلوم أن خالق الشيء أعلم به منه نفسه.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

إِعلم أَنَّ المقصود من الآية بيان حال القوم الَّذِينَ تَوَلَّوْا أي أعرضوا عن الجهاد وفَرَّوْا وأنهم فبعضهم ورد المدينة وبعضهم صعد الجبل والمراد باللقاء الجمع بين المؤمنين وجمع المشركين وكيف كان لاشك في هزيمتهم بصريح الآية وإتفاق المؤرخين إلا أَنَّ الخلاف وقع بينهم في تعيين المنهزمين نقل الرّازي في تفسيره لهذه الآية عن محمد بن إسحاق أَنَّهُ قال، أَنَّ ثلث النَّاس كانوا مجروحين وثلثهم إنهمزوا وثلثهم قتلوا ثُمَّ قال وأختلفوا في المنهزمين فقليل أَنَّ بعضهم ورد المدينة وأخبر أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قتل وهو سعد بن عُثْمَان ثُمَّ ورد بعده رجال وخلوا على نِسائهم وجعل النساء يقلن عن رسول الله تفرون وَكُن يبيحثن التراب في وجوههم ويقلن هاك المعزول اعزل به ومنهم من قال أَنَّ المسلمين لم يعدوا الجبل والذي تدل عليه الاخبار في الجملة أَنَّ نفراً منهم تَوَلَّوْا والعدوا فمنهم من دخل المدينة ومنهم من ذهب الى سارو بجوانب فاما الاكثرون فأنهم نزلوا عند الجبل واجتمعوا هناك ومن المنهزمين عمر فأنه انهزم مع رجلين من الأنصار يقال لهما سعد وعقبة إنهمزوا حتَّى بلغوا موضعاً بعيداً ثُمَّ رجعوا بعد ثلاثة أَيام فقال لهم النَّبِيُّ ﷺ لقد ذهبتم فيها عريضة وقالت فاطمة لعلي ما فعل عثمان فنقصه فقال النَّبِيُّ يا علي أعياني أزواج الأخوات أن يتحاثوا وَأَمَّا الَّذِينَ بقوا مع الرسول ﷺ فكانوا أربعة عشر رجلاً سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار فمن المهاجرين أبو بكر وعلي وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام، ومن الأنصار الحباب بن المنذر وأبو دجانة وعاصم بن ثابت والحريث بن أصفه وسهل بن حنيف وأسيد بن حضير وسعد بن معاذ وذكر أَنَّ ثمانية من هؤلاء كانوا بايعوه يومئذ على

الموت ثلاثة من المهاجرين، علي، وطلحة، والزبير وخمسة من الأنصار أبو دجانة والحرث بن أصمة وخباب بن المُنذر وعاصم بن ثابت وسهل بن حنيف ثم لم يقتل منهم أحد إنتهى ما ذكره الزاوي.

وقال الطبري في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، يعني بذلك جل ثناؤه أن الذين ولّوا عن المشركين من أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد وأنهم كانوا عنهم وقوله: **تَوَلَّوْا** تفعلوا من قولهم ولّى فلان ظهره وقوله: **يَوْمَ التَّقَى** **الْجَمْعَانِ** يعني يوم التقى جمع المشركين والمسلمين بأحد، إنما إستزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا يعني ببعض ما عملوا من الذنوب، ولقد عفا الله عنهم يقول ولقد تجاوز الله عن عقوبة ذنوبهم فيصفح لهم عنه أن الله غفور يعني به مغطٍ على ذنوب من آمن به و أتبع رسوله بعفوه عن عقوبته إياهم عليها، حليم، يعني أنه ذو أناة لا يعجل على من عصاه وخالف أمره بالثقة ثم إختلف أهل التأويل في أعيان القوم الذين عنوا بهذه الآية فقال بعضهم عنى بها كل من ولّى الدبر عن المشركين بأحد، حدثنا أبو هشام الرفاعي قال حدثنا أبو بكر بن عياش قال حدثنا عاصم بن كليب عن أبيه قال خطب عمر يوم الجمعة فقرأ آل عمران وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها فلما إنتهى إلى قوله: **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى** **الْجَمْعَانِ** قال لما كان يوم أحد هزمنا ففرت حتى صعدت الجبل فلقد رأيتني أنزو كأنتي أروي والناس يقولون قتل محمد فقلت لا أجد أحداً يقول قتل محمد إلا قتلته حتى إجتمعنا على الجبل فنزلت أن الذين تولّوا منكم الآية وساق الكلام إلى أن قال حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال فرّ عثمان بن عفان وعقبة بن عثمان وسعد بن عثمان رجلان من الأنصار حتى بلغوا الجبل جبل بناحية المدينة مما يلي الأعوص فأقاموا به ثلاثة أيام ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فقال لهم لقد ذهبتم عريضة حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قوله: **إِنَّ**

الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَتْهُمُ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا الْآيَةُ وَالَّذِينَ اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ عَثَانَ بْنِ عَفَّانَ وَ سَعْدَ بْنَ عَثَانَ وَ عَقْبَةَ بْنِ عَثَانَ الْأَنْصَارِيَّانِ ثُمَّ الزَّرْقِيَّانِ الْحَدِيثُ إِنْتَهَى كَلَامُ الطَّبْرِيِّ.

وَالْعَجَبُ مِنَ الْقُرْطَبِيِّ حَيْثُ نَقَلَ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْإِنْهَازُ مَعْصِيَةً لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا التَّحَصُّنَ بِالْمَدِينَةِ فَيَقْطَعُ الْعَدُوَّ وَطَمَعَهُ فِيهِمْ لَمَّا سَمِعُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ قُتِلَ قَالَ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ لَمْ يَسْمَعُوا دَعَاءَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْهَوْلِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ وَ يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ زَادَ عَدَدُ الْعَدُوِّ عَلَى الضَّعْفِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا سَبْعَ مِائَةٍ وَالْعَدُوُّ ثَلَاثَةُ أَلْفٍ وَ عِنْدَ هَذَا يَجُوزُ الْإِنْهَازُ وَلَكِنْ الْإِنْهَازُ عَنِ النَّبِيِّ خَطَأٌ لَا يَجُوزُ وَلَعَلَّهُمْ تَوَهَّمُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنْ حَازَ إِلَى الْجَبَلِ أَيْضاً أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

وَأَنَا أَقُولُ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرَهُ الْقُرْطَبِيُّ فَمَا كَانُوا مَذْنِبِينَ بَلْ كَانُوا مُصِيبِينَ فِي فِرَارِهِمْ، وَ عَلَيْهِ فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ثُمَّ مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: وَلَقَدْ عَفَا عَنْهُمْ، وَ هَلْ يَجُوزُ الْعَفْوُ عَمَّنْ لَمْ يَذْنِبْ فَلَوْ قَالَ الْقُرْطَبِيُّ الْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ لَيْسَ بِذَنْبٍ أَصْلًا كَانَ أَوْلَى لَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَعْذَارِ السَّخِيفَةِ وَ أَعْجَبُ مِنْ كَلَامِهِ هَذَا فِي السَّخَافَةِ قَوْلُهُ فِي آخِرِ الْبَحْثِ قَالَ، قُلْتُ وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَحَجَّ مُوسَى، أَيِ غُلِبَهُ بِالْحُجَّةِ وَ ذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرَادَ تَوْبِيخَ آدَمَ وَلَوْ مَه فِي إِخْرَاجِ نَفْسِهِ وَ ذَرْبَتِهِ مِنَ الْجَنَّةِ بِسَبَبِ أَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ فَقَالَ لَهُ آدَمُ أَفْتَلَوْا مِنِّي عَلَى أَمْرِ قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَخْلُقَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً تَابَ عَلَيَّ مِنْهُ وَ مِنْ تَابَ عَلَيْهِ فَلَا ذَنْبَ لَهُ وَ مِنْ لَا ذَنْبَ لَهُ لَا يَتَوَجَّهَ عَلَيْهِ لَوْمٌ، وَ كَذَلِكَ مِنْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ قِيَاسَهُ هَذِهِ الْقِصَّةُ أَيُّ قِصَّةِ فِرَارِ عَمْرِ وَ عَثَانَ وَ أَبُو بَكْرٍ وَ غَيْرِهِمْ فِي أَحَدٍ وَ ثُبُوتِ الذَّنْبِ لَهُمْ بِذَلِكَ بِقِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ خُرُوجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَ قَبُولِ تَوْبَتِهِ ذَنْبٌ لَا يَقَاسُ بِهِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مَا صَدَرَ مِنْهُ لَا أَكْلَهُ مِنَ الشَّجَرَةِ هُوَ تَرَكَ الْأَوَّلَى وَ لَمْ يَكُنْ حَرَاماً وَ لِذَلِكَ قَالُوا إِنَّ النَّهْيَ تَنْزِيهِي لَاتَحْرِيمِي لِعَصْمَةِ

الانبياء وهو ثابتٌ عقلاً وشرعاً وهذا بخلاف ما صدر من هؤلاء في احد من الفرار عن الزحف فهو من أشدّ الذنوب فكيف يقاس هذا بذاك مضافاً الى أنّ أصل القصة أي حاجة آدم وموسى من الإسرائيليات التي وضعها أبو هريرة وسمرة بن جندب وكعب الأحبار وأمثالهم من الكذابين الوضّاعين فلا يصح تفسير كلام الله بهذه الأخبار الموضوعة لمن آمن بالله واليوم الآخر ونحن نعلم أنّ القرطبي وأمثاله أراد بنقل هذه الأحاديث في تفسير الآيات تصحيح أعمال أئمتهم وخلفائهم وأن كان فيه تخطئة الأنبياء والأوصياء بل وتخطئة الله تعالى والى الله عاقبة الأمور.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ
 قَالُوا لَا خَافِئَهُمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا
 غُرًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ
 اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَ
 يُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ
 قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ
 رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ
 قُتِلْتُمْ لَأِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ
 اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ
 لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ
 وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى
 اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)

◀ اللغة

ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ: الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ السَّيْرُ فِيهَا.
 غُرًى: بضم الغين جمع غَارٍ نحو ضَرَبَ جَمْعُ ضَارِبٍ وَ طَلَبَ جَمْعُ طَالِبٍ.
 حَسْرَةً: الْحَسْرَةُ الدَّامَةُ.
 لِنْتَ: اللَّيِّنُ ضَدُّ الْغَلِظَةِ.

فَظًّا: الْفَظُّ الْغَيْظُ الْجَافِي الْقَاسِي الْقَلْبَ وَقَالَ الرَّاعِبُ، الْفَظُّ الْكَرِيهُ الْخَلْقُ
 مُسْتَعَارٌ مِنَ الْفَظِّ أَي مَاءِ الْكَرْشِ وَ ذَلِكَ مَكْرُوهٌ شَرِبَهُ لَا يَتَنَاوَلُ إِلَّا فِي أَشَدِّ ضَرُورَةٍ.
 لَانْفَضُّوا: الْإِنْفِضَاضُ التَّفَرُّقُ مِنَ الْفَضِّ بِمَعْنَى التَّفَرِيقِ.
 شَاوِرْهُمْ: أَمْرٌ مِنَ الْمَشُورَةِ يُقَالُ شَاوَرْتُ الرَّجُلَ مُشَاوَرَةً وَ شَاوَرًا وَالْإِسْمُ
 الْمَشُورَةُ.

فَتَوَكَّلْ: التَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ تَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَيْهِ وَأَصْلُهُ الْإِتِّكَالُ وَهُوَ الْإِكْتِفَاءُ فِي فِعْلٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِمَّنْ يَسْتَنْدُ إِلَيْهِ وَمِنْهُ الْوَكَالَةُ.

◀ الإِعْرَابُ

إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ، إِذَا، هُنَا تَحْكِي بِهَا حَالَهُمْ فَلَا يَرَادُ بِهَا الْمُسْتَقْبَلُ وَ عَلَيْهِ فَالْعَامِلُ فِيهَا، قَالُوا، وَ هُوَ لِلْمَاضِي وَ يَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِهَا الْمُسْتَقْبَلُ الْمَحْكِي بِهِ الْحَالُ وَ عَلَيْهِ فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ يَكْفُرُونَ وَ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ لِيَجْعَلَ اللَّهُ اللَّامَ تَتَعَلَّقُ بِمَحذُوفٍ أَيْ نَدَمُهُمْ، أَوْ أَوْقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَلِكَ لِيَجْعَلَهُ حَسْرَةً وَ جَعَلَ هُنَا بِمَعْنَى، صَيَّرَ وَ قِيلَ اللَّامُ هُنَا لَامُ الْعَاقِبَةِ أَيْ صَارَ أَمْرُهُمْ إِلَى ذَلِكَ مُتِمُّ الْجُمْهُورِ عَلَى ضَمِّ الْمِيمِ وَ هُوَ الْأَصْلُ لِأَنَّ الْفِعْلَ مِنْهُ يَمُوتُ، وَ يَقْرَأُ بِالْكَسْرِ وَ هُوَ لُغَةٌ يَقَالُ مَاتَ يَمُوتُ مِثْلُ خَافَ يَخَافُ فَكَمَا تَقُولُ، خَفْتُ تَقُولُ مِتُّ لِمَغْفِرَةٍ مُبْتَدَأُ مِنْ آلِهِ صِفَةً وَ رَحْمَةً مُعْطُوفٌ عَلَيْهِ وَالتَّقْدِيرُ وَ رَحْمَةً لَهُمْ وَ خَيْرُ الْخَبَرِ مِمَّا بِمَعْنَى الَّذِي أَوْ نَكْرَةٌ مُوصُوفَةٌ وَالْعَائِدُ مَحذُوفٌ وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُصَدِّرَةٌ وَ يَكُونُ الْمَفْعُولُ مَحذُوفًا أَيْ مِنْ جَمْعِهِمُ الْمَالُ لِأَنَّ اللَّهَ اللَّامُ جَوَابُ قَسَمٍ مَحذُوفٍ فِيمَا رَحْمَةً مَا زَائِدَةٌ وَ قَالَ الْأَخْفَشُ نَكْرَةٌ بِمَعْنَى شَيْءٍ وَ رَحْمَةٌ بَدَلٌ مِنْهُ وَ الْبَاءُ تَتَعَلَّقُ، بَلَنْتُ وَ شَاوَرْتُهُمْ فِي الْأَمْرِ الْأَمْرُ هُنَا جِنْسٌ وَ هُوَ عَامٌّ يَرَادُ بِهِ الْخَاصُّ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُؤْمَرْ بِمَشَاوَرَتِهِمْ فِي الْفَرَائِضِ وَ الْأَحْكَامِ وَ لِذَلِكَ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فِي بَعْضِ الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ الْجُمْهُورُ عَلَيَّ فَتَحَ الزَّيَّ أَيْ إِذَا تَخَيَّرْتَ أَمْرًا بِالْمَشَاوَرَةِ وَ عَزَمْتَ عَلَيَّ فَعَلَهُ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ يَقْرَأُ بِضَمِّ النَّاءِ أَيْ إِذَا أَمَرْتُكَ بِفِعْلٍ شَيْءٍ فَتَوَكَّلْ عَلَيَّ فَوْضِعَ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمَضْمَرِ.

◀ التفسير

خَاطَبَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ أَيْ لَا تَكُونُوا مِثْلَ الْكَفَّارِ الْمُنْكَرِينَ

لِلْإِيمَانِ الَّذِينَ وَ قَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ مِنَ الْكَفَّارِ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ بِالسَّيْرِ فِيهَا أَوْ كَانُوا غَزَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا بَلْ كَانُوا أَحْيَاءَ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ أَي لِيَجْعَلَ ظَنَّهُمْ أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَخْرُجُوا مَا قَتَلُوا، حَسْرَةً وَ نَدَامَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ مَنْ يَخْرُجُ إِلَى الْقِتَالِ وَ يُمِيتُ مَنْ أَقَامَ فِي أَهْلِهِ وَ حَاصِلُ مَا أَفَادَتِهِ الْآيَةُ هُوَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَيَاةَ وَ الْمَوْتَ بِيَدِ اللَّهِ بِخِلَافِ الْكَافِرِ فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقُولَ بِمَقَالَةِ الْكَافِرِ فِي بَابِ الْمَوْتِ فَإِنَّ الْكَفَّارَ كَانُوا يَقُولُونَ لِأَخْوَانِهِمْ مَنْ أَهْلُ الْكُفْرِ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ فَخَرَجُوا مِنْ بِلَادِهِمْ سَفَرًا فِي تِجَارَةٍ أَوْ كَانُوا غَزَى إِي كَانَ خُرُوجُهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ غَزَاً فَهَلَّلُوا وَ مَاتُوا فِي سَفَرٍ هُمْ أَوْ قَتَلُوا فِي غَزْوِهِمْ وَ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَ مَاقَتَلُوا وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ كَمَا قَالَ:

قال الله تعالى: قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْفَرَأْسُ إِنْ فَرَزْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ^(١).

قال الله تعالى: فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ^(٢).

قال الله تعالى: إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(٣).

قال الله تعالى: وَ لَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(٤).

وَ لَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ.

لَمَّا أَشَارَ اللَّهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ الْحَيَاةَ وَ الْمَوْتَ بِيَدِهِ وَ لَا سَبِيلَ لِلخَلْقِ إِلَيْهِ أَفَادَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْمَوْتَ أَوْ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَي فِي طَرِيقِ مَرْضَاتِهِ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً مِنْهُ وَ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ مِنْ حَطَامِ الدُّنْيَا وَ رَغِيدِ عَيْشِهَا الَّذِي

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

من أجله يتشاقلون عن الجهاد في سبيل الله ويتأخرون عن لقاء العدو وأما قال الله عز وجل لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون، وابتدأ الكلام ولأن متم أو قتلتم بحذف جزاء لأن، لأن في قوله: لَمَغْفِرَةٌ معنى الجزاء وذلك أنه وعد خرج مخرج الخبر فتأويل الكلام وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَيَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَيَرْحَمَنَّكُمْ فدل على ذلك بقوله: لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ قال بعض المحققين في هذا المقام أعلم أن هذا الموت لا بد واقع ولا محيص للإنسان من أن يُقتل أو يموت فاذا وقع هذا الموت أو القتل في سبيل الله وفي طلب رضوانه فهو خير من أن يجعل ذلك في طلب الدنيا ولذاتها التي لا ينتفع الإنسان بها بعد الموت البتة وذلك لأن الإنسان اذا توجه الى الجهاد أعرض قلبه عن الدنيا وأقبل على الآخرة فاذا مات فكأنه تخلص عن العدو ووصل الى المحبوب وإذا جلس في بيته خائفاً من الموت حريصاً على جمع الدنيا فاذا مات في هذه الحالة فكأنه حجب عن المعشوق وألقي في دار الغربة ولا شك في كمال سعادة الأول وكمال شقاوة الثاني انتهى كلامه.

وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ.

لما قال تعالى في الآية السابقة وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ أفاد في هذه الآية أن الموت أو القتل في سبيل الله يؤجب الحشر اليه تعالى وهو من أعظم البركات وأرفع الغايات قال بعض المفسرين، وإعلم أنه سبحانه وتعالى رغب المجاهدين في الآية الأولى بالحشر الى مغفرة الله وفي هذه الآية زاد في إعلاء الدرجات فرغبهم بالحشر الى الله يروي أن عيسى بن مريم عليه السلام مرَّ بأقوام نحفت أبدانهم وإصفرَّت وجوههم ورأى عليهم آثار العبادَةِ فقال لهم ماذا تطلبون قالوا نخشى عذاب الله فقال هو أكرم من أن لا يخلصكم من عذابه ثم مرَّ بأقوام آخرين فرأى عليهم تلك الآثار فسألهم فقالوا

نطلب الجنة والرحمة فقال هو أكرم من أن يمنعكم رحمته ثم مرّ بقوم ثالث و رأى آثار العبودية عليهم أكثر فسألهم فقالوا نعبده لأنه إلهنا ونحن عبده لا لرغبة ولا لرهبة فقال أنتم العبيد المخلصون فأنظر في هذه الآيات و ترتيبها فأنه قال في الآية الأولى، لمغفرة من الله و هو إشارة الى من يعبده خوفاً من عقابه ثم قال ورحمة و هو إشارة الى من يعبده بطلب ثوابه ثم قال في خاتمة الآية **لِإِلَهِ آلِهِ تُخْشَرُونَ** و هو إشارة الى من يعبد الله لمجرد الربوبية و العبودية و هذا أعلى المقامات و بعد النهايات في العبودية ألا ترى أنه تعالى لما شرف الملائكة قال: **وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ** و قال: للمؤمنين من أهل الثواب، عند مليك مقتدر فيبين أن هؤلاء بذلوا أنفسهم و أبدانهم في طاعته و مجاهدة عدوه يكون حشرهم اليه و إستئناسهم بكرمه و تمتعهم بشرروق نور ربوبيته و هذا مقام فيه إطناب و المستبصر يرشده القدر الذي أوردناه انتهى كلامه.

إذا عرفت هذا فنقول في الأيتين نكات خفية و مسائل مهمة لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً:

الأولى: أنه تعالى قيد القتل و الموت بقوله في سبيل الله فقال: **وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ** أي متم كذلك و المراد منه أن يكون الموت أو القتل في طاعته فإذا كان كذلك فله المغفرة و الرحمة من الله تعالى جمع بين المغفرة و الرحمة ثم قدّم المغفرة على الرحمة لنكتته و هي أن المغفرة و الغفران من الله تعالى هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب و قد يقال غفر له إذا تجافى عنه في الظاهر و أن لم يتجاف عنه في الباطن نحو قوله تعالى: **قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ** (١).

و الإستغفار طلب ذلك بالمقال و الفعال و أما الرحمة فهي رقة تقتضي الإحسان الى المرحوم و قد تستعمل في الرقة المجردة كما تستعمل في

الإحسان المجرد عنها وإذا وُصف البارئ بها فالمراد الإحسان المجرد دون الرقة وعلى هذا رُوي أنَّ الرِّحمة من الله إنعام وإفضال ومن الأدميين رقة وتعطف إلى ما تقدّم من أنَّ الرِّحمة منطقية على معنيين الرقة، والإحسان، فركز الله تعالى في طبائع النَّاس الرِّقة وتفرّد بالإحسان فصار كما أنَّ لفظ الرَّحْم من الرِّحمة فمعناه الموجود في النَّاس من المعنى الموجود لله تعالى فتناسب معناه تناسباً لفظيَّهما وحيث أنَّها في الله تعالى بمعنى الإحسان المجرد وقد ثبت أنَّه تعالى محسنٌ إلى كلِّ الموجودات فلا محالة هي عامّة في الدُّنيا للمؤمنين والكافرين وفي الآخرة مختصّة بالمؤمنين فقط فقلوه تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ^(١) معناه وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ فِي الْآخِرَةِ أَيْضاً كَمَا قِيلَ:

وَأَخِرُ فَازَ بِكِلْتَمَا

وقوله تعالى: لمغفرةً ورحمةً إشارة إلى دفع العذاب عنهم أولاً وإدخالهم في بحر رحمته في الآخرة وحيث أنَّ الدَّخول في رَحمة الله متفرِّعٌ على دفع العذاب عنه إذ لو كان مُعَذَّباً بعذاب الله لا يكون مرحوماً، قدّم المغفرة على الرِّحمة.

الثانية: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ أَيَّ أَنَّ الْمَوْتَ أَوِ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَيْثُ يَنْتَهِي إِلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَهُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْإِنْهَمَاكِ فِي الشَّهَوَاتِ وَكَسْبِ الْجَاهِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِذِهِ الدُّنْيَا الدُّنْيَا الَّتِي لَا بَقَاءَ لَهَا.

أَمَّا أَوَّلًا: فَلَأَنَّ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَالْوَصُولِ إِلَيْهَا تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ وَلَا يَدْرِي الطَّالِبُ أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِهَا أَمْ لَا لِإِحْتِمَالِ الْمَوْتِ وَالْمَرَضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَأَمَّا طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَأَنْ كَانَ فِيهِ أَيْضاً تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ إِلَّا أَنَّ الطَّالِبَ يَعْلَمُ قِطْعاً بِالْإِنْتِفَاعِ بِهِمَا بَعْدَ الْوَصُولِ إِلَيْهِمَا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَخْلِفُ وَعْدَهُ كَيْفَ وَقَدْ قَالَ.

قال الله تعالى: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ^(١)**.

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ^(٢)**.

قال الله تعالى: **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا**.

ثانياً: أَنَّ الدُّنْيَا وزخارفها فانية دائرة لا بقاء لها وغفران الله ورحمته باقية لا زوال لها.

قال الله تعالى: **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ^(٣)**.

قال الله تعالى: **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ^(٤)** ومن المعلوم أَنَّ الباقي خير من الفاني.

ثالثاً: أَنَّ نعم الدُّنْيَا مادية ونعم الآخرة معنوية وأن شئت قلت المال وما ضاهاه من زخارف الدُّنْيَا أنما ينتفع بها الجسم والبدن والغفران والرحمة وأمثالهما ينتفع بها الرُّوح وحيث أَنَّ الرُّوح أَفْضَلُ وَأَشْرَفُ مِنَ الْبَدَنِ فما ينتفع به الروح افضل مما ينتفع به البدن.

رابعها: أَنَّ الدُّنْيَا وما فيها مشوبة بالألام مخلوطة بالمصّار قال عليّ عليه السلام: **الدُّنْيَا دار بالبلاء مَحْفُوفَةٌ وبالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ وما فيها فليست كذلك.**

خامسها: أَنَّ فِي الْمَوْتِ أو القتل في سبيل الله الحشر الى الله لقوله: **وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أُوْكُمْ أَوْ قَتَلْتُمْ لِأَلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ** ولزم ذلك أَنَّ الموت أو القتل في سبيل الله الحشر معها لقوله **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: **مَنْ أَحَبَّ حَجْرًا حَشَرَهُ اللَّهُ مَعَهُ.**

سادسها: أَنَّ الْمَوْتَ في سبيل الله دليل على أَنَّ المطلوب هو الله و الموت في سبيل الوصول الى الدُّنْيَا وجمع المال فيها دليل على أَنَّ المطلوب هو المال والفرق واضح.

الثالثة: لم ذكر الله تعالى القتل و الموت معاً فقال: وَلَيْسَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَأَنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ، أليس في ذكر أحدهما كفاية عن الآخر نقول في الجواب أصل القتل إزالة الروح عن الجسد و الموت كذلك فلا فرق بينهما من حيث المعنى و أما الفرق بالإعتبار فإذا أُعتبر بفعل المتوَلَّى لذلك يقال قتل و إذا أُعتبر بفوت الحياة يقال موت ثم أن كان المتوَلَّى للموت من الكفار في معركة القتال يقال أن القتل في سبيل الله المعبر عنه بالشَّهيد في لسان الشريعة و أن كان القتل بداعٍ آخر من الدَّواعي فهو و أن كان مقتولاً إلا أنه ليس من القتل في سبيل الله إذا علمت ذلك فقوله تعالى لمغفرة و رحمة، و قوله: لَأِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ليس ممَّا يتفرَّع على القتل في سبيل الله فحسب بل الآثار المذكورة متفرَّعة على إزالة الروح عن الجسد سواء كانت بصورة القتل أم بصورة الموت و بعبارةٍ أخرى سواء كانت بفعل المتوَلَّى أم بفوت الحياة و لأجل هذه الدِّقَّة ذكر الموت بعد القتل في سبيل الله فهو في الحقيقة من قبيل ذكر العام بعد الخاص فكأنه قال تعالى المغفرة و الرحمة من الله تعالى ثابتان لمن أزيل روحه عن جسده في سبيل الله طلباً لمرضاته سواء كانت الإزالة بصورة القتل أو الموت و فائدة هذا التعميم إلقاء الخصوصيات و التوجُّه الى الأصل و عليه فلو مات الإنسان في سبيل طاعة الله و مرضاته حتف أنفه من غير قتل فله مغفرة و الرحمة لوجود الملاك فيه و هو كونه في سبيل الله كن مات في طلب الغلم أو سفر الحج و الزيار و امثالها ممَّا يطلب فيه رضى الله و طاعته و هذا هو الفائدة في ذكر الموت بعد القتل في الآية و لعمري أنه احسن الفوائد.

الرابعة: لم قدَّم القتل على الموت في الآية الأولى و بالعكس في الثانية فقال في الاولى لأن قتلتم في سبيل الله أَوْ مِتُّمْ، و قال في الثانية ولأن مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَأِلَى اللَّهِ تَحْشَرُونَ، قال بعض المفسرين من المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، و قد قدَّم القتل هاهنا على الموت لأنَّ القتل في سبيل الله أقرب من المغفرة بالنسبة الى الموت فهذه النكتة هي الموجبة لتقديم القتل على

الموت ولذلك عاد في الآية التالية، وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ الى الترتيب الطبيعي بتقديم الموت على القتل بفقده هذه النكتة الزائدة انتهى كلامه رفع مقامه ولقائل أن يقول أن كان القتل في سبيل الله أقرب الى المغفرة بالنسبة الى الموت فليكن في جميع الموارد كذلك وبعبارة أخرى أن كان سبب تقديم القتل على الموت هو ما ذكره تَعَالَى فهذا الملاك بعينه موجود في الآية التالية وفي جميع الموارد فينبغي أن يقدم القتل على الموت فيها وفي غيرها أيضاً هذا أولاً.

ثانياً: أن الموت المعطوف على القتل في سبيل الله في الآية ليس مطلق الموت كيف إتفق بل المراد الموت الذي وَقَعَ في سبيل الله كما اذا مات المجاهد في معركة القتال حتف أنفه وأما قلنا ذلك قضاءً لحكم العطف و عليه فكون القتل أقرب الى المغفرة من هذا الموت يحتاج الى دليل نعم القتل يكون أقرب الى المغفرة من مطلق الموت وأما الموت بهذه الخصوصية فلا و هذا الملاك بعينه موجود في الآية التالية وغيرها، والذي يختلج بالبال في حل الإشكال والله أعلم بحقيقة الحال هو أنه لما قَدَّمَ القتل على الموت في الآية السابقة قَدَّمَ الموت على القتل في الآية التالية حذراً من تكرار الترتيب في اللفظ كما هو مقتضى فنَّ البلاغة، قال الرازي في تفسيره و تَمَسَّكَ القاضي بهذه الآية على أن المقتول ليس بمَيِّتٍ قال لأنَّ قوله: وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ يقتضي عطف المقتول على المَيِّتِ و عطف الشَّيْءِ على نفسه ممتنع انتهى.

أقول مل ذكره ليس بشي فأنَّ التَّغَايِرَ بينهما بحسب الكيفية وأما في الأصل فلا و هو يكفي في صحَّة العطف فلا يكون من عطف الشَّيْءِ على نفسه من جميع الجهات و قد مرَّ البحث فيه هذا تمام الكلام في هذا المقام و عليه التوكُّل وبه الإعتصام.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ** قيل لما إنهمزوا عن النبي يوم أحد ثم عادوا بعد ثلاثة أيام أو أقل أو أكثر لم يخاطبهم الرسول بالتغليظ والتشديد وأما مخاطبهم بالكلام اللين ولذلك مدح الله رسوله على عفوه عنهم وتركه التغليظ عليهم فقال فيما رحمة من الله لنت لهم، إختلفوا في كلمة، ما، في قوله: **فَبِمَا** على قولين:

أحدهما: أنها زائدة وعليه أكثر المفسرين جي بها للتأكيد، قالوا وزيادتها بين الباء وعن ومن، والكاف، وبين مجروراتها شيء معروف في اللسان مقرر في علم العربية.

ثانيهما: أنها نكرة تامة ورحمة، بدل منها كأنه قيل فبشيء أبهم، ثم أبدل على سبيل التوضيح فقال رحمة وكان قائل هذا يقر من الإطلاق عليها أنها زائدة.

قال الرازي قال المحققون دخول اللفظ المهمل في كلام الله غير جائز وهنا يجوز أن تكون، ما، إستفهاماً للتعجب تقديره فبأي رحمة من الله لنت لهم، وذلك بأن جنایاتهم لما كانت عظيمة ثم أنه ما ظهر منه ﷺ البتة تغليظاً في القول ولا خشونة في الكلام علموا أن هذا لا يتأتى إلا بتأييد رباني قبل ذلك انتهى ثم أن متعلق الرحمة المؤمنون، أو الرسول ﷺ.

فعلى الأول: معنى الكلام فبرحمة من الله عليهم لنت لهم فتكون الرحمة أمتن بها عليهم.

على الثاني: معنى الكلام برحمة الله إياك جعلك لين الجانب موطأ الأكناف فرحمتهم ولنت لهم ولم تواخذهم بالعصيان والفرار وأفرادك للأعداء فيكون ذلك إمتناناً على الرسول ﷺ، أما قوله: **لِنْتَ لَهُمْ**، اللين ضد الخشونة ويستعمل ذلك في الأجسام ثم يستعار للخلق وغيره من المعاني فيقال فلان لين وفلان خشن وكل واحد منهما يمدح به طوعاً ويذم بها طوعاً بحسب إختلاف المواقع قاله الراغب في المفردات وكيف كان لا شك أن

الآية في مدح النَّبِيِّ ﷺ وفيها إشارة الى أنَّ هذه السَّجِيَّة الكريمة في الطاف الله فأنه تعالى اذا اراد بعبد خيراً تهيتاً اسبابه وحيث ان النَّبِيَّ ﷺ مخاطب لقوله لو لآك لما خلقت الافلاك فلا محالة يكون أشرف الخلائق وأفضلهم وأحبهم الى الله تعالى ولازم ذلك أن يكون مظهراً كاملاً لصفاته من العلم والقدرة والإرادة وغيرها وقد ثبت أنَّ التَّخَلُّقَ بأخلاق الله هو الغاية والمقصد الأسنى في العبودية لقوله: ﷺ تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ، فهو ﷺ كان مظهراً كاملاً لأخلاقه وجميع صفاته ولذلك صار مخاطباً بقوله تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ^(١).

المسألة الثانية: وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا أَلْقَبُ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ قال الراغب في المفردات الفظ الكريه الخلق والمعنى لو كنت كريه الخلق لتفرقوا وتشتتوا من حولك وفيه إشارة الى أنَّ الخلق السيئ الكريه يوجب تفرق الناس وتشتتهم وهو يدل مفهوماً على أنَّ الخلق الحسن يوجب جمع الناس وجذبهم، وقيل أنَّ الخلق والخلق في الأصل واحد كالشرب والشرب والصَّرم والصُّرم لكن خصَّ الخلق بالهيئات والأشكال والصُّور المدركة بالبصر وخصَّ الخلق بالقوى والسَّجاياء المدركة بالبصيرة قال بعض المحققين من علماء الأخلاق الغليظة والفظاظة من نتائج الغضب وضده الرِّفق أي اللين فيهما وهو من نتائج الحلم ولا ريب في أنَّ الغلظة في القول والفعل ينفر الطَّبَاع ويؤدي الى إختلاف أمر المعاش والمعاد ولذلك نهى الله سبحانه نبيه عنه في مقام الإرشاد قال: وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا أَلْقَبُ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ وروي عن سلمان أنه قال اذا أراد الله تعالى هلاك عبد نزع منه الحياء فاذا نزع منه الحياء لم يلقه إلا خائناً مخوناً واذا كان خائناً مخوناً نزعته من الأمانة فاذا نزعته من الأمانة لم يلقه إلا فظًّا غليظاً فاذا كان فظًّا غليظاً نزعته من ربة الإيمان فاذا نزعته من ربة الإيمان لم يلقه إلا شيطاناً ملعوناً، ويظهر من هذا الكلام أنَّ من

كان من أهل الغلظة والفظاظة فهو الشيطان حقيقةً فيجب على كل عاقل أن يجتنب عن ذلك كل الإجتنب و ضد الغلظة الرفق واللين ولذلك.

قال رسول الله ﷺ: لو كان الرفق خلقاً يرى ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه.

وقال ﷺ: أن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه وقال ﷺ: لكل شيء قفل وقفل الإيمان الرفق.

وقال ﷺ: أن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف.

وقال ﷺ: ما إصطحب أثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله تعالى أرفقهما بصاحبه.

وقال ﷺ: الرفق يمن والخرق شؤم.

وقال ﷺ: إذا أحبب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق.

وقال ﷺ: من أعطي حظاً من الرفق أعطي حظاً من خير الدنيا والأخرة ومن حرم حظاً من الرفق حرم حظاً من الدنيا والأخرة.

وقال ﷺ: إذا أحبب الله عبداً أعطاه الرفق ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله.

وقال ﷺ: أتدرون من يحرم على النار كل هتين ليتين سهل قريب.

والأخبار كثيرة وفيما ذكرناه كفاية لالي الدراية^(١).

أقول حيث ذكرنا بعض الأخبار الواردة في ذم الغلظة ومدح اللين فقد عرفت الوجه في ذم الغلظة ومدح اللين وقد ثبت بالتجربة أن إمضاء الأمور وإنجاح المقاصد موقوف على الرفق واللين مع الخلائق فكل ملك كان رفيقاً بجنده ورعيته انتظم أمره ودام ملكه وأن كان فظاً غليظ اختل أمره وانفض

النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ وَزَالَ مَلِكُهُ وَسُلْطَانُهُ فِي أَسْرَعِ زَمَانٍ وَقَسَّ عَلَيْهِ غَيْرُهُ مِنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ وَلَا سَيِّمًا الْعُلَمَاءُ فَأَنْتَهُمْ لِمَكَانٍ وَرِاثَتَهُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ مِنْ جِهَةِ الْعِلْمِ وَالْإِشْرَادِ لَا بَدَّ لَهُمْ مِنَ الْإِتِّصَافِ بِحَسَنِ الْخَلْقِ وَاللَّيْنِ وَالرَّفَقِ وَالتَّجَنُّبِ مِنَ الْغِلْظَةِ وَالْفِظَاطَةِ مَعَ النَّاسِ لِئَلَّا يَنْفُضُوا مِنْ حَوْلِهِمْ وَأَنْمَا قَلْنَا أَنَّهُمْ أَوْلَىٰ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِهِمْ لِأَنَّ مِيلَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ مِثْلُهُمْ إِلَى الدِّينِ كَمَا أَنَّ تَجَنُّبَهُمْ عَنْهُمْ وَتَفَرُّقُهُمْ مِنْ حَوْلِ الْعُلَمَاءِ أَيْضًا يَرْجِعُ إِلَى التَّجَنُّبِ عَنِ الدِّينِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **أُذْعِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**^(١).

المسألة الثالثة: قوله تعالى: **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ الْفَاءَ لِلتَّفْرِيعِ** لأن هذه الأمور متفرعة على اللين والرفق، أمر نبيه بأمر ثلاثه:

العفو، والإستغفار للناس، والمشورة، فالأبحاث ثلاثة:

البحث الأول: في العفو قال الراغب العفو هو التَّجَافِي عن الذَّنْبِ.

قال الله تعالى: **وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**^(٢)

قال الله تعالى: **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**^(٣)

قال الله تعالى: **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْبَقِيَّةُ**^(٤).

والآيات والاعبار في مدحه كثيرة ثم إن العفو على ما عرفوه في كتب الاخلاق هو اسقاط مالية حقّه من قصاص او غرامة قال رسول الله ﷺ ثلاث والذي نفسي بيده ان كنت مالفاً لحلفت عليهن مانقت صدقة من مال فتصدقوا ولا عفاً رجل من مظلمة يتبغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر انتهى.

و قال ﷺ: العفو لا يزيد العبد إلا عزّاً فأعفوا يعزّكم الله انتهي.
 و قال ﷺ: ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والأخرة، تصل من قطعك وتُعطي من حرّمك وتَعْفُو عَمَّن ظَلَمَكَ.
 و قال الباقر (عليه السلام): الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة.

ولقد جاء ابن الزبيري حيث قال:

فالأُن أخضع للنبي محمّد	بيد مطاوعة وقلب تائب
ومحمّد أوفى البرية ذمّة	وأعزّ مطلوب وأظفر طالب
هادي العباد إلى الرّشاد وقائّد	للمؤمنين بضوء نور ثاقب
أنّي رأيتك يا محمّد عصمة	للعالمين من العذاب الواصب

و يدلّك على كونه ﷺ مظهراً لعفو الرّحمن ما صدر عنه ﷺ بعد فتح مكّة و عفوّه عن المشركين الظّالمين بقوله أذهبوا أنتم الطّلّقاء، ولعمري هو يكفي لإثبات المدعى مضافاً إلى كثرة الموارد التي ضبطها متون التّواريخ فمن أراد الإطلاع عليها فعليه بالمراجعة إليها.

البحث الثّاني: قوله: وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ الإسْتِغْفَار طلب المغفرة من الله تعالى.

قال الله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً^(١).

إعلم أنّ الله تعالى أمر رسوله بالإستغفار لهم لأنّه ﷺ كان مُظهرًا لرحمة الله تعالى وأقرب الخلق إليه ولذلك دعاه كان مستجاباً وقد ثبت في علم الكلام أنّ أصل البعثة على أساس اللطف منه تعالى بالنسبة إلى عباده، قال المفيد (رحمه الله) لما أحسّ رسول الله ﷺ بالمرض أخذ بيد عليّ وتبعه جماعة و

توجّه الى البقيع فقال أني قد أمرت بالإستغفار لأهل البقيع فإنطلقوا معه حتّى وقف بين أظهرهم وقال السّلام عليكم أهل القبور ليهنّكم ما أصبحتم فيه ممّا فيه النّاس أقبلت الفتن كقطع اللّيل المظلم يتبع أولها آخرها ثمّ إستغفر لأهل البقيع طويلاً الحديث.

البحث الثالث: قوله: **وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** أمر الله تعالى نبيّه بالمشورة بعد العفو والإستغفار، قال الرّاعب والتّشاور والمشاورة والمشورة إستخراج الرّأي بمراجعة البعض الى البعض من قولهم شرّ العسل اذا إتّخذته من موضعه وإستخرجته منه انتهى.

ثمّ أنّ الظّاهر من قوله: **وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** أي أمر الحرب وبه قال الكلبي وكثير من العلماء وإستدلّوا عليه بأنّ الألف واللام في لفظ الأمر للإستغراق لما بيّن أنّ الذي نزل فيه الوحي لا تجوز المشاورة فيه فوجب حمل الألف واللام هاهنا على المعهود السّابق وهو في هذه الآية يتعلّق بالحرب ولقاء العدو فكان قوله: **وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** مختصاً بذلك ثمّ ذكروا له نظائر منها ما أشار الحباب بن منذر يوم بدر على النّبي ﷺ بالنّزول على الماء فقبل منه. ومنها ما أشار عليه السّعدان سعد بن معاذ وسعد بن عباد يوم الخندق بترك مصالحة غطفان على بعض ثمار المدينة لينصرفوا فقبل منهما وخرق الصّحيفة.

ومنها من قال اللفظ عامّ خصّ عنه ما نزل فيه وحي فتبقي حجّته في الباقي الفخر الرّازي بعد نقله ما نقلناه والتّحقيق في القول أنّه تعالى أمر أولي الأبصار بالإعتبار فقال: **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ** وكان ﷺ سيّد أولي الأبصار ومدح المستنبطين فقال لعلمه الذين يستنبطونه منهم، وكان أكثر النّاس عقلاً وذكاءً وهذا يدلّ على أنّه ﷺ كان مأموراً بالإجتهد اذا لم ينزل عليه الوحي والإجتهد يتقوى بالمناظرة والمباحثة فلهذا كان مأموراً بالمشاورة

قد شاورهم يوم بدر في الأسارى وكان من أمور الدين والدليل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس أن النص كان لعامة الملائكة في سجود آدم ثم أن إبليس خص نفسه بالقياس وهو قوله: **خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ^(١) فثار ملعوناً فلو كان تخصيص النص بالقياس جائزاً لما استحق اللعن بهذا السبب ثم قال الرّازي ظاهر الأمر للوجوب فقوله: **وَشَاوَرَهُمْ** يقتضي الوجوب وحمل الشافعي ذلك على التدب انتهى.

أقول ما ذكره الكلبي ومن وافقه من العلماء لا بأس به وهو الظاهر من الآية وأما ما ذكره الرّازي فلا يرجع إلى محصل ذلك لأنه جعل النبي ﷺ أحد المجتهدين للأحكام الشرعية ثم قوى إجهاده بالمناظرة والمباحثة فكان مأموراً بالمشاورة مع غيره ليكون في اجتهاده أقل خطأ كما هو كذلك في حق غيره من العلماء وهو الاطل مخالف لنص الكتاب:

قال الله تعالى: **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ^(٢).

دلت الآية على أن النبي لا ينطق عن الهوى بل كل ما يقول فهو مستند إلى الوحي فهذا حكم عام في جميع الأمور والتخصيص يحتاج إلى الدليل وإذا ليس فليس، وأيضاً:

قال الله تعالى: **وَمَا آتَيْكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ^(٣).

دلت الآية على وجوب الأخذ بقوله ﷺ كأننا ما كان فلو لم يكن كلامه مستنداً إلى الوحي لزم الإغراء بالجهل كما ترى، إذ لا يبعد أن يكون كلامه من إجهاده على قول الخصم والمجتهد قد يصيب وقد يخطي فيلزم وجوب الأخذ ولو في صورة الخطأ وهذا هو المراد بالإغراء فيما مرّ وأيضاً:

قال الله تعالى: **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ** ^(٤).

و تقريب الإستدلال بها واضح لأن الإطاعة بقول مطلق لا يعقل إلا ممّن عصمه الله من الخطأ و المجتهد لا يكون معصوماً عن الخطأ و الآيات كثيرة و يعضدها العقل السليم وذلك لأن النبي أمين الله في أرضه و الناس مأمورون بمتابعته بقول مطلق فلا بدّ من أن يكون معصوماً عن الذنب و الخطأ و النسيان و غير ذلك لأن المفروض أن إطاعته إطاعة الله و معصيته معصية الله و الرد عليه الرد على الله و هكذا فلو فرضنا أنّه كان يستنبط بعض الأمور بإجتهاده و مشاورته للغير فالمستنبط كلام نفسه لا كلام الله فلو كان في إجتهد مخطئاً و قلنا بوجوب الإطاعة يلزم منه إضلال الناس لا إرشادهم الى الحق هف و أمّا قوله لا يجوز تخصيص النص بالقياس فهو حقّ لأنّ القياس من الشيطان لا من الإنسان و أوّل من قاس بعده فقد تابعه و هذا هو الوجه في عدم جواز تخصيص النص بالقياس لا ما ذكره من أنّ النص في سجود آدم كان لعامة الملائكة ثم أنّ إبليس خصّ نفسه بالقياس و ذلك لأنّ كون إبليس من الملائكة أم من الجنّ فيه خلاف و قد مرّ تحقيقه سابقاً هذا، ولفائل أن يقول لو صار إبليس ملعوناً بسبب القياس كما إعترفت به فلم تقول به، و أمّا ما ذكره من أنّ الأمر للوجوب أو التدب فسيأتي الكلام فيه.

نقل الرّازي في آخر البحث قصّة عجيبة قال روي الواحدي في الوسيط عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنّه قال، الذي أمر النبي بمشاورته في هذه الآية أبو بكر و عمر ثمّ قال و عندي فيه إشكال لأنّ الذين أمر الله رسوله بمشاورتهم في هذه الآية هم الذين أمره بأن يعفو عنهم و يستغفر لهم وهم المنهزمون فأوّلاً عمر كان من المنهزمين فدخل تحت الآية إلا أنّ أبا بكر ما كان منهم فكيف يدخل تحت هذه الآية والله أعلم انتهى.

أقول العجب من الرّازي مع أنّه كان يعدّ نفسه من العقلاء كيف إستشكل و لم يقل لو كان الأمر كما ذكره الناقل فحقّ الآية كان، أن يقال و شاورهما في الأمر.

ثانياً: من أين ثَبَّتَ له فرار عُمر دون أبي بكر.

ثالثاً: نسي عثمان في الحديث مع أنه كان من المنهزمين.

رابعاً: يلزم حذف أبي بكر وهو رأسهم ورئيسهم عن هذه المنقبة ولا أدري كيف رضي الرّازي بذلك، إلا أن نقول ومن يُضلل الله فما له من هادٍ ومن قال بهذه المقالة أعني جواز الاجتهاد للنبي في الأمور، القرطبي في تفسيره حيث قال: **وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ** يدل على جواز الاجتهاد في الأمور والأخذ بالظنون مع إمكان الوحي فإن الله أذن لرسوله ﷺ في ذلك انتهى كلامه.

أقول زاد القرطبي في الطنبور نعمة أخرى وهي الأخذ بالظن مع إمكان الوحي وهو أعجب من مقالة الرّازي فما هو ظاهرٌ على الناظر في المقالتين والجواب الجواب اذا عرفت هذا فنقول، الحق أن يقال أن الله تعالى أمر نبيه بالمشاورة في غير ما يرتبط بالدين وذلك لأن الدين مما شرعه الله ولا سبيل للمخلوق كائناً من كان في جعل أحكامه وهو أمرٌ قد فرغنا من البحث فيه فلا يجوز جعل حكم من الأحكام الدينية بواسطة المشاورة نعم في الأمور الدنيوية لا بأس بها والآية ناظرة إليها، ثم أنه لاشك لأحد أن المشاورة في الأمور مما يحكم به العقل السليم ويؤيده الشرع القويم ولذلك وردت الآيات والأخبار في حُسْنِها والترغيب فيها وفائدتها استخراج الرأي الأصح من بين الآراء وانتخابه وذلك لأن الأفكار مختلفة والآراء متفاوته اذ لا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر ببال غيره وان كان الغير اعلم منه في سائر الامور ربما يفهم الانسان العامي ما لا يعلمه العالم من امور الدنيا وذلك لأن العقول تقاته واذا كان كذلك فلا يمكن لاحد الوصول الى ما هو الاصلح الا بالمشاوره مع غير قال امير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:

من استبدَّ برأيه هلكَ ومن شاورَ الرجالَ شاركهما في عقولهما.

و عن النبي ﷺ: لا وَحْدَةَ أَوْحَشَ من العُجْبِ ولا مَظَاهِرَةَ أَوْثَقَ من المُشَاوَرَةِ انتهى.

و أمثال ذلك من الأحاديث كثيرة جداً ولا كلام لنا ولا لأحدٍ من الناس في حسنها و أنما الكلام فيها بالنسبة الى النبي ﷺ حيث أمره الله تعالى في كتابه وهذا هو الذي تحيرت العقول فيه و اختلفت آراء المفسرين في تفسير كلامه و قد ذكروا في ذلك وجوهاً.

أحدها: أنه تعالى أمره بمشاورتهم ليستنّ به المسلمون و أن كان غنى عن مشورتهم.

ثانيها: أنه كان تعليماً منه لأمتّه ليشاور الرجل الناس و أن كان عالمًا.

ثالثها: أن مشاورة الرسول أيّاهم توجب علو شأنهم و رفعة درجتهم يقتضي شدة محبتهم له و خلوصهم في طاعته كما أن تركها إهانة بهم فيحصل لهم سوء الخلق و ألفاظه.

رابعها: قالوا و شاورهم في الأمر ليستفيد منهم رأياً و علماً لكي تعلم مقادير عقولهم و أفهامهم و مقادير حبهم لك و إخلاصهم في طاعتك فحينئذ يتمييز لك الفاضل من المفضول فبين لهم على قدر منازلهم.

خامسها: أن المشاورة لهم دلت على أن لهم عند الله قدراً و قيمةً فهذا يفيد أن لهم قدراً عند الله و عند الرسول و عند الخلق و الوجوه المحتملة كثيرة جداً و أحسن الأقوال هو القول الأول و ذلك لإستغناء النبي ﷺ بالوحي عن يعرف صواب الرأي من العباد و أنما الغرض منها أن تكون سنته رائجة بين الأمة بعده ﷺ و ذلك لأن الرسول لا يخفى عليه شيء حتى يحتاج في فهمه الى المشورة كما هو الشأن في العلم الدني الحضورى و للبحث فيه مقام آخر.

البحث الرابع: فإذا عزمَ فتوكل على الله أن الله يحب المتوكلين، العزم هو الأمر المرؤى المتفح و قال الراغب العزم و العزيمة عقد القلب على إمضاء

الأمر والتوكل على الله تفويض الأمر اليه، والمعنى فإذا عازمت على الفعل أي عقدت قلبك على إمضاء فتوكل على الله أي فوض أمرك اليه تعالى تعتمد على سبب من الأسباب ولا رأي من الآراء فأن الأمور بيده وهو على كل شيء قدير، التوكل على ما عرفوه هو إعتداد القلب في جميع الأمور على الله وعبارة أخرى حوالة العبد جميع أموره على الله وقيل هو التبري من كل حول وقوة والإعتداد على حول الله وقوته وهو موقوف على أن يعتقد العبد إعتقاداً جازماً بأنه لا فاعل إلا الله وأن لا حول ولا قوة إلا بالله وأن له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجلمة العباد والآحاد وأنه ليس وراء قدرته قدرة ولا وراء علمه علم ولا وراء عنايته عناية فمن اعتقد ذلك إتكل قلبه لا محالة على الله وحده ولم يلتفت الى غيره الى نفسه أصلاً فالتوكل لا يتم إلا بقوة اليقين وقوة القلب جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمانينته فالسكون في القلب شيء واليقين فيه شيء آخر فكم من يقين لا طمانينة فيه قال تعالى: **أَوْ لَمْ تُؤْمِنُ قَالِ بَلَىٰ وَلَكِنْ لَا يُقِينُ قَلْبِي** ^(١) **حَتَّىٰ أَتَىٰ** الكافر ربما يكون مطمئن القلب في كفره ولكن لا يقين له لإتباعه الظن وما تهوي الأنفس، فإذا توقف التوكل على اليقين وقوة القلب وارتفع بضعف أحدهما يظهر أن التوكل من الفضائل المتعلقة بقوتي العاقلة والغضبية معاً، وضده أعني عدم التوكل من رذائل أحدهما أو كليهما، وكيف كان هو منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحدين بل هو أفضل درجات الموقنين ولذا ورد في مدحه وفضله والترغيب فيه ما ورد من الكتاب والسنة.

قال الله تعالى: **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ^(٣).

قال الله تعالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ^(١).

قال الله تعالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(٢).

أي عزيز لا يذل من إستجار به فلا يضع من لاذ بجناحه وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره ومن الأخبار.

قال رسول الله ﷺ من إنقطع الى الله كفاه الله كل مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن إنقطع الى الدنيا وكله الله اليها، و قال ﷺ من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده، وقال الصادق عليه السلام اوحل الله داود ما اعتصم بي عبد من عبادي دون احده من خلقي عرفت ذلك من بيته ثم تأكيد السموات والارض ومن فيهنّ الأجعلت له المخرج من بينهنّ وقال عليه السلام من اعطى ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً من اعطى الدعا اعطى الاجابة ومن اعطى الشكر اعطى الزيادة ومن اعطى التوكل لعطى الكفاية ومن الاخبار فيه كثيرة^(٣).

قال بعض المحققين من علماء الأخلاق للتوكل في الضعف والقوة ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يكون حاله في حق الله والثقة بعنايته وكفالاته كحاله بالوكيل في الثقة وهذه أضعف الدرجات.

الثانية: أن يكون حاله مع الله كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها يفزع إلا اليها ولا يعتمد إلا عليها والفرق بين هذا وسابقه أن هذا متوكل قد فنى في موكله عن توكله أي ليس يلتفت قلبه الى التوكل بل إلتفاته الى المتوكل عليه فقط فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه وأما الأول فتكلف في

٢- الأنفال = ٤٩

١- الطلاق = ٣

٣- جامع السادات، ج ٣، ص ٢١٦.

توكّله بالكسب والتكلف وليس فانياً عن توكّله أي له إلتفات اليه وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكّل عليه.

الثالثة: وهى أعلى الدّرجات أن يكون بين يدي الله في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل بأن يرى نفسه ميتاً و تحرّكه القدرة الأزليّة كما يحرك الغاسل الميت وهو الذي قويت نفسه ونال الدّرجة الثالثة من التّوحيد هذا القسم توكّل إبراهيم الخليل لما وضع في المنجنيق ليُرمى به الى النار و أشار اليه روح الأمين بسؤال النّجاة والإستخلاص من الله سبحانه فقال حسبي من سؤالي علمه بحالي وهذا القسم نادر الوقوع عزيز الوجود إذ هو مرتبة الصّديقين وهو ينافي التدبيرات ما دام باقياً إذ يكون صاحبه كالمبهوت ثم أنّ التوكّل على الله قد يكون في جميع الأمور وقد يكون في بعضها وتختلف درجات ذلك بحسب كثرة الأمور المتوكّل فيها وقلّتها انتهى كلامه.

أقول الآيات والأخبار في مدح التوكّل كثيرة مذكورة في المطوّلات فمن أراد الإطّلاع عليها فعليه بالمراجعة إليها وسنتكلّم فيه خلال الآيات زيادة على ما ذكرناه في المقام ولنعم ما قال الشّاعر فيه:

وما ثمّ إلاّ الله في كلّ حالة فلا تتكلّ يوماً على غير لطفه
فكم حالة تأتي ويكرهها الفتى وخيرته فيها على رغم أنفه
وقال الآخر:

توكّل على الرّحمن في الأمر كلّهُ فما خاب حقّاً من عليه توكّلا
وكن وثاقاً بالله وأصبر لحكمه تفز بالذي ترجوه منه تفضلاً

والذي ينبغي أن يُذكر في المقام هو أنّ التوكّل على الله لا ينافي التّوصّل و التمسكّ بالأسباب المقطوعة أو المظنونة مع أنّ الله قادر على إعطاء المطلوب بدون ذلك لأنّ الله سبحانه قد ربط المسبّبات بالأسباب في دار الدّنيا وأبى أن يجري الأشياء إلاّ بأسبابها ولذلك لمّا أحمل الإعرابي بعيره و قال توكّلت على الله قال له النّبي ﷺ إعتقلها وتوكّل.

و قال الصّادق عليه السلام: أوجب الله لعباده أن يطلبوا منه مقاصدهم
بالأسباب التي سببها لذلك وأمرهم بذلك.

قال الله تعالى: خُذُوا حِذْرَكُمْ.

وقال في كيفية صلاة الخوف:

قال الله تعالى: وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ.

قال الله تعالى: وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ^(١).

روي أنّ زاهداً من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل فقال لا أسأل
أحداً شيئاً حتّى يأتيني ربّي برزقي فقعد سبعة فكاذ يموت ولم يأته رزق فقال
يا ربّ إن أحييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فأقبضني اليك فأوحى
الله تعالى اليه و عزّتي وجلالي لا أرزقك حتّى تدخل الأمصار وتقعّد بين
الناس فدخل مصر فأقام فجاء هذا بطعام وهذا بشراب فأكل وشرب فأوجس
في نفسه ذلك فأوحى الله اليه أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا أما
علمت أنّي أرزق عبادي بأيدي عبادي أحبّ إليّ من أن أرزقه بيد قدرتي
انتهى.



إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ
وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى
كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)
أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ
اللَّهِ وَمَأْوِيهِ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ
دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)

◀ اللغة

يَخْذُلْكُمْ: الخذلان: ترك من يظنّ به أن ينصر نصرته ولذلك قيل خذلت
الوَحْشِيَّة ولدها وتخاذلت رجلا فلان ومنه قول الأعشى:

بين مغلوبٍ قليلٍ خدّه وخذول الرّجل من غير كسح
ورجل خذلة كثيراً ما يخذل.

يَغُلُّ: اللغْلُ أصله تدرع الشئ وتوسطه ومنه الغلل للماء الجاري بين
الشجر فالغلّ مختصّ بما يقيد به فيجعل الأعضاء وسطه وجمعه أغلال و
غلٌّ: فلان قيد به قال تعالى: خذوه فغلّوه.

بِسَخَطٍ: السخط والغضب الشديد المقتضى للعقوبة.

مَأْوِيَهُ: الماوى مصدر ياوى اوىاً قال الله تعالى: مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وقال
جَنَّةُ الْمَأْوَى وكيف كان هو اسم المكان الذى ياوى اليه.

◀ الاعراب

أَنْ يَغُلَّ بفتح الياء وضمّ الغين على نسبة الفعل الى شئى اى ذالك غير
جائز عليه ومفعوله محذوف أى يغلّ الغنيمة أو المال، ويقرأ بضمّ الياء وفتح

الغين على ما لم يسم فاعله وفي فمعناه ثلاثة أوجه:
أحدها: أن يكون ماضيه أغلثته أي نسبته إلى الغلول كما تقول أكذبت أي
نسبته إلى الكذب أي لا يقال عنه أنه يغل، أي يخون.
الثاني: هو من أغلثته إذا وجدته غاللاً كقولك أحمدت الرجل إذا أصبته
محموداً.

الثالث: معناه أن يغلّه غيره أي ما كان لنبي أن يخان وَمَنْ يَغْلُ مستأنفة و
يجوز أن يكون حالاً ويكون التقدير في حال علم الغال بعقوبة المغلول أَفَمَنْ
اتَّبَعَ من بمعنى الذي في موضع رفع بالإبتداء وَكَمَنْ الخبر ولا يكون شرطاً
لعدم صلاحيته للجواب وَبَسْخَطِ حال هُمْ دَرَجَاتٍ مبتدأ وخبر والتقدير ذو
درجات فحذف المضاف وَعِنْدَ اللَّهِ ظرف لمعنى درجات كأنه قال هم
متفاضلون عند الله ويجوز أن يكون صفة لدرجات.

التفسير

إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ قَالَ الزّمخشري في الكشف قوله: إِنْ
يَنْصُرْكُمْ إشارة إلى يوم بدر وقوله: إِنْ يَخْذُلْكُمْ إشارة إلى يوم أحد ثم قال
فهذا تنبيه على أن الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه انتهى.

أقول لا دليل على تخصيص الآية بيوم بدر وأحد بل هي باقية على
عمومها وخصوصية المورد لا توجب خصوصية المعنى وعليه فقوله تعالى:
إِنْ يَنْصُرْكُمْ الآية عام والمعنى أن ينصركم الله في أي مورد كان فلا غالب
لكم، وذلك لأنه لو كان هناك غالب فهو غالب على الله في الحقيقة ولازم
ذلك مغلوبيته تعالى وكل مغلوب عاجز والعجز من شؤون المخلوق الممكن
المحتاج وأما الواجب فهو على كل شيء قدير وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي
يَنْصُرْكُمْ أي أن يخذلكم الله فليس لكم ناصر، وهو كذلك إذ لو كان هناك
ناصر نصره مع خذلان الله أيّاه فهو إما خالق أو مخلوق ليس الأول لأن الخالق

خذله فلا محالة هو مخلوق لعدم الوساطة بين الخالق و المخلوق و إذا كان كذلك فهو أي المخلوق أقوى من الخالق و الخالق أضعف منه، وكل ضعيف مخلوق هف و عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ قيل وجه التخصيص علمه تعالى بأنه لا ناصر لهم سواه و لأن إيمانهم يوجب ذلك و يقتضيه قاله الرّمخشري في الكشف، و الحق أنه لا ناصر للمخلوق غيره تعالى سواء كان مؤمناً أم لا و ذلك لأن القدرة بيده لا بيد غيره فمن توكّل على غير الله فقد توكّل على ضعيف مثله و هو من قبيل ضمّ المعدوم الى معدوم آخر فلا بدّ للمخلوق كائناً من كان من التوكّل على خالقه للوصول الى مقصده إلا أن أكثر المخلوقين لا يتوجّهون الى هذه النكّة لعدم معرفتهم أو قلّتها و أمّا المؤمن بالله فلا يغفل عن معبوده لمعرفة آياته و علمه بأنّ غير الخالق لا يقدر على شيء فلا محالة يتوكّل عليه في جميع أموره و يفوض أمره الى الله و هذا هو السّر في تخصيص المؤمنين بالتوكّل على الله لا علمه تعالى بأنه لا ناصر لهم أي للمؤمنين سواه كما زعمه الرّمخشري و ذلك لعلمه تعالى بأنه لا ناصر لكلّ المخلوق سواه هذا ما فهمناه من الآية في بادي النظر ثم بعد الدقة وإمعان النظر فيها خطر ببالي نكتة أخرى و هي أنّ تقديم الجار و المجرور أعني قوله و على الله، يفيد الحصر كما يقال في الدار زيد، يفيد الحصر ومعناه ليس في الدار إلا زيداً، بخلاف قولنا زيد في الدار، فإنّ معناه أنّ زيداً في الدار ولا ينفي وجود غيره فيها إذا عرفت هذا فقال الله تعالى و على الله فليتكّل المؤمنون بتقديم الجار و المجرور و لم يقل فليتكّل المؤمنون على الله، فالمعنى أنّ المؤمن لا يتوكّل إلا على الله و أمّا غيره يتوكّل على كلّ شيء فأفهم.

و أمّا أنّ التوكّل ما هو فقد تكلمنا فيه في الآية السابقة فلا نطيل الكلام بذكره ثانياً و سيأتي الكلام فيه في تفسير الآيات في المستقبل إن شاء الله بقى في المقام شيء لا بدّ من التعرّض له و هو أنّه ما المراد بالخذلان في الآية و هل يصح أن يخذل الله عبده والله هو الرؤوف الرحيم قلت معنى الخذلان من الله

تعالى في المقام وفي كل مقام سلب التوفيق عنه كما أن معنى النصرة شموله آياه ويدل عليه ما رواه في كتاب التوحيد بأسناده عن الصادق عليه السلام في حديث طويل في قوله تعالى: وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ.

إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ

قال عليه السلام إذا فعل العبد ما أقره الله من الطاعة كان فعله موافقاً لأمر الله وسمى العبد به موفقاً وإذا أراد العبد أن يدخل في معاصيه فحال الله تعالى بينهما ويتركها كان تركه بتوفيق منه ومتى خلى بينه وبين المعصية ولم يحل بينه وبينها حتى يرتكبها فقد خذله ولم ينصره ولم يوفقه انتهى تفسير نور الثقلين^(١).

وَمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَغْلَّ تقديره ما كان لنبي الغلول لأن، أن مع الفعل بمعنى المصدر أي لا تجتمع النبوة والخيانة وذلك لما روي عن ابن عباس و سعيد بن جببر أنها نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر من المغنم فقال بعضهم لعل النبي أخذها فنزلت وقيل أنها نزلت في أداء الوحي ومعناها ما كان له أي للنبي أن يكتسب شيئاً من الوحي قالوا كان رسول الله ﷺ يقرأ القرآن وفيه عيب دينهم وسب آلهتهم فسألوه أن يترك ذلك فنزلت هذه الآية، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن أشراف الناس طمعوا أن يخصهم النبي ﷺ من الغنائم بشئ زائد فنزلت الآية وعن الكلبي ومقاتل نزلت هذه الآية حين ترك الرماة المركز يوم أحد طلباً للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول النبي ﷺ من أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر فقال ﷺ ظننتم إننا نغل فلا نقسم لكم فنزلت هذه الآية وكيف كان فقد نزه الله ساحة نبيه من الغل والخيانة فقال: وَمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَغْلَّ قال بعض المفسرين والوجه فيه هو أن الخيانة سبب للعار في الدنيا والآخرة فالتنفس الرغبة فيها في نهاية الدانة، ثم أن النبوة أعلى المناصب الإنسانية فلا تليق إلا بالنفس التي تكون في

فيها القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

العبد
رَبِّهِ

غاية الجلالة والشرف والجمع بين الصفتين في النفس الواحدة ممتنع فثبت أن النبوة والخيانة لا يجتمعان ونظير هذه الآية قوله تعالى: مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ^(١) يعني أن الإلهية وإتخاذ الولد لا يجتمعان انتهى كلامه.

وأنا أقول لنا في المقام وجه آخر وهو أن الآية تدل على عصمة النبي، لأن الإنسان بحسب فطرته الأصلية وطبعه البشري لا يخلو من الغل والخيانة قل أو كثر فلو كان الإنسان بريئاً من الغل بالكلية فهو معصوم أي عصمه الله من الزلل والخطأ وحيث شهد الله تعالى في كلامه بأن النبي لا يغل، فهو معصوم لا محالة وهو المطلوب.

وأيضاً فلسفة النبوة والتشريع إرشاد الناس إلى التخلق بأخلاق الله المعلوم أن معطي الشيء لا يكون فاقداً له فلو كان النبي خائناً كيف يدعو الناس إلى تركها مضافاً إلى أن الخيانة من أخلاق الشيطان وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ قيل في معناه قولان:

أحدهما: حمل الكلام على ظاهره من غير تأويل فيه وهو أن من يغلل في الدنيا يأت بما غل بعينه يوم القيامة حاملاً آياته على ظهره كما.

روي عن النبي ﷺ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا غَنِمَ مَغْنَمًا بَعَثَ مُنَادِيًا أَلَا لَا يَغْلُنْ أَحَدٌ مَخِيطًا فَمَا دُونَهُ أَلَا لَا يَغْلُنْ أَحَدٌ بَعِيرًا فَيَأْتِي بِهِ عَلَى ظَهْرِهِ رِغَاءً أَلَا لَا يَغْلُنْ أَحَدٌ فَرَسًا فَيَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ظَهْرِهِ لَهُ حِمَمَةٌ قَالَ قَتَادَةُ وَذَلِكَ لِيَفْضَحَ بِهِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ.

ثانيهما: أن يقال ليس المقصود منه ظاهره بل المقصود تشديد الوعيد على سبيل التمثيل والتصوير ونظيره قوله تعالى: إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ^(٢)

فأنه ليس المقصود نفي هذا الظاهر بل المقصود إثبات أن الله تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فكذا ها هنا المقصود

منه تشديد الوعيد هذا وقد ذكر القُرطبي في تفسيره ما لفظه أي يأتي به حاملاً له على ظهره ورقبته معذباً بحمله وثقله ومرعوباً بصوته ومُوبحاً بإظهار خيانتة على رؤوس الأشهاد وساق الكلام إلى أن قال وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال، قام فينا رسول الله ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال، لا ألفين أحد منكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرساً له حمحمة، فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول يا رسول الله ﷺ أغثنى فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رواق تخفق فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة وعلى رقبته صامت فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك شيئاً قد أبلغتك انتهى.

اقول الفاظ هذه الرواية منادى باعلى صوتها يبسط أنها مجعولتهما وأنها من الموضوعات ولذلك عبر بعض المتأخرين من العامة عنها بهذه العبارة ولكن اخرج الشيطان عن ابى هريرة والحق ما ذكروا بعض المفسرين وهو أن المراد بحمل غلوله يوم القيامة أن في عنقه أمارة يُعرف بها أنه غلّ في الدنيا **حُكِمَ** الله في كل من وافى القيامة بمعصية لم يتب منها أو أراد الله أن يعامله بالعدل أظهر عليه من معصيته علاقة يلتى بها ليعلمه أهل القيامة بها وليعلموا سبب إستحقاقه العقوبة كما قال تعالى: **فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ** ^(١) وهكذا حكمه في جانب الطاعة أيضاً إنتهى.

في الفرقان في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ أَيُّ ثُمَّ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ يَأْتِيَ
الْغَالُ بِمَا غَلَّ،، كَمَا يَأْتِي كُلَّ عَامِلٍ بِمَا عَمِلَ فَيُتَمَثَّلُ لَدَيْهِ كَأَنَّهُ حَاضِرٌ بَيْنَ يَدَيْهِ
يَنْظُرُ إِلَيْهِ بَعِينِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا^(١) وَ
مِثْقَالَ الذَّرَّةِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَرْتَبًا مُبْصَرًا بَعْدَ هَذَا تَنَالُ جَزَاءَ مَا كَسَبَتْ مُسْتَوْفَى
تَامًا لَا تَنْغُصُ مِنْهُ شَيْئًا قَالَ الطَّبْرَسِيُّ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى بَطْلَانِ قَوْلِ
الْمُجَبِّرَةِ حَيْثُ يَقُولُونَ أَنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَوْلِيَائِهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ ظُلْمًا، وَجِهَ
الدَّلَالَةِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ بَيَّنَّ فِيهَا أَنَّهُ لَوْلَمْ يَوْفُهَا مَا كَسَبَتْ لَكَانَ ظُلْمًا إِنْتَهَى.

وَنَقَلَ الْفَخْرُ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الْقَاضِي أَنَّهُ قَالَ هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ
الظُّلْمَ مُمْكِنٌ فِي أَفْعَالِ اللَّهِ وَذَلِكَ بِأَنْ يَنْقُصَ مِنَ الثَّوَابِ أَوْ يَرِيدَ فِي
الْعِقَابِ يَتَنَاتِي ذَلِكَ إِلَّا عَلَى قَوْلِنَا دُونَ قَوْلٍ مِنْ يَقُولُ مِنَ الْمَجْبُرَةِ أَنَّ أَيُّ شَيْءٍ
فَعَلَهُ تَعَالَى فَهُوَ عَدْلٌ وَحُكْمَةٌ لِأَنَّهُ الْمَالِكُ إِنْتَهَى مَا نَقَلَهُ عَنِ الْقَاضِي ثُمَّ أَجَابَ
الرَّازِي عَنْهُ بِأَنَّ نَفْيَ الظُّلْمِ عَنْهُ لَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهِ عَلَيْهِ كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ لَا تَأْخُذْهُ
سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهَا عَلَيْهِ إِنْتَهَى.

أَقُولُ مَا ذَكَرَهُ الرَّازِي فِي الْجَوَابِ لَا يَرْجِعُ إِلَى مُحْصَلِّ لَأَنَّهُ بِالسَّفْسُطَةِ أَشْبَهَ
وَذَلِكَ لِأَنَّ قِيَاسَ الظُّلْمِ عَلَى النَّوْمِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى قِيَاسٌ مَعَ الْفَارَقِ وَذَلِكَ لِأَنَّ
النَّوْمَ مِنْ لَوَازِمِ الْجِسْمِ وَاللَّهُ تَعَالَى مَنْزَعٌ عَنِ الْجَسَمِيَّةِ فَهُوَ مَنْزَعٌ عَنِ النَّوْمِ شُتَتْ
قُلْتُ النَّوْمُ عَلَى الْمَوْجُودِ الْمَجْرُودِ الْبَسِيطِ الْمَنْزَعِ عَنِ الْمَادَّةِ وَلَوْ أَحَقَّهَا أَمْرٌ
مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا وَلَيْسَ كَذَلِكَ الظُّلْمُ لِأَنَّهُ وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ مِثْلَ تَعَذِيبِ
الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ وَبِالْجُمْلَةِ وَضَعَ الْعَذَابَ مَكَانَ الثَّوَابِ وَلَا شَكَّ أَنَّ الظُّلْمَ
بِهَذَا الْمَعْنَى مُمْكِنٌ فِي حَدِّ ذَاتِهِ فَأَنَّهُ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ، إِلَّا أَنَّهُ لَا
يُظْلَمُ لِأَنَّهُ أَيُّ الظُّلْمِ قَبِيحٌ عَقْلًا بَلْ يُقَالُ قَبِيحٌ مِنَ الْمُسْتَقْلَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْحَكِيمِ
لَا يَفْعَلُ الْقَبِيحَ عَقْلًا وَبِعِبَارَةِ أُخْرَى النَّوْمُ مَحَالٌّ عَلَيْهِ تَعَالَى وَالظُّلْمُ قَبِيحٌ مِنْهُ وَ

الفرق بين المحال والقبيح لا يخفى على أحد من المُحَصِّلِينَ فكيف خفى على الرَّازِي وهو هو أعاذنا الله من الزَّلَلِ قوله:

أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوِيَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

الهمزة في قوله: **أَفَمَنْ أَتَّبَعَ** لِلِإِسْتِفْهَامِ الإنكاري أي ليس كذلك، اختلفوا في المراد بِالرِّضْوَانِ والسَّخَطِ فقال الكلبي المراد بقوله: **رِضْوَانُ اللَّهِ** ترك الغلول ويقول: **بِئْسَ سَخَطٌ مِنَ اللَّهِ** فعل الغلول و عليه فالمعنى ليس من ترك الغلول كمن فعله الذي مأواه جهنم وبئس المصير وقال بعض المفسرين، رضوان الله الإيمان بالله والعمل بطاعته كما أن سخطه الكفر به و عليه فالمعنى ليس المؤمن العامل بطاعة الله كالكافر العمل بمعصية الذي مأواه جهنم.

قول ثالث أن المراد بقوله: **رِضْوَانُ اللَّهِ** المهاجرون و بقوله: **بِئْسَ سَخَطٌ مِنَ اللَّهِ**، المنافقون ونقل عن الزجاج قولاً رابعاً وهو أنه لما حمل المشركون على المسلمين دعا النبي ﷺ أصحابه إلى أن يحملوا على المشركين ففعله بعضهم وتركه آخرون فقال تعالى أفمن أتبع رضوان الله وهم الذين إمتثلوا أمره كمن باء بسخط من الله وهم الذين لم يقبلوا قوله هذا ما ذكره المفسرون في معنى الآية و الحق ما ذكره القاضي وهو أن كل هذه الوجوه و أن كان صحيحاً إلا أن حمل اللفظ عليه قصراً وحسراً لا يجوز لأن اللفظ عام فوجب أن يتناول الكل فإن كل من أقدم على الطاعة فهو داخل تحت قوله: **أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ** وكل من أخلد إلى متابعة النفس و الشهوة فهو داخل تحت قوله: **كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ** أقصى ما في الباب أن الآية نازلة في واقعة معينة لكنك تعلم أن عموم اللفظ لا يبطل لأجل خصوص السَّبَبِ، وقال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

ثم ذكر أن رمي النبي بالخيانة قياس جائر مع الفارق فإنه متبع رضوان الله لا يعدو رضى ربه والخائن باء بسخطٍ عظيم من الله ومأواه جهنم وبئس المصير وهذا هو المراد لقول: أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ و يمكن ان يكون المراد التعريض للمؤمنين بان هذا الاقوال من التعرض بسخط الله والله يدهوكم بهذه الموائظ الى رضوانه وما هما سواء انتهى كلامه قال الرّاعب في المفردات الرّضوان الرّضا الكثير ولما كان أعظم الرّضا رضا الله تعالى خُصّ لفظ الرّضوان في القرآن بما كان من الله:

قال الله تعالى: يَنْتَقُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا^(١).

قال الله تعالى: يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ^(٢).

عن تفسير العياشي عن عمار بن مروان قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله: أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هم والله ياعمّار درجات المؤمنين عند الله وبموالاتهم وبمعرفتهم إيانا يضاعف الله للمؤمنين حسناتهم ويرفع لهم الدرجات العلى وأما قوله يا عمار: كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ الى قوله: الْمَصِيرُ فهُمْ والله الذين جحدوا حقّ عليّ بن أبي طالب وحقّ الأئمة منّا أهل البيت فباؤوا بذلك بسخطٍ من الله انتهت.

وفي أصول الكافي بأسناده عن عمّار السّاباطي قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله عزّ وجلّ: أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ هم درجات عند الله، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين إتّبّعوا رضوان الله هم الأئمة عليهم السّلام وهم والله يا عمّار درجات للمؤمنين وبولايتهم ومعرفتهم إيانا يضاعف الله لهم أعمالهم ويرفع الله لهم الدرجات العلى انتهت.

وفي تفسير علي بن ابراهيم بأسناده عن أبي عبد الله في حديث

طويل يذكر فيه لقمان ووعظه لابنه، وفيه من إتبع أمره إستوجب جنته ومَرْضاته و من لم يتَّبِع رضوان الله فقد هان عليه سخطه نعوذ بالله من سخطه انتهى.

وفي كتاب الخصال عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث خصال من كُنَّ فيه أو واحدةٍ مِنْهُنَّ كان في ظل عرش الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله رجل أعطى الناس ما هو سائلهم لها من نفسه، و رجل لم يقدم رجلاً ولم يؤخر أخرى حتَّى يعلم أنَّ ذلك لله فيه رضى أو سخط انتهى نقلنا الروايات عن نور الثقلين ^(١).

أقول كان الراوي نسي الثالث، أو أسقط عن القلم في الطبع والله أعلم هم درجات عند الله و الله بصير بما يعملون قال بعض المفسرين من العامة أي هم مختلفوا المنازل عند الله فلمن إتبع رضوانه الكرامة والثواب العظيم و لمن باء بسخط منه المهانة و العذاب الأليم قال ومعنى هم درجات أي ذوو درجات أو على درجات أو في درجات أو لهم درجات وأهل النار أيضاً ذوو درجات انتهى.

و قال البيضاوي شَبَّهوا بالدرجات لما بينهم من لاتفوت في الثواب و العقاب أو هم ذوو درجات انتهى.

و قال الطبرسي وصاحب التبيان أي هم ذوو درجات، و قال الرّازي تقدير الكلام لهم درجات عند الله إلا أنه حسن هذا الحذف لأنَّ إختلاف أعمالهم قد صيرتهم بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها فكان هذا المجاز أبْلغ من الحقيقة والحكماء يقولون أنَّ النفوس الإنسانية مختلفة بالماهية والحقيقة فبعضها ذكية وبعضها بليدة وبعضها مشرقة نورانية وبعضها كدرة ظلمانية و إختلاف هذه

الصفات ليس لإختلاف الأمزجة البدنية بل لإختلاف ماهيات النفوس قال عليه السلام الناس معادن كمعادن الذهب والفضة وقال عليه السلام الأرواح جنود مجتدة وإذا كان كذلك ثبت أن أنفسهم مختلفة فهم في أنفسهم درجات لا أن لهم درجات انتهى كلامه.

قال أبو حيان في تفسيره بعد نقله عن الرّازي، تقديره لهم درجات، ما لفظه قال بعض المصنفين راداً عليه إتبع الرّازي في ذلك أكثر المفسرين بجهله و جهلهم بلسان العرب لأن حذف لام الجر هنا لا مساغ له لأنه أنما تحذف في مواضع الضرورة أو لكثرة الإستعمال وهذا ليس من تلك المواضع على أن المعنى دون حذفها حسن ممكن جداً لأنه لما قال أفمن إتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله وكأنه منتظر للجواب قيل له في الجواب لا، ليسوا سواء بل هم درجات انتهى.

ثم قال أبو حيان والظاهر من قولهم هم درجات أن الضمير عائذ على الجميع فهم متفاوتون في الثواب والعقاب وقد جاء التفاوت في العذاب كما جاء في الثواب ومعنى عند الله على هذا القول في حكم الله وقيل الضمير يعود على أهل الرضوان فيكون عند الله معناها التّشريف والمكانة لا المكان، كقوله عند مليك مقتدر فالدرجات إذ ذاك مخصوصة بالجنة وهذا معنى قول ابن جبير وإلى صالح ومقاتل و ظاهر ما قاله مجاهد والسّدي حيث قالوا، الدرجات المنازل بعضها أعلى من بعض في المسافة أو في التّكرمة انتهى كلامه.

أقول هذا ما ذكره في تفسير الآية والإنصاف أنهم لم يأتوا بشئ مقنع، أما ما قاله الرّازي من أن التقدير، لهم درجات، فقد عرفت الكلام فيه وأنه مخالف لقواعد الأدب إذ لا مجوز لحذف اللّام في المقام، وأما ما لّفقه من كلمات الفلاسفة فهو خارج عن البحث لا ربط له بالموضوع أصلاً مضافاً إلى أن ما ذكره من إختلاف الماهيات في أنفسها وبحسب ذواتها لم يقل به أحد من الفلاسفة لأنهم اتفق على عدم جواز التشكيك في الماهية وأنما هو شأن

الوجود نعم لازم القول بالجبر هو اختلاف الماهيات بحسب الجعل بناء على القول باصالة الماهية وكلامه يناسب سلوكه واعتقاده وللبحث فيه مقام آخر وأما ما ذكره سائر المفسرين من أن التقدير ذوو درجات وأمثال ذلك فهو أيضاً لا يرجع إلى محصل إذ لقائل أن يقول أي مجوز أو حسن لهذا الحذف وبعبارة أخرى لم لم يقل لهم درجات، أو هم ذو درجات وقال هم درجات مضافاً إلى أن الأصل خلاف الحذف أو عدمه إلا أن يدل عليه دليل وإذ ليس فليس، قال بعض المفسرين، هم، عائد على الموصولين باعتبار المعنى وهو مبتدأ وقوله تعالى درجات خبره والمراد هم متفاوتون إطلاقاً للملزوم على اللازم، أو شبههم بالدرج في تفاوتهم علواً وسفلاً على سبيل الاستعارة أو جعلهم نفس الدرجات مبالغة في التفاوت فيكون تشبيهاً بليغاً بحذف الأداة انتهى.

أقول و عليه فتقدير الكلام، هم كالدرجات حذفت الكاف لدلالة الكلام عليه أو الإفادة المبالغة نحو زيد عدلٌ وزيد أسد أي أنه من كثرة عدالته صار نفس العدل ومن شدة شجاعته صار نفس الأسد وهذا الوجه أيضاً ليس بمعتمد ومع ذلك هو أحسن الأقوال في الباب والأحسن من الكل ردّ علمه إلى قائله فالله أعلم بمراده وأما قوله: **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** فمعناه أنه لا يغيب عنه شيء من أعمالهم ومالها من التأثير في تزكية نفوسهم التي يترتب عليها الفلاح في إرتقاء الدرجات وذلك لأن هذه الدرجات لا يمكن أن يعلمها إلا من أحاط بكل شيء علماً ولا يخفى عليه أثر ما من آثار الأعمال في النفس ولا عاطفة من عواطف الإيمان في القلب ولا حقيقة من حقائق العلم في العقل ولا يعزب عنه شيء من تفاوت الناس في ذلك وإلى هذا أشار بقوله: **وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**^(١) صدق الله العلي العظيم.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

الجعل الرابع

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَ
يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ
لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)

◀ اللّٰغَة

مَنَّ: يقال مَنَّ مَنَّاً وَمَنَّةً وَأَمْتَنَ إِمْتِنَاناً، عليه بما صنع ذكر و عدد له ما فعله
له من الخير مثل أن يقول أعطيتك كذا وفعلت لك كذا وهو تكدير و تعيير
تنكر منه القلوب انتهى قاله في المُنجد.

بَعَثَ: أصل البعث إثارة الشئ وتوجيهه قاله الرَّاغب.

ضَلَالٍ: الضلال العدول عن الطريق المستقيم وضده الهداية ويقال
الضلال لكل عدولٍ عن المنهج عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً.

◀ الإعراب

مِّنْ أَنفُسِهِمْ في موضع نصب صفة لرسول ويجوز أن يتعلّق ببعث والباقي واضح.

◀ التفسير

قيل في وجه ربط هذه الآية بما قبلها أنه تعالى لما بيّن خطأ من نسبته ﷺ
على الغلول أكد ذلك بهذه الآية و ذلك لأنّ هذا الرسول ولد في بلدهم ونشأ
فيما بينهم ولم يظهر منه طول عمره إلا الصدق والأمانة والدعوة الى الله
والإعراض عن الدنيا فكيف يليق بمن هذا حاله الخيانة بل وجوده منهم من
أعظم النعم لأنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة انتهى
كلامه ملخصاً.

أقول لا نحتاج الى بيان وجه الرّبط و ذلك لأنّ الآية بصدد بيان أصل النبوّة من أعظم نعم الإلهية وبيان وظائفه المقرّرة له من عند الله والآثار المترتبة على وجوده وبعثه وهذا أمر آخر

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ قَالَ الرَّاعِبُ المنة النعمة الثّقلية، ويقال ذلك على وجهين:
أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل فيقال من فلان على فلان إذ أثقله بالنعمة و ذلك على الحقيقة لا يكون إلّا لله تعالى.

الثاني: أن يكون بالقول و ذلك مستقبح فيما بين الناس إلّا عند كفران النعمة ولقبح ذلك قيل المنة تهدم الصنعة ولحسن ذكرها بعد الكفران قيل إذا كفرت النعمة حسنت المنة إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ من قبيل الأوّل وهو المنة بالفعل ومنه.

قال الله تعالى: كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ^(١).

قال الله تعالى: وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ^(٢).

قال الله تعالى: يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ^(٣).

قال الله تعالى: وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ^(٤).

قال الله تعالى: وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى^(٥) وأمثالها من الآيات.

من الثاني: أي المنة بالقول.

قال الله تعالى: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَلَّ لَا تُمْنُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ^(٦)

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ^(٧)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

١- النساء = ٩٤

٢- القصص = ٥

٣- إبراهيم = ١١

٤- طه = ٣٧

٥- البقرة = ٢٦٤

قال الله تعالى: **وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْبِرُ** ^(١).

وغيرها منها وأما خصص الله تعالى المنة بالمؤمنين ولم يقل لقد من الله على الناس مثلاً مع أن الرسول بُعث إلى العالمين فنعمة وجوده احسان الى الكل. قال الله تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ^(٢) وقال: **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ^(٣).

هذا مضافاً الى وجه الانسان في بعثته وكونه داعياً الى ما تحصيلهم من عقاب الله ويوصلهم الى ثوابه وهذا عام في حق العالمين لأنه لا ينتفع بهذا الانعام والاحسان الا المومن وذلك كما قال في القرآن: **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**، وقال: **هُدًى لِّلنَّاسِ**، مع أن القرآن هدى لكل وقد مر الكلام في هذا المعنى في أول البقرة ومحصل الكلام هو أن الفيض من الفيض المطلق لا ينقطع دائماً كما ورد في الدعاء يادائم الفضل على البرية، يا باسط اليدين بالعطية، ثم أن الإفاضات منه تعالى الى الخلق كثيرة مختلفة، قال تعالى: **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا** ^(٤) ومن أشرف الإفاضات والنعم وأكملها وأحسنها بعد نعمة الوجود والإيجاد نعمة الدين ولا شك أن النبي هو الذي بعثه الله في كل عصر وزمان لإرشاد الناس وهدايتهم الى الدين وهذا مما لا كلام فيه إلا أن بعض الناس بل أكثرهم أعرضوا عن الانبياء وخالفوهم وأذوهم بل قتلوهم وهذا أمر لا يقبل الإنكار لشهادة العقل والنقل به نعم قليل من الناس يتبعوهم وإستضاءوا بنور هدايتهم وذلك لأنهم آمنوا واعتقدوا أن النبي لا يقول إلا الحق ولا ينكر إلا الباطل فمن أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله ما ينطق عن الهوى أن هو إلا وحي يوحى، وبالجملة هو خليفة الله في أرضه وأمينه على وحيه وسفيره الى خلقه وهم الذين أشار الله تعالى اليهم **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** وأما المخالفون المعاندون المنكرون لأصل النبوة فكيف

يَصَحُّ مِنْهُ تَعَالَى أَنْ يَمُنَ عَلَيْهِمْ بِالْبَيْعَةِ وَالْمَفْرُوضِ أَنَّهُمْ أَنْكَرُوهَا رَأْسًا بِسُوءِ سِرِّيَّتِهِمْ وَخَبْثِ طَبِئَتِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي وَعِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ وَهَذَا دَاءٌ لَا دَوَاءَ لَهُ وَأَمَّا قَوْلُهُ: **مِنْ أَنْفُسِهِمْ** قَالَ الطَّبْرَسِيُّ فِيهِ أَقْوَالُ:

أحدها: أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ رَهْطِهِمْ يَعْرِفُونَ مَنَشَأَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَكَوْنَهُ أُمِّيًّا لَمْ يَكْتُبْ كِتَابًا وَلَمْ يَقْرَأْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا يَأْتِي بِهِ وَحْيٍ مَنَزَلٌ وَيَكُونُ ذَلِكَ شَرْفًا لَهُمْ. **ثانيها:** أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِمْ فَيَسْهَلُ عَلَيْهِمْ تَعَلُّمُ الْحِكْمَةِ مِنْهُ فَيَكُونُ خَاصًّا بِالْعَرَبِ.

الثالث: أَنَّهُ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُرَادُ بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُ مِنْ جِنْسِهِمْ لَمْ يَبْعَثْ مُلَكًا وَلَا جَنِيًّا وَمَوْضِعُ الْمَنَّةِ فِيهِ أَنَّهُ بَعَثَ فِيهِمْ مَنْ عَرَفُوا أَمْرَهُ وَخَبَرُوا شَأْنَهُ **إِنْتَهَى.**

وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْمَعْنَى مِنْ جِنْسِ بَنِي آدَمَ، وَقَالَ بَعْضُ آخَرِ أَيٍّ مِنْ جِنْسِ الْعَرَبِ، وَقِيلَ أَيٍّ مِنْ نَسَبِهِمْ وَأُمَثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ وَنَقَلَ عَنِ النَّقَاشِ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَةِ الْعَرَبُ وَعَلَيْهِ فَالْمُرَادُ بِأَنْفُسِهِمْ أَيُّ أَنْفُسِ الْعَرَبِ لِأَنَّ الضَّمِيرَ فِي أَنْفُسِهِمْ يَرْجِعُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَةِ وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَا يَخْلُو عَنْ سَفَاهَةٍ وَعِنَادٍ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ فِي غَيْرِ الْعَرَبِ أَكْثَرُ مِنْهُمْ فِي الْعَرَبِ كَمَا وَكَيْفًا فِي أَصْنَافِ النَّاسِ وَطَبَقَاتِهِمْ وَالْآنَ أَيْضًا كَذَلِكَ فَكَيْفَ يَعْقلُ تَخْصِيصُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَةِ بِالْعَرَبِ بِدُونِ مَخْصَصٍ وَمَجُوزٍ مِنَ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ وَهَلْ هَذَا إِلَّا تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالرَّأْيِ وَقَدْ تَبِعَهُ فِي ذَلِكَ صَاحِبُ تَفْسِيرِ الْمَنَارِ فِي عَصْرِنَا هَذَا وَلَا عَجَبَ لِأَنَّهُ كَلَامٌ صَدَرَ مِنْ أَهْلِهِ وَقَعَ فِي مَوْضِعِهِ وَلَيْسَ هَذَا أَوَّلَ قَارِوَةٍ كُسِّرَتْ فِي الْإِسْلَامِ وَنَسَبَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ مِنَ الْعَامَّةِ إِلَى فَاطِمَةَ وَعَائِشَةَ وَالضُّحَاكِ قِرَاءَةَ فَتَحِ الْفَاءِ فِي أَنْفُسِهِمْ، مِنَ النَّفَاسَةِ وَالشَّيْءِ النَّفِيسِ ذَكَرَهُ أَبُو حَيَّانٍ فِي تَفْسِيرِهِ ثُمَّ رَوَى عَنْ عَلِيٍّ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ، أَنَا أَنْفُسُكُمْ نَسَبًا وَحَسَبًا وَصَهْرًا وَلَا فِي آبَائِي مِنْ آدَمَ إِلَى يَوْمِ وُلِدْتُ سَفَاحَ، كُلُّهَا نِكَاحَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ،

أقول كون رسول الله ﷺ من أنفس المؤمنين بل الناس من الأولين والآخرين ممّا لا كلام فيه وأما قراءة الآية بفتح الفاء فالله أعلم وكيف قرء فاطمة كذلك و ليس منها في تفاسيرنا عين ولا أثر.

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. أي يتلوا النبي على المؤمنين الذين بعث اليهم آيات الله والمراد بها القرآن وفيه الآيات التكوينية وغيرها ممّا هو متعلّق بالأحكام والأخلاق والقيامة وأمثالها تخصيص الآيات في المقام بالآيات الكونية الدالة على قدرته وحكمته كما في تفسير المنار لا وجه له ولا دليل على التخصيص واللفظ عام وهكذا قوله في تعليم الكتاب حيث زعم أنّ المراد بالكتاب فقال كان أوّل حاجتهم الى تعلّم الكتابة وجوب كتابة القرآن وساق الكلام الى أن قال وكان يأمرهم بتعلّم الكتابة إنتهى.

وذلك لأنّ تعليم الكتاب غير تعليم الكتابة والله تعالى قال ويعلمهم الكتاب ولم يقل الكتابة وهو واضح لا خفاء فيه، وأما الحكمة فقالوا هي الأسرار وفقه الأحكام وبيان المصلحة فيها، أو طرق الاستدلال ومعرفة الحقائق وأمثال ذلك من الأقوال التي لا طائل تحتها لأنّها من التفسير بالرأي مضافاً الى عدم تأييد العقل إيّاها والحق أنّ المراد بها الإعتقاد الصحيح والأخلاق الحسنة والعلم بالأحكام وأمثالها ممّا قال الله تعالى فيه ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وأن شئت قلت القرآن والسنة وأما قوله: وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فهو واضح لا خفاء فيه (وأنّ) هنا هي المخففة من الثقلية واللام في لفى هي الفارقة بينها وبين النافية وتقديره وأنّ الشأن والحديث كانوا من قبل لفى ضلال مبين قاله الكشاف وقال سيبويه اسم أنّ مضمّر والتقدير أنّهم كانوا كذلك وأما بيان ضلالهم قبل البعثة فلاّهم كانوا كفاراً وكفرهم هو ضلالهم اقبل منه فاتقد هم الله بالنبي.

قال أمير المؤمنين في وصف العرب قبل البعثة:

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَشَرِّ دَارٍ
مُتَّبِعُونَ بَيْنَ جِبَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَاتٍ صُمٍّ تَشْرَبُونَ الْكَدِيرَ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشَبَ
وَتَسْفِكُونَ دِمَائَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَالْأَنَامُ بِكُمْ
مَغْصُوبَةٌ^(١) انتهى

وقال عليه السلام:

حَتَّى أَفَضْتُ كَرَامَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ
مُنْبِتًا، وَأَعَزَّ الْأَرْوَاحَ مَغْرَسًا، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءُهُ،

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُولِ إِلَى أَنْ قَالَ عليه السلام وَهَفْوَةٍ عَنِ الْعَمَلِ، وَعَبَاوَةٍ
مِنَ الْأَمَمِ^(٢).

وقال عليه السلام:

بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضَلَالٌ فِي حَيْرَةٍ، وَخَابِطُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدْ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ،
وَاسْتَرَلَتْهُمْ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَحَفَّتْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ، حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنْ
الْأَمْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا
إِلَى الْحِكْمَةِ الْمُوعِظَةِ الْحَسَنَةِ^(٣) انتهى كلامه عليه السلام.

وفيه كفاية لما نحن بصدد من إثبات الضلالة والحيرة قبل البعثة للعرب
في عصر الجاهلية وهذا معنى قوله: وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
صدق الله العظيم.

في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ
 أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى
 الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَ
 لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا
 لَا تَبْغَيْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ
 يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
 وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ
 أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلَا
 تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ
 أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا
 آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ
 يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ (١٧٠)

◀ اللّٰغَةُ

مُصِيبَةٌ: بَضْم الميم أصلها في الرَّمِيَةِ ثُمَّ اخْتَصَّتْ بِالنَّائِبَةِ.

أَصَبْتُمْ: الإِصَابَةُ مِنْ أَصَابَ السَّهْمَ إِذَا وَصَلَ إِلَى الْمِرْمَى بِالصَّوَابِ.

نَافَقُوا: النِّفَاقُ سَتَرُ الْكُفْرِ بَقْلِهِ وَإِظْهَارُ الْإِيمَانِ بِلِسَانِهِ.

فَادْرَءُوا: الدَّرَاءُ الْمِيلُ إِلَى أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ يُقَالُ دَرَأْتُ عَنْهُ أَي دَفَعْتُ عَنْ

جَانِبِهِ، وَدَرَأْتُهُ، دَافَعْتُهُ.

◀ الإعراب

قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا فِي مَوْضِعِ رَفْعِ صِفَةِ لِمُصِيبَةٍ مَا أَصَابَكُمْ مَا، بِمَعْنَى الَّذِي وَهُوَ مُبْتَدَأٌ فَيُؤَدِّنُ إِلَهُ الْخَبَرِ وَلَيَعْلَمُ اللَّامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحذُوفٍ أَيْ وَلَيَعْلَمُ اللَّهُ أَصَابَكُمْ هَذَا هُمْ لِلْكَفْرِ اللَّامُ فِيهِ وَفِي قَوْلِهِ لِلْإِيمَانِ مُتَعَلِّقَةٌ، بِأَقْرَبِ يَقُولُونَ مُسْتَأْنَفٌ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي أَقْرَبِ الَّذِينَ قَالُوا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، أَوْ صِفَةٍ، لِلَّذِينَ نَافَقُوا، أَوْ بَدَلًا مِنْهُ، وَفِي مَوْضِعِ جَرٍّ بَدَلًا مِنَ الْمَجْرُورِ فِي أَفْوَاهِهِمْ أَوْ قُلُوبِهِمْ بَلْ أَحْيَاءٌ بَلْ هُمْ أَحْيَاءٌ وَيَقْرَأُ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى أَمَوَاتٍ يُرْزَقُونَ صِفَةٌ لِأَحْيَاءٍ أَوْ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي أَحْيَاءٍ فَرِحِينَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي يُرْزَقُونَ، أَوْ صِفَةٌ لِأَحْيَاءٍ إِذَا نَصَبَ مِنْ فَضْلِهِ حَالٌ مِنَ الْعَائِدِ الْمَحذُوفِ فِي الظَّرْفِ يَسْتَبْشِرُونَ مَعْطُوفٌ عَلَى فَرِحِينَ مِنْ خَلْفِهِمْ مُتَعَلِّقٌ، يَبْلَحِقُوا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ أَيْ بَأَنَّ لَ اخَوْفَ عَلَيْهِمْ، فَانْ مَصْدَرِيَّةٌ وَ مَوْضِعُ الْجُمْلَةِ بَدَلٌ، مِنَ، الَّذِينَ، بَدَلُ الْإِشْتِمَالِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ لَأَنَّهُمْ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ، فَيَكُونُ مَفْعُولًا لِأَجْلِهِ.

◀ التفسير

أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْهَمْزَةِ لِلْإِسْتِهَامِ الْإِنْكَارِي وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ، وَ لَمَّا، نَصَبٌ بِقِلْتَمَ، وَأَصَابَتْكُمْ فِي مَحَلِّ الْجَرِّ بِإِضَافَةٍ، لَمَّا، إِلَيْهِ وَتَقْدِيرُهُ، أَقْلَتُمْ حِينَ أَصَابَتْكُمْ وَأَتَى هَذَا، نَصَبٌ لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ وَالهَمْزَةُ لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّقْرِيعِ، وَالْمُرَادُ بِالْمُصِيبَةِ هُوَ مَا نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ قَتْلِ سَبْعِينَ مِنْهُمْ وَكُفِّهِمْ عَنِ الثَّبَاتِ لِلْقِتَالِ وَإِسْنَادُ الْإِصَابَةِ إِلَى الْمُصِيبَةِ مَجَازٌ كَإِسْنَادِ الْإِرَادَةِ إِلَى الْجِدَارِ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَتَى هَذَا الْمَثَلَانِ اللَّذَانِ أَصَابُوهُمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَتَقَادَةُ وَالزَّبِيعِ وَالضُّحَاكِ وَجَمَاعَةٌ أُخَرَى قَتَلَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْكُفَّارِ سَبْعِينَ وَأَسْرَهُمْ سَبْعِينَ فَالْمَثَلِيَّةُ وَقَعَتْ فِي الْعِدَدِ مِنْ إِصَابَةِ الرِّجَالِ وَقَالَ الزَّجَاجُ قَتَلَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ

سبعين وقتلهم يوم أحد اثنين وعشرين فهو قتل بقتل ولا مدخل للأسرى في الآية لأنهم قُتِلوا فلا مُماثلة بين حالهم وبين قتل سبعين من المؤمنين و قتل المثلية في الإنهزام، هزم المسلمون الكفار يوم بدر وهزمهم أولاً يوم أحد و هزمهم المشركون في آخر يوم أحد و ملخص ذلك هل المثلية في الإصابة من قتل وأسر أو من قتل أو من هزيمة ثلاثة أقوال والأظهر الأول لأن قوله: قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا هو على طريق التفضل منه تعالى على المؤمنين و التسلية له على ما أصابهم فيكون ذلك أبلغ في التسلية و تنبيه على أنهم قتلوا منهم سبعين و اسوا سبعين ابلغ في المنية و التسلية و اما قوله: قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا فَقَدْ قالوا ذالك على سبيل التعجب و الانكار لما اصابهم يوم احد والمعنى كيف اصابنا هذا و نحن نقاتل اعداء الله و قد وعدنا بالنصر و امداد الملائكة فاستفهموا على سبيل التعجب عن ذلك و أنى، سؤال عن الحال هنا و لا يناسب أن يكون هنا بمعنى أين، أو متى لأن الإستفهام لم يقع عن المكان و لا عن الزمان هنا و أنما وقع عن الحالة التي إقتضت لهم ذلك سألوا عنها على سبيل التعجب الرّمخسري، أنى، هذا، من أين هذا كقوله تعالى في قصة مريم، أَنَّى لَكَ هَذَا، لقوله: مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ و قوله: من عند الله انتهى.

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ أي أن سبب هذه المصيبة صدر من عند أنفسكم و اختلفوا في السبب على أقوال:

أحدها: عصيان الزمّة و تسببهم الهزيمة على المؤمنين قاله ابن عباس و مقاتل و غيرهما.

ثانيها: مخالفتهم الرسول في الرأي حين رأى رسول الله أن يقيم بالمدينة و يترك الكفار فقد أخرج ابن جرير عن قتادة أنه قال ذكر لنا أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم أحد حين قدم أبو سفيان و المشركون، أنا في جنة حصينة، يعني ذلك المدينة فدعوا القوم يدخلوا علينا نقاتلهم فقال ناس من الأنصار أنا نكره

أن نقتل في طرق المدينة وقد كنّا نمتنع من ذلك في الجاهلية فبالإسلام أحقّ أن نمتنع فأبرز بنا إلى القوم فأطلق فلبس لأمته فتلاوم القوم فقالوا عرض نبي الله بأمرٍ و عرضتم بغيره أذهب يا حمزة فقل له أمرنا لأمرك تبع فأتى حمزة فقال له أنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتّى يناجز وأنّه سيكون فيكم مصيبة قالوا يانبي الله خاصّة أو عامّة قال ﷺ سترونها، فوقع ما وقع.

الثالث: أنّ السبب هو الفداء الذي أثروه على القتل يوم بدر من غير إذن الله فقد روي الجمهور عن عليّ عليه السلام أنّه قال جاء جبرئيل إلى النبي ﷺ فقال يا محمد أنّ الله تعالى قد كره ما فعل قومك في أخذهم الأسارى وقد أمرك أن تُخيرهم بين أمرين، أمّا أن يقدموا فتضرب أعناقهم، وأمّا أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدّتهم فدعا رسول الله الناس فذكر لهم ذلك فقالوا يا رسول الله عشائرنّا وأخواننا فأخذ فداءهم نتقوى به على قتال عدونا و يستشهد منا عدّتهم فليس ذلك ما نكره فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً عدّه أسارى أهل بدر فهذه هي الوجوه التي ذكروها في المقام إنّ الله على كلّ شيء قديرٌ وقد دلّ على ثبوت هذا في حقّه تعالى العقل والنقل وقد مرّ الكلام فيه وفي أمثاله غير مرّة، قال الرّازي واحتج أصحابنا على أنّ فعل العبد مخلوق لله تعالى قالوا أنّ فعل العبد شيء فيكون مخلوقاً لله تعالى قادراً عليه و إذا كان الله قادراً على إيجاده فلو أوجده العبد إمّتنع كونه قادراً على إيجاده لأنّه لمّا أوجده إمّتنع من الله إيجاده لأنّ إيجاد الموجود محال فلمّا كان كون العبد موجداً له يُفضي إلى هذا المحال وجب أن لا يكون العبد موجداً له انتهى كلامه.

أقول هذا البيان منه عجيب و ذلك لأنّ من يقول أنّ فعل العبد مخلوق للعبد لا له تعالى، لا يقول أنّ الله غير قادرٍ عليه كيف و هو تعالى قادر على إيجاد العبد نفسه فهو على إيجاده فعلة أولى و أقدر، ولكن يقول أنّ الله لا

يوجد له ثلثا يلزم الجبر فعدم الإيجاد لا يدل على عدم القدرة في الفاعل المختار وهو واضح لا خفاء فيه.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ.

أي ما أصابكم يوم أحد والمراد بالجمعان، جمع المسلمين وأجمع المشركين الذين كانوا مع أبي سفيان فَبِإِذْنِ اللَّهِ قيل أي بعلم الله وقيل بإرادته ومشيئته لمصلحة رأها في القتل والهزيمة، وقيل المراد من الأذن الأمر بدليل قوله: ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ قالوا أَلَّا اللَّهُ تعالى لِمَا أَمَرَ بالمُحَارَبَةِ ثُمَّ صارت تلك المحاربة مؤدية الى ذلك الإنهزام صح أن يقال حصل ذلك بأمره على سبيل المجاز.

ووجه آخر، وهو أن أذن الله عبارة عن التخلية وترك المدافعة إستعار الأذن لتخلية الكفار فإنه لم يمنعهم منهم لِيَبْتَلِيَهُمْ لأن الأذن في الشئ لا يدفع المأذون عن مراده فلما كان ترك المدافعة من لوازم الأذن أطلق لفظ الأذن على ترك المدافعة مجازاً و أما قوله: وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ قيل معناه ليعلم إيمان المؤمنين فهو على حذف مضاف أوليمييز أعيان المؤمنين عن أعيان المنافقين و عليه فقوله.

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَضُوا أَخْلَافَهُمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْبِيَائِهِمْ الَّيْنَ أَنْزَلْنَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا الْقَاتِلَ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ وَقِيلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَرَامٍ الْأَنْصَارِيُّ أَبُو جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَ ذَلِكَ لَمَّا انْخَذَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي فِي نَحْوِ ثَلَاثِ مِائَةٍ تَبِعَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ لَهُمْ إِنِّتَقُوا اللَّهَ وَلَا تَتْرَكُوا نَبِيَّكُمْ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا وَنَحْوُ هَذَا مِنَ الْقَوْلِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي مَا أَرَى أَنْ يَكُونَ قِتَالُ وَلَوْ عَلِمْنَاهُ لَكُنَّا مَعَكُمْ فَلَمَّا يَأْسُ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ قَالَ أَذْهَبُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ فَسَيُغْنِي اللَّهُ عَنْكُمْ وَمَضَى حَتَّى اسْتَشْهَدَهُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ

لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ
 أَيُّ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا فِي يَوْمٍ أَحَدٍ أَقْرَبَ إِلَى الْكُفْرِ مِنْهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَ ذَلِكَ
 لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، أَيُّ يَظْهَرُونَ الْإِيمَانَ وَيَبْطِنُونَ الْكُفْرَ
 كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمُنَافِقِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَقِيلَ هُوَ
 عَلَى حَذْفٍ مُضَافٍ أَيُّ هُمُ لِأَهْلِ الْكُفْرِ أَقْرَبُ نَصْرَةً مِنْهُمْ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ لِأَنَّ
 تَقْلِيلَهُمْ سِوَادَ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِنْخِذَالِ تَقْوِيَةً لِلْمُشْرِكِينَ.

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا

حكاية عن حال المنافقين ايضاً حيث قالوا لآخوانهم فى النسب و
 المجاورة لافى الدين اى قالوا لهؤلاء الشّهداء لو قعدوا اى بالمدينة ما قتلوا و
 قيل، قال عبد الله بن أبى و أصحابه لآخوانهم أى لأشكالهم من المنافقين لو
 أطاعونا هؤلاء الذين قتلوا لما قتلوا كما لم نقتل نحن قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ
 أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أى قُلْ يَا مُحَمَّدُ لهؤلاء المافقين لو
 صدقتم فادفعوا الموت عن أنفسكم قيل مات يوم قيل هذا سبعون منافقاً
 وحاصل الكلام أَنَّ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ بِيَدِ اللَّهِ.

قال الله تعالى: قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُفَرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ^(١).

قال الله تعالى: وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ^(٢).

قال الله تعالى: أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ
 مُشِيدَةٍ^(٣).

و غير ذلك من الآيات قال أمير المؤمنين عليه السلام:

وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلْمًا أَوْ لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلًا لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانُ ابْنُ
 دَاوُودَ عليه السلام الَّذِي سَحَّرَ لَهُ مَلِكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَعَ النَّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الرُّلْفَةِ. فَلَمَّا

اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ وَاسْتَكْمَلَ مِدَّتَهُ رَمَتْهُ قِسْيُ الْقَنَاءِ بِنَبَالِ الْمَوْتِ وَاضْبَحَتِ الدِّيَارُ
مِنْهُ خَالِيَةً وَالْمَسَاكِينُ مُعْطَلَةٌ وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ.^(١) الخ ولنعم ما قيل:

و تَجَلَّدِي لِلشَّامَتَيْنِ أُرِيهْمَ أَنِّي لَرِيبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُضُ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظَافِرَهَا أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
وَقَالَ الْآخَرُ:

هُوَ الْمَوْتُ لَا مَنَجِي مِنَ الْمَوْتِ وَالَّذِي نَحَازِرُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَدهَى وَأَفْظَعَ

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرْزَقُونَ.

أكثر المفسرين على أن الآية مختصة بقتلى أحد وقال أبو جعفر وكثير من
المفسرين أنها تتناول قتلى بدر وأحد معاً، وقال الطبرسي رحمته الله قيل نزلت في
شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين و
قيل نزلت في شهداء أحد وكانوا سبعين رجلاً أربعة من المهاجرين، حمزة بن
عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شماس وعبد الله بن جحش و
سائرهم من الأنصار عن ابن مسعود والزبيح و قتادة ثم قال وكان سبب ذلك
على مارواه محمد بن إسحاق بن يسار بأسناده عن أنس بن مالك وغيره قالوا
قدم أبو برا عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة وكان سيد بني عامر بن
صعصة على رسول الله المدينة وأهدى إليه هدية فأبى رسول الله ﷺ أن
يقبلها وقال يا أبا بر لا أقبل هدية مشرك فأسلم أن أردت أن أقبل هديتك وقرأ
عليه القرآن فلم يسلم وقال يا محمد أن أمرك هذا الذي تدعو إليه حسن
جميل فلو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوتهم إلى أمرك أرجو
أن يستجيبوا لك فقال رسول الله ﷺ أني أخشى عليهم أهل نجد فقال أبو برا

أنا لهم جار فأبعثهم فليدعوا النَّاسَ إلى أمرِك فبعث رسول الله المنذر بن عمرو أخابني ساعدة في سبعين رجلاً من خيار المسلمين منهم الحارث بن الصَّمَّة و حزام بن بلحان وعروة بن سمان و نافع بن بديل و عامر بن فهيرة مولى أبي بكر و ذلك في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد فساروا حتَّى نزلوا بئر معونة فلمَّا نزلوا قال بعضهم لبعض أيُّكم يبلغ رسالة رسول الله أهل هذه الماء فقال حزام بن بلحان نا فخرج بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطَّفِيل فلمَّا أتاهم لم ينظر في كتاب رسول الله فقال خرام يا أهل بئر معونة أنِّي رسول الله اليكم و أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمداً رسول الله فآمنوا بالله تعالى ورسوله فخرج اليه رجل من كسر البيت برمح فضرب في جنبه حتَّى خرج من الشَّق الآخر فقال الله أكبر فُزْتُ وربَّ الكعبة ثمَّ إستصرخ عامر بن الطَّفِيل بني عامر على المسلمين فأبوا أن يجيبوه على ما دعاهم اليه أنَّ أبابرا قد عقد لهم عقداً وجواراً فأستصرخ عليهم قاتلوا من بني سليم فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتَّى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم فلمَّا رأوهم أخذوا السيوف فقاتلوهم حتَّى قتلوا عن آخرهم إلاَّ كعب بن زيد فأنَّهم تركوه و به رمق فأرثت بين القتلى فعاش حتَّى قتل يوم الخندق وكان في شرح القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار أحد بني عمرو بن عوف فلم ينههما بمصاب أصحابهما إلاَّ الطير يحوم حول العسكر فقالوا والله أن لهذا الطير لَشَأناً فأقبلا لينظر اليه فإذا القوم في دمائهم و إذا أنجعل ألتي أصابتهم واقفة فقال الأنصاري لعمرو بن أمية ماذا ترى قال أرى أن نلحق برسول الله فنخبر الخبر فقال الأنصاري لكُنِّي ما كنت لأرعب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ثمَّ قاتل القوم حتَّى قُتِل و أخذ عمرو بن أمية أسيراً فلمَّا أخبرهم أنه من مضر أطلقه، عامر بن الطَّفِيل و خر ناصيته و أعتقه عن رقبته زعم أنَّها كانت على أبيه فقدم عمرو بن أمية على رسول الله و أخبره الخبر فقال رسول الله

هذا عمل أبي براء وقد كنت لهذا كارهاً متخوفاً فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه أخفاء عامر إياه وما أصاب رسول الله بسببه فقال حسان بن ثابت يخرص أبا براء على عامر بن الطفيل:

بني أم البنين ألم يرعكم وأنتم من ذوائب أهل نجد ألخ
وقال كعب بن مالك:

بني أم البنين أما سمعتم دُعاء المُستغيث مع النساء ألخ
قال فأنزل الله في شهداء بئر معونة قرأنا بلغو قومنا عما آنا قد لقينا ربنا
فرضي ورضينا عنه ثم نسخت ورفعت بعد قرأناها وانزل الله ولا تحسبن
الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ انْتَهَى.

ما ذكره الطبرسي ونقل القرطبي عن بعض المفسرين قالوا ان اولياء الشهداء كانوا اذا اصابتهم لغة و سرور تحشروا وقالوا نحن كذا لك و ابائنا و ابنائنا و اخواننا في القبور فأنزل الله تعالى هذه الآية تنفيساً عنهم و أخباراً عن قتلاهم، أقول الأراء في شأن نزول الآية مختلفة و الكل محتمل إلا أنه لا يهمننا البحث حول النزول فيها و في غيرها و إنما نذكره تبعاً لفهم الآية فنقول قد أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء وهم الذين قتلوا في سبيل الله بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون مع أن الظاهر أنهم ماتوا كسائر الأموات و أجسادهم في التراب و قد اختلف المفسرون في هذا المعنى فمنهم من ذهب الى أن حياة الشهداء محققة و فضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل حتى كان حياة الدنيا دائمة لهم و منهم من يقول ترد اليهم الأرواح في قبورهم فينعمون كما يحي الكفار في قبورهم فيعذبون، و قال مجاهد يرزقون من ثمر الجنة أي يجدون ريحها و ليسوا فيها و صار قوم الى أن هذا مجاز و المعنى أنهم في حكم الله مستحقون للتنعم في الجنة وهو كما يقال ما مات فلان أي ذكره حي كما قيل: مَوْتَ التقي حياة لا فناء لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء

فالمعنى أنهم يرزقون الثناء الجميل، وقال قوم أرواحهم في أجواف طير خضرٍ وأنهم يرزقون في الجنة ويأكلون ويتنعمون قال القرطبي بعد نقله الأقوال المذكورة وهذا هو الصحيح من الأقوال لأن ما صح به النقل فهو الواقع انتهى كلامه.

أقول أكثر علماء العامة قبل القرطبي وبعده إختار وما إختاره القرطبي من أن المعنى أن أرواحهم في أجواف طير خضرٍ الحديث واليك ما ذكره الطبري في تفسيره قال:

حدّثني يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب قال قال حدّثنا إسماعيل بن عياش عن ابن إسحاق عن إسماعيل بن أمية عن أبي الزبير المكي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ لما أصيب أخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا يا ليت أخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا يتكلموا عن الحرب فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات انتهى.

ثم أن الطبري روي عن ابن عباس أيضاً أنه قال قال رسول الله ﷺ الشهداء على بارق نهرٍ بباب الجنة في قبة خضراء وقال عبدة في روضة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً انتهى. ومن أراد الإطلاع على تفصيل ما ذكره الطبري من الأخبار في المقام فعليه بمراجعة كتابه وهكذا غيره من مفسري العامة مثل الألوسي، والسيوطي وأبوحيان وصاحب الكشف وأمثالهم، فأنهم لم يأتوا بشيء في الباب يعتمد عليه وحمله القول أن بعضهم يقول أن هذه الحياة مجازية وبعضهم يقول أنها

حَقِيقَةٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَنَّهَا دُنْيَوِيَّةٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَنَّهَا أُخْرَوِيَّةٌ وَلَكِنْ لَهَا مِيزَةٌ خَاصَّةٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَنَّهَا حَيَاةٌ بَيْنَ الْحَيَاتَيْنِ وَأَكْثَرُ إِعْتِمَادِهِمْ عَلَى حَدِيثِ الطَّيْرَانِ أَرْوَاحُ الشَّهَدَاءِ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضِرَ كَمَا مَرَّ، وَقَالَ الرَّازِي الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ أَعْلَمُ أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ تَدُلُّ عَلَى كَوْنِ هَؤُلَاءِ الْمَقْتُولِينَ أَحْيَاءَ فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ حَقِيقَةً أَوْ مَجَازًا فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ هُوَ الْحَقِيقَةُ فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ فِي الْآخِرَةِ أَحْيَاءَ فِي الْحَالِ وَبِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ إِثْبَاتُ الْحَيَاةِ الرُّوحَانِيَّةِ أَوْ إِثْبَاتُ الْحَيَاةِ الْجِسْمَانِيَّةِ فَهَذَا أَضْبَطُ الْوُجُوهِ الَّتِي يُمْكِنُ ذِكْرُهَا فِي الْآيَةِ ثُمَّ قَالَ الْإِحْتِمَالُ الْأَوَّلُ أَنَّ تَفْسِيرَ الْآيَةِ بِأَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ فِي الْآخِرَةِ أَحْيَاءَ قَدْ ذَهَبَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ مُتَكَلِّمِي الْمَعْتَزَلَةِ مِنْهُمْ أَبُو الْقَاسِمِ الْكَعْبِيُّ حَيْثُ قَالَ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ حَكَّى اللَّهُ عَنْهُمْ مَا حَكَّى كَانُوا يَقُولُونَ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَعْضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْقَتْلِ فَيَقْتُلُونَ وَيَخْسِرُونَ الْحَيَاةَ وَلَا يَصِلُونَ إِلَى خَيْرٍ وَأَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لِجَحْدِهِمُ الْبَعْثَ وَالْمَعَادَ فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ وَبَيَّنَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ يَبْعَثُونَ وَيَرْزُقُونَ وَيُوصَلُ إِلَيْهِمْ أَنْوَاعُ الْفَرْحِ وَالسُّرُورِ وَالْبَشَارَةِ.

قَالَ الرَّازِي بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ، وَإِعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ عِنْدَنَا بَاطِلٌ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وَجْهُ ثُمَّ أَطَالَ الْكَلَامَ فِي رَدِّهِ بِمَا حَاصِلُهُ أَنَّ حَمْلَ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ أَحْيَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ عَدْوُلٌ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ وَذَلِكَ لِأَنَّ ظَاهِرَ الْحَيَاةِ حَالُ نَزُولِ الْآيَةِ.

ثَانِيًا: أَنَّ جَانِبَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ فِيهِ تَعَالَى أَرْجَحُ مِنْ جَانِبِ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ وَحَيْثُ أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ فِي أَهْلِ الْعَذَابِ أَنَّهُ أَحْيَاهُمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَجْلِ التَّعْذِيبِ حَيْثُ قَالَ يَعْضُونَ عَلَيْهَا غَدَاً وَوَسْطاً فَلَا يُجْعَلُ أَهْلُ الثَّوَابِ أَحْيَاءَ قَبْلَ الْقِيَامَةِ لِأَجْلِ الْإِحْسَانِ وَالْإِثَابَةِ كَانَ أَوْلَى.

ثَالِثًا: لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرُوهُ لَمَا قَالَ لِلرَّسُولِ ﷺ: **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ** الْآيَةُ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ.

رابعاً: قوله تعالى: **وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ** والقوم الذين لم يلحقوا بهم لابد وأن يكونوا في الدنيا فاستبشارهم بمن يكون في الدنيا لا محالة يكون قبل القيامة.

خامساً: ما روى عن ابن عباس أنّ النبي قال في صفة الشهداء أنّ ارواحهم في اجوف طيراً خفر و أنّها ترد انهار الجنة و تاكل من ثمارها حيث شئت و ماوى الى قناديل من ذهب الحديث و قد مر الكلام الرّازى في الإحتمال الأول و جوابه عنه و هو أنّهم سيصبرون في الآخرة أحياء ثم شرّع في تقرير الإحتمال الثاني و هو أن يكون المراد أنّ الشهداء أحياء في الحال فقال، القائلون بهذا القول منهم من أثبت هذه الحياة للروح فقط و منهم من أثبتها للبدن و قبل الخوض فيه يجب تقديم مقدّمة وهى أنّ الإنسان ليس عبارة عن مجموع هذه البنية ويدل عليه أمران:

أحدهما: أنّ أجزاء هذه البنية في الذّوبان والإنحلال والتّبدل والإنسان المخصوص شيء باق من أول عمره الى آخره و الباقي مغاير للمتبدّل والذي يؤكّد ما قلناه أنّه تارة يصير سميناً وأخرى هزيباً و أنّه يكون في أول الأمر صغير الجثة ثم أنّه يكبر و ينمو و لا شك أنّ كلّ إنسان يجد من نفسه أنّه شيء واحد من أول عمره الى آخره فصّح ما قلناه.

الثاني: أنّ الإنسان قد يكون عالماً بنفسه حال ما يكون غافلاً عن جميع أجزائه و أعضائه و المعلوم مغاير لما ليس بمعلوم فثبت بهذين الوجهين أنّ الإنسان شيء مغاير لهذا البدن المحسوس ثم بعد ذلك يحتمل أن يكون جسماً مخصوصاً سارياً في هذه الجثة سريان النّار في الفحم والدّهن في السّمسم و ماء الورد، و يحتمل أن يكون جوهرّاً قائماً بنفسه ليس بجسم و لا حال في الجسم وعلى كلا المذهبين لا يبعد أنّه لمّا مات البدن انفصل ذلك الشّيء حيّاً و أن قلنا أنّه أماته الله إلا أنّه تعالى يعيد الحياة اليه وعلى هذا التقدير تزول

الشبهات بالكليّة عن ثواب القبر كما في هذه الآية و عن عذاب القبر كما في قوله: **أَعْرِضُوا فَأَدْخِلُونَا** فثبت بما ذكرناه أنّه لا إمتناع في ذلك وظاهر الآية دلّ عليه فوجب المصير اليه، ثمّ استدل الرّازي على هذه الحياة بالعقل والنقل أنّ شئت الإطّلاع عليه فراجع كتابه فأنّه قد ذكر في المقام أدلة الفلاسفة الّتي أقاموها على تجرّد النّفس وبقاءها بعد موت البدن وهو من المسلّمات عندهم لأنّهم قالوا النّفس جسمانيّة الحدوث وروحانيّة البقاء قال السبزواري في منظومته:

النفس في الحدوث جسمانيّة وفي البقاء تكون روحانيّة
و معنى روحانيّتها بقاءها بعد موت البدن ودثوره وعدم فناءها بموته و
فناءها كما هو شأن المجرّد ثمّ ذكر الرّازي وجهين آخرين في تفسير الآية:
أحدهما: أن يكون المراد بالحياة حياة الأجساد.

ثانيهما: أن يكون الحياة فيهم على سبيل المجاز دون الحقيقة كما يقال
فلان حيّ وليس بميت، إذا كان صالحاً، قال الشّاعر:

موت التقي حياة لا فناء له قد مات قوم وهم في النّاي أحياء
أقول هذا ما ذكروه في تفسير الآية وأنّ ترى أنّ هذه الوجوه لا يمكن
الإعتماد عليها في تفسير كلام الله.

وقال الطبرسي رحمته الله **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ** الخطاب للنبي صلّى الله عليه وآله أو يكون
على معنى لا تحسبن أيّها السّامع أو أيّها الإنسان **الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**
أي في الجهاد أو في نصرة دين الله **أَمْوَاتًا** أي موتى كما مات من لم يقتل في
سبيل الله أي في الجهاد بل **أَحْيَاءُ** أي بل هم أحياء وقد مرّ تفسيره في سورة
البقرة عند قوله: **وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا** بل **أَحْيَاءُ** ^(١) وقوله:
عِنْدَ رَبِّهِمْ فيه وجهان:

أحدهما: أنهم بحيث لا يملك أحد نفعاً ولا ضرراً إلا ربهم وليس المراد بذلك قرب المسافة لأن ذلك من صفة الأجسام وهو مستحيل على الله تعالى والآخر، أنهم عند ربهم أحياء من حيث يعلمهم كذلك دون الناس عن أبي علي الجبائي، ثم ذكر حديث الطير عن ابن عباس وابن مسعود وجابر عن النبي و ذكر بعده حديث النبي في جعفر الطيار وأن له جناحين يطير مع الملائكة في الجنة ثم قال عنه وأنكر بعضهم حديث الأرواح وقال أن الروح عرض لا يجوز أن يتنعم وهذا لا يصح لأن الروح جسم رقيق هوائي مأخوذ من الريح ويدل على ذلك أنه يخرج من البدن ويعود اليه وهي الحساسة الفعالة دون البدن وليست من الحياة في شيء لأن ضد الحياة الموت وليس كذلك الروح وهو قول علي بن عيسى **عند ربهم** من نعيم الجنة غدواً وعشياً يرزقون النعيم في قبورهم انتهى كلامه.

وقال الطباطبائي في تفسيره الميزان، المراد بالموت بطلان الشعور والفعل ولذا ذكرهما في قوله بل أحياء، وحيث ذكر الإرتزاق وهو فعل والفرح والاستبشار ومعهما شعور، انتهى كلامه.

أقول إذا عرفت كلمات المفسرين من العامة والخاصة في معنى قوله: **بل أحياء** فنقول أما ما ذكره من حديث النبي أنه قال لما أصاب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها الخ.

فهو مما لا يقبله العقل السليم والذوق المستقيم وكفاك شاهداً على ما ذكرناه مضافاً إلى إنكار العقل أيّاه أنه لم ينقل في كتب المعتمدة وأظن أنه من الإسرائيليات أو من موضوعات أبي هريرة الدوسي وأمثاله وذلك لأنه لا معنى لجعل أرواح الشهداء في حواصل طير خضر مع أن الروح لعلو مقامه و شرف رتبته ومكانته عند الله أضافه إلى نفسه تشريفاً وتعظيماً له فقال: **وَنَفَخْتُ**

فِيهِ مِنْ رُوحِي فَكَيْفَ يَعْقِلُ أَنْ يَجْعَلَهُ فِي حَوْصَلَةِ طَيْرٍ وَأَنَّهُ ضَرُورَةٌ اقْتَضَتْ ذَلِكَ أَلَمْ يَجِدْ هُنَاكَ ظَرْفَ أَوْسَعٍ وَاحْسَنَ مِنْهُ مِثْلَ مَا أَنَّ الْإِنْسَانَ أَفْضَلَ وَاشْرَفَ مِنَ الْحَيَوَانِ الْيَسَّ ذَلِكَ سِيرَ نَزُولِيًّا لَهُ ثُمَّ أَنَّهُ آيَةٌ خُصُوصِيَّةٌ فِي التَّصَافِ الطَّيْرِ بِالْخُضْرُوبَةِ الْيَسَّ اللَّهُ بِقَادِرٍ عَلَى حِفْظِ الْأَرْوَاحِ الَّتِي خَلَقَهَا بِدُونِ أَنْ يَجْعَلَهَا فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ وَنَحْنُ نَشِيرُ إِلَى بَعْضِ مَا وَرَدَ فِي الْبَابِ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ طَهَّرَهُمُ اللَّهُ تَطْهِيرًا وَجَعَلَهُمْ عَدْلًا لِكِتَابِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ حَيْثُ قَالَ أَنِّي تَارَكَ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي الْحَدِيثُ.

روى في البحار بأسناده عن أبي ولاد الحنّاط عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له جُعِلَتْ فِدَاكَ يَرْوُونَ أَنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خَضِرٍ حَوْلَ الْعَرْشِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا، الْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ رُوحَهُ فِي حَوْصَلَةِ طَيْرٍ لَكِنْ فِي أَبْدَانٍ كَأَبْدَانِهِمْ إِنْتَهَى.

وَبِأَسْنَادِهِ عَنْ يُونُسَ بْنِ زَيْبَانَ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ فَقُلْتُ يَقُولُونَ تَكُونُ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خَضِرٍ حَوْلَ الْعَرْشِ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سُبْحَانَ اللَّهِ الْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ رُوحَهُ فِي حَوْصَلَةِ طَيْرٍ يَا يُونُسُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ أَتَاهُ مُحَمَّدٌ ﷺ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَإِذَا قَبِضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَيَّرَ تِلْكَ الرُّوحَ فِي قَالِبٍ كَقَالِبِهِ فِي الدُّنْيَا فَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمُ الْقَادِمُ عَرَفُوهُ بِتِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا انْتَهَى.

وَبِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي بصير قال: قلت لأبي عبد الله نَا نَتَحَدَّثُ عَنْ أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُنْهَى فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَرَعَى فِي الْجَنَّةِ وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ تَحْتَ الْعَرْشِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا، إِذَا مَا هِيَ فِي حَوَاصِلِ

طير، قلت فأين هي قال في روضة كهيئة الأجساد في الجنة انتهى^(١).

أقول يظهر من هذه الروايات أنَّ الأرواح في أبدان كأبدانهم في الدنيا كما في الرواية الأولى وهي المعبر عنها بالأبدان المثالية، وإلى هذا المعنى أشارت الثانية أيضاً أو أنها في روضة كهيئة الأجساد في الجنة كما هو ظاهر الحديث الثالث وقد ورد في بعض الأخبار أنها في حجرات في الجنة وهكذا وأما قوله: **عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** فهو كناية عن القرب المعنوي أي أنَّ الأرواح تتقرب إلى ربهم بالإرتزاق بحسب النشأة الآخرة وأما كيفية الحياة والرزق فلا نعلم معناهما والعلم عند الله والذي يجب علينا الاعتقاد بمفاد الآية وأمثالها من المتشابهات في الكتاب وردَّ علمها إلى الله والراسخين في العلم وهم أهل بيت النبوة فما وصل إلينا منهم نقول به وما لم يصل نسكت عنه لقولهم أسكتوا عما سكت الله عنه هذا ما عندي في المقام وأما حكم الشهيد من حيث الغسل والصلاة والكفن وأمثالها من الأحكام فقد أجمع الفقهاء منّا على أنَّ الشهيد لا يغسل ولا يكفن بل يصلى عليه ويدفن بشيابه، وقال القرطبي من العامة في هذا المقام.

الثانية: إذا كان الشهيد حياً حكماً فلا يصلى عليه كالحى حساً وقد اختلف العلماء في غسل الشهداء والصلاة عليهم فذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة والثوري إلى غسل جميع الشهداء والصلاة عليهم إلا قتل المعترك في قتال العدو خاصة لحديث جابر قال النبي، أدفنوهم بدمائهم، إلى آخر ما قال، وقوله إذا كان الشهيد حياً حكماً فلا يصلى عليه كالحى حساً، كلام لا طائل تحته أما أولاً فلاّته قياس وهو باطل في الشريعة.

في القرآن تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

ثانياً: أَنَّ الصَّلَاةَ عَلَى جَسَدِ الْمَيِّتِ لَا عَلَى رُوحِهِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى الصَّلَاةُ تَجِبُ عَلَى الْمَيِّتِ وَالْمَرَادُ بِالْمَيِّتِ مَنْ فَارَقَ رُوحَهُ جَسَدَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فِي الْمَقَامِ فَتَجِبُ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ وَأَمَّا حَدِيثُ جَابِرٍ عَلَى فَرْضِ صَحْتِهِ فَهُوَ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ وَجُوبِ الصَّلَاةِ لِأَنَّ الْمَرَادَ بِقَوْلِهِ أَدْفَنُوهُمْ بِدُمَائِهِمْ، لَا تَغْسِلُوهُمْ كَيْفَ وَقَدْ صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حِمْزَةٍ فِي أَحَدٍ مَعَ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَأْمُرْ بِغَسْلِهِ وَهَكَذَا صَلَّى عَلَى جَمِيعِ الشَّهَدَاءِ فِي جَمِيعِ الْغَزَوَاتِ وَأَعْجَبَ مِنْهُ مَا نَقَلَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ قَالَ كُلُّ مَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا لَمْ يُغْسَلْ وَلِلْبَحْثِ فِيهِ مَقَامٌ آخَرُ.

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ أَيَّ أُنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَرِحُونَ مَسْرُورُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ مِنْ ضُرُوبِ نِعَمِهِ فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي قُبُورِهِمْ وَقِيلَ مَعْنَاهُ فَرِحِينَ بِمَا نَالُوا مِنَ الشَّهَادَةِ وَجَزَاءِهَا وَفِي قَوْلِهِ: **وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ** أقوال:

أحدها: ما نقل عن ابن جريح وقتادة قالا، أي أَنَّهُمْ يَسْرُونَ بِأَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فَارَقُوهُمْ وَهُمْ أَحْيَاءُ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنَاجِهِمُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ لَعَلَّهُمْ بِأَنَّهُمْ أَنْ إِسْتَشْهَدُوا لِحَقِّهَا بِهِمْ وَصَارُوا مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ مِثْلَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ يَقُولُونَ أَخْوَانُنَا يَقْتُلُونَ كَمَا قَتَلْنَا فَيُصِيبُونَ مِنَ النِّعَمِ مِثْلَ مَا أَصَبْنَا.

ثانيها: ما نقل عن السَّدي وَهُوَ أَنَّهُ يُؤْتِي الشَّهِيدَ بَكْتَابِهِ فِيهِ ذِكْرٌ مِنْ تَقَدَّمَ عَلَيْهِ مِنْ أَخْوَانِهِ فَيَسَّرُ بِذَلِكَ وَيَسْتَبْشِرُ كَمَا يَسْتَبْشِرُ أَهْلُ الْعَائِبِ بِقُدُومِهِ فِي الدُّنْيَا.

ثالثها: ما عن الرَّجَّاجِ وَهُوَ أَنَّ مَعْنَاهُ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ فِي الْفِعْلِ إِلَّا أَنَّ لَهُمْ فَضْلًا عَظِيمًا بِتَصَدِّقِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ انْتَهَى ذِكْرُ هَذِهِ الْوُجُوهِ الطَّبْرَسِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ. **رابعها:** ما نقله الْقُرْطُبِيُّ وَهُوَ أَنَّهُ إِشَارَةٌ بِأَنَّ الْإِسْتَبْشَارَ لِلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ إِلَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْ لَمْ يَقْتُلْ وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا عَاينُوا ثَوَابَ اللَّهِ وَقَعَ الْيَقِينَ بِأَنَّ

دين الإسلام هو الحقّ الَّذِي يثيب الله عليه فهم فرحون لأنفسهم بما أتاهم الله من فضله و مستبشرون للمؤمنين بأنّه لافوت عليهم ولاهم يحزنون.

اقول ما ذكروه لأبأس به لأنّ في المقام احتمال آخر وهو أنّ قوله: **فَرِحِينَ بِمَا أُتِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** بعد قوله: **عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** إشارة الى أنّ الفرح الحاصل لهم إنّما حصل لسبب ارتزاقهم في المقام احتمال آخر وهو أنّ في مقام العنّدية أي عند ربّهم وهو كذلك فأوّ الفرح يحصل بعد الوصول الى النعمة والى هذا أشار بعض المتكلّمين حيث قال أنّ الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتّعظيم و عليه فقوله: **يُرْزَقُونَ** إشارة الى أصل المنفعة الحاصلة لهم أعني بها الثواب وقوله: **فَرِحِينَ** إشارة الى الفرح الحاصل لهم بسبب ذلك التّعظيم، بعض العرفاء أنّ جواهر الأرواح القدسيّة اذا أشرقت بالأنوار الإلهيّة تصير مسرورة مبتهجة من وجهين:

أحدهما: صيرورة ذواتها منيرة مشرقة بتلك المعارف الإلهيّة.

ثانيهما: أنّها ناظرة الى ينبوع النور ومصدر الرحمة والجلالة ومن المعلوم أنّ إبتهاجها بالقسم الثاني أعلى و أتمّ منه بالأوّل فقوله: **يُرْزَقُونَ** إشارة الى الأوّل، وقوله: **فَرِحِينَ** الى الثاني ولعلّه الى هذه الدّقيقة أشار الله تعالى بقوله: **مِنْ فَضْلِهِ** أي أنّ الذي أتاهم الله نشأ من فضله وكرمه ورحمته وذلك لأنّ المشغول بالرزق محجوب عن الله وبعبارة أخرى يكون الفرح لأجل كونهم مشمولين لفضله لا لأجل الإرتزاق وأن كان الفرح ناشئاً منه، و عليه فقوله: **وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ** معناه يطلبون البشارة من الله تعالى لأخوانهم الذين كانوا معهم في الدنيا بأن لا يكون لهم خوف ولا حزن فقوله **أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**، في محلّ الخفض وهو بدل، من الذين، وحينئذ يستقيم المعنى والله أعلم.

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا
يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ
وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ (١٧٢) الَّذِينَ
قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ
فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ
نِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ
فَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ
ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

◀ اللغة

الْقَرْحُ: بفتح القاف وسكون الراء مصدر وهو الأثر من الجراحة من شيء يصيبه من خارج والقَرْح أثرها من داخل وقد يقال القرَح بالفتح للجراحة وبالضم للآلم.
لَمْ يَمَسْسَهُمْ: المَسَّ كاللَّمَس لكن اللَّمَس قد يقال لطلب الشيء وأن لم يوجد، والمَسَّ يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللَّمَس وكُنِيَ به عن النِّكَاح فقبل مَسَّهَا وَمَسَّهَا.

◀ الإعراب

يَسْتَبْشِرُونَ هو مستأنف مكرر للتوكيد وَأَنَّ اللَّهَ بالفتح عطف على بنعمة من الله أي وبأن الله، وبالكسر على الإستئناف الَّذِينَ اسْتَجَابُوا، فيه موضع

جَزَ صفة للمؤمنين أو نصب على إضمار، أعني، أو رفع، على إضمارهم، أو مبتدأ وخبره، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا ومنهم، حال من الضمير في، أحسنوا، والذين قال لهم الناس، بدل من الذين إستجابوا، أو صفة فزادهم إيماناً الفاعل مضمَر تقديره زادهم القول حَسْبُ اللَّهِ مبتدأ وخبر وحسب، مصدر في موضع إسم الفاعل تقديره فحسبنا الله بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ في موضع الحال ويجوز أن يكون مفعولاً به لَمْ يَمْسَسْهُمْ حال من الضمير في، إنقلبوا و يجوز أن يكون العامل فيها، بنعمة، و صاحب الحال الضمير في الحال تقديره فأنقلبوا منعمين برأيين من سُوءٍ وَاتَّبَعُوا معطوف على، إنقلبوا ويجوز أن يكون حالاً أي وقد إتبعوا ذَلِكُمْ مبتدأ والشيطان، خبره يُخَوِّفُ يجوز أن يكون حالاً من الشيطان والعامل الإشارة ويجوز أن يكون الشيطان بدلاً أو عطف بيان، و يخوف، الخبر، والتقدير يخوفكم بأولياءه فَلَا تَخَافُوهُمْ أَنَّمَا جمع الضمير لأنَّ الشيطان جنس ويجوز أن يكون الضمير للأولياء.

◀ التفسير

لما قال الله تعالى في الآية السابقة وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ فكأنه قيل وبم يستبشرون فقال تعالى: يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ أي يطلبون البشارة من الله تعالى بشيئين أحدهما النعمة من الله و ثانيهما الفضل منه و قد يقال أَنَّ النعمة والفضل لفظان يعبر بهما عن معنى واحد و قيل في تكراره قولان:

أحدهما: أَنَّ المراد أَنَّها ليست نعمة على قدر الكفاية من غير مضاعفة السُرور واللذة، فالنعمة ما إستحقوا بطاعتهم، والفضل ما زادهم من المضاعفة في لأجر.

ثانيهما: أَنَّهُ للتأكيد و تمكين المعنى في النفس قاله الطبرسي رحمته في المجمع و الحقُّ أَنَّ فيهما الفرق فَأَنَّ النعمة عبارة عن الحالة الحسنة و الفضل

الزَّيَادَةَ عَنِ الْإِقْتَصَارِ وَقَالَ بَعْضُ أَرْبَابِ التَّحْقِيقِ النِّعْمَةُ بِكسر النُّونِ مَا يَنْتَعِمُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمَالِ وَنَحْوِهِ وَبِالْفَتْحِ هِيَ النَّفْسُ الْمُتَنَعِّمَةُ قَالَ وَلَعَلَّ الثَّانِي أَوْلَى فَقَدْ قِيلَ، كَمْ ذِي نِعْمَةٍ نِعْمَةٌ لَهُ، ثُمَّ أَنَا أَنْ قُلْنَا بِأَنَّ الثَّوَابَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الطَّاعَةِ يَكُونُ مِنْ جِهَةِ إِسْتِحْقَاقِ الْعَبْدِ فَالْفَرْقُ ظَاهِرٌ وَأَنْ قُلْنَا مِنْ جِهَةِ الْفَضْلِ وَالْعَبْدُ لَا يَسْتَحِقُّ شَيْئاً لَأَنَّ الطَّاعَةَ مِنْ وَظَائِفِهِ الْمَقْرَّرَةِ لَهُ عَقْلاً وَنَقْلاً فَهُمَا وَاحِدٌ وَكَيْفَ كَانَ فَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُمْ كَمَا يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ عَلَى مَا ذَكَرَ فَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ أَيِ يَطْلُبُونَ الْبَشَارَةَ مِنَ اللَّهِ ثَانِياً لِأَنفُسِهِمْ بِمَا رَزَقُوا مِنَ النِّعَمِ وَ عَلَيْهِ فَتَكَرَّرَ الْاسْتِشْارُ فِي الْآيَتَيْنِ لَيْسَ لِلتَّأْكِيدِ بَلْ لِإِفَادَةِ الْاسْتِشْارِ الْأَوَّلِ كَانَ بِأَقْوَالِ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ وَالثَّانِي كَانَ بِأَحْوَالِ أَنْفُسِهِمْ خَاصَةً هَكَذَا قِيلَ فِي مَقَامِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْاسْتِشْارَيْنِ وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ سِنَخٍ وَاحِدٍ وَيَكُونُ التَّكَرُّارُ لِإِفَادَةِ التَّأْكِيدِ وَ عَلَيْهِ فَاْلَمَعْنَى أَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَطْلُبُونَ الْبَشَارَةَ لِأَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ تَارَةً بِأَنْ لَا خَوْفٌ وَلَا حُزْنٌ عَلَيْهِمْ وَ أُخْرَى بِشُمُولِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَهُمْ كَمَا لِلْمُسْتَبْشِرِينَ، فَالْآيَةُ الْأُولَى لِلدُّنْيَا وَ الثَّانِيَةُ لِلْآخِرَةِ أَيِ يَسْتَبْشِرُونَ بِمَا أَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أَنْ يَسْلُبَ الْخَوْفَ وَ الْحُزْنَ مِنْ أَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ، فِي الدُّنْيَا، وَيُعْطِيهِمُ النِّعْمَةَ وَ الْفَضْلَ فِي الْآخِرَةِ وَلِذَلِكَ قَالَ: **أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ** أَيِ لَا يُضِيعُ أَجْرَهُمْ فِي الدَّارَيْنِ هَذَا عَلَى قِرَاءَةِ الْكَسَائِيِّ حَيْثُ أَنَّهُ قَرَأَ بِكسر الألفِ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ وَ أَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الْفَتْحِ فَالْمَعْنَى يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَبِأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ وَ عَلَيْهِ فَكَأَنَّ الشَّهَدَاءَ أَعْلَمُوا وَ أَخْبَرُوا فِي طَلِبِهِمُ الْبَشَارَةَ بِأَنَّ اللَّهَ يُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَهُوَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ بِطَرِيقٍ أَوْلَى.

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

قَالَ الرَّازِيُّ الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: الْآيَةُ عِنْدَنَا دَالَّةٌ عَلَى الْعَفْوِ عَنْ فَسَاقِ أَهْلِ الصَّلَاةِ لِأَنَّهُ بِإِيمَانِهِ إِسْتَحَقَّ الْجَنَّةَ فَلَوْ بَقِيَ بِسَبَبِ فَسَقِهِ فِي النَّارِ مُؤَبَّداً لَمَا وَصَلَ إِلَيْهِ أَجْرُ إِيْمَانِهِ فَحِينَئِذٍ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَ ذَلِكَ خِلَافُ الْآيَةِ انْتَهَى كَلَامُهُ.

أقول ما ذكره الرّازي لا تدلّ عليه الآية أصلاً وذلك لأنّ الآية تدلّ على أنّ الله تعالى لا يضيع أجر المؤمنين والمؤمن لا يكون مؤمناً بمجرد الاعتقاد القلبي وبعبارة أخرى ليس الإيمان عبارة عن مجرد الاعتقاد بالقلب بل هو مع الإقرار باللسان والعمل بالأركان فمن كان كذلك مؤمناً حقّاً وإلا فلا هذا بالنسبة الى الإيمان واما أنّ فساق أهل الصّلاة يشملهم العفو من الله تعالى أو لا فهو أمر آخر خارج عن مفاد الآية اذ الآية ليست بصدد بيان هذا بل هي بصدد بيان أنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين ومن المعلوم أنّ العفو ليس من الأجر بشيء بل مضافاً الى أنّ العفو لم يذكر في الآية أصلاً فكيف يقول الرّازي أنّ الآية دالة على العفو عن فساق أهل الصّلاة.

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ.

اختلفوا في نزول هذه الآية والذي يقوّي في النّظر هو ما رواه عليّ بن إبراهيم في تفسيره وهو أنّ النّبي لما دخل المدينة في وقعة أحد نزل عليه جبرئيل فقال يا محمّد أنّ الله يأمرك أن تخرج في أثر القوم ولا يخرج معك إلا من به جراحة فأمر رسول الله ﷺ منادياً يُنادي يا معشر المهاجرين والأنصار من كانت به جراحة فليخرج ومن لم يكن به جراحة فليقيم فأقبلوا يضمّدون جراحاتهم ويداوونها فخرجوا على ما بهم من الألم والجرح فلمّا خرجوا بلغ رسول الله حمراء الأسد وقريش قد نزلت الرّوحاء قال عكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد نرجع ونغير على المدينة فقد قتلنا سراتهم وكبشهم، يعنون حمزة فوافاهم رجل خرج من المدينة فسألوه الخبر فقال تركت محمّداً وأصحابه بحمراء الأسد يطلبونكم جدّ الطلب فقال أبو سفيان هذا النّكد والبغي فقد ظفرنا بالقوم وبقينا والله ما أفلح قوم قطّ بغوا، فوافاهم نعيم بن مسعود الأشجعي فقال أبو سفيان أين تريد

قال المدينة لأمتار أهلي طعاماً قال هل لك أن تمرّ بحمراء الأسد وتلقى أصحاب محمد ﷺ وتعلمهم أن حلفائنا وموالينا قد وافونا من الأحابيش حتى يرجعوا عنا ولك عندي عشرة قلائص أملأها تمرّاً وزبيباً قال نعم فوافي عن غد ذلك اليوم حمراء الأسد فقال لأصحاب رسول الله ﷺ أين تريدون قالوا قريشا قال أرجعوا أن قريشا قد اجتمعت اليهم حلفاؤهم ومن كان تخلف عنهم وما أظن إلا وأاثل خيلهم يطلعون عليكم الساعة وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فنزل جبرئيل على رسول الله فقال أرجع يا محمد فإن الله قد أربع قريشاً فرجع رسول الله إلى المدينة وأنزل الله، الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ إلى قوله: أَجْرٌ عَظِيمٌ قال صاحب الكشف، من، في قوله: أَحْسَنُوا مِنْهُمْ للتبيين لأن الذين استجابوا لله، والرسول قد أحسنوا وإتقوا كلهم لا بعضهم، أقول مراده أن كلمة من بيّنته لا تبعية يلزم خروج بعضهم من وصف التقوى والإحسان ولقائل أن يقول أي دليل دل على كونها للتبيين بل الحق بقرينة الحال والمقام كونها للتبعض وذلك لأن أصحاب النبي أكثرهم كانوا من المنافقين في الغزوات وغير الغزوات وأما الذين كانوا من المتقين المحسنين منهم فقد قال الله في كتابه: وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ثم أن قوله: أَحْسَنُوا أي جميع الافعال واتقوا في ترك المنهيات وقيل احسنوا في القول والعقل واتقوا في اخلاصهم العمل لله والامر سهل بعد وضوح المعنى.

بسم القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

كأنه قيل، للذين أحسنوا واتقوا، من هم، فقال الله تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ أي نعيم بن مسعود الأشجعي، أن الناس، يعني أبو سفيان وأصحابه قد جمعوا لكم، حلفاؤهم ومن كان تخلف عنهم، فأخشَوْهم، أي فأخشوا

أباسفيان وأصحابه فزادهم، أي فزاد هذا القول في أصحاب محمد الإيمان بالله بدل الخوف والرعب وقالوا في جواب نعيم بن مسعود **حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** أي أنا لا نخاف من المشركين بل نتوكل على الله ومن يتوكل على الله فه وحسبه، وقد مرّت القصّة نقلاً عن تفسير علي بن إبراهيم آنفاً، فعلى ما ذكرناه في تفسير الآية هي بدلٌ من قوله: **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا**.

أَنْ قُلْتَ أن كان المراد بقوله: **النَّاسُ** هو نعيم بن مسعود الأشجعي كما فسّرتم الكلام به تبعاً لأكثر المفسرين فكان حقّ الكلام أن يقال، الذين قال لهم رجل الآية، فلم قال، الناس، وهو لفظ عامّ يشمل جميع الأفراد أو بعضهم وعبارة أخرى ما وجه العدول من الشخص الى لفظ يشمل العموم.

قُلْتُ قد أجابوا عنه بوجهين:

أحدهما: أن تقدير الكلام جاء القول من قبل الناس فوضع كلام موضع كلام ذكره الرّماني.

الثاني: أن الواحد يقوم مقام الناس لأنّ الإنسان اذا إنتظر قوماً فجاء واحد منهم قد يقال جاء الناس أمّا لتفخيم الشأن وأما لإبتداء الإتيان وقوله: **فَاخْشَوْهُمْ** حكاية عن قول نعيم بن مسعود الأشجعي للمسلمين يعني أخشوا أباسفيان وأصحابه ذكرهما الشيخ في التّبيان، وقد يجاب عنه بوجه آخر وهو أن الواحد اذا قال قولاً وله أتباع يقولون مثل قوله أو يرضون بقوله حسن حينئذ إضافة ذلك الفعل الى الكل.

قال الله تعالى: **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً^(١)**.

قال الله تعالى: **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا^(٢)**.

وهم لم يفعلوا ذلك وأنما فعله أسلافهم إلاّ أنّه أضيف اليهم لمتابعتهم لهم

على تصويبهم في تلك الأفعال فكذا هاهنا يجوز أن يضاف القول إلى الجماعة الراضين بقول ذلك الواحد انتهى ذكره الرّازي في تفسيره.

أقول الحقّ أنّ القائل لم يكن شخصاً واحداً وهو نعيم بن مسعود الأشجعي على ما قيل بل ركّب من عبد القيس مَرّوا على أبي سفيان يريدون المدينة للميرة فجعل لهم جعلاً وهو حمل إبلهم زيباً على أن يخبروا أنّه جمع ليستأصل بقية المؤمنين فأخبروا بذلك فقال الرسول وأصحابه وهم اذ ذاك بحمراء الأسد **حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** وأما الناس الثاني في الآية فلا شك أنّ المراد بهم أبو سفيان وأصحابه، وأنّ ترى أنّ هذا القول أقرب إلى الصواب وإلى مدلول اللفظ والله أعلم ثمّ أنّ في قوله: **فَزَادَهُمْ إِيمَانًا** دلالة على أنّ الإيمان قابل للزيادة والنقص وهو كذلك لأنّ صدقه على مصاديقه يختلف شدةً ونقصاً وكمالاً وضعفاً ومقدماً ومؤخراً ألا ترى أنّ صدق المؤمن على الرسول أشدّ وأكمل وأقدم من صدقه على غيره من أحاد الأمة ثمّ صدقه على أمير المؤمنين كذلك بعد الرسول لأنّه أول من آمن بالله بعده فلا يسمع إلى قول من قال أنّه لا يقبل الزيادة والنقص كأبي حنيفة والشافعي على ما حكى عنهما، وكيف كان فالبحث فيه قليل الجدوى.

فَاتَّقِلُّوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ.

الإنقلاب، والرجوع والمصير واحد وقد فرّق بينهما بأنّ الانقلاب هو المصير إلى ضدّ ما كان قبل ذلك كإنقلاب الطين خرفاً ولم يكن قبل ذلك خرفاً وأما الرجوع فهو المصير إلى ما كان قبل ذلك قاله الشيخ في التبيان وأما قوله: **بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ** فعن السدي ومجاهد، أنّ النعمة العافية والفضل التجارة، والسوء القتل، وقال الزجاج النعمة هاهنا الثبوت على الإيمان في طاعة الله، والفضل، الرّيح في تجارتهم لأنّه روي أنّهم أقاموا في الموضع ثلاثة

أَيَّامَ فَاشْتَرَوْا أَدَمًا وَزَيْبَاءَ رَبَحُوا فِيهِ، وَقَالَ قَوْمٌ أَنْ أَقَلَّ مَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ بِالْخَلْقِ فَهُوَ نِعْمَةٌ وَمَا زَادَ عَلَيْهِ فَهُوَ الْمَوْصُوفُ بِأَنَّهُ فَضْلٌ، وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُمْ عَادُوا وَرَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ إِلَى لِقَاءِ الْكُفَّارِ وَمَنَاجَزَتِهِمُ الْقِتَالَ مَتَمَتِّعِينَ أَوْ مُصْحَبِينَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَهِيَ السَّلَامَةُ أَوِ الْعَافِيَةُ.

روي البيهقي عن ابن عباس أَنَّ عِيرَاتٍ مَرَّتْ فِي أَيَّامِ الْمَوْسَمِ، فَاشْتَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرِيحٌ مَالًا فَفَسَّمَهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَذَلِكَ الْفَضْلُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْمَوْسَمَ هُوَ مَوْسَمُ بَدَارِ الصَّغْرَى، وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ حَتَّى وَافَى بِدْرِ الصَّغْرَى وَهُوَ مَاءُ لَبْنِي كِنَانَةَ وَكَانَتْ مَوْضِعَ سَوْقٍ لَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا فِي كُلِّ عَامٍ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ فَاقَامَ بِبَدْرِ يَنْتَظِرُ ابْنِ أَبِي سَفْيَانَ وَقَدْ صَرَفَ أَبُو سَفْيَانَ مِنْ مَجَنَّتِهِ إِلَى كُلِّ فِسْمَاهُمْ أَهْلَ كُلَّةٍ جَيْشَ السَّوِيقِ وَيَقُولُونَ أَنَّمَا خَرَجْتُمْ تَشْرَبُونَ السَّوِيقَ وَلَمْ يَلْقَ رَسُولُ اللَّهِ وَ أَصْحَابَهُ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرِ وَافُوا السَّوْقَ وَكَانَتْ لَهُمْ تِجَارَاتٌ فَبَاعُوا وَأَصَابُوا الدَّرْهَمَ دَرَاهِمِينَ وَانْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ سَالِمِينَ غَانِمِينَ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: فَانْقَلِبُوا أَيَّامَ فَرَجَعُوا مِنْ بَدْرِ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ أَيَّامَ عَافِيَةٍ وَثَبَاتٍ عَلَى الْإِيمَانِ وَ زِيَادَةٍ فِيهِ وَ فَضْلٌ أَيَّامَ رِيحٍ فِي التَّجَارَةِ لَمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ مِنْ جَرَاخَةٍ وَكَيْدٍ عَدُوٍّ أَوْ قَتْلِ وَ اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ بِجَرَاتِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ مِنَ الْمَدِينَةِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ فَأَنَّ تَعَالَى قَدْ تَفَضَّلَ عَلَيْهِمُ بِالْثَّبِيتِ وَزِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْفِيقِ لِلْمُبَادَرَةِ إِلَى الْجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

قالوا المراد بالشيطان نعيم بن مسعود يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ الْقَاعِدِينَ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُوا فِي مَخَالَفَةِ أَمْرِي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَأَنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي إِثَارَ خَوْفِ اللَّهِ عَلَى خَوْفِ النَّاسِ هَكَذَا فَسَّرَ

الفيض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الآية في الصّافي قال الرّازي في المقام أمّا قوله تعالى فيه سؤال و هو أنّ الذين سمّاهم الله بالشّيطان أمّا خوفوا المؤمنين فما معنى قوله: **الشّيطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** والمفسّرون ذكروا فيه ثلاثة أوجه:

الأول: تقدير الكلام ذلكم الشّيطان يخوِّفكم بأوليائه فحذف المفعول الثاني وحذف الجار ومثال حذف المفعول الثاني قوله تعالى: **فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ** ^(١) أي فاذا خفت عليه فرعون، ومثال حذف الجار في قوله تعالى: **لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا** ^(٢) معناه لينذركم ببأس و قوله: **لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ** ^(٣) أي لينذركم بيوم التّلاق وهذا القراء والزّجاج وأبي عليّ قالوا ويدلّ عليه قراءة أبي بن كعب، يخوِّفكم بأوليائه.

الثاني: أنّ هذا على قول القائل خوفٌ زيداً عمرواً وتقدير الآية، يخوِّفكم أوليائه فحذف المفعول الأوّل كما تقول أعطيت الأموال أي أعطيت القوم الأموال قال ابن الأنباري هذا أولى من إدعاء جارٍ لا دليل عليه، وقوله لينذر بأساً، أي لينذركم بأساً وقوله: **لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ** والتخويف يتعدى إلى مفعولين من غير حرف جرّ تقول خاف زيد القتال وخوِّفته القتال وهذا الوجه يدلّ عليه قراءة ابن مسعود يخوِّفكم أوليائه.

الثالث: أنّ معنى الآية يخوِّف أوليائه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين والمعنى **الشّيطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ويؤثرون أمره فأما أولياء الله فإنّهم لا يخافونه اذا خوَّفهم ولا ينقادون لأمره ومراده منهم وهذا قول الحسن والسّدي ثم قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه، فالقول الأوّل فيه محذوفان والثاني فيه محذوف واحد والثالث لا حذف فيه وأمّا الأولياء فهم المشركون والكفّار، وقال الطّبرسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كُم) من (ذلكم) للخطاب لا للضمير فلا موضع لها من

الإعراب وقوله يخوف يتعدى الى مفعولين والمعنى أن ذلك التخويف و التثبيط عن الجهاد من عمل الشيطان المحض فقال: إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ والمعنى أنما ذلك التخويف الذي كان من نعيم بن مسعود من فعل الشيطان الى آخر ما قال فهذا ما قالوه في تفسير الآية.

أقول أما قوله: ذَلِكَ فهو إشارة الى الركب المثبط ويمكن أن يكون إشارة الى جميع ما جرى من أخبار الركب و عليه فلا بد من تقدير مضاف محذوف تقديره أنما ذلكم فعل الشيطان وقيل قول الشيطان والباقي واضح لا خفاء فيه قوله: فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ففيه نهى عن الخوف وأمر به، أما النهي فبالنسبة الى الشيطان وأوليائه وأما الأمر فمن الله تعالى وأنما علّق الخوف منه تعالى على الشرط وهو الإيمان لأن غير المؤمن بالله لا يخاف منه مع أنه يخاف من الشيطان وأوليائه هذا أن قلنا بأن قوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قيد وشرط لقوله: وَ خَافُونَ فقط وأما إِنْ قلنا بأنه قيد لقوله: فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونَ معاً فالمعنى أن المؤمن بإيمانه يخاف من الله ولا يخاف من غيره فمن كان على غير ذلك فهو ليس بمؤمن حقاً،

أَنْ قُلْتَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى سَابِقاً فَاحْشَوْهُمْ^(١) وفى المقام، فلا تخافوهم.

قلت ما ذكره سابقاً فهو حكاية عن قول القائل أعنى به نعيم بن مسعود أو الركب على اختلاف فيه، والمذكور في المقام أمر ونهي من الله تعالى حكاية عن غيره ولا فرق بين الخشية والخوف إلا بالاعتبار وقد تكلمنا في الخوف والرجاء والخشية سابقاً وستكلم فيها في المستقبل إن شاء الله تعالى وقيل أن الخوف لا يكون إلا من الله والخشية تكون منه ومن غيره فظهر الفرق.

وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُسَارِعُونَ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
(١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ أَشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨)

◀ اللغة

وَلَا يَحْزُنُكَ: الحَزْنُ والحَزَنُ خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم و يضاذه الفرح.
حِظًّا: الحِظُّ النَّصِيب، المقدَّر وقيل في جمعه، أحاط وأحظ.
نُملِّي: الإملاء الإمهال.
إِثْمًا: الإثام والآثام إسم للأفعال المبטئة عن الثواب و جمعه أثام.

◀ الإعراب

شَيْئًا في موضع المصدر أي ضراراً وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْرَأُ بِالْبَاءِ و فاعله الَّذِينَ كَفَرُوا و أَمَّا الْمَفْعُولَانِ فَالْقَائِمُ تَصَامُهُمَا قَوْلُهُ: أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ و ما بمعنى الدِّي أو مصدرية و لا يجوز ان تكون زائدة.

◀ التفسير

قيل في نزول الآية أَنَّ قَوْمًا أَسْلَمُوا ثُمَّ إِرْتَدَّوْا خَوْفًا مِنَ الْمَشْرِكِينَ فَاعْتَمَ النَّبِيُّ ﷺ فَنَزَلَتْ، و قيل يعني به المنافقين ورؤساء اليهود كتموا صفة

النَّبِيِّ ﷺ فِي التَّوْرَةِ فَنَزَلَتْ، وَقَدْ يُقَالُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمَّا لَمْ يُؤْمِنُوا شَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ وَيَقُولُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ فَلَوْ كَانَ قَوْلُهُ حَقًّا لَاتَّبَعُوهُ، فَنَزَلَتْ وَقَالَ الضَّحَّاكُ هُمْ كَفَّارُ قَرِيشٍ، أَقُولُ الْأَوَّلَى حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى الْعُمُومِ وَكَيْفَ كَانَ فِي الْآيَةِ مَسَائِلُ:

الأولى: قوله: وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ الْخَطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ إِغْتَمَّ بِكَفْرِهِمْ وَإِرْتِدَادِهِمْ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ تَسْلِيَةً لَهُ ﷺ إِنْ خِيَارَهُمُ الْكُفْرَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَمَّا كَانَ بِإِرَادَتِهِمْ وَإِخْتِيَارِهِمْ بَعْدَ وَضُوحِ الْحَقِّ وَإِتْمَامِ الْحُجَّةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ الْعَقْلِ وَالرَّسُولِ وَفِي قَوْلِهِ: يُسَارِعُونَ إِنْ شَارَ إِلَى أَنَّهُمْ إِخْتَارُوا الْكُفْرَ بِسُرْعَةٍ مِنْ غَيْرِ تَأَمُّلٍ وَتَدَبُّرٍ فِيمَا إِخْتَارُوهُ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَوْ تَأَمَّلُوا بَعَلِمُوا أَنَّ الْإِسْلَامَ حَقٌّ أَلَّا أَنَّهُمْ بَخِثَ طَبِئَتُهُمْ وَسُوءُ سَرِيرَتِهِمْ وَقَعُوا فِيمَا وَقَعُوا وَمِنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَنْبَغِي الْحُزْنَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ فَعَلَ مَا فَعَلَ بِمِثْلِهِ وَإِخْتِيَارَهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَافِرًا.

الثانية: قوله: إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا أَيَّ أَنَّ وَبَالَ ذَلِكَ عَائِدٌ عَلَيْهِمْ يَضُرُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَأَمَّا أَتَى بِكَلِمَةٍ، لَنْ، دُونَ غَيْرِهَا مِنْ صُرُوفِ النَّفْيِ لِأَنَّهَا لِنَفْيِ الْأَبَدِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَنْ تَرَانِي يَا مُوسَى أَيَّ لَنْ تَرَانِي أَبَدًا فَقَوْلُهُ: لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا مَعْنَاهُ لَنْ يَضُرُّوه أَبَدًا وَالْوَجْهُ فِيهِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيَ بِالذَّاتِ عَمَّا سِوَاهُ وَمَا سِوَاهُ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ أَنْفِقُوا إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَفِيُّ الْحَمِيدُ^(١) وَلَا زَمَ ذَلِكَ عَدَمُ الْإِنْتِفَاعِ بِالطَّاعَةِ وَعَدَمُ الْإِسْتِزْوَارِ بِالْمَعْصِيَةِ إِذْ فِي صُورَةِ الْإِنْتِفَاعِ وَالْإِسْتِزْوَارِ لَا يَكُونُ غَنِيًّا بِقَوْلٍ مُطْلَقٍ بَلْ هُوَ مُحْتَاجٌ وَالْمَفْرُوضُ خِلَافُهُ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي تَالِبٍ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ أَمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاةِ الْخ....

فِي الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جُزْءٌ ٤

الْجِلْدُ الرَّابِعُ

و عليه فلو كانت المعصية و الكفر و أمثالهما مضرّة به تعالى لكان محتاجاً الى دفع الضرر عن ذاته و كلّ محتاج ممكن فهو ممكن و قد فرضناه واجباً هف فلا يكون المعصية مضرّة به تعالى و هو المطلوب.

الثالثة: قوله: يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ أي يريد الله تعالى أن لا يجعل حظاً لهؤلاء المرتدين الكافرين في الآخرة ولهم عذاب عظيم، فيها بكفرهم و إرتدادهم، قال الرّازي أنّه ردّ على المعتزلة و تنصيص على أنّ الخير و الشرّ بإرادة الله، قيل في الجواب أنّه يريد الأخبار بذلك و الحكم به، قالت المعتزلة الإرادة لا تتعلّق بالعدم فالمعنى أنّه تعالى ما أراد ذلك كما قال: **وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ** و قد أجاب عنه الرّازي بأنّ الإرادة تتعلّق بالعدم بدليل الآية.

أقول هذا بعينه مصادرة بالمطلوب و الحقّ في الجواب أنّ الإرادة لم تتعلّق بالعدم المطلق بل تعلّقت بعدم جعل الحظّ لهم في الآخرة وله حظّ من الوجود في علمه تعالى هذا أولاً.

ثانياً: أنّ الإرادة أن تعلّقت بالوجود فهو من تحصيل الحاصل و أن تعلّقت بالعدم فهو محال بقولهم فلقاتل أن يقول بأيّ شيء تتعلّق و المفروض عدم الوساطة بين الوجود و العدم و الحقّ أنّ الإرادة تتعلّق بالعدم لكن لا مطلقاً بل المعدوم في الخارج و الموجود في علم المرید فاذا قلنا نريد أن نقوم بتصور القيام أو عدم القيام أولاً ثمّ نريد أحدهما فالإرادة تتعلّق بالقيام المستصور المعلوم في الدّهن أو بعدمه كذلك ثمّ بها نوجده في الخارج أو لا نوجده هذا فينا ظاهر و أمّا في الله تعالى فالإرادة تتعلّق بما هو موجود في علمه الكلام في الإرادة في موضعه إن شاء الله، و محصل الكلام أنّ المعنى أنّ الله يريد أن يحكم بحرمان ثوابهم الذي عرضوا له بتكليفهم و هو الذي يليق بمذهبنا لأنّ الإحباط عندنا باطل فالله تعالى يعاقبهم في الآخرة على سبيل الجزاء لكفرهم

ونفاقهم بعض المفسرين في هذا الكلام دلالة على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفرو كفرهم بلغ الغاية حتى أراد أرحم الراحمين أن لا يكون لهم حظ من رحمته ومع ذلك قال ولهم عذاب عظيم، أي مضافاً الى الحرمان عن الثواب.

فأن قيل كيف قال: يُرِيدُ اللَّهُ وهذا إخبار عن كونه مريداً في حال الأخبار وإرادة الله تعالى لعقابهم تكون يوم القيامة فيلزم تخلف الإرادة عن المراد المعلوم أن تقديم الإرادة على وجه أن يكون عزمًا وتوطئاً للنفس لا يجوز عليه تعالى، قلنا عنه جوابان:

أحدهما: قال أبو علي معناه أنه سيُريد في الآخرة حرمانهم الثواب لكفرهم الذي إرتكبهوه.

الثاني: أن الإرادة متعلقة بالحكم بذلك وهو حاصل في حال الخطاب قاله في التبيان.

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

اختلفوا في المراد بقوله: إِنَّ الَّذِينَ الخ على قولين:

أحدهما: أن المراد بهم الكفار وعليه فالمعنى أنهم كانوا يعرفون النبي ﷺ قبل بعثه يستفرون به على أعداءهم فلما بعث كفروا به وتركوا ما كانوا عليه فكانهم أعطوا الإيمان واخذوا الكفر بدله عنه كما يفعل المشتري من اعطاء الشيء واخذ غيره بدلاً عنه.

ثانيهما: أن المراد بهم المنافقون وذلك لأنهم متى كانوا مع المؤمنين أظهروا الإيمان وإذا خلوا الى شياطينهم أظهروا الكفر فكان ذلك كأنهم إشتروا الكفر بالإيمان ذكر الرازي في تفسيره والحق أن الآية على عمومها فتشمل كل من كان أو يكون كذلك الى يوم القيامة، ثم أن المفسرين فسروا الإشتراء

بالإستبدال فقالوا أي أن الذين إستبدلوا الكفر بالإيمان ومن المعلوم أن إطلاق لفظ الشراء على ذلك مجاز لكن لما فعلوا الكفر بدلاً من الإيمان شبه ذلك بشراء السلعة بالثمن وبيّن أن من فعل ذلك لا يضر الله شيئاً لأن مضرته عائدة عليه وقد تقدّم الكلام فيه وأتما كرّر قوله: **لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا**، لوجوه:

أحدها: ما ذكره الشيخ في التبيان وتبعه الطبرسي في المجمع وهو أن قوله في الآية السابقة على طريقة العلة لما يجب من التسلية عن المسارعة إلى الضلالة وأما في هذه الآية على وجه العلة لإختصاص المصرة للعاصي دون المعصى.

ثانيها: ما ذكره الرّازي وهو أنهم كانوا كافرين أولاً ثم آمنوا ثم كفروا بعد ذلك وهذا يدل على شدة الإضطراب وضعف الرأي وقلة الثبات ومثل هذا الإنسان لا خوف منه ولا هيبة له ولا قدرة له ألّبتة على إلحاق الضرر بالغير.

ثالثها: ما ذكره أيضاً وهو أنه لا شك أن أمر الدين من أهم الأمور وأعظمها ومثل هذا ممّا لا يقدم الإنسان على دفعه أو تركه إلا بعد إمعان النظر وأما هؤلاء فحيث أقدموا فيه بأهون الأسباب وأضعف الموجبات فلا محالة لا يلتفت العاقل اليهم لشدة حماقتهم وقلة عقلهم.

رابعها: ما ذكره أيضاً وهو أن نزاعهم معك في الدين منشأ الحسد والمنازعة في منصب الدنيا ومن كان عقله هذا القدر وهو أنه يبيع بالقليل من الدنيا السعادة العظيمة في الآخرة، لا تقدير على إلحاق الضرر بالغير فهذا هو الفائدة في إعادة هذه الآية انتهى كلامه ملخصاً.

أقول ما ذكره الرّازي لا فائدة فيه أصلاً بل هو غير مرتبط بما نحن فيه لأن الآية بصدد إثبات أنهم لا يقدرّون على أن يضرّوا الله شيئاً لا أنهم لن يضرّوا غيرهم ولا شك أنهم أي الكفار أو المنافقون كانوا يقدرّون على إلحاق الضرر بغيرهم كما فعلوا بهم بأحد نعم أنهم لم يقدرّوا على الإضرار بالله تعالى وهو

أمر آخر والحاصل أنَّ الكافر قادر على الإضرار بالغير وغير قادر على الإضرار بالله و أنت ترى أنَّ ما ذكره الرّازي يدلّ على قلّة عقلهم و سفاهتهم و أنّهم عاجزون عن إلحاق الضّرر بالغير وهو أمرٌ يبطله الحسّ و العيان مضافاً الى أنّه لا ملازمة بين قلّة العقل و عدم إلحاق الضّرر بالغير وهو واضح لا خفاء فيه و الذي يخطر بالبال في حلّ الإشكال هو أنَّ الآية الأولى نزلت في حقّ المسارعين الى الكفر و معلومٌ أنَّ المستمر عليه لا يوصف بأنه مسارع في الكفر و أنّما يوصف بالمسارعة من يكفر بعد الإيمان و عليه فلا يبعد أن يكون نزول الآية في شأن المرتدين الذين إرتدّوا عن الإسلام و أقبلوا الى الكفر ثانياً بعد ما تركوه أولاً من دون تأملٍ و تدبّرٍ إذ لو تأملوا فيه لما تركوه و أنّما قلنا ذلك لأنّ المسارعة الى الشئ المبادرة اليه بسرعةٍ من دون إمعان النظر و التدبّر فيه و لذلك قيل العجلة من الشيطان لأنّها تقديم الشئ قبل وقته و حيث أنّهم سارعوا الى الكفر قال الله تعالى: **لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا** و أنّما مضرتّه عائدة عليهم فإنّ الله غني عن العالمين.

و أمّا في الآية الثانية فالحكم مطلقٌ أي من رجّح الكفر على الإيمان سواء كان بالمسارعة اليه أم بالإستمرار فلن يضروا الله شيئاً، فظهر الفرق و أن شئت قلت عدم الإضرار بالله أمرٌ محقّق لا مرية فيه إلّا أنّه في الآية الأولى مقيدٌ أو مختصّ بالمسارعين في الكفر و في الثانية ناظرٌ الى مطلق الكفر و الكفار بل كلّ مخالفٍ للحقّ و ظاهر أنّ إثبات الشئ للمقيّد أو نفيه عنه لا يوجب إثباته أو نفيه للمطلق بل الأمر بالعكس هذا كلّهُ مضافاً الى أنّ التكرار يفيد التأكيد و قال صاحب تفسير المنار ما هذا لفظه، قال الأستاذ الإمام (الشيخ محمّد عبده) و من فقه الأيتين علم أنّ تلك في المسارعين في الكفر و هذه في الذين إشتروا الكفر بالإيمان أي إختاروه و رضوا به كما يرضى المشتري بالسّلعة بدلاً من الثمن و يراها بعد بذله فيها متاعاً ينتفع به بل الشأن في المشتري أن يرى ما

أَخَذَهُ أَنْفَعُ لَهُ مِمَّا بَذَلَهُ وَهَذَا الْوَصْفُ أَعَمُّ مِنَ الْأَوَّلِ وَسَاقُ الْكَلَامِ إِلَى أَنْ قَالَ فِي إِعَادَةِ الْعِبَارَةِ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ فَائِدَتَانِ.

إِحْدَاهُمَا: أَنَّ فِيهَا قِسْمًا مِنَ الْكَافِرِينَ لَمْ يَذْكُرُوا فِي الْآيَةِ الْأُولَى.

الثَّانِيَّةُ: أَنَّ فِيهَا مَعَ تَأْكِيدِ عَدَمِ إِضْرَارِهِمُ بِالنَّبِيِّ ﷺ بَيَانًا لِحَالِ مَنْ أَحْوَالُهُمْ يَدُلُّ عَلَى سَخَافَتِهِمْ وَضَعْفِ عَقُولِهِمْ إِذْ رَضُوا بِالْكَفْرِ وَإِخْتَارُوهُ وَحَسْبُوهُ مَنْفَعَةٌ وَفَائِدَةٌ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا قِيَمَةَ لَهُمْ فَيَخَافُ مِنْهُمْ أَوْ يَحْزَنُ عَلَيْهِمْ انْتَهَى.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثْمِلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثْمِلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ

إِعلم أَنَّ الْآيَةَ كَأَنَّهَا جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ مُّقَدَّرٍ وَهُوَ أَنَّ الْكَفَّارَ قَدْ يَكُونُوا مُتَمَتِّعِينَ بِالدُّنْيَا مُنْغَمِرِينَ فِي لَذَاتِهَا قَدْ تَكُونُ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْقُوَّةِ مَا تَمَكَّنْهُمْ مِنَ الْإِعْتِدَاءِ عَلَيْنَا كَمَا هُمْ الْآنَ كَذَلِكَ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمَالَ وَالْجَاهَ وَالْقُدْرَةَ وَبِالْجُمْلَةِ كُلِّ مَا يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا سَوَاءٌ حَصَلَ لِلْمُؤْمِنِ الْمُسْلِمِ أَمْ الْكَافِرِ الْمَعَانِدِ فَلَوْ كَانَ الْكَافِرُ مَغْضُوبًا وَالْمُؤْمِنُ مُحِبُّوبًا لَهُ تَعَالَى فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْأَقْرَبُ فَازَالَ اللَّهُ هَذَا الْوَهْمَ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَامْتَالَهَا فَقَالَ: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَرَأَ حَمْزَةً وَلَا تَحْسَبَنَّ بِالتَّاءِ وَفَتْحِ السَّيْنِ وَالْبَاقُونَ بِالْيَاءِ فَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ الْمُخَاطَبُ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَى الثَّانِي فَالْمَعْنَى أَنَّ الْكَفَّارَ لَا يَحْسِبُونَ كَذَلِكَ وَالْمَشْهُورُ بَيْنَ الْقُرَّاءِ الثَّانِي وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ: يَحْسَبَنَّ فَعَلَ وَقَوْلُهُ: الَّذِينَ كَفَرُوا فَاعِلٌ يَقْتَضِي مَفْعُولِينَ أَوْ مَفْعُولًا يَسُدُّ مَسَدَ الْمَفْعُولِينَ نَحْوَ حَسِبْتُ فَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ، أَنَّمَا نُثْمِلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ يَسُدُّ مَسَدَ الْمَفْعُولِينَ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ^(١).

و أمّا على قراءة حمزة بالتاء فالمفعول الأوّل هو أنّ الَّذِينَ كَفَرُوا و أنّما نُمَلِّي لَهُمْ بدلً عنه، و خير لأنفسهم هو المفعول الثّاني والتقدير و لا تحسبن يا محمّد إماء الذين كفروا خيراً لهم، و أمّا، ما، في قوله: أنّما فقليل أنّه بمعنى، الذي فيكون التّقدير لا يحسبنّ الذين كفروا أنّ الذي نُملّيه خيراً لأنفسهم و حذف الهاء من، نملّي، لأنّه يجوز حذف الهاء من صلّة، الذي، كقولك الذي رأيت زيد و قيل أنّ ما مصدرية و التقدير أنّ إملائي لهم خير وهذا هو الذي اختاره صاحب الكشاف قال، ما مصدرية بمعنى و لا تحسبنّ أنّ إملاؤنا خير و كان حقّها في قياس علم الخطّ أن تُكتب مفصولة ولكنّها وقعت في الأمام متصلة فلا يخالف و تتبع سنّة الأيام في خطّ المصاحف (مقصوده من الإمام عثمان بن عفّان) و أمّا، ما، في قوله: إنّما نُملّي لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْماً فحقّها أن تكتب متصلة لأنّها كافّة دون الأولى إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير الآية فنقول قد مرّ في شرح اللّغات أن الإماء، الإمهال و ذلك لأنّ معنى، نملّي، نطيل و نوخّر و نقل عن الواحدي أنّ اشتقاقه من الملوّة و هي المدّة من الزّمان يقال ملوّث من الدّهر ملوّة و ملوّة و ملاوّة بمعنى واحد قال الأصمعي يقال أملاً عليه الزّمان أي طال، والمقصود من الآية أنّ سنّة الله قد جرت في الإجماع البشري أنّ الإنسان يبلغ الخير بعمله الحسن و يقع في الضّير بتقصيره في العمل الصّالح و تسميره في عمل السيّئات والعبرة بالخواتيم فكأنّه قال أنّ هذا إماء للكافرين و ليس عناية من الله بهم وإنّما هو جرى على سننه في الخلق و هي أن يكون ما يُصيب الإنسان من خيرٍ و شرٍّ هو ثمرة عمله مقتضى هذه السنّة العادلة أن يكون الإماء للكافر علّة لغروره و سبباً لاسترساله في فجوره فيوقعه ذلك في الإثم الذي يترتّب عليه العذاب المهين هكذا قرّره بعض المفسّرين من المتأخّرين ونحن نشرح ألفاظ الآية ونقول فيها ما هو الحقّ عندنا و لا يحسبنّ الَّذِينَ كَفَرُوا أنّما نُملّي لَهُمْ خَيْرٌ لأنفسهم

أي أن الخير ليس في الإمهال وإرخاء العنان للإنسان ليعمل بحسب إستعداده وميله ما يشاء وذلك لأن هذه سنة الله في جميع البشر حيث أنهم يقولون و يفعلون ما يشاؤون و يختارون لأنفسهم في حياتهم ما يريدون وإنما الخير للإنسان يكون في الإملاء وطول الأجل مع التمكن من العمل الصالح إذا كان يزداد فيه لينتفع به في نفسه ويرتقي به في الأخلاق العالية والصفات الفاضلة و ينفع به الناس في تهذيب أنفسهم و تحسين معيشتهم هذا هو الخير والصالح و السعادة الكفارة و المشركون و أمثالهم ممن حذى حذوهم في القول والعمل و أن كانوا من المسلمين فأنهم لا يزدادون بجهلهم و سوء إختيارهم إلا الإثم والذنب والطغيان بالتمادي في مكابرة الحق، و الإسترسال في الفسق و تأييد سلطان الشرفي الخلق والظلم على الناس بغصب حقوقهم وهتك أعراضهم و غير ذلك من الأمور أن قلت إذا كان الإمهال و الإملاء في الدنيا سبباً و باعثاً للطغيان والذنب فهو مذموم في نفسه فعدمه أولى من وجوده و لازم ذلك أن لا يستله العبد من الله لكونه موجباً للمعصية و البعد عن مقام القرب، قلت ليس الأمر على ما زعمت و ذلك لأن الإمهال من الله تعالى للعبد من أحسن النعم إذ به يتمكن من التوبة والعمل الصالح وقضاء ما فات منه من الخيرات وهكذا يمكن و يقدر على إزدياد الذنب والعصيان فنفس الإمهال منه تعالى لا ضير فيه وإنما الضير في سوء الإستفادة منه وإلى هذه الدقيقة قال: **وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرَ لَأَنْفُسِهِمْ وَلَمْ يَقُلْ وَلَا يَحْسِبَنَّ الْإِنْسَانَ مَثَلًا** وذلك لأن الكافر بسوء سريرته و خبث طينته و بعده عن الإيمان والمعرفة يسلك مسلك الشيطان و يتبع الهوى فيتضرر بالنعمة التي أنعمها الله عليه بإختياره وإرادته و من المعلوم أن كيفية الإستفادة من النعمة بيد العبد و أن كان أصلها بيد الله و بعبارة أخرى الإمهال أو كل نعمة من النعم من الله تعالى إفاضاته على العبد هو خير قطعاً إذ لا يصدر منه تعالى

شر اصلاً واما صرف النعمة فهو بيد العبد المختار ان شاء صرفها في الطاعة و ان شاء في المعصية ولذلك قال الله تعالى: **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ أَي نَمْلِي** ونمهل للكفار في الدنيا ليكون فوجبا لازياد الاثم لهم ففي هذا الكلام إخبار منه تعالى بأن الكفار لا يصرفون النعمة إلا في طريق المعصية فلا يكون الإمهال لهم سبباً وموجباً لتنبههم وتيقظهم من نوم الغفلة بل يصير باعثاً لغرورهم وعجبهم وإنهماكهم في المعاصي فكلما يكون الإمهال لهم أكثر يكون المعاصي أكثر وهذا هو الداء الذي لا دواء له إلا يرجعون الى الحق وحيث أن كثرة النعمة والإمهال في الدنيا غرتهم فلا محالة لا يرجعون عما هم عليه ولا ينتبهون وإذا كانوا كذلك فلهم عذاب مهين في الآخرة بسبب أعمالهم في الدنيا التي صدرت عنهم باختيارهم وإرادتهم وماربك بظلام للعبيد وحيث إنجر الكلام الى هنا فلا بأس بنقل ما إستفاده الرّازي من الآية تبعاً لغيره من الأشاعرة والجواب عنه قال:

المسألة الخامسة: إحتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة القضاء والقدر من وجوه:

الأول: أن هذا الإملاء عبارة عن إطالة المدّة وهي لا شك أنها من فعل الله تعالى والآية نصّ في بيان أن هذا الإملاء ليس بخير وهذا يدلّ على أنه سبحانه فاعل الخير والشر انتهى.

والجواب أن الآية ليست نصّاً في أن الإملاء ليس بخير بل الآية نصّ في أن الكفار يصرفونه في الشر وهو لا ينافي أن يكون في حدّ ذاته خيراً كما هو كذلك ففاعل الشر أنما هو العبد بعمله وفعله والله تعالى منزّه عنه.

قال الثّاني: أنه تعالى نصّ على أن المقصود من هذا الإملاء هو أن يزدادوا الإثم والبغي والعدوان وذلك يدلّ على أن الكفر والمعاصي بيد الله وإرادته ثم أنه تعالى أكّد ذلك بقوله: **وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** أي أنما نملي لهم ليزدادوا إثماً وليكون لهم عذاب مهين.

والجواب عنه هو أَنَّ الله تعالى عالم بأنَّهم سيفعلون كذلك و بعبارة أخرى أَنَّ الله يعلم بأنَّ الإمهال لهم يكون موجباً لزيادة الإثم فيهم و أمَّا أَنَّ علمه به يكون سبباً و علّة لعصيانهم فهو أوّل الكلام و على المدّعى الإثبات و عليه فقله أنّه تعالى نصّ على أَنَّ المقصود من هذا الإملاء هو أن يزدادوا الإثم و البغي ليس في محلّه وحقّ العبارة أن يقال أنّه تعالى نصّ على أَنَّ المعلوم من هذا الإملاء هو إزدیاد الإثم و ذلك لأنّ قصد الإثم منه تعالى قبيح فأنّ قصد الإثم إثم من وجه و هو تعالى منزّه عنه فالكفر والمعاصي بيد العبد و بإرادته و أن كان معلوماً له تعالى قبل الوجود.

قال الثالث: أنّه تعالى أخبر عنهم أنّه لا خير لهم في هذا الإملاء و أنّهم لا يحصلون إلّا على إزدیاد البغي والطّغيان والإتيان بخلاف فخير الله تعالى مع بقاء ذلك الخير جمع بين التقيضين و هو محال و إذا لم يكونوا قادرين مع ذلك الإملاء على الخير والطّاعة مع أنّهم مكلفون بذلك لزم في نفسه بطلان مذهب القوم.

والجواب عنه أن الأخبار عنهم بأنّه لا خير لهم في هذا الإملاء و أنّهم لا يحصلون إلّا على إزدیاد البغي والطّغيان ليس معناه أَنَّ الفاعل هو الله تعالى دون العبد و الألزم أن يكون كلّ مخبر عن شيء محقق الوقوع فاعلاً له و لا يقول به عاقل فضلاً عن عالم ألا ترى أنّه لا يصحّ إسناد الفعل إلى المخبر عنه بل يسند إلى فاعله المباشر له و أمّا قوله و الإتيان بخلاف مخبر الله مع بقاء الخير جمع بين التقيضين فهو أشبه شيء بالسّفطة و ذلك لأنّ الإتيان بالفعل خلاف المعلوم لا أنّه جمع بين الفعل و التّرك حتّى يقال أنّه جمع بين التقيضين، و أمّا قوله و إذا لم يكونوا قادرين مع ذلك الإملاء على الخير والطّاعة الخ فالجواب أنّهم قادرون مع ذلك الإملاء على الخير كغيرهم من المؤمنين القادرين إلّا أنّهم أي الكفّار بإختيارهم و إرادتهم أعرضوا عن الخير و أقبلوا على الشرّ لا أنّهم لم

يكونوا قادرين على الخير، أليس يزيد بن معاوية قادراً على أن لا يأمر بقتل الحسين أليس عمر بن سعد و شمر و أمثالهما من الأشرار قادرين على ترك القتال كما تركه حرّ بن يزيد الرياحي ولحقّ بالحسين وأصحابه أليس أبوسفیان قادراً على ترك القتال والمناجزة وهكذا وهكذا ألا ترى أنّ النجاشي كان من الكفّار وقد كان الله تعالى أملى عليه وهو مع ذلك أسلم وحسن إسلامه ولم يكن الإماء في حقّه موجباً لإزدياد الإثم بل كان موجباً لإزدياد الطّاعة وكم له من نظير في التاريخ بل وفي زماننا هذا فليس كلّ من أملى الله عليه أثماً طاعياً والآية أيضاً لا تدلّ عليه بل تدلّ على أنّ بعض الكفّار أو أكثرهم كذلك فإنّ الحكم دائماً يكون باعتبار الأغلب وهذا واضح لا خفاء فيه هذا كله بناءً على ما سلكه القوم في تفسير الآية من أنّها مختصة بالكافرين أعني بهم من لا يؤمن بالله وبرسوله وبعبارة أخرى إختصاصها بالكافر المصطلح وأمّا قالوا عممنها وقلنا أنّ المراد بالكافرين فيها الكافرين بالمعنى الأعم لتشمل الكافرين بالنعم الإلهية أيضاً وأن يكونوا مسلمين بحسب العرف فدائرة المعنى تكون أوسع و أشمل وهذا ممّا لا إشكال فيه بحسب اللفظ اذ لم يدلّ دليل على إرادة الخصوص منها إلا كونها في سلك الآيات الواردة في غزوة أحد و ظاهر أنّه لا يكفي في إرادة الخصوص منها و ذلك لأنّ نظير الآيات ليس على ترتيب نزولها فمن المحتمل عدم نزولها في قصة احد و يؤيد هذا الاحتمال أنّ الآية بصدد بيان حكم آخر لا ربط له بما وقع في احد من الكفار والمشرّكين نعم أمّا تشتمل الكفّار على سبيل العموم فلا فيكون بعض الكفّار في احد منهم مصدوماً و اين هو من اختصاصها بهم و قد بعث أنّ لفظ العامّ يحمل على عمومهِ إلا أنّ يدلّ دليل على إرادة الخصوص منه المعبر عنه بالمخصّص متصلاً كان أو منفصلاً واذ ليس في المقام من المخصّص عين ولا أثر فالقاعدة تقتضي حمل لفظ العامّ على عمومهِ فالمراد بالكافرين في الآية كلّ الكفّار على

إختلاف أصنافهم حتّى الكافرين بالنعم لصدق الكفر عليهم بحسب اللّغة المطلوب اذا عرفت هذا فنقول أنّ الله تعالى قد أخبر بهذه الآية أنّ الإملاء و الإمهال لأولياء النعم في درا الدّنيا لا يكون خيراً لأنفسهم لأنّ الكافر بالنعمة لا يصرفها إلّا في طريق المعصية فلا محالة يزداد بعمله إثماً فوق إثم و معصية فوق معصية فلا ينبغي له أن يغترّ بها و يظنّ أنّ نفس الإملاء خيرٌ له و ذلك لأنّه للمؤمن خير و للكافر شرّ في الأغلب و ليس معنى هذا الكلام أنّ الله تعالى أراد من الكافر شرّاً و من المؤمن خيراً على سبيل الجبر والإكراه كما قالت الأشاعرة بل المعنى أنّهم يكونون كذلك نوعاً فهو إخبار منه تعالى بما سيقع عنهم على سبيل الإختيار لا إجبار وإكراه على الفعل.

قال الله تعالى: لَنُؤْتِيَنَّكَ مِنْ لَدُنْكَ كَفْرًا إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ^(١).

قال الله تعالى: وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ^(٢).

قال الله تعالى: وَمَنْ عَمِلْ ضَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَفْهَدُونَ^(٣).

فهذه الآيات وأمثالها قد دلّتنا على أنّ مصير الكفر بأيّ معنى كان الى العذاب و النكال و ما نحن فيه أيضاً من هذا القبيل فالقول بأنّ الله أمهلهم في النعمة ليكون لهم عذاب مُهين لا نفهم معناه بل نشم منه رائحة الكفر والإلحاد لو أريد منه سلب الإختيار عن العبد نعم لو أريد منه أنّ مصيره اليه بإختياره و إرادته فهو حقّ و سيأتى الكلام في هذه المباحث فى المستقبل بوجه أبسط



مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ
 حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ
 لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ
 رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ
 تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلَا
 يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا
 بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَ
 الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

◀ اللغة

لِيَذَرَ: يَذَرُ الشَّيْءُ أَي يَقْذِفُهُ لِقَلَّةِ إِعْتِدَادِهِ بِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمَلْ مَاضِيَهُ.
 يَجْتَبِي: فَعَلَ مُضَارِعٌ مِنْ اجْتَبَى وَالْمَصْدَرُ مِنْهُ، الْاجْتِبَاءُ وَمَعْنَاهُ الْإِخْتِيَارُ
 لِأَنَّهُ مَأْخُذٌ مِنْ جَبِيئِ الْمَاءِ فِي الْحَوْضِ جَمْعَتُهُ.
 سَيُطَوَّقُونَ: أَصْلُ الطَّوْقُ مَا يَجْعَلُ فِي الْعُنُقِ خَلْقَةً كَطَوَقِ الْحَمَامِ أَوْ صَنْعَةً
 كَطَوَقِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَيَتَوَسَّعُ فِيهِ فَيُقَالُ طَوَّقْتَهُ كَذَا كَقَوْلِكَ قَلَّدْتَهُ وَذَلِكَ عَلَى
 التَّشْبِيهِ.
 مِيرَاثُ: الْمِيرَاثُ تَرَكَةُ الْمَيِّتِ.

◀ الإعراب

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ خَبَرَ كَانَ مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ مَا كَانَ اللَّهُ مَرِيداً لِأَن يَذَرَ وَلَا
 يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ، لِيَذَرَ، لِأَنَّ الْفِعْلَ بَعْدَ اللَّامِ يَنْتَصِبُ بِأَنْ فَيَصِيرُ التَّقْدِيرُ، مَا
 كَانَ اللَّهُ لِيَتْرَكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَخَبَرَ كَانَ هُوَ إِسْمُهَا فِي الْمَعْنَى وَ

ليس التَّرك هو الله تعالى يَمِيزُ بسكون الياء من مَازَ وبتشديدِها من مَيرَها بمعنى واحد التشديد لتعدي الفعل مثل فرح وفرحته لأن ماز وميز يتعديان الى مفعول واحد ولا يَحْسَبَنَّ يقرأ بالياء على الغيبة الَّذِينَ يَتَخَلَّوْنَ الفاعل و في المفعول الأول وجهان:

أحدهما: هو و هو ضمير البُخل الذي دَل عليه يبخلون.

الثاني: هو محذوف تقديره البُخل وهو على هذا فصل، و يقرأ تحسبن بالتاء على الخطاب والتقدير ولا تحسبن يا محمد، فحذف المضاف وهو ضعيف مبرأثُ والأصل فيه، موارث، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها والميراث مصدر كالميعاد.

◀ التفسير

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ إختلفوا في المخاطب بقوله، أنتم، على أقوال:

أحدها: أن الخطاب للكفار والمنافقين و عليه فالمعنى ما كان الله يريد أن ليذر المؤمنين ويدعهم، على ما أنتم عليه، يا أهل الكفر من الإبهام واشتباه المخلص بالمنافق ذهب اليه ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين من العامة والخاصة نقل عن الكلبي أنه قال أن قريشاً من أهل مكة قالوا للنبي ﷺ الرجل منا تزعم أنه في النار، وأنه اذا ترك ديننا واتبع دينك قلت هو من أهل الجنة فأخبرنا عن هذا من أين هو وأخبرنا من يأتيك مثالم يأتيك فأنزل الله عز وجل: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّفَاقُ حَتَّى يُمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ.

ثانيها: أنه خطاب للمشركين والمراد بالمؤمنين في قوله: لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ من في الأصلاب والأرحام ممن يؤمن، أي ماكان الله ليذر أولادكم الذين حكم لهم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشُّرك حَتَّى يفرق بينكم و

بينهم وعلى هذا فقوله: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ كَلَامَ مُسْتَأْنَفٍ وهو أيضاً قول ابن عباس وكثير من المفسرين.

ثالثها: الخطاب للمؤمنين أي وما كان الله ليذكركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق حتى يعنى بينكم بالحسنة والى كيف فتعرفوا المنافق الخبيث والمؤمن الطيب وهذا قول اكثر اهل المعانى.

رابعها: أنه خطاب للمسلمين جميعاً من المخلص والمنافق كأنه قال ما كان لينذر المخلص منكم على الحال التى انتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض فهذه هى الاقوال المنقولة فى المخاطب بها والله اعلم.

قل كان الكفار والمنافقون كانوا يستهزؤون بالمؤمنين سرّاً فقال الله تعالى لا يدعكم أيها المؤمنون على ما أنتم عليه أو لا يدعكم أيها الكفار على ما أنتم عليه من الطعن فيهم والإستهزاء ولكن يمتحنكم لتفتضحوا ويظهر نفاقكم عندهم لا في دار واحدة ولكن يجعل لهم داراً أخرى يميز فيها الخبيث من الطيب فيجعل الخبيث فى النار والطيب.

فى الجنة كما أنّ تميزهم فى الدنيا بالهجرة والجهاد، وقال بعض أنّ تمييز أحدهما عن الآخر أنّما يكون بإخراج أحدهما من صلب الآخر واللام فى قوله: لِيَذَرَ لَامَ الْجُمُودِ وكيف كان ففي الآية إشارة أما أولاً فبأن الله تعالى لا يذر المؤمن أي لا يدعه ولا يتركه فى الدنيا والآخرة بل هو دائماً يكون مشمولاً لعنايته ولطفه.

ثانياً: أنّ الله يميز الخبيث من الطيب فى الدنيا والآخرة أمّا فى الدنيا فبالإمتحان والإبتلاء والطاعة والعصيان وأمّا فى الآخرة فبالعقاب والثواب الجنة والنار ثم أنّ الخبيث والمخبث على ما قاله الراغب فى المفردات ما يكره رداءة وخساسة محسوساً كان أو معقولاً وذلك يتناول الباطل فى الإعتقاد والكذب فى المقال والقيبح فى الفعال وقال فى معنى الآية أي الأعمال الخبيثة من الأعمال الصالحة والنفس الخبيثة من النفوس الزكية انتهى.

قال الله تعالى: **قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ** ^(١) أي الكافر والمؤمن والأعمال الفاسدة والأعمال الصالحة.

قال الله تعالى: **وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ** ^(٢)

قال الله تعالى: **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ** ^(٣).

قال الله تعالى: **وَلَا تَتَّبِعُوا الْاُخْبِيثَ بِالطَّيِّبِ** ^(٤) والآيات كثيرة.

وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء أي ما كان الله ليطلعكم على الغيب حتى تعرفوا الخبيث قبل الإمتحان.

وفي هذا الكلام إشارة الى نقطة خفية وهى أنه كما إقتضت المصلحة الإلهية والحكمة الربانية أن لا يدع الله المؤمن كذلك إقتضت أن لا يطلعه على الغيب ليعرف ما في قلوب الناس قبل إظهارهم له أو يعرفهم بأشخاصهم و أعيانهم في الخباثة وعدمها وذلك لأن الوقوف على الضمائر والإطلاع على المغيبات يوجب إختلال النظام بالكيفية ولذلك قال الله، ولا يظهر على غيبه أحداً: **قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ** ^(٥) وغيرها من الآيات والمراد بالغيب كل ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول تكلمنا فيه فى سورة البقرة وسيأتى الكلام فيه فى المستقبل إن شاء الله وأما قوله: **وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ** فمعناه أن الله يختار ويصطفى من رسله من يشاء، فيطلعه على ما شاء من المغيبات فوقع، لكن، هنا لكون ما بعدها ضدّاً لما قبلها فى المعنى إذ تضمن إجتباء من شاء من رسله إطلاعه أياه على ما أراد تعالى من علم الغيب فإطلاع الرسول عليه أتما هو بإطلاع الله أياه بوحى أو إلهام، قال الزجاج وغيره.

روي أن بعض الكفار قالوا لم لا يكون جميعنا أنبياء فنزلت، وقيل قالوا لم لم يُوحَ إلينا في محمد فنزلت، أقول كل هذه الوجوه محتمل ولكن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى هو الذي يميز بين الخبيث والطيب فأخبر أنكم لا تدركون ذلك ولا تقدرُونَ على التمييز وذلك لأن الله لم يطلعكم على ما أضمرته القلوب من الإيمان والتفائق ولكنه تعالى يختار من رسله من يشاء فيطلعه على ذلك فتطلعون عليه من جهته.

قال السدي أنه تعالى حكم فيها بأنه يظهر هذا التمييز ثم بين أنه لا يجوز أن يجعل هذا التمييز في عوام الناس بأن يطلعهم على غيبه فيقولون أن فلاناً منافق وفلاناً مؤمن بل سَنَّ الله جرت بأن لا يطلع عوام الناس على الغيب فلا سبيل لهم إلى معرفة ذلك إلا بالامتحان فأما معرفة ذلك على سبيل الإطلاع على الغيب فهو من خواص الأنبياء ولهذا قال ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء، فخصهم بإعلامهم أن هذا مؤمن وهذا منافق.

فَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ

الفاء في قوله: فَامِنُوا للتفريع أي إذا كان الأمر على هذا المنوال فَامِنُوا بالله ورسله فإن أمتم به وبما جاء من عند الله من المغيبات وقرنتم بالإيمان تقوى الله بترك المنهيات وفعل المأمورات بقدر الإستطاعة والقدرة فلكم عند الله أجرٌ عظيمٌ، قال صاحب الكشف في معنى الآية، أي بأن تقدروه حق قدره و تعلموه وحده مطلعاً على الغيوب تنزلوهم منازلهم بأن تعلموهم عبداً مجتبيين لا يعلمون إلا ما علظمهم الله ولا يخبرون إلا بما أخبرهم الله من الغيوب و ليسوا من علم الغيب في شيء انتهى.

أقول ما ذكره الزمخشري لا بأس به إلا أنه أمرٌ قد فرغنا عنه في مباحث الاعتقادية إذ لم يقل أحد من العقلاء فضلاً عن المؤمنين أن الأنبياء كانوا عالمين بالغيب من عند أنفسهم وذلك لأنه قد ثبت في محله أن المخلوق

كائنًا من كان لا يقدر على شيء إلا يحول الله وقوته فكما أنّ وجوده من إفاضات جوده تعالى كذلك صفاته من إفاضات الحق فهو لا يقدر إلا على، أقدر الله عليه ولا يعلم إلا ما علمه الله به وهذا حكم عام في حق جميع العباد فيشتمل الانبياء قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ^(١) أي انتم الفقراء من جميع الجهات فحمل الآية على ما حملها عليه من أنّ الله تعالى وحده مطلع على الغيوب و تنزيل الانبياء منازلهم أن كان من باب حمل الكلام على أحد المصاديق فهو وإلا فلا دليل على الإختصاص والحق حمل الآية على العموم وأنها بصدد بيان حسن الإيمان بالله ورسوله من حيث الأجر والمثوبة الأخروية والإعتقاد بأنّ كلّما جاء به الرسول فهو حق لا مرية فيه حكم عام في جميع الرسل أي أنّ المسلم كما يجب أن يعتقد ويؤمن برسول الإسلام وما جاء به من عند الله من الأحكام كذلك يجب أن يعتقد ذلك في حق غيره من الرسل بمعنى أنهم أيضاً كانوا من رسل الله فلا يفرق بين أحد من رسله من هذه الجهة أي جهة الرسالة وأنهم لم ينطقوا عن الهوى ولأجل هذه الدققة قال: فَأَمِينُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، ولم يقل ورسوله:

قال الله تعالى: وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ^(٢).

وحيث أنّ العوام يفهمون من الإيمان، الإعتقاد القلبي المجرّد عن العمل، قال تعالى: وَإِنْ تَوَلَّيْنَا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ فقرن الإيمان بالتقوى أعني فعل الواجبات وترك المنهيات، للدلالة على أنّ الأجر والثواب عند الله على الإيمان المقرون بالتقوى لا الإيمان المجرّد وهو الأمر القلبي الساذج البسيط كما هو معتقد العامة هذا ما وصل اليه فهمنا القاصر في تفسير الآية.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ

البخل بضم الباء إمساك المُقتنيات عما لا يحق حبسها عنه ويُقابله الجود، هكذا فسرهُ الرَّاغب في المفردات، وفضل الزيادة عن الإقتصار و قد مرَّ الكلام فيه إعلم أنَّ الآية نزلت في ذم البخل في الشريعة المقدسة وذلك لأنه من القبايح العقلية والصفات الرديئة الذميمة و قد قال رسول الله ﷺ: بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ بَلْ قِيلَ أَنَّ قُبْحَهُ مِنَ الْمُسْتَقْلَاتِ الْعَقْلِيَّةِ قَبْلَ حَكْمِ الشَّرْعِ كَالظُّلْمِ وَالْكَذِبِ وَالْخِيَانَةِ وَغَيْرِهَا وَكَيْفَ كَانَ لاشْكَ فِي أَنَّهُ مِنْ أَقْبَحِ الصِّفَاتِ عَقْلًا وَشَرْعًا وَ قَدْ وَرَدَتْ فِي ذَمِّهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْصَى.

قال الله تعالى: الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ^(١)

قال الله تعالى: الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَقُولُ فَاِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْخَمِيدُ ^(٢) وغيرها من الآيات.

و قال رسول الله ﷺ: إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَائِهِمْ وَأَسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ إِنَّتَهُيْ.

و قال ﷺ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلَا خَبٌّ وَلَا خَائِنٌ وَلَا سَيِّئُ الْمَلَكَةِ، إِنَّتَهُيْ.

و قال ﷺ: الْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ وَ جَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ عَالِمٍ بَخِيلٍ وَأَدْوَى الدَّاءِ الْبُخْلُ، إِنَّتَهُيْ.

ثمَّ أَنَّ الْمَشْهُورَ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمَرَادَ بِالْبُخْلِ فِي الْمَقَامِ هُوَ الْبُخْلُ عَنْ إِدَاءِ الزَّكَاةِ.

عن الكافي بأسناده عن محمد بن مسلم قال سألتُ أبا عبد الله عن

قول الله عز وجل: سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ التَّقِيَمَةِ فقال يا محمد ما من أحدٍ منع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله عز وجل ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب ثم قال قول الله عز وجل: سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ التَّقِيَمَةِ يعني ما بخلوا به من الزكاة انتهى.

وبأسناده عن عبد الله بن سنان عنه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ما من ذي زكاة مالٍ نخلٍ أو زرعٍ أو كرمٍ يمنع زكاة ماله إلا قلده الله تربة أرضه يطوق بها من سبع أرضين إلى يوم القيامة انتهى و عن عبيد بن زرارة قال سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول ما من عبدٍ يمنع درهماً في حقِّه إلا أنفق أثنتين في حقِّه وما من رجلٍ يمنع حقاً من ماله إلا طوقه الله عز وجل به حية من نار يوم القيامة انتهى. وبأسناده عن أيوب بن راشد قال سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: مانع الزكاة يطوق بحية قرعاء تأكل دماغه وذلك قوله عز وجل: سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ التَّقِيَمَةِ.

وبأسناده عن حريز قال قال أبو عبد الله ما من ذي مالٍ ذهبٍ أو فضةٍ يمنع زكاة ماله إلا حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر وسلط الله عليه شجاعاً أقرع يُريده وهو يحيد عنه فإذا رأى أنه لا يتخلص له منه أمكنه من يده فقضمها كما يقضم الفحل ثم يصير طوقاً في عنقه وذلك قوله عز وجل: سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ التَّقِيَمَةِ وما من ذي مالٍ إبلٍ أو غنمٍ أو بقرٍ يمنع زكاة ماله إلا حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر يطأه كل ذات ظلف بظلفها وتنهشه كل ذات ناب بنابها وما من ذي مالٍ نخلٍ أو كرمٍ أو زرعٍ يمنع زكوتها إلا طوقه الله ريقه أرضه إلى سبع أرضين إلى يوم القيامة انتهى.

أقول الأحاديث في الباب كثيرة من أراد الإطلاع على أكثر مما نقلناه فعليه بالمطولات من كتب الأخبار.

و أما أهل السنة فأنهم أيضاً سلكوا ما سلكناه في تفسير الآية و قالوا أنها نزلت فيمن منع زكاة ماله قال القرطبي و معنى: **سَيُطَوَّقُونَ مَا يَخْلُوْنَ بِهِ** هو الذي ورد في الحديث عن ابى هريره عن النبي ﷺ قال من آتاه الله مالاً فلم يودّ زكاة مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زيتبان يطوقه يوم القيامة ثم ياخذ بلهزيته فيقول انا مالك انا كنزك ثم تلى هذه الآية **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ** اخرجهم الناس و خرجه ابن باجة عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال ما من أحد لا يؤدّي زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاع أقرع حتى يطوق به في عنقه ثم قرأ علينا مصداقه من كتاب الله **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ** و قال الطبري القراءة بالتاء أولى من قراءته بالياء لأن المحسبة من شأنها طلب إسم وخبر، فاذا قرأ **وَلَا يَحْسَبَنَّ** بالياء لم يكن للمحسبة إسم يكون قوله هو خيراً لهم خيراً عنه، وإذا قرأ بالتاء كان قوله: **الَّذِينَ يَبْخُلُونَ** إسماً له قد أذی عن معنى البخل الذي هو خيراً لهم خيراً لها فكان جارياً مجرى المعروف من كلام العرب الفصيح فلذلك اخترنا القراءة بالتاء و أن كانت القراءة بالياء غير خطأ ولكنه ليس بالأفصح و الأشهر من كلام العرب ثم قال و أما تأويل الآية الذي هو تأويلها على ما اخترنا من القراءة في ذلك، و لا تحسبن يا محمد، بخل الذين يبخلون بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال فلا يخرجون منه حق الذي فرضه عليهم من الزكاة هو خيراً لهم عند الله يوم القيامة بل هو شرّ لهم عنده في الآخر كما حدثنا محمد بن الحسين قال ثنا أحمد بن المفضل قال، ثنا، أسباط عن العدي **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** هم الذين أتاهاهم الله من فضله فبخلوا أن ينفقوها في سبيل الله و لم يؤدّوا زكاتها انتهى.

ثم قال في قوله تعالى: سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يعني سيجعل الله ما بخل به المانعون الزكاة طوقاً في أعناقهم كهيئة الأطواق المعروفة انتهى.

وقد ذكر الطبري روايات كثيرة في هذا الباب لا نحتاج الى نقلها ومن أراد الإطلاع عليها فليراجعه وتبعه على ذلك غيره من مفسري العامة كالسيوطي في الدر المنثور والقرطبي والزمخشري و أمثالهم فتحصل ممّا ذكرناه إتفاق الفريقين على أنّ المراد بالآية مانع الزكاة فأنّه الذي سيطوقه يوم القيامة فأبخل به و أمّا ما نقله الطبري عن بعضهم وهو أنّه تعالى عنى بذلك اليهود الذين بخلوا أن يبينوا للناس ما أنزل الله في التوراة من أمر محمد ﷺ ونعته ثم ذكر رواية عن ابن عباس أنّه قال يعني بذلك أهل الكتاب أنّهم بخلوا به أن يبينوه للناس، فهو بعيد غاية البعد.

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

أي لله تعالى وحده على وجه الإنحصار ميراث السموات والأرضين، و الميراث مصدر كالميعاد وأصله موارث فقلبت الواو ياء لأنكسار ما قبلها و المراد به ما يتوارث والكلام جار على حقيقته و لا مجاز فيه و قد ذكروا في معنى الكلام أقولاً:

أحدها: أنّه تعالى له ملك جميع ما يقع من إرث في السموات والأرض و أنّه هو المالك له حقيقة فكلّ ما يحصل لمخلوقاته ممّا ينسب اليهم ملكه هو ماله حقيقة وإذا كان هو ماله فما لكم تبخلون بشيء أنتم متمتعون به لا مالكوه حقيقة كما قال تعالى وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه.

ثانيهما: أنّه خبر لفناء العالم و أن جميع ما يخلقونه فهو وارثه و هو خطاب على ما يفهم البشر دلّ على فناء الجميع و أنّه لا يبقى مالك إلا الله و أن كان ملكه على كلّ شيء لم يزل.

ثالثها: ما ذكره بعض المتأخرين وهو أنه له وحده جميع ما في السموات والأرض مما يتوارثه الناس فينتقل من واحد إلى آخر لا يستقر في يد ولا تسلم التصرف فيه لأحد إلى أن يفني جميع الوارثين والموروثين ويبقى المالك الحقيقي وهو الله رب العالمين.

أقول الأقوال مرجعها إلى قول واحد وهو أنه تعالى قد أخبر ببقاء دوام ملكه في الأبد كهو في الأزل غني عن العالمين فيرث الأرض بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فجري هذا مجرى الوراثة في عادة الخلق ومنه يعلم أنه ليس هذا بميراث في الحقيقة لأن الوارث في الحقيقة هو الذي يرث شيئاً لم يكن ملكه من قبل والله سبحانه وتعالى مالك السموات والأرض والأموال عارية عند أربابها فاذا ماتوا ردت العارية إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل ونظير هذه الآية قوله تعالى: **إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا**^(١) فالمعنى أن الله تعالى أمر عباده لأن ينفقوا ولا ييخلوا قبل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثاً لله تعالى ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** أي أنه تعالى عالم بأخبار أعمالكم وقيل أي عالم ببواطن أموركم وقيل، خبير، بمعنى مخبر، كقوله تعالى: **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**^(٢).

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ
 نَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَ قَتَلَهُمُ الْآنبيَاءُ
 بِغَيْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)
 ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ
 لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا
 نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ
 قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالَّذِي
 قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ
 كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا
 بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزَّبْرِ وَ الْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

◀ اللغة

ذُوقُوا: أمرٌ من ذاق يَذوق، والذوق وجود الطعم بالفم.
 عَذَابَ الْحَرِيقِ: الحريق النَّار.

وَ الزَّبْرِ: بضم الزاء والباء قيل أنه جمع زُبرة وهي قطعة عظيمة من الحديد
 قال تعالى: أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ.

◀ الإعراب

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ العامل في موضع أن، و ما
 عملت فيه قالوا وهي المحكية به ويجوز أن يكون معمولاً لقول المضاف لأنه
 مصدر سَنَكْتُبُ ما قالوا يُقْرَأُ بالنون و ما قالوا، منصوب به قَتَلَهُمُ معطوف عليه
 و ما مصدرية أو بمعنى، الذي، وقد يُقْرَأُ بالياء و تسمية الفاعل و على ما لا
 يسم فاعله و قتلهم، بالرفع وهو ظاهر ذَلِكَ مبتدأ بما خبره بِظَلَامٍ فَعَالٌ مِنْ

الظلم الَّذِينَ قَالُوا هُوَ فِي مَوْضِعٍ جَرَّ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ، الَّذِينَ قَالُوا وَ يَجُوزُ فِيهِ النَّصَبُ بِإِضْمَارِ أَعْنِي وَ الرَّفْعُ بِإِضْمَارِ هُمْ، أَلَّا تُؤْمِنَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعٍ جَرَّ عَلَى تَقْدِيرٍ، بَأَنْ لَا تُؤْمِنَ، وَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ عَلَى تَقْدِيرِ حَرْفِ الْجَرِّ، إِفْضَاءُ الْفِعْلِ إِلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ فِيهِ حَذَفُ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ بِتَقْرِيبِ قُرْبَانٍ، أَيْ يَشْرَعُ لَنَا ذَلِكَ الْكُرْبُورُ وَ الْكِتَابُ الْمُنِيرُ، عَطَفَ عَلَى الْبَيِّنَاتِ.

◀ التفسير

اختلفوا في نزول قوله: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ فقال بعضهم أَنَّ الَّذِينَ نَسَبُوا اللَّهَ تَعَالَى إِلَى الْفُقَرَاءِ وَأَنْفُسَهُمْ إِلَى الْغِنَاءِ هُمْ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا^(١) قَالُوا أَمَّا يَسْتَفْرِضُ الْفَقِيرُ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ فَهُوَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ الْأَغْنِيَاءُ وَ الْقَائِلُ لِذَلِكَ حَيٌّ بْنُ أَخْطَبٍ وَ فَنَحَاصِ الْيَهُودِيِّ، وَ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْجَبَائِيُّ هُمْ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ وَأَمَّا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ ضَيْقِ الرِّزْقِ، وَ قِيلَ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ تَمْوِيهًا عَلَى ضَعْفَانِهِمْ لَا أَنَّهُمْ إِعْتَقَدُوا أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَ قِيلَ أَنَّهُمْ عَنُوا بِذَلِكَ إِلَهَ مُحَمَّدٍ الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُهُ دُونَ مَنْ يَعْتَقِدُونَهُمْ هُمْ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ نَقَلَ هَذِهِ الْأَقْوَالُ فِي التَّبَيَّنِ وَ كَيْفَ كَانَ لَا شَكَّ فِي صُدُورِ هَذَا الْكَلَامِ مِنْهُمْ وَ أَمَّا تَعْيِينَ الْقَائِلِ أَوْ الْقَائِلِينَ فَلَا يَهْمُنَا الْبَحْثُ فِيهِ فَنَقُولُ: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قِيلَ مَعْنَاهُ أَدْرَكَ ذَلِكَ عِلْمَ ذَلِكَ عَنِ الْبَلَخِيِّ أَقُولُ سَيَأْتِي الْكَلَامُ فِي مَعْنَى السَّمْعِ وَ الْبَصَرِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَ الَّذِي نَقُولُ فِي الْمَقَامِ هُوَ أَنَّ مَعْنَى لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ، عِلْمُهُ بِالْمَسْمُوعَاتِ أَيْ لَقَدْ عِلْمَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُمْ: قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ قَدْ ذَكَرْنَا فِي صَدْرِ الْبَحْثِ أَنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا فِي الْقَائِلِينَ بِهَذَا الْكَلَامِ بَعْدَ إِتِفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا جَمَاعَةً بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: الَّذِينَ قَالُوا بِصِغَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ
الْقُرْآنِ

جزء ٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجمع وقد ذكر غير واحد من مفسري العامة أنَّ القائل بهذا الكلام هو فنحاص بن عازوراء قال الطبري في تفسيره لهذه الآية نقلاً عن ابن عباس ما هذا لفظه دخل أبوبكر الصديق بيت المدارس فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم يقال له فنحاص كان من علماؤهم وأخبارهم ومعه خبر يقال له أشيع فقال أبو بكر لفنحاص ويحك إنَّ الله وأسلم فوالله أنك لتعلم أنَّ محمداً ﷺ رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل قال فنحاص والله يا أبابكر ما بنا إلى الله من فقرٍ وأنه الينا لفقيرٍ وما نتضرع إليه كما يتضرع الينا وأنا عنه لأغنياء ولو كان عنا غنياً ما إستقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الرباء ويعطيناه ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا فغضب أبوبكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله فأكذبونا ما إستطعتم أن كنتم صادقين فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد أنظر ما صنع بي صاحبك فقال رسول الله لأبي بكر ما حملك على ما صنعت فقال يا رسول الله أن عدو الله قال قولاً عظيماً زعم أنَّ الله فقير وأنهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبتُ لله مما قال فضربتُ وجهه فجحد ذلك فنحاص وقال ذلك فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاص ردّاً عليه وتصديقاً لأبي بكر، لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَفِي قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ وَمَا بَلَغَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْغَضَبِ، لِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أذىً كثيراً وَأَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَأَنْ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ انتهى.

أقول هذه القصة نقلها أكثرهم بل جميعهم فيما نعلم في تفاسيرهم كما هو دأبهم في النقل وأظنَّ أنهم أخذوه من الطبري من دون أن يتأملوا وأمعنوا النظر في المنقول كما هو شأن العوام ألم يعلموا أنَّ الله تعالى قال لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ ولم يقول قول الذي قال أنَّ

اللّه فقير وانا غنى مثلاً فما ذكره الطبرى من قصّة فنحاس و ابى بكر لو كان حقاً ليزم اتیان اللفظ بصيغة المفرد و ذلك لأنّ فنحاس كان رجلاً واحداً و هو ظاهر و لقد اجاد الرازى فى المقام بعد نقله القصّة إجمالاً، قال و أعلم أنّه ليس فى الآية تعيين هذا القائل إلاّ أنّ العلماء نسبوا هذا القول الى اليهود و احتجوا عليه بوجوه، ثمّ نقل الوجوه الى أن قال.

المسألة الثانية: هذه الآية تدلّ على أنّه تعالى سمع للأقوال ونظيره قوله تعالى: **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ** ^(١).

المسألة الثالثة: ظاهر الآية تدلّ على أنّ قائل هذا القول كانوا جماعة لأنّه تعالى قال الذين قالوا، و ظاهر هذا القول يفيد الجمع و أمّا ما روي أنّ قائل هذا القول هو فنحاس اليهودي فهذا يدلّ على أنّ غيره لم يقل ذلك فلمّا شهد الكتاب أنّ القائلين كانوا جماعة و جب القطع بذلك انتهى كلامه و فيه كفاية. قال بعض المفسرين و أنّما قالوا أي اليهود هذا، تمويهاً على ضغائنهم، لا أنّهم يعتقدون هذا لأنّهم أهل الكتاب و لكنّهم كفروا بهذا القول لأنّهم أرادوا تشكيك الضّعفاء منهم و من المؤمنين و تكذيب النبي ﷺ أي أنّه فقير على قول محمد ﷺ لأنّه إقرض منا سنكتب ما قالوا قيل معناه سنحفظ ما قالوا فكُنّي بالكناية عن الحفظ لأنّه طريق الى الحفظ و قيل سنكتب ذلك فى صحائف أعمالهم ليقروّه فيها يوم القيامة، و فى المقام احتمال آخر و هو أنّه سنكتب ما قالوا فى القرآن حتّى يعلم الخلق شدّة تعنتهم و جهلهم و جدّهم فى الطعن فى نبوة محمد ﷺ الى يوم القيامة.

ضياء القرآن فى تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

وَقَتَلَهُمُ الْآتِبِيَاءَ بغيرِ حَيٍّ الظاهر أنّ قوله: وَقَتَلَهُمُ الْآتِبِيَاءَ عطف على قوله: ما قالوا

أي سنكتب في صحائف أعمالهم ما قالوا من الكفر وقتلهم الأنبياء بغير حق، قيل في معناه أي سنكتب قتل أسلافهم الأنبياء ورضى هؤلاء به فنجازي كلاً بفعله ذكره الطبرسي رحمته الله ثم قال وفيه دلالة على أن الرضا بفعل القبيح يجري مجراه في عظم الجرم لأن اليهود الذين وصفوا بقتل الأنبياء لم يتولوا ذلك بأنفسهم وأما ذموا بذلك لأنهم بمنزلة من تولاه في عظم الإثم انتهى كلامه.

و قيل معناه سنكتب ما قال هؤلاء، ونكتب ما فعله أسلافهم من قتلهم الأنبياء و عليه فالمعنى سيحفظ على الفريقين معاً أقوالهم و أفعالهم، قال الطبري في تفسيره لهذه الآية فإن قال قائل كيف قيل وقتلهم الأنبياء بغير حق وقد ذكرت الآثار التي رويت أن الذين عنوا بقوله: **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ** بعض اليهود الذين كانوا على عهد نبينا صلوات الله عليه وآله ولم يكن من أولئك أحد قتل نبياً من الأنبياء لأنهم لم يدركوا نبياً من أنبياء الله فيقتلوه، قيل أن معنى ذلك على غير الوجه الذي ذهب إليه وأما قيل ذلك لأن الذين عني الله تعالى بهذه الآية كانوا راضيين بما فعل أوائلهم من قتل من قتلوا من الأنبياء وكانوا منهم و على مناهجهم من إستحلال ذلك وإستجازته فأضاف جلّ ثناءه فعل ما فعله من كانوا على مناهجه وطريقته الى جميعهم اذ كانوا أهل ملة واحدة ونحلة واحدة انتهى.

أقول إتفقت أراء المفسرين من العامة والخاصة على أن الوجه في عطف، وقتلهم الأنبياء، على قوله: **الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ** الخ هو أنهم كانوا راضيين بفعل أسلافهم و عليه فالمعنى سنكتب ما قالوا من أن الله فقير ونحن أغنياء أيضاً سنكتب قتلهم الأنبياء من حيث أنهم كانوا راضيين به بناءً على أن من رضي بفعل قوم فهو منهم و أما قالوا ذلك لأن اليهود القائلين بهذا الكلام في عهد النبي لم يكونوا من قتلة الأنبياء و أما كان قتلهم على أيدي أسلافهم،

وَأَمَّا إِحْتِاجُوا إِلَى هَذِهِ التَّكَلُّفَاتِ وَالتَّخْرِيجَاتِ فِي صَحَّةِ الْعُطْفِ لِأَنَّهُمْ نَسَبُوا الْقَاتِلِينَ، أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، إِلَى الْيَهُودِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ أَيَّ أَنَّ الْيَهُودَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ قَالُوا بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْقَاتِلِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَكُونُوا فِي عَهْدِ النَّبِيِّ فَلَا مُحَالَةَ إِحْتِاجُوا فِي صَحَّةِ عُطْفِ الْفَرِيقِ الْمَتَأَخَّرِ عَلَى الْمَتَقَدِّمِ بِزَمَانٍ طَوِيلٍ إِلَى مَا سَمِعْتَ مِنْ أَنَّهُمْ مِنْ حَيْثُ رِضَاهُمْ لَعَلَّ أَسْلَافَهُمْ كَتَبَ لَهُمْ مَا كَتَبَ لَهُمْ مِنَ الْوُزْرِ.

وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ أَيُّ دَلِيلٍ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْقَاتِلِينَ بِهَذَا الْقَوْلِ غَيْرَ الْقَاتِلِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ أَمَّا الْآيَةُ فَلَا تَدُلُّ عَلَى التَّفْرِيقِ بَلْ دَلَّالَتُهَا عَلَى الْعَكْسِ أَوَّلَى لِأَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: قَتَلَهُمْ يُرْجَعُ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا مَا قَالُوا ظَاهِرًا وَصَرَفَ اللَّفْظَ عَنْ ظَاهِرِهِ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ وَادِّ لَيْسَ فُلَيْسَ وَعَلَيْهِ فَلَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ حِكَايَةَ عَنْ قَوْلِ أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا قَاتِلِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ أَيْضًا وَالْمَعْنَى لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا، مِنْ أَسْلَافِهِمْ، أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا حِينَ قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ، أَيَّ أَنَّ ذَنبَهُمْ لَمْ يَكُنْ وَاحِدًا بَلْ أَثْنَانِ، قَوْلُ الْكُفْرِ، وَقَتْلُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّهُ لَا شَكَّ فِي صَدَقِ صُدُورِ الذَّنْبِ عَنْهُمْ بِمَقْتَضَى الْآيَةِ وَأَمَّا التَّفْرِيقُ فَيَحْتَاجُ إِلَى الدَّلِيلِ وَعَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ عَدَمِ التَّفْرِيقِ وَأَنَّ الْقَاتِلِينَ بِالْمَقَالَةِ وَالْقَاتِلِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ كُلَّهُمْ كَانُوا فِي سَالِفِ الزَّمَانِ فَيَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى وَهُوَ ظَاهِرٌ وَعَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ فَتَكُونُ الْآيَةُ بِصَدَدِ حِكَايَةِ قَوْلِ الْيَهُودِ فِي نَسَبَتِهِمُ الْفَقْرَ إِلَى اللَّهِ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ هَذَا مَا خَطَرَ بِبَالِي فِي الْمَقَامِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: بِغَيْرِ حَقٍّ فَهُوَ تَعْظِيمٌ لِلشُّعْنَةِ وَالذَّنْبِ الَّذِي أَنْتَهُ فَلَيْسَ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَصِحُّ أَنْ يُقْتَلُوا بِالْحَقِّ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لِمَكَانِ عَصَمَتِهِمْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَصْدَرَ مِنْهُمْ مَا يَقْتُلُونَ بِهِ وَأَمَّا خَرَجَ هَذَا الْكَلَامُ مَخْرَجَ الصِّفَةِ لِقَتْلِهِمْ أَنَّهُ ظَلَمٌ وَلَيْسَ بِحَقٍّ.

وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ

أي ونقول لهؤلاء القائلين ذوقوا عذاب الحريق، وقيل يقال لهم ذلك في جهنم وقيل عند الموت عند الحساب، أعلم أن الذوق وجود الطعم بالفم وأصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر فأَنْ ما يكثر منه يقال له الأكل قاله الرّاعب في المفردات أقول فعلى هذا خرج الكلام مخرج الإستعارة تشبيهاً للعذاب بالمأكل والمشروب أو بمطلق ما له طعم وإسناد الذوق اليه على سبيل المجاز.

أن قلت بناءً على ما ذكره الرّاعب في تفسيره الذوق وأن أصله فيما يقل تناوله يلزم أن يكون ذوق العذاب قليلاً مع أن قتل النبي وقول الكفر من أعظم الذنوب.

قلت قد أجاب الرّاعب عنه بأن ذلك وأن كان في التعارف للقليل إلا أنه مُستصلح للكثير أيضاً فخصه تعالى بالذكر ليعم الأمرين وكثر استعماله في العذاب.

قال الله تعالى: لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ^(١)

وقيل لهم: ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ^(٢)

قال الله تعالى: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ^(٣)

قال الله تعالى: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ^(٤).

التي أن قال وقد جاء في الرحمة أيضاً:

قال الله تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً^(٥)

قال الله تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مِّنْسَهُ^(٦).

وحاصل الكلام هو أَنَّ الذُّوق يستعمل فيما يَقْلُ تناوله ويكثر ومانحن فيه من الثاني فقوله تعالى: **ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** معناه ذوقوا العذاب كثيراً بما قدّمت أيديكم كما قال:

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ قيل في هذا الكلام دلالة على أَنَّ العقاب يكون ظلماً في صورة عدم وقوع الذنب وأما في صورة وقوعه فلا فهو ردٌّ على المجبّرة في قولهم أَنَّ الله يعذب الأطفال بغير جرم ويجوز أن يعذب البالغين بغير ذنب.

أَن قلت قد ذكروا أَنَّ صيغة فعال تدلّ على المبالغة في الفعل فالقتال مبالغة في القتل والضّراب في الضّرب والظّلام في الظّلم وهكذا وقد ثبت أَنَّ نفي الكثير لا يستلزم نفي القليل فاذا قلنا زيد ليس بظّلام معناه أَنّه ليس كثير الظّلم وهو لا ينافي كونه ظالماً فقوله تعالى: **أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** يدلّ على نفي الكثرة منه تعالى وهو لا ينافي بثبوت القليل منه وبعبارة أخرى هو يدلّ على أَنّه ليس كثير الظّلم ولا يدلّ على أَنّه ليس بظالم أصلاً، وقد أجابوا عنه بما حاصله أَنَّ العذاب الَّذي تَوَعَدُ الله بأن يفعله بهم لو كان ظلماً عظيماً فنفاه على حدّ عظمه لو كان ثابتاً وهذا يؤكّد أَنَّ اتصال العقاب اليهم يكون ظلماً لو لم يكونوا مذنبين انتهى.

أقول هذا الجواب لا يحسم مادّة الإشكال والأحسن في الجواب أن يقال أَنَّ فعلاً كما يستعمل في الكثرة يستعمل في القليل أيضاً قال طرفة:
ولست بحلالِ التّلاع مخافةً ولكن متى يسترفد القوم أرفد
وتقريب الاستدلال به هو أَنّ، حالاً، لم يُرد به القليل أي لم يرد الشارع أَنّه قد يحلّ التّلاع قليلاً، لأنّ ذلك يدفعه قوله، متى يسترفد القوم أرفد، وهذا يدلّ على نفي البخل في كلّ حالٍ، ولأنّ تمام المدح لا يحصل بإرادته الكثرة.

ثانياً: أَنْ ظَلَمَ هُنَا لِلْكَثْرَةِ لِأَنَّهُ مُقَابِلٌ لِلْعِبَادِ وَفِي الْعِبَادِ كَثْرَةٌ وَإِذَا قُبِلَ بِهِمُ الظُّلْمُ كَانَ كَثِيراً.

ثالثاً: أَنَّهُ إِذَا نُفِيَ الظُّلْمُ الْكَثِيرُ إِنْتَفَى الْقَلِيلُ ضَرْباً لِأَنَّ الَّذِي يَظْلِمُ لِيَنْتَفِعَ بِالظُّلْمِ فَإِذَا تَرَكَ الظُّلْمَ الْكَثِيرَ مَعَ زِيَادَةِ نَفْعِهِ فِي حَقِّ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ النَّفْعُ وَالضَّرُّ كَانَ لِلظُّلْمِ الْقَلِيلِ الْمُنْفَعَةُ أَتَرَكَ.

رابعاً: لَا يَبْعُدُ إِرَادَةُ النَّسَبِ مِنَ الْكَلَامِ دُونَ الْمُبَالَغَةِ فَأَنَّ الصَّيْغَةَ كَمَا تَجِي لِلْمُبَالَغَةِ قَدْ تَجِي لِلنَّسَبَةِ أَيْضاً، نَحْوُ بَرَّازٍ، وَعَطَّارٍ، وَقَالَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فَالْمَعْنَى أَنَّ رَبَّكَ أَوْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْسَبُ إِلَى الظُّلْمِ أَصْلاً فَلَا يَكُونُ ظَالِماً قَطُّ الْمَطْلُوبُ.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بَقْرَبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ

عن الكعبي أنها نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وهب بن يهودا وزيد بن مانوه وفنحاص بن عازوراء وحي بن أخطب أتوا رسول الله ﷺ فقالوا اتزعم أن الله بعثك إلينا رسولاً وانزل عليك كتاباً وإن الله عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار فإن جئتنا به صدقناك وظاهر هذا القول أنه عهد إليهم في التوراة فقبل كان هذا في التوراة ولكن كان تمام الكلام، حتى يأتيتكم المسيح ومحمد فإذا أتاكم فأمنوا بهما من غير قربان، وقيل كان أمر القربان ثابتاً إلى أن نسخت على لسان المسيح، وقيل ذكرهم هذا العهد هو من كذبهم على الله تعالى وإفترائهم عليه وعلى أنبيائه ومعنى عهد، وصى والعهد أخص من الأمر لأنه في كل ما يتناول أمره ويبقى في غابر الزمان وإسناد الأكل إلى النار مجاز واستعارة عن إذهاب الشيء وإفناءه إذ حقيقة الأكل إنما توجد في الحيوان المتغذي والقربان أكل النار معجز للنبي يوجب الإيمان به فهو وسائر

المعجزات سواء نقل عن الواحدي أنه قال، القربان بضم القاف البر الذي يتقرب به الى الله وأصله المصدر من قولك قرب قرباناً كالكفران والرجحان والخسران سمي به نفس المتقرب به ومنه قوله عليه السلام: لكعب بن عجرة يا كعب الصوم جنة والصلاة قربان أي بها يتقرب الى الله ويستشفع في الحاجة لديه انتهى.

أقول الذي روي عنه عليه السلام الصوم جنة من النار وأن الصلاة قربان كل تقى، الصحيح فإن الصلاة بما هي هي من أي شخص صدرت ليست بقربان ولا يلزم أن تكون الصلاة من المنافق والفاسق قرباناً وهو كما ترى وقال بعضهم، القربان ما يتقرب به الى الله من نسل وصدقة وعمل صالح فعلان من القرية ويكون اسماً ومصدراً فمثال الاسم، السلطان والبرهان، والمصدر العدوان والخسران، وقرأ عيسى بن عمر، قربان بضم الراء اتباعاً لضم القاف كما قيل في جمع، ظلمة، ظلمات وفي حجرة حُجرات.

قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ صَادِقِينَ

والمعنى قل لهؤلاء اليهود قد جاءكم الرسول من قبلي بالبيّنات أي الحجج الدالة على صدقهم في صحة رسالتهم وحقيقة قولهم كما كنتم تطلبون منهم و أيضاً قد جاءوا بالذي قلتم وهو القربان فلم قتلتموهم أن كنتم صادقين في قولكم هذا، قيل، أراد بالرسول زكريا ويحيى وشعيا وغيرهم من الأنبياء الذين قتلوهم ولم يؤمنوا بهم والحاصل أن الله قد كذبهم في قولهم هذا وأنهم كأسلافهم من اليهود في الكذب والعناد فكما أن أسلافهم كانوا معاندين كذلك هؤلاء القائلين بهذه المقالة وحكم الأمثال واحد وعلى هذه القاعدة أو بناءً على أن الراضي بفعل قوم فهو منهم، قال الله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

مِنْ قَبْلِي وَإِلَافِمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَائِلِينَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ مِنَ الْيَهُودِ، لَمْ يَكُونُوا فِي عَهْدِ يَحْيَىٰ وَزَكَرِيَّا وَشَيْعَا، وَغَيْرِهِمْ وَلَا قَتَلُوهُمْ فَنِسْبَةُ الْقَتْلِ بِهِمْ فِي قَوْلِهِ: قَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ بِإِعْتِبَارِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْوَجْهِ، وَالْمَقْصُودُ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَدْ بَيَّنَّ بِهَذِهِ الدَّلَائِلِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يَطْلُبُوا هَذِهِ الْمَعْجَزَةَ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِرْشَادِ بَلْ كَانَ الطَّلَبُ مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ لَمْ يَجِبْ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ إِسْعَافَهُمْ بِذَلِكَ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ.

أي فأن كذبوك في نبوتك فليس هذا أوّل تكذيب وقع من المعاندين في حقّ الرّسل و ذلك لأنّهم كذبوا من كان قبلك من الأنبياء الذين جاءوا لهم بالبينات والحجّ الدّالة على صدق نبوتهم وبالزّبر والكتاب المنير، أي الكتب المزبورة يعني المكتوبة، والكتاب المنير، أي الواضح المضئ هكذا قيل، و عليه فالزّبر و الكتاب بمعنى الاختلاف في اللفظ، و قيل أنّما حُسن هذا العطف لأنّ الكتاب المنير أشرف الكتب وأحسن الزّبر فحسن العطف كما في قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ ^(١) و قال من كان عدوّاً لله و ملائكته و رسله و جبرئيل و ميكائيل الآية و وجه زيادة الشّرف في الكتاب المنير أمّا كونه مشتملاً على جميع الشّريعة أو كونه باقياً على وجه الدّهر و يحتمل أن يكون المراد بالزّبر الصّحف و بالكتاب المنير التّوراة و الإنجيل و الزّبور و الله أعلم بكلامه.

إنفتاح ما قبلها لأن ذلك عارض ولذلك لا يجوز همزها مع إنضمامها ولو كانت لازمة لجاز ذلك.

◀ التفسير

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ قد مر الكلام في معنى الذوق وأنه في الأصل عبارة عن وجود الطعم بالقم فيما يقل تناوله دون ما يكثر فأَنْ ما يكثر منه يقال له الأكل إلا أنه وأن كان في التعارف للقليل فهو مستصلح للكثير قاله الراغب في المفردات والأن نقول إختير في القرآن لفظ الذوق ليعم الأمرين فهو تارة يستعمل في العذاب.

قال الله تعالى: **لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** ^(١)

قال الله تعالى: **ذُوقُوا عَذَابَ الْخَرْقِ** ^(٢)

قال الله تعالى: **ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ** ^(٣)

قال الله تعالى: **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** ^(٤)

و غيرها من الآيات وأخرى يستعمل في الرحمة.

نحو قوله تعالى: **وَلَيِّنْ أَدَقْنَا لِلْإِنْسَانِ مِنَّا رَحْمَةً** ^(٥)

قوله تعالى: **وَلَيِّنْ أَدَقْنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسْنَاهُ** ^(٦) الآية وغيرها.

ثالثاً: يستعمل في الإختبار والتجربة ومنه قوله تعالى: **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** ^(٧) فاستعمال الذوق مع اللباس من أجل أنه أريد به التجربة والإختبار أي فجعلها بحيث تمارس الجوع والخوف اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى: **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**، معناه أن كل نفس لابد لها من الموت و

٢- آل عمران = ١٨١

٤- آل عمران = ١٠٦

٦- هود = ١٠

١- النساء = ٥٦

٣- السجده = ٢٠

٥- هود = ٩

٧- النحل = ١١٢

الفناء وفي التعبير بالذوق إشعار بأن الموت الذي يتحقق بخروج النفس عن الجسد تارة يكون عذاباً في حق صاحبه كما في الكافر والمنافق والفاسق و أخرى رحمة كما في المؤمن وحيث أن الذوق صالح لهما أستعمل في المقام فالآية في الحقيقة وعدٌ وعيدٌ وعدٌ للمصدق المؤمن وعيد للمكذب المنافق وفيه إشارة الى أن بعد هذه الدار أعني بها الدنيا دار أخرى وهى الآخرة يتميز فيها المحسن من المسيء ويتوفر على كل أحد ما يليق به من الجزاء، ثم أن الآية قد دلت على أن الموت حتمٌ لكل نفس تعلقت بالبدن و أنما قلنا ذلك لأن النفس قد تطلق على ذات الشيء سواء كان ممكناً أم كان واجباً قال تعالى: **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** ^(١) حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى فلو قلنا أن كل نفس أي كل ذات يموت لزم أن يكون الواجب أيضاً داخلاً في الحكم نعوذ بالله منه فالمراد بالنفس في الآية ليس ذات الموجود بل المراد بها ما يعرض على الجسم المعبر عنه تارة بالنفس و أخرى بالروح و عليه فالمراد بالموت هو خروجها عن الجسد كما أن المراد بالحياة بقاءها فيه وكيف كان لاشك في الموت عقلاً ونقلاً وحساً وقالت الفلاسفة أن الموت واجب الحصول في هذه الحياة الجسمانية وذلك لأن هذه الحياة لا تحصل إلا بالرطوبة الغريزية والحرارة الغريزية ثم أن الحرارة تؤثر في تحليل الرطوبة تزال تستمر هذه الحالة الى أن تفنى الرطوبة الأصلية فتتطفي الحرارة الغريزية ويحصل الموت فبهذا الطريق كان الموت ضرورياً في هذه الحياة والله أعلم فأنه المحيي والمميت.

قال بعض المحققين قوله: **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** يدل على أن النفوس لا تموت بموت البدن لأنه تعالى جعل النفس ذائقة الموت والذائق لابد وأن يكون باقياً حال حصول الذوق فالمعنى أن كل نفس ذائقة موت البدن وهذا

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّفْسَ غَيْرَ الْبَدَنِ وَعَلَى أَنَّ النَّفْسَ لَا تَمُوتُ بِمَوْتِ الْبَدَنِ وَأَيْضاً لَفِظُ النَّفْسِ مَخْتَصٌّ بِالْأَجْسَامِ وَفِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ ضَرُورَةَ الْمَوْتِ مَخْتَصَّةٌ بِالْحَيَاةِ الْجَسَمَانِيَّةِ فَأَمَّا الْأَرْوَاحُ الْمَجْرَدَةُ فَلَا إِنْتِهَى كَلَامِهِ.

أَقُولُ أَنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرَهُ مِنْ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَمُوتُ بِمَوْتِ الْبَدَنِ وَقَوْلُهُ وَالذَّائِقُ لَا يَبْدُو أَنَّ يَكُونُ بَاقِياً حَالَ حَصُولِ الذَّوْقِ، نَحْنُ نَقُولُ بِهِ إِلَّا أَنَّ الْبَقَاءَ حَالَ حَصُولِ الذَّوْقِ لَا يُلْزَمُ الْبَقَاءُ بَعْدَهُ أَيْضاً وَلِتَحْقِيقِهِ مَقَامٌ آخَرُ.

إِنَّمَا تُوفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

أَيُّ تَعْطُونَ جِزَاءَ أَعْمَالِكُمْ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا تَامًّا وَافِياً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي الْإِتْيَانِ بِكَلِمَةِ إِنَّمَا الَّتِي تَغِي الْحَصْرَ أَشْعَرُ بَانَ الْأَجْرَ الْكَامِلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي قَوْلِهِ تُوفَّقُونَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ بَذْلَهُ يَكُونُ كَافِياً وَافِياً فَإِنْ تَوَفَّيَ الشَّيْءُ بِذَلِكَ وَافِياً وَاسْتِيفَاتِهِ تَنَاوَلَهُ كَذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: **تُوفِّي كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ** وَقَالَ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا نَوَّفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا، وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْآيَاتِ كَثِيرَةٌ.

فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ

أَيُّ مَنْ أَبْعَدَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ بِسَبَبِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالْإِجْتِنَابِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فَقَدْ فَازَ وَسَعِدَ فَإِنَّ الْفَوْزَ الظَّفَرَ بِالْخَيْرِ مَعَ حَصُولِ السَّلَامَةِ وَقَدْ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْقُرْآنِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ** (١)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً** (٢)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ** (٣)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** (٤)

قال بعض المفسرين، وهذا تنبيه على أن الإنسان حيثما كان في الدنيا كأنه كان في النار وما ذاك إلا لكثرة آفاتنا وشدة بليّاتها ولهذا قال ﷺ: الدنيا سجن المؤمن انتهى كلامه

أقول ليس في الآية تنبيه على ما ذكره أصلاً وإلا يلزم أن يكون الأنبياء والأوصياء والصالحاء كلّهم في النار في الدنيا ولا يقول به عاقل فضلاً عن عالم فإن الدنيا كما تكون وسيلة وسبباً إلى دخول النار كذلك تكون سبباً إلى دخول الجنة فهي في نفسها لا حكم لها وكثرة الأفات وشدة البليّات فيها لا تصيرها ناراً يعذب الله بها الكفار والمنافقين ولو كان كذلك لزم أن يكونوا في النار في مدة حياتهم فيها لأن الأفات وشدة البليّات الموجودة في الدنيا تشملهم أيضاً وقد قال رسول الله ﷺ: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

فكيف يقال أن الإنسان حيثما كان في الدنيا كأنه كان في النار وتنحصر الإنسان بالمؤمن مضافاً إلى أنه لا دليل عليه في حيز المنع والحاصل أن حمل الآية الشريفة على هذه التخريجات جُرأة على الله تعالى.

فالمعنى أن من أبعد عن النار بترك المعاصي وأدخل الجنة بفعل الطاعات فقد فاز فوزاً عظيماً وهذا ظاهر لا خفاء فيه فإن الخلاص عن العذاب والوصول إلى الثواب من أجل الخيرات فمن وصل إلى هذين المطلوبين فقد فاز بالمقصد الأقصى والغاية الأسنى التي لا مطلوب بعدها.

روي عن النبي ﷺ أنه قال من أحبّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه انتهى.

وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ

شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المقام ويغرّ عليه حتّى يشتره ثم يظهر له فساد ودرأته والشيطان هو المدلس الغرور وهو حقّ لامرية فيه في

حَقٌّ مِنْ آثَرِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَغَرَّ بِهَا وَ أَمَّا مَنْ طَلَبَ الْآخِرَةَ بِهَا فَأَتَاهَا نِعَمَ
الْمَتَاعِ وَلِذَلِكَ أَيْ لِأَجْلِ أَنَّ الدُّنْيَا لَهَا وَجْهَانِ، إِسْتِقْلَالِي، وَأَلِّي، قَالَ تَعَالَى مَا
قَالَ أَيْ عَبَّرَ عَنْ حَيَاتِهَا بِمَتَاعِ الْغُرُورِ فَالدُّنْيَا مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا مَا بِهَا يَنْظُرُ إِلَى
الْآخِرَةِ نِعَمَ الْمَتَاعِ إِذَا لَا غُرُورَ فِيهَا حَيْثُ أَنَّهَا مَا بِهَا يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهَا أَوْ مَا فِيهَا
يَنْظُرُ لَيْسَتْ إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ فَالْعَاقِلُ لَا يَغْتَرُّ بِهَا فَأَتَاهَا لَيْتٌ مَسَّهَا قَاتِلٌ سَمَّهَا
ظَاهِرُهَا مَطْيَةُ السَّرُورِ وَبَاطِنُهَا مَطْيَةُ الشَّرُورِ وَلَنِعَمَ مَا قِيلَ:

لأن كنت في الدنيا بصيراً فأنما بلاغك منها مثل زاد المسافر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر
وقال الموصلي:

وَأَتَيْتُ رَأَيْتُ الدَّهْرَ مِنْذُ صَحْبَتِهِ مُحَاسِنُهُ مَقْرُونَةٌ وَمُعَايِبُهُ
إِذَا سَرَّني فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ لَمْ أَزَلْ عَلَى حَذَرٍ مِنْ أَنْ تَذُمَّ عَوَاقِبُهُ
وقال أبو العتاهية:

إِلَّا أَنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَمُ وَحَبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الدَّلُّ وَالسَّقَمُ
وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَةٌ إِذَا صَحَّحَ التَّقْوَى وَأَنْ حَاكَ أَوْ حَجَمَ
وقيل بالفارسية:

تورا دنيا همی گوید شب وروز که هان از صحبتم پرهیز پرهیز
مده خود را فریب از رنگ و بُویم که هست این خنده من گریه آمیز
وقال الآخر:

بِنَارٍ وَنِعْمَتٍ دُنْيَا مِنْهُ دِلٌ كِه دِل بَرداشتن كاری است مشكل
قال بعض المفسرين وأعلم أَنَّ فساد الدُّنْيَا مِنْ وَجْهِ:

أَوَّلُهَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ حَصَلَ لَهُ جَمِيعُ مَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ لَكَانَ غَمَّهُ وَهَمُّهُ
أَزِيدَ مِنْ سُرُورِهِ وَلِأَجْلِ قَصْرِ وَقْتِهِ وَقَلَّةِ الْوُثُوقِ بِهِ وَعَدَمِ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ هَلْ يَنْتَفِعُ
بِهِ أَمْ لَا.

ثانيها: أَنَّ الإنسان كُلَّمَا كان وجدانه بممرادات الدُّنيا أكثر كان حرصه في طلبها أكثر وكلَّمَا كان الحرص أكثر كان تألم القلب بسبب ذلك الحرص أشدَّ فَأَنَّ الإنسان يتوَهَّم أَنَّهُ إذا فاز بمقصوده سكنت نفسه وليس كذلك بل يزداد طلبه وحرصه ورغبته.

ثالثها: أَنَّ الإنسان بقدر ما يجد من الدُّنيا يبقى محروماً عن الآخرة التي هي أعظم السَّعادات والخيرات ومتى عرفت هذه الوجوه الثلاثة علمت أَنَّ الدُّنيا متاع الغرور وأنها كما وَصَّفها أمير المؤمنين عَلِيٌّ بن أَبِي طالب عليه السلام حيث قال لَيَنْ مَسَّهَا قَاتِلٌ سَمَّهَا انتهى.

أقول مضرت الدُّنيا كثيرة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حب الدُّنيا راس كلِّ خطيئة وحيث كان الامر على هذا المنوال فلا باس بذلو نبذة مما ورد في ذمِّها وانَّها بزخارفها متاع الغرور قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من احب الدنيا اضرَّ باخرته ومن احب آخرته اضرَّ بدنيها فأثروا ما يبقى على ما يفنى، وقال عليه السلام ياعجب كلِّ العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور.

وقال عليه السلام: أَنَّ الدُّنيا حلوةٌ خضرةٌ وأنَّ الله مستخلفكم فيها فناظروا كيف تعملون أَنَّ بني إسرائيل لما بَسَطَتْ لهم الدُّنيا ومَهَّدَتْ بأهوائها في الحلبة والنِّساء والثياب والطيب قال عيسى لا تتخذوا الدُّنيا رباً فتتخذكم عبيداً أكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه فَأَنَّ صاحب كنز الدُّنيا يخاف عليه الأفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الأفة.

وقال عليه السلام الدُّنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدُّنيا حتَّى يستكمل فيها رزقه وطالب الدُّنيا تطلبه الآخرة حتَّى يجي الموت فيأخذ بعنقه، وقال عليه السلام أحمذوا الدُّنيا فأنَّها أسحر من هاروت وماروت.

و قال المسيح عليه السلام ويل لصاحب الدنيا كيف يموت و يتركها و يأمنها و تغره و يشق بها و تخذله ويل للمغتربين كيف رهقهم ما يكرهون و فارقهم ما يحبون و جاءهم ما يوعدون ويل لمن الدنيا همته و الخطايا أملة كيف يفتضح غداً عند الله انتهى.

و قال عليه السلام: يا معشر الحواريين أرضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا، و في معناها قيل:

أرى رجلاً بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا في العيش بالدون فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغن الملوك بدنيهم عن الدين و قال أمير المؤمنين عليه السلام:

أما بعد فإني أخطرُكم الدنيا فإنها خلوة خصرة، حُفَّتِ بالشهواتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَافَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ، وَتَرَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ، لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمِنُ فَجَعَتُهَا، غَرَارَةُ ضَرَارَةٍ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِذَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَالَةٌ غَوَالَةٍ، لَا تَعْلُو إِلَى أَنْ قَالَ عليه السلام لَا يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَبًا إِلَّا أَزْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا، وَلَا يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ إِلَّا أَضْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ، غَرَارَةُ غُرُورٍ مَا فِيهَا، فَإِنَّهُ ^(١)... إلى آخر الخطبة بطولها

و قال عليه السلام:

وَأُخْذِرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنَزِلٌ قُلْعَةٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارٍ نُجْعَةٍ، قَدْ تَرَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا، دَارُهَا هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا: فَخَلَطَ خَلَالَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتُهَا بِمَوْتِهَا، وَخُلُوقُهَا بِمُرُهَا، لَمْ يُضْفِئِهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا لَوَلِيَّائِهِ، وَ لَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ، خَيْرُهَا زَهِيدٌ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ، وَجَمْعُهَا يُنْفَذُ، وَمُلْكُهَا يُسَلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرُبُ، ^(٢)...

وقال عليه السلام:

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعِهِ أَعْظَمُ مِنْ عَيْنَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِلَّةٌ الْأَخِرَةِ عَيْنَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ. فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعَيْنَانِ السَّمَاعُ، وَ مِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَالَ فِي الْأَخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِلَّةُ الْأَخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا، فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَاجِعٍ، وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ. إِنَّ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهَيْتُمْ عَنْهُ، وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، فَذَرُّوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ... (١)

وقال عليه السلام:

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ وَالتَّاهُبِ وَالِاسْتِعْدَادِ وَالتَّرَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الرَّادِّ وَلَا تَعُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ الَّذِينَ اخْتَلَبُوا دِرَّتَهَا وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا وَخَلَقُوا جِدَّتَهَا وَأَضَبَحَتْ مَسَاكِنَهُمْ أَجْدَانًا وَأَمْوَالَهُمْ مِيرَاثًا لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَنَاهُمْ وَلَا يَحْفَلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَارَةٌ خَدُوعٌ مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ مُلْبِسَةٌ نَزْعٌ لَا يَدُومُ رَخَاؤُهَا وَلَا يَنْقُضِي عَنَاؤُهَا وَلَا يَزُكُّ بِلَاؤُهَا (٢) انتهى.

وقال عليه السلام:

أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَتَّنُونَهَا وَتَرَعْبُونَ فِيهَا وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ لَيْسَتْ لِذَارِكُمْ وَلَا مَنْزِلَ لَكُمْ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ أَلَا وَانْهَ لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَرْتُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا... الخ (٣)

ضياء القرآن في تفسير القرآن
الجلد الرابع

جزء ٤

والكلام في الدنيا طويل والأخبار والآثار في ذمها كثيرة ولا سيما كتاب الله فأَنْ ما فيه يغني عن غيره ثم بعده نهج البلاغة لأَمير المؤمنين عليه السلام وإمام الزَّاهدين الَّذي لم يُوجد مثله بعد رسول الله ولا مثل كتابه بعد كتاب الله فهو عليه السلام كان أعرف بالدنيا منها نفسها ولذلك تراه عَرَفَ الدنيا في مواضع كثيرة في خطبه ورسائله وكلماته بما لم يسبقه إليه أحد بعد رسول الله وقد نقلنا أنموذجاً بل قطرةً من بحار أساليب كلامه عليه السلام في الباب فأن أردت الإطّلاع على تفصيل الكلمات والوقوف على مضامينها فعليك بشرحنا الكبير على بالنهج البلاغة الَّذي لم يسبقنا إليه أحد والحمد لله على هذه النعمة فأنّه ولي النعم ودافع النقم ونرجوا منه تعالى أن يوفّقنا للإتمام هذا السفر الجليل في تفسير كلامه كما وفّقنا الإتمام غير هذا فأنّه تعالى لطيف بعباده و مَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنْ أَلْفَسْتُ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ^(١) اللهم انك قلت في كتابك أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ فها انا ادعوك فاستجب لي فأنّ آياك بالاجابة جدير وعلى كلّ شيء خبير.

لَتُبْلَوْنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

قال الرَّاعِب بلى الثوب بلى وبلاء أي خلق ومنه لمن قيل سافر، بلاء سفر أي أبلاه السَّفر، وبلوته إختبرته كأنّي أخلقته من كثرة إختباري له أن قال ولذلك قيل أبليت فلاناً إذا إختبرته انتهى.

وعليه فالمعنى في قوله: لَتُبْلَوْنَ أي لتخبرن في أموالكم وأنفسكم وحيث أنّ الأموال والأنفس من نعم الله تعالى فالإختبار وقع في النعمة قال بعض المحققين أنّ إختبار الله تعالى للعباده تارةً بالمسار وأخرى بالمضار والأول يوجب الشكر والثاني يوجب الصبر فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء إلا أنّ المحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر ولما كان قيام بحقوق الصبر

يسر من القيام بحقوق فصارت المنحة والنعمة أعظم البلائين وإلى هذا المعنى يُشير ما نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنه قال من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مُكر به فهو مخدوع من عقله.

قال الله تعالى: وَنَبَلُوكُمْ بِالْبَشْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ^(١).

قال الله تعالى: وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ^(٢).

إذا عرفت هذا فنقول قوله: لَتُبْلَوُنَّ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ^(٣). من الإبتلاء في النعمة والمنحة معاً وذلك لأن الأموال من النعم فالإبتلاء بها من الإبتلاء بالنعمة، وقوله وأنفسكم إشارة إلى الإبتلاء في الأنفس بالموت والأمراض و فقد الأحباب وغير ذلك من المحن فيكون المعنى لتختبرن في النعمة المحنة فهو:

كقوله تعالى: وَ فِيْ ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ^(٤).

حيث أنه إشارة إلى المحنة التي في قوله عز وجل:

يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ^(٥).

والى المحنة التي في قوله تعالى:

وَ اتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيْهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ^(٦).

ثم أن الإبتلاء في الأقوال معناه إكتسابه من طريق المشروع وصرفه في طريق رضى المعبود الإبتلاء في الأنفس فالعمل بالتكاليف الشرعية والتجنب عن المعاصي والجهاد في سبيل الله والصبر على المصائب وأمثال ذلك من الأمور وأن شئت قلت في الجهاد الأكبر والأصغر.

وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

٢- الانفال ١٧ =

٢- البقرة ٢٩ =

٦- الدخان ٣٣ =

١- الانبياء ٣٥ =

٣- آل عمران ١٨٦ =

٥- البقرة ٢٩ =

أَيُّ وَلِتَسْمَعَنَّ أَيُّهَا النَّبِيُّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَهُمْ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، الْمَرَادُ بِهِمْ كَفَّارُ قَرِيشٍ أَوْ جَمِيعُ الْمُشْرِكِينَ، أَدَّى كَثِيرًا، بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ مَا أُوذِيَ نَبِيٍّ مِثْلَ مَا أُوذِيَ.

نَقَلَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ أَتَى قَرِيشًا فَقَالَ أَنَّ النَّاسَ يَجْتَمِعُونَ غَدًا بِالْمَوْسَمِ وَ قَدْ فَشَا أَمْرُ هَذَا الرَّجُلِ فِي النَّاسِ وَهُمْ يَسْأَلُونَكُمْ عَنْهُ فَمَا تَقُولُونَ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ أَقُولُ أَنَّهُ مَجْنُونٌ وَقَالَ أَبُو لَهَبٍ أَقُولُ أَنَّهُ شَاعِرٌ وَقَالَ عَقْبَةُ بْنُ أَبِي مَعِيْطٍ أَقُولُ أَنَّهُ كَاهِنٌ فَقَالَ الْوَلِيدُ بَلْ أَقُولُ هُوَ سَاحِرٌ يَفْرُقُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَأَخِيهِ وَأَبِيهِ فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى نَ وَالْقَلَمِ الْآيَةَ، وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرِ الْآيَةِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ وَالْوَلِيدُ وَ عَقْبَةُ وَ شَيْبَةُ لِلنَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ فَقَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ مِثْلَ مَا كُنْتَ أَحَدْتَكُمْ عَنْ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ فَنَزَلَ: **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً** ^(١)

وَ قَالَ النَّضْرُ بْنُ الْحَرِثِ وَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمَيَّةَ يَا مُحَمَّدُ لَنْ تُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَأْتِنَا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَعَهُ أَرْبَعَةُ أَمْلَاقٍ يَشْهَدُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَّكَ رَسُولُهُ، فَنَزَلَ: **وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ** ^(٢) وَ قَالَ قَرِيشٌ مَكَّةَ أَوْ يَهُودُ الْمَدِينَةَ أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضُ لَيْسَتْ بِأَرْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَنَّهَا أَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ الشَّامِ فَاتَّ الشَّامُ فَنَزَلَ: **وَإِنْ كَانُوا لَيْسَتْغَفِرُواكَ مِنَ الْأَرْضِ** ^(٣) وَ قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ تَرَكْتَ مِلَّةَ قَوْمِكَ وَ قَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا يَحْمِلُكَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْفَقْرُ فَأَنَّا نَجْمَعُ لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ مِنْ أَغْنَانَا فَنَزَلَ: **قُلْ أَعْيَزُ لِلَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا** ^(٤)

وَ قَالَتْ قَرِيشٌ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَّهَا يَعْلَمُهُ بِلْعَامٍ وَكَانَ قَيْنَا بِمَكَّةَ رُومِيًّا نَضْرَانِيًّا، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ عَلَى مُحَمَّدٍ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ فَنَزَلَ: **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ** ^(٥) الْمَنَاقِبُ لِابْنِ شَهْرٍ أَشُوبَ ^(٦).

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

٧ - الأتعام

١٤ - الأتعام

٤٨ - ص ٤٨ و ص ٤٩.

٢٥ = الأتعام

٧٦ - الإساءة

٢٤ - التحل

روي أنه ﷺ كان يطوف فشتمه عقبة بن أبي معيط وألقى عمامته في عنقه وجره من المسجد فأخذه من يده، وكان يوماً جالساً على الصفا فشتمه أبو جهل ثم شج رأسه حمزة بن عبد المطلب، فلما نزل أنكم وما تعبدون من دون الله الآيات أجمعوا على خلافه فحذب عليه أبو طالب ومنعه فقام عتبة والوليد وأبو جهل والعاص إلى أبي طالب فقالوا أن ابن أخيك قد سب ألهتنا وعاب ديننا وسفّه أعلامنا وضلل أبائنا أن تكفه عنا وأما أن تخلى بيننا وبينه فال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردّهم ردّاً جميلاً فمضى رسول الله على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعوا اليه واسلم بعض الناس فانمشوا إلى أبي طالب قرّة أخرى فقالوا أن لك سناً وشرفاً وفزلة وأنا قد إشتهيناك أن تنهي ابن أخيك فلم ينته وأنا والله لا نصبر على هذا من شتم أبائنا وتسفيه أعلامنا وعيب ألهتنا حتى تكفه عنا أو تنازله في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين فقال أبو طالب ما بال أقوامك يشكونك فقال ﷺ أني أريدكم على كلمة واحدة يقولونها تدين بها العرب وتؤذي اليهم بها العجم الجزية فقالوا كلمة واحدة نعم وأبيك عشراً قال أبو طالب وأي كلمة هي يا ابن أخي قال ﷺ لا إله إلا الله فقاموا ينفضون ثيابهم ويقولون أجعل الآلهة إلهاً واحداً أن هذا الشئ عجاب إلى قوله عذاب وفي رواية قال ﷺ أنه تعالى قد أمرني أن أدعوا إلى دينه الحنيفية وخرج من عنده مغضباً فدعاه أبو طالب وطيب قلبه ووعده بالنصر ثم أنشأ يقول:

والله لن يصلوا اليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفيناً
فأصدع بأمرك ما عليك غضاضته	وأشربذاك وقر منك عيوناً
ودعوتني وزعمت أنك ناصح	فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت ديناً قد عرفت بأنه	من خير أديان البرية ديناً
لولا المخافة أن يكون معرة	لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

و الأخبار الواردة في الباب في كتب المناقب والسِّير وغيرهما من المطولات كثيرة جداً مَنْ أراد الإطلاع عليها فعليه بمراجعتها ولنعم ما قيل:

لقد عجبت لأقوام ذوي سَفِه	من القبيلتين من سهم ومخزوم
القائلين لما جاء النبي به	هذا حديث أتاناً غير ملزوم
فقد آتاهم بحق غير ذي عوج	ومنزل من كتاب الله معلوم
من العزيز الذي لا شيء يعدله	فيه مصاديق من حق وتعظيم
فأن يكونوا له ضدّاً يكن لكم	ضدّاً بغلباء مثل الليل علىكم
فأمنوا بنبي لا أباً لكم	ذي خاتم صاغه الرحمن مختوم

وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

أي وأن تصبروا على جهاد النفس وبذل المال وأذى الخلق وتتقوا بالله عما سواه فإن ذلك الصبر والتقوى من عزم الأمور الذي هو من أمور أولي العزم من الرسل كما قال، فأصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، ويمكن أن يكون المراد من الصبر والتقوى الصبر على مجاهدة الكفار ومناذتهم والإنكار عليهم، قال بعض المفسرين الصبر عبارة عن احتمال المكروه والتقوى عبارة عن الإحتراز عما لا ينبغي فقدّم ذكر الصبر على التقوى لأن الإنسان أنما يقدم على الصبر للاقتفاء عما لا ينبغي وفيه وجه آخر وهو أن المراد من الصبر هو أن مقابلة الإساءة بالإساءة تقضي الى إزدياد الإساءة فأمر بالصبر قليلاً لمضار الدنيا وأمر بالتقوى قليلاً لمضار الآخرة فكانت الآية جامعة لأداب الدنيا والآخرة، قال الأشعث بن قيس دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً فقلت يا أمير المؤمنين الى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة فما زادني إلا أن قال عليه السلام:

أصبر على مضض الأدلاج في السحر وفي الزواح الى الطاعات في البكر
آتي رأيت وفي الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُؤَمِّلُهُ
وَقَالَ الْآخَرُ:

وَإِذَا أَمْسَكَ الزَّمَانُ بِضُرٍّ
وَأَتَتْ بَعْدَهُ نَوَائِبُ أُخْرَى
فِيَصْطَبِرُ وَإِنْتَظِرْ بِلُغِ الْأَمَانِي
وَإِذَا أَوْهَنْتَ قِوَاكُ وَجَلَّتْ
عَظُمَتْ دُونَهُ الْخَطُوبُ وَجَلَّتْ
سَمِئَتْ نَفْسُكَ الْحَيَاةُ وَمَلَّتْ
فَالزَّيَا إِذَا تَوَلَّتْ تَوَلَّتْ
كَشَفَتْ عَنْكَ جَمَلَةٌ وَتَخَلَّتْ

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

◀ اللُّغَةُ

ميثاق: الميثاق عهد مُؤكَّد بيمينٍ وعهدٍ والمَوْثَقُ الإِسْمُ منه وأصله الموثاق: قَلَبْتُ الْوَإِيَاءَ لِلْكسرة فَصَارَتْ مِيثَاقًا.
لَا تَكْتُمُونَهُ: الْكتمان الْإخفاء وهو ضِدُّ الْإِعْلَانِ وَالْإِظْهَارِ.
فَنَبَذُوهُ: النَّبَذُ الطَّرْحُ، وَالرَّمْيُ.
بِمَفَازَةٍ: مُصدر، فَازَ وَالْإِسْمُ الْفَوْزُ أَي لَا تَحْسَبْنَهُمْ يَفُوزُونَ وَيَتَخَلَّصُونَ.

◀ الإِعْرَابُ

لَتُبَيِّنُنَّهُ وَلَا تَكْتُمُونَهُ يُقْرَأُ بِالْيَاءِ عَلَى الْغَيْبَةِ لِأَنَّ الرَّاجِعَ إِلَيْهِ الضَّمِيرُ إِسْمٌ ظَاهِرٌ وَكُلُّ ظَاهِرٍ يَكْنَى عَنْهُ بِضَمِيرِ الْغَيْبَةِ وَيُقْرَأُ بِالتَّاءِ عَلَى الْخُطَابِ تَقْدِيرُهُ وَ قُلْنَا لَهُمْ، لِتُبَيِّنُهُ وَلَمَّا كَانَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ فِي مَعْنَى الْقَسَمِ جَاءَ بِاللَّامِ وَالنُّونِ فِي الْفِعْلِ وَلَمْ يَأْتِ بِهَا فِي يَكْتُمُونَ إِكْتِفَاءً بِالتَّوَكِيدِ فِي الْفِعْلِ الْأَوَّلِ لِأَنَّ تَكْتُمُونَ تَوَكِيدٌ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ يُقْرَأُ بِالْيَاءِ عَلَى الْغَيْبَةِ وَلِذَلِكَ فَلَا يَحْسَبْنَهُمْ بِالْيَاءِ وَفَاعِلُ الْأَوَّلِ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ وَآمَّا مَفْعُولَاهُ فَمَخْذُومَانِ اِكْتِفَاءً بِمَفْعُولِ

يحسبهم لأنّ الفاعل فيها واحد فالفعل الثّاني تكرير للأوّل وحسن لما طال الكلام المتّصل بالأوّل والفاء زائدة فليست للعطف ولا للجواب بمفازة قال بعضهم هي المفعول الأوّل ومفعوله الثّاني محذوف دلّ عليه مفعول، حسب الثّاني لأنّ التقدير لا يحسب الذين يفرحون أنفسهم بمفازة، وهم في فلا يحسبهم هو، أنفسهم، أي فلا يحسب أنفسهم وأغنى بمفازة الذي هو مفعول الأوّل عن ذكره ثانياً، لحسب الثّاني، ويُقرأ بالتاء فيهما على الخطاب وفتح الباء منهما والخطاب للنبي ﷺ والقول فيه، أنّ الذين يفرحون، هو المفعول الأوّل والثّاني محذوف لدلالة مفعول، حسب الثّاني عليه وقيل التقدير لا تحسب الذين يفرحون بمفازة وأغنى المفعول الثّاني عن ذكره، لحسب الثّاني من العذاب متعلّق بمحذوف لأنّه صفة للمفازة لأنّ المفازة مكان، والمكان لا يعمل ويجوز أن تكون المفازة مصدراً فتعلّق، من، به ويكون التقدير، فلا تحسبهم فانزبن فالمصدر في موضع إسم الفاعل.

التفسير

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ اتَّفَقَ الْمَفْسُورُونَ عَلَى أَنَّ
الآية مختصة باليهود والنصارى وذلك لأنّ الله تعالى قد أخذ منهم الميثاق
على لسان الأنبياء عليهم السلام بأن لا يكتموا شيئاً ممّا في الكتاب وقيل المراد،
بالذين أوتوا الكتاب، اليهود والنصارى وجميع أهل الكتاب فيدخل
المسلمون أيضاً في الآية وهو الحقّ اذ لا دليل على التخصيص قال الطبري في
تفسيره يعني بذلك تعالى ذكره وأذكر أيضاً من هؤلاء اليهود وغيرهم من أهل
الكتاب منهم يا محمّد اذ أخذ الله ميثاقهم ليبين للناس أمرك الذي أخذ
ميثاقهم على بيانه للناس في كتابهم الذي في أيديهم وهو التوراة والإنجيل و
أنك لله رسول مرسل بالحقّ ولا يكتمنونه فنبذوه وراء ظهورهم يقول فتركوا
أمر الله وضيعوه ونقضوا ميثاقه الذي أخذ عليهم بذلك فكتموا أمرك وكذبوا

بك وإشترؤا به ثمناً قليلاً يقول وإبتاعوا بكتمانهم ما أخذ عليهم الميثاق أن لا يكتموا من أمر نبوتك عوضاً منه خسيساً قليلاً من عرض الدنيا ثم ذمّ جلّ ثناءه شرائهم ما إشترؤا به من ذلك فقال فيئس ما يشترؤن ثم قال واختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية فقال بعضهم عني بها اليهود خاصة يعني فيحاص وأشييع وأشباههما من الأحزاب وقال آخرون عني بذلك كلّ من أوتي علماً بأمر الدين ثمّ نقل عن قتادة أنّه قال في هذه الآية، هذا ميثاق أخذ الله على أهل العلم فمن علم شيئاً فليعلمه وإياكم وكتمان العلم فإنّ كتمان العلم هلكة ولا يتكلّفن رجل ما لا علم به فيخرج من دين الله فيكون من المتكلّفين كان يقال مثل علم لا يقال به كمثّل كنز لا يُنفق منه ومثّل حكمية لا تخرج كمثّل صنم لا يأكل يشرب وكان يقال طوبى لعالم ناطقى وطوبى لمستمع واع وهذا رجل علم علماً فعلمه وبذله ودعا اليه ورجل سمع خيراً فحفظه ووعاه وانتفع به انتهى.

أقول ظاهر الآية إرادة العموم وهو ظاهر ولا نقول في التّوراة أو الإنجيل لأنّ القرآن لم يقل بذلك ولا نقول بعدمه أيضاً لما ذكرناه فنطلق ما أطلقه القرآن ونقيّد ما قيّده وحيث أطلق الكتاب وأهله في المقام فنقول به وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوثوا الكتاب يمكن أن يكون الميثاق في عالم الذر ويمكن أن يكون المراد به ما أخذه عليهم بواسطة الأنبياء عليهم السّلام لَنَبِيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ هذا هو الميثاق الذي أخذ عليهم وهو عبارة عن بيان ما في الكتاب للنّاس وعدم كتمانه عنهم فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ يمكن عود الضّمير في نبذوه، الى ما أخذ عنهم أي فنبذوا ما أخذ الله عنهم وراء ظهورهم أي تركوه ولم يلتفتوا اليه ويمكن عوده الى الكتاب أي نبذوا الكتاب وراء ظهورهم والمراد أنّهم لم يراعوه حقّ رعايته والنّبذ وراء الظهر مثل الطرح وترك الإعتداد ونقيضه جعله نصب عينيه فهو كناية عن عدم العمل بما في الكتاب أو أنّهم غفلوا عن ذكره وتشاغّلوا عن فهمه فكان كالشيء الملقى خلف

ظهر الإنسان لا يراه فيذكره ولا يلتفت اليه فينظره فالكلام خرج مخرج الاستعارة وَ أَشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُيِّنَ مَا يَشْتَرُونَ أَي أَنَّهُمْ كَتَمُوا الْحَقَّ وَأَخْفَوْهُ لِيَتَوَسَّلُوا بِهِ إِلَى وَجْدَانِ شَيْءٍ مِنْ حَطَامِ الدُّنْيَا مِنْ جَاءٍ أَوْ مَالٍ أَوْ مَقَامٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَحَيْثُ أَنَّ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا فَانِيَةٌ دَائِرَةٌ وَمَعَ ذَلِكَ بِالْبَلَاءِ مُحْفُوفَةٌ وَ بِالْعَدْرِ مَعْرُوفَةٌ وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ مَتَاعَ الدُّنْيَا بِالْقَلَّةِ تَارَةً وَبِالْغُرُورِ أُخْرَى فَلَا جَرَمَ جَعَلَهَا ثَمَنًا لِلْحَقِّ قَبِيحَ عَقْلًا وَشَرْعًا وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فَبُيِّنَ مَا يَشْتَرُونَ لِأَنَّ الثَّمَنَ وَهُوَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ كَمَا وَكَيْفًا وَالثَّمَنُ كَثِيرٌ كَذَلِكَ وَالْعَاقِلُ لَا يَقْدُمُ عَلَى هَذَا الْبَيْعِ.

تَنْبِيْهُ إِعْلَمُ أَنَّ أَكْثَرَ الْمَفْسِّرِينَ لَوْلَا كُلُّهُمْ إِسْتَفَادُوا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ حَرَمَةَ كِتْمَانِ الْعِلْمِ وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَالَمِ إِظْهَارُ عِلْمِهِ لِلنَّاسِ كَمَا عَرَفْتَ مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ الَّذِي نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَنَحْنُ نَقْلُنَاهُ مِنْهُ وَقَدْ ذَكَرُوا فِي تَفْسِيرِهِمْ أَحَادِيثَ كَثِيرَةً مِنْ طَرَفِهِمْ كُلُّهَا يَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ الْإِظْهَارِ وَحَرَمَةِ الْمَكَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَالَمِ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَافِ وَكَفَى بِهِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ مَا خُوِذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبَيِّنُوا الْحَقَّ لِلنَّاسِ وَمَا عِلْمُوهُ وَأَنْ لَا يَكْتُمُوا مِنْهُ شَيْئًا لَغَرَضٍ فَاسِدٍ مِنْ تَسْهِيلِ عَلَى الظُّلْمَةِ وَتَطْبِيبِ لِنَفْسِهِمْ وَإِسْتِجْلَابِ لِمَسَارِهِمْ أَوْ لَجَرِّ مَنْفَعَةٍ وَحَطَامِ دُنْيَا أَوْ لَتَقْيَةِ مِمَّا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَلَا إِمَارَةَ وَلَا لِبُخْلِ بِالْعِلْمِ وَغَيْرِهِ أَنْ يَنْسَبَ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ كَتَمَ عِلْمًا عَنْ أَهْلِهِ أَلْجَمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ وَعَنْ طَاوُوسٍ أَنَّهُ قَالَ لَوْ هَبَ أَتَيْ أَرَى اللَّهَ سَوْفَ يَعَذِّبُكَ بِهَذِهِ الْكُتُبِ وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ نَبِيًّا فَكُتِمَتِ الْعِلْمُ كَمَا تَكْتُمُهُ لَرَأَيْتُ أَنَّ اللَّهَ سَيَعَذِّبُكَ وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ وَلَا يَحِلَّ لِجَاهِلٍ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ حَتَّى يَسْأَلَ وَعَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَعْلَمُوا أَنْتَهَى كَلَامُهُ وَبِهَذِهِ الْمَقَالَةِ قَالَ غَيْرُهُ مِنْ مَفْسِّرِيهِمْ كَالرَّازِيِّ وَالْأَثُوسِيِّ وَالْقُرْطُبِيِّ وَالسَّيُوطِيِّ وَغَيْرِهِمْ.

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ مَنْ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا

أَلْكِتَابِ قِيلَ أَرَادَ بِهِ الْيَهُودَ خَاصَّةً وَقِيلَ أَرَادَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَقِيلَ أَرَادَ بِهِ كُلٌّ مِنْ أَوْتِي عِلْماً بِشَيْءٍ مِنَ الْكِتَابِ وَتَبِعَهُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ انْتَفَقَتِ الْكَلِمَةُ بَيْنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ عَلَى وَجوب إظهار العلم وهو ممَّا لَا كَلَامَ فِيهِ إجمالاً إِلَّا أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ عَلَى إِطْلَاقِهِ صَحِيحاً بَلِ الْحَقُّ هُوَ الْقَوْلُ بِوُجُوبِهِ فِي بَعْضِ الْمَوَارِدِ دُونَ بَعْضِ كَمُورِدِ التَّقِيَّةِ مِثْلاً أَذْ قَدْ ثَبَتَ عَقْلاً وَنَقْلًا كَتِمَانِ الْعِلْمِ فِي بَابِ التَّقِيَّةِ بَلِ يَجِبُ الْكَتِمَانُ وَيَحْرَمُ الْإِظْهَارُ فِي جَمِيعِ مَوَارِدِهَا كَمَا هُوَ ثَابِتٌ عِنْدَنَا وَأَمَّا فِي غَيْرِ التَّقِيَّةِ فِيمَا إِذَا كَانَ الْمُخَاطَبُ وَالسَّائِلُ أَهْلًا لَهُ فَيَجِبُ الْإِظْهَارُ وَأَمَّا فِيمَا لَمْ يَكُنِ السَّائِلُ أَوْ الْمُسْتَمْعُ أَهْلًا فَلَا يَجِبُ لِأَنَّ الْإِظْهَارَ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوَارِدِ تَضْيِيعٌ لِلْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالتَّقْلُّ يَحْكُمَانِ بِقَبْحِهِ.

روى في البحار عن عبد الله بن سليمان قال: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي جَعْفَرٍ فَقَالَ: لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يَقَالُ لَهُ عُثْمَانُ الْأَعْمَى أَنَّ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْعِلْمَ تُوْذِي رِيحَ بَطُونِهِمْ مِنْ يَدْخُلِ النَّارُ فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَلْكَ إِذَا مَوْءَمِنَ آلَ فِرْعَوْنَ وَاللَّهِ مَدَحَهُ بِذَلِكَ وَمَا زَالَ الْعِلْمُ مَكْتُومًا مِنْذُ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ نُوحًا فَلْيُذْهِبِ الْحَسَنُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَوَاللَّهِ مَا يُوجَدُ الْعِلْمُ إِلَّا هَاهُنَا انْتَهَى. وَبِأَسْنَادِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: أَنَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَامَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَحْدُثُوا بِالْحِكْمَةِ الْجَهْلَ فَتُظْلَمُوا هُمْ وَلَا تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتُظْلَمُوا هُمْ انْتَهَى.

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْعَسْكَرِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ سَأَلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ حَيْثُ يَجِبُ إِظْهَارُهُ وَتَزُولُ عَنْهُ التَّقِيَّةُ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلُجَامٍ مِنَ النَّارِ انْتَهَى^(١).

والأحاديث بهذه المضامين كثيرة فالآية لا تدل على وجوب إظهار العلم بقولٍ مطلق وهو المطلوب هذا محصل الكلام في تفسير الآية على مذاق المفسرين من العامة والخاصة وقد سلك بعض المفسرين من المتأخرين في تفسير الآية مسلكاً آخر أعلى وأتقن من مسلك القوم ومع ذلك أفيد وأشمل وأوفق بمذاق القرآن وحيث إنجر الكلام الى هنا لا بأس بنقل كلامه قال: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَي أذكروا اذا أخذ الله الميثاق عليهم بلسان أنبيائهم نقول في التّوارة لأنّ القرآن لم يقل بذلك ولا بعده فليس لنا أن نقيّد برأينا ما أطلقه ونزيد عليه بغير علم لَتَبَيَّنَتِ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ أَي أكّد عليهم إيجاب البيان أو التّبيين وفيه معنى التّكثير والتدرّج كما يؤكّد على المخاطب أهمّ الامور بالعهد واليمين فقال له، الله لتفعلنّ كذا فقرأه من قرأ بقاء الخطاب حكاية للمخاطبة التي أخذ بها الميثاق وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش بالمشنة التحتيّة، لِيَبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ، لأنّهم غائبون روي عن سعيد بن جبّير والسّدي أنّ الذي أخذ عليهم الموثق ببيانه هو محمّد ﷺ وعن الحسن وقتادة أنّه الكتاب الذي أوتوه وهو الظاهر المتبادر ويدخل فيه البشارة بالنّبي وتبيينه هو أن يوضحوا معانيه كما هي ولا يؤلّه ولا يحرفوه عن مواضعه التي وضع لتقريرها ومقاصده التي أنزل لأجلها حتّى لا يقع في فهمه لبس ولا إضطراب وهاهنا أمران:

العلم بالكتاب على غير وجهه وهو نتيجة عدم البيان.

وعدم العلم به بالمرة وهو نتيجة الكتمان وقد يقال أنّ الظاهر المتبادر في الترتيب هو أن ينهي عن الكتمان أولاً ثم يأمر بالبيان لأنّ البيان أنما يكون مع إظهار الكتاب فلماذا عكس، ولا جواب عن هذا أنّ القرآن قدّم أهمّ الأمرين لأنّ المخالفة في الأوّل وهو الكتمان تقتضي الجهل البسيط وهو الجهل بالدين.

و في الثّاني: تقتضي الجهل المركّب وهو اعتقاد ما ليس بدين ديناً و الجهل البسيط أهون لأنّ صاحبه يوشك أن يظفر بالكتاب يوماً فيهتدي به و يعرف الدّين و أمّا الجهل المركّب وهو فهمه على غير وجهه فيعسر زواله بالمرّة فيكون صاحبه ضالاً وجود اعلام الهداية والعبرة في ذلك ظاهرة عندنا فان كتابنا هو القرآن لم يوجد كتاب في الدّنيا حفظ كما حفظ ونقل كما نقل و نشر كما نشر فانّ الجماهير من المسلمين قد حفظوه عن ظهر القلب من القرن الأوّل الى هذا اليوم وهم يتلونه في كلّ مكان حتّى أنّك تسمعه في الشّوارع و الأسواق و مجتمعات الأفراح و الاحزان و في كلّ حالٍ من الأحوال و لكنّهم تركوا تبيينه للنّاس فلم يغن عنهم عدم الكتمان شيئاً فأنّهم فقدوا هدايته حتّى أنّهم يعترفون بأنّ المسلمين أنفسهم منحرفون عنه و أنّ القابض على دينه كالقابض على الجمر و يعترفون بأنّ العُش قد عمّ وطمّ و يعترفون بارتفاع الأمانة و شيوع الخيانة الخ و كلّ هذا من نتائج ترك التّبيين.

قال ولهذه التّعمية و هذا الإضطراب في فهم الكتاب أسباب أهمّها ما كان من الخلاف بين العلماء من قبل لا سيّما في القرن الثّالث فقد انقسمت الأمة الى شيع و ذهبت في الخلاف مذاهب في الأصول و الفروع و صار كلّ فريق ينصر مذهبه و يحتجّ له بالكتاب يأخذ ما وافقه منه و يؤلّ ما خالفه و إنّبعمهم النّاس على ذلك و رضي كلّ فريق من المسلمين بكتب طائفة من أولئك المختلفين حتّى جاءت أزمنة ترك فيها الجميع التّحاكم الى القرآن و تأييد ما يذهبون اليه به و تأويل ما عداه بل وصلنا الى زمنٍ يحرمون فيه ذلك و لا يرون فيه للقرآن فائدة تتعلّق بمعناه بل كلّ فائدة عندهم أنّه يُتبرك به و يتعبّد بألفاظه و يستشفّى به من أمراض الجسد دون أمراض القلب و الرّوح حتّى صرنا نتمنّى لو دامت تلك الخلافات فأنّه أهون من هجر القرآن تباتاً فانّ النّاس قد وقعوا في إضطراب من أمر دينهم حتّى صاروا يحسبون ما ليس بدين ديناً و حتّى أنّ العلماء يرون المنكرات و لا ينكرونها بل كثيراً ما يقعون فيها أو يتأوّلون

لفاعليها ولو بَيَّنوا للنَّاس كتاب الله لقبوله أقول أنَّ الذين تصدَّوا لتبيين القرآن في الكتب وهم المفسِّرون لم يكن تبيينهم كما ينبغي وكان جمال الدِّين يقول أنَّ القرآن لا يزال بكَراً، وأنَّ لي كلمة ما زلت أقولها وهي أنَّ سبب تقصير المفسِّرين الذين وصلت إلينا كتبهم هو عدم الإستقلال التَّام في الفهم وما كان ذلك لبلادةٍ وإنَّما جاء من أمور أهمَّها الإفتتان بالروايات الكثيرة وتغلب الإصطلاحات الفُنية في الكلام والأصول والفقه غير ذلك ومحاولة نصر المذاهب وتأييدها.

ثمَّ قال، أنَّ البيان أو التَّبين على نوعين أحدهما تبيينه لغير المؤمنين لأجل دعوتهم إليه وثانيها تبيينه للمؤمنين لأجل إرشادهم وهدايتهم بما أنزل إليهم من ربِّهم وكُلٌّ من كُلٍّ واحد من النوعين واجب حتم لا هوادة فيه ولا يشترط فيه ما أشترطه بعض الفقهاء من الإستفتاء والسؤال إذ زعموا أنَّ العالم لا يجب عليه التصدِّي لدعوة النَّاس وتعليمهم إلَّا إذا سألوه ذلك والقرآن حجة عليهم وهذه الآية أكد في الإيجاب من قوله تعالى في هذه السُّورة: **وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ** ^(١) فَأَنَّ الأمر وأن كان هناك للوجوب لأنَّ الأصل فيه ذلك على قول جمهور الأصوليين وأكَّد بقوله: **أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** إلَّا أنَّ التأكيد فيه دون تأكيد أخذ الميثاق هنا وما فيه من معنى القسَم ثمَّ ما يليه من تصوير ترك الإمثال بنبد الكتاب وبيعه بثمن قليل ومن الدَّم والوعيد على ذلك إذ قال: **فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ** التَّبذ الطَّرْح وقد جرت كلمة نبذه وراء ظهره مجرى المثل في ترك الشَّيْ وعدم المُبالاة به والإهتمام بشأنه كما يقال في مقابل ذلك، جعله نصب عينيه، أو ألقاه بين عينيه أي إهتَمَّ به أشدَّ الإهتمام بحيث كأنَّه يراه في كلِّ وقتٍ فلا ينساه ولا يغفل عنه وفيه تنبيه على كون هذا هو الواجب الَّذي كان عليهم أن يقوموا به فيجعلوا الكتاب إماماً لهم ونصب أعينهم لا شيئاً مهملاً ملقاً وراء الظَّهر لا ينظر اليه ولا يفكر في شأنه وكذلك

بند القرآن
وفي تفسير القرآن

جزء ٤

بند القرآن

كان أهل الكتاب الذين يحملونه كما يحمل الحمار الأسفار فلا يستفيد فيها شيئاً، ومنهم الذين يحرفونه عن مواضعه، ومنهم الذين لا يعلمون منه إلا ما في يمتنونها أي قراءات يقرأونها أو تشهيات يشتهونها ثم يبين تعالى جريمة أخرى من جرائمهم في الكتاب فقال: **وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا** أي أخذوا بدله فائدة دنيوية قليلة لا توازي عشر فوائد بيان الكتاب والعمل به فكانوا مغبونين في هذا البيع والشراء وهذا الثمن هو ما كان يستفيدة الرؤساء من المرؤوسين وعكسه، ومنه ما يتقرب به العلماء إلى الحكام وأجور الفتاوي الباطلة.

أَقُولُ ثم فصل الكلام في تعيين مرجع الضمير في قوله فنبذوه وقوله: **وَاشْتَرَوْا بِهِ** فقال هو ضمير الكتاب لا الميثاق أي نبذوا الكتاب وراء ظهورهم و اشتروا بالكتاب ثمنًا قليلاً ونقل عن إسناده رجوعه إلى الميثاق، فقال نبذوا الميثاق اذ تركوا العمل بالكتاب والتمن القليل الذي اشتروه به لم يبينه القرآن لأنه ظاهر في نفسه معروف من سيرتهم وهو عبارة عن التمتع بالشهوات الدنية واللذات الفانية فكان أحدهم يجد في العمل بالكتاب والتزام الشريعة مشقة فيتركه حباً في الراحة وإثارة للذة، وأما التأويل والتحريف فقد كان لهم أغراض كثيرة.

منها الخوف من الحكام والرجاء فيهم فيحرف رجال الدين النصوص عن مواضعها المقصودة ويصرفونها إلى معاني أخرى ليوافقوا ما يريد الحاكم فيأمنوا شره وينالوا برّه.

ومنها، إرضاء العامة والأغنياء خاصة بموافقة أهوائهم لإستفادة الجاه والمال. ومنها، وهو الأصل في التحريف الجدل والمرء بين رجال الدين أنفسهم لا سيما الرؤساء وطلاب الرئاسة منهم فأَنَّ الواحد من هؤلاء اذ قال قولاً و افترى فإخطاء فابان خطأ آخر ينبرى ليصبح قوله و توجيهه فيتاه و تخطئة خصمه و تاخذه العزة بالاثم فيرى الموت اهون عليه من الاعتراف بخطاه و الرجوع ال قول اخيه فى العلم والدين.

و منها الجهل فانّ المتصدى للتعليم و القيتنا قد يجهل مسائل فيتعرّض لبيانها بغير علم و إذا أبيع لمثل هذا أن يعلم للأسباب التي نعدّها من الرّؤساء الذين يجيزون جهلة الطّلاب بالتدريس و يعطونهم الشّهادة بالعلم محابة لهم فأنّه يرّبي تلاميذ أجهل منه فيكونون كلّهم محرّفين و يفسد بهم الدّين لا سيّما اذا صاروا مقرّبين من الأمراء و الحطّام.

و منها، إنقطاع سلسلة أهل الفهم و التّبيين و خبط النّاس بعدهم فيما يؤثرون عنهم من بيان و حمله على غير المراد منه حتّى بعد و عن الأصل بعداً شاسعاً ثمّ قال و أنظر في حال المسلمين الذين إتبعوا سنن من قبلهم و اعتبر بحال أهل الأزهر منهم ترى بعينك كما رأينا و تسمع بأذنك كما كما سمعنا و تفهم سرّها قصّة الله من أبناء أهل الكتاب علينا و ممّا سمعه هو و هو العجب العجائب قول شيخ من أكبر الشّيوخ سنّاً و شهرةً في العلم في مجلس إدارة الأزهر على مسع ألماء من العلماء، من قال أنّي أعمل بالكتاب والسّنة فهو زيد زنديق يعني أنّه لا يجوز العمل إلّا بكتب الفقهاء فقال له الأستاذ، من قال أنّي أعمل في ديني بغير الكتاب والسّنة فهو الزنديق ثمّ قال و أعلم أنّه لا مفسدة أضّرّ على الدّين و أبعت على إضاعة الكتاب و نبذه وراء الظّهر و اشتراء ثمن قليل به من جعل أرزاق العلماء و رتبهم في أيدي الأمراء و الحكّام فيجب أن يكون علماء الدّين مستقلّين تمام الإستقلال دون الحكّام لا سيّما المستبدّين منهم و أنّي لا أعقل لجعل الرّتب العلميّة و معاش العلماء في أيدي السّلاطين و الأمراء إلّا جعل هذه السّلاسل الذّهبية أغلالاً في أعناقهم يقودونهم بها الى حيث شاؤوا من غشّ العامّة بإسم الدّين و جعلها مستعبدة لهؤلاء المستبدّين ولو علمت العامّة لما أوثقت بقول و لا فتوى من عالم رسمي مطوّق بتلك السّلاسل و قد انتهت الأمر بالرّتب العلميّة في الدّولة العثمانيّة أن صارت توجه على الأطفال بله الجاهلين من الرّجال حتّى قال فيها أحد علماء طرابلس الشّام من قصيدة طويلة في سوء حال الدّولة:

زمنُ رأيت به العجائب وذهلتُ فيه من القرائب
 زمن به الوهم السخيف على العقول (على عقول الناس) غالب
 أفلا تراهم جانبوا كسب المعارف والآداب
 و رضوا بأوراقٍ تخطَّ خطوطها مثل العقارب
 يشهدون زوراً أنَّ من هي بإسمه نور الغياهب
 علامة العلماء أو بلاغ دولة المآرب
 ويكون أجـهـل جاهـلٍ ولما لها بالغش ناهب
 أو أنه حدث على
 فـخـذـيـه خـرء اللـيل لازب

ثم قال أن علماء السلف كانوا يهربون من قرب الأمراء المستبدين أشد مما يهربون من الحيات والعقارب ورووا في ذلك أخباراً وأثاراً كثيرة:

قوله صلى الله عليه وآله: سيكون بعدي أمراء زاد في رواية يكذبون ويظلمون فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارٍ علي الحوض الحديث رواه الترمذي وصححه أيضاً والبيهقي وفي معناه قوله صلى الله عليه وآله: سيكون عليكم أئمة يملكون أرزاقكم يحدثونكم فيكذبونكم ويعملون فيسيئون العمل لا يرضون منكم حتى تحسنوا قبيحهم وتصدقوا كذبهم فأعطوهم الحق ما رضوا به فإذا تجاوز فمن قتل على ذلك فهو شهيد، رواه الطبراني عن أبي سلالة.

حديث أنس المشهور، العلماء أمناء الرُّسل على عباد الله تعالى ما لم يخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك قد خانوا الرسل فأحذروهم وإعزلوهم رواه البخاري في المصنف الخ.

حديث ابن عباس أن أناساً من أمتي يتفقّهون في الدين ويقرأون القرآن فيقولون فاتى الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا

ولا يكون ذلك كما لا يجتني من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتني من قربهم إلا الخطايا قال السيوطي رواه ابن ماجة بسند رواة ثقات وكذا ابن عساكر ومن حديثه عند الديلمي سيكون في آخر الزمان علماء يرغبون الناس في الآخرة ولا يرغبون ويزهدون الناس في الدنيا ولا يزهدون، وينهون عن غشيان الأمراء ولا ينتهون، ومن حديث معاذ بن جبل ما من عالم أتى صاحب سلطان طوعاً إلا كان شريكه في كل لونٍ يعذب به في نار جهنم انتهى.

أقول ثم ذكر روايات أخر في الباب بهذه المضامين أعرضنا عن نقلها لعدم الاحتياج إليها فأنت فيما ذكرناه كفاية.

ثم قال قال تعالى: فَبَشِّرْ مَا يَشْتَرُونَ أي هو ذميمٌ قبيح لأنهم يجعلون هذا العرض الفاني بدلاً من النعيم الباقي في الآخرة وكذا من سعادة الدنيا الحقيقية التي تحصل للامة بمحافظه العلماء على الكتاب وتبيينه لها وإرشادها به إلى ما يهذب أخلاقها ويعلي أدابها ويجمع كلمتها ويحول بينها وبين مطالع المستبدين فيها حتى تكون أمة عزيزة قوية متكافلة متضامنة أمرها شورى بين أهل الرأي وأولي الأمر من أفرادها انتهى كلامه (١).

أقول أنما نقلنا كلام صاحب المنار بطوله لما فيه من الفوائد ما لا يخفى على المتأمل ولا سيما أنه قد أفرغ على نفسه في موارد كثيرة من كلامه هذا على إنحراف المسلمين وبذم القرآن وراء ظهورهم وتشبثهم بظواهر القرآن دون العمل ما ذكره من تقرّبهم إلى سلاطين الجور وتفسيرهم الآيات طبقاً لأميالهم وآرائهم وأنهم جعلوا هذا العرض الفاني بدلاً من النعيم الباقي إلى آخر ما قال في طي كلماته ونحن أيضاً لاشك في متحد ما ذكره ونقله عن استاده شيخ محمد عبده فإنه حق الامرية فيه إلا أننا نقول ما ذكره في علّة التحريف والتأويل من الأغراض كالخوف من الحكام وإرضاء العامة والجدل والمراء والجهل وغير

ذلك من الأمور التي ذكرها أصلاً وعلةً لإنحراف المسلمين عن طريق الحق ونبذهم القرآن وراء ظهورهم من حيث عدم العمل ليس اصلاً لانحراف المسلمين بل العلة به بل العلة الأصلية لهذا الداء هي تأسيس السقيفة في صدر الإسلام وحيلولة أصحابها بين القرآن والعتره وبعبارة أخرى أخذهم القرآن على أصل أسستة المؤسس في قوله: حسبنا كتاب الله، وتركهم العمل به إلا فيما إذا كان القرآن موافقاً لمقاصدهم، فهذا أبو بكر بن ابي قحافة يروي عن رسول الله ﷺ أنه قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، مخالف لصريح القرآن حيث قال يُوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين الآية وقال وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض الآية وكيف يعقل أن يقول الرسول به و هو ﷺ قال ما خالف القرآن فأضربوه على الجدار أو نظير ذلك أليس الحديث يُعرض على كتاب الله فما وافقه يؤخذ به وما خالفه يترك والحق أن أبا بكر أراد أن يأخذ فديكاً عن الزهراء عليها السلام فجعل هذا الحديث وشهد له عمر وعائشة وخفصة فأخذ حق البتول تمسكاً بهذا الحديث المخالف للقرآن ونحن نسأل عن صاحب تفسير المنار ونقول له ما تقول في قصة فديك أليس ما فعله أبو بكر على خلاف القرآن طرداً ونبذاً للكتاب وراء ظهره والجواب مثبت فإذا كان أبو بكر بعد رسول الله من أجلى مصاديق الآية فما ظنك بغيره من الخلفاء والحكام بعده و حيث كان أبو بكر من أكبر أولاد السقيفة فهي الأصل ولهذا قلنا في صدر المبحث أن العلة الأصلية لهذا الداء هي وجود السقيفة في صدر الإسلام ثم نشأت من هذا الأم الخبيث أولاداً وأحفاداً لا يمكن عدّها وحصرها كجعل الأحاديث وتفسير القرآن على الآراء والأهواء والعلماء الذين باعوا دينهم أن كان لهم دين، بدنياتهم بل بدنيا غيرهم مثل أبي هريرة الدؤسي وسمرة بن جندب وأنس وعمر بن العاص الذي باع دينه بدنيا معاوية والزهري والشعبي وأمثالهم ممن لا ينبغي عدّهم من المسلمين فضلاً عن العلماء وهلم جرّاً إلى زماننا هذا والعجب كل العجب من صاحب تفسير المنار وغيره من مفسري العامة كيف يتفوهون بهذه

الكلمات وكلهم فسروا القرآن بأرائهم أو بآراء أسلافهم من العلماء الذين عرفتهم إجمالاً فهذا تفسير الطبري وبعده الدر المنثور للسيوطي والجامع لأحكام القرآن للقرطبي وغيرهم من مفسريهم كلهم رَوَوْا في تفاسيرهم عن أبي هريرة وأنس و عطاء وابن أبي رباح و معاوية و عمرو بن العاص و السدي وابن وهب و يونس و قتادة و أمثالهم و ليس من روايات أهل البيت الذين طهرهم الله عن الرّجس في تفاسيرهم عين و لا أثر، ألم يكن الرسول ﷺ جعل العترة عدل الكتاب في حديث الثقلين حيث قال أني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً لن يفترقا حتى يردوا عليّ الحوض.

رواه الفريقين في كتبهم فإذا كانت العترة بهذه المثابة في كلام رسول الله فما بال هؤلاء وغيرهم تركوا أقوالهم في كتاب الله وأخذوا بأقوال الجهال و المعاندين الملحدين الذين تعمدوا الكذب على الله و رسوله وسعوا في إنحراف المسلمين عن الحق كما ستعرف في تفسير الآيات شرطاً من شطحاتهم بحول الله وقوته ومحصل الكلام في المقام هو أنّ تفسير كلام الله إذا لم يؤخذ من أهل البيت الذين نزل القرآن في بيتهم وأهل البيت أدري بما في البيت فهو ليس من تفسير كلام الله بشئ و ما ليس من تفسير كلامه ومع ذلك يسند اليه فهو من أجلى مصاديق قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وهذا هو المراد بقوله فنبدوه وراء ظهورهم الخ.

لا ما ذكره صاحب المنار ولنعم ما قيل.

وأئمة من أهل بيت محمد	أحفظوا الشرائع والحديث المسندا
علموا المنايا والبلايا والذي	جهل الوري و المبتدأ والمنتهى
خرّان علم الله من برشادهم	دلّ الإله على هداه وأرشدا
وهم الصراط المستقيم ومنهج	منه الى ربّ المعالي يهتدي

حجج إذا هم العدو بكتمها

أمر المهيمن قلبه أن يشهدا

ولله در القائل حيث قال:

يا آل حم الَّذِينَ بُحِّهِمْ حَكَمَ الْكِتَابَ مَنْزِلًا تَنْزِيلًا
 كَانَ الْمَدِيحَ عَلَى الْمُلُوكِ وَكُنْتُمْ حُلُّ الْمَدَائِحِ عِزَّةً وَجُحُولًا
 بَيْتٌ إِذَا عَدَّ الْمَآثِرَ أَهْلُهُ عَدُو النَّبِيِّ وَثَانِيًا جَبْرِيلاً
 قَوْمٌ إِذَا اعْتَدَلُوا الْحَمَائِلَ أَصْبَحُوا مَقْسَمِينَ خَلِيفَةً وَرَسُولًا
 نَشَأُوا بِآيَاتِ الْكِتَابِ فَمَا انْتَشُوا حَتَّى صَدَرْنَ كَهَوْلَةً وَكُھُولًا
 ثِقْلَانِ لَنْ يَتَفَرَّقَا أَوْ يَطْيَا بِالْحَوْضِ مِنْ ظَمَاءِ الصَّدُورِ غَلِيلِ
 وَخَلِيفَتَانِ عَلَى الْإِنَامِ بِقَوْلِهِ الْحَقُّ أَصْدَقُ مِنْ تَكَلُّمٍ قَبِيلًا
 فَاتُوا الْآلَ الْيَسِينَ فَاصْبَحُوا مَا لِيَدُلُونُ سِوَى الْكِتَابِ عَدِيلِ وَلَنْخْتَمِ
 الْكَلَامُ فِي هَذَا الْمَقَامِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا

الخطاب للرسول ﷺ أي لا تحسبن الفارحين بما أتوا أي بما فعلوا فإن،
 أتى بمعنى، فعل كقوله تعالى: **إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا** ^(١) أي مفعولاً ويدل على ما
 ذكرناه قراءة، أتي، بما فعلوا، الذي فعلوه أقوال للمفسرين.

أحدها: كتم ما سألهم عنه الرسول وأخبارهم بغيره وأروه أنهم قد أخبروا
 به وإستحمدوا بذلك اليه قاله بن عباس.

الثاني: ما أصابوا من الدنيا وأحبوا أن يقال أنهم علماء قاله بن عباس
 أيضاً.

الثالث: قولهم نحن على دين إبراهيم وكنتمهم أمر الرسول قاله ابن جبير.

الرابع: كتبتهم إلى اليهود يهود الأرض كلها أن محمداً ليس بنبي فأتبتوا
 على دينكم فأجتمعت كلمتهم على الكفر به وقالوا نحن أهل الصوم والصلاة
 وأولياء الله قاله الضحّاك والسّدي.

الخامس: قول يهود خيبر للنبي ﷺ وأصحابه نحن على دينكم ونحن لكم ردة وهم مستمسكون بضلالهم وأرادوا أن يحمدا بما لم يفعلوا قاله قتادة.

السادس: تجهيز اليهود جيشاً إلى النبي ﷺ وإنفاقهم على ذلك الجيش قاله النخعي.

السابع: إخبار جماعة من اليهود للمسلمين حين خرجوا من عند النبي ﷺ قد أخبرهم بأشياء عرفوها فحمدهم المسلمون على ذلك وأبطنوا خلاف ما أظهروا ذكره الزجاج.

الثامن: إتباع الناس لهم في تبديل التوراة وأحبوا حمدهم أيأهم على ذلك ولم يفعلوا شيئاً نافعاً ولا صحيحاً قاله مجاهد.

التاسع: تخلف المنافقين عن الغزو وحلفهم للمسلمين أنهم يسرون بنصرهم وكانوا يحبون أن يقال أنهم في حكم المجاهدين قاله أبو سعيد الخدري انتهى.

أقول فعلى الأخير نزلت في المنافقين وعلى الأقوال السابقة نزلت في اليهود ثم أن الحق في معنى الكلام حمله على العموم ليكون شاملاً لكل من يأتي بحسنة فرح بها فرح إعجاب ويحب أن يحمده الناس ويشنوا عليه بالديانة والزهد وبما ليس فيه أن قلت بناءً على قراءة التاء في، لا تحسبن كما هو المشهور فقوله: الَّذِينَ يَفْرَحُونَ مفعوله الأول، فأين المفعول الثاني، قلت أنه محذوف لدلالة الكلام عليه وهو قوله: تحسبن لأن ما يجي من بعد قوله: فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بمفازة من العذاب يدل عليه أي وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا فائزين أي مبغدين عن العذاب لأن الفوز معناه التباعد من المكروه فقوله: فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ، توكيد للأول، وكيف كان فمعنى الآية لا تحسبن يا محمد، بناءً على قراءة التاء والباء المفتوحة وأما على قراءة من ضم الباء فالمعنى لا تحسبن أيها المؤمنون، وعلى قراءة يحسبن بالياء فالمعنى لا يحسبن اليهود أو

المنافقين على إختلاف الزّول كما مرّ وعلى الجميع أفادت الآية أنّ الذين يفرحون بما أتوا أي بما فعلوا، أو بما أعطوا ويحبّون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا فقد أخطأوا خطأ فاحشاً بل لهم عذاب أليم لنفاقهم وكفرهم أو لكتمانهم أمر محمد ﷺ والمعنى واضح لا خفاء فيه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

اللّام في، لله، للإختصاص أو للملك والمعنى أنّ ملك السّموات والأرض مختصّ به تعالى أو أنّ السّموات والأرض وما فيهما جميعاً ملكه تعالى، والمال في القولين واحد إذ لا شك أنّ المالك الحقيقي في عالم الوجود ليس إلّا الله وما سواه كائنات من كان مخلوق مملوك له وفي قوله: **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** نصّ على عموم قدرته تعالى على جميع المقدورات فالبحث يقع في مقامين.

أحدهما: إثبات أصل القدرة في حقّه تعالى.

الثاني: إثبات عمومه.

أما الأول: فالدليل عليه هو أنّ العالم حادث محتاج إلى المؤثر والمؤثر لا يكون حادثاً وإلّا يتسلسل وإذا لم يكن حادثاً فهو واجب لإنحصار الموجود فيهما والواجب لا يكون إلّا الله تعالى فثبت أنّ المؤثر واجب الوجود والمؤثر لا بدّ له من القدرة بمعنى الإيجاد على الشيء وإلّا لا يكون مؤثراً فهو تعالى قادر وهو المطلوب وأن شئت قلت أنّ المؤثرية لا تنفك عن القدرة وإلّا لا يكون المؤثر مؤثراً هـف.

أما الثاني: وهو عموم القدرة وهو الذي أشارت إليه الآية فقد نازع فيه الحكماء، فمنهم من قال أنّه تعالى واحد والواحد لا يصدر منه إلّا واحد ومنهم من زعم أنّه تعالى لا يقدر على إيجاد الشّور و هم الثنوية ومنهم من اعتقد أنّه لا يقدر على القبيح وهو النظام، ومنهم من منع قدرته على مثل

مقدورنا وهو البلخي ومن تبعه ومنهم من أحال قدرته على عين مقدورنا و هما الجبائيان والكل باطل عاطل وذلك لأن نسبة ذاته الى جميع المقدورات على حد سواء، ولا مانع بين الذات والمقدور فيجب التعلق العام أعني به عموم القدرة.

أما الأول: فلأن مقتضى لكونه تعالى قادراً ليس إلا ذاته ونسبتها الى الجميع متساوية لتجردها فيكون مقتضاها أيضاً متساوي النسبة.

أما الثاني: فلأن مقتضى لكون الشيء مقدوراً هو إمكانه وهو مشترك بين الكل فيكون مقتضاه أيضاً متساوي النسبة وهو المطلوب.

واذا انتفى المانع بالنسبة الى القادر والمقدور وجب التعلق التام ولا نعني بعموم القدرة إلا هذا وأما دليل النقل على اثباتها وعموماً فلانحتاج الى ذكره بكثرة الآيات والاعبار في الباب . وإذا انتفى المانع بالنسبة الى القادر وبالنسبة الى المقدور وجب.



إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ
 اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ (١٩٠)
 الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى
 جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَ
 الْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا
 عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ
 فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢)
 رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا
 بِرَبِّكُمْ فَأَمْنَّا رَبَّنَا فَأَعْفُو لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
 سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا
 وَعَدْتَنَا عَلَى رُسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ
 لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)

◀ اللغة

الْأَلْبَاب: جمع اللَّب وهو العقل الخالص من شوائب الأهوام ولَب الشَّيْ خالصة.

جُنُوبِهِمْ: أصل الجَنْب الجارحة ثم يستعار في النَّاحِيَةِ التي تليها.

أَخْزَيْتَهُ: يقال خزي الرَّجُل إِذْ لَحِقَهُ إِنْكَسَارٌ أَمَا مِنْ نَفْسِهِ وَأَمَا مِنْ غَيْرِهِ
 فَالَّذِي يَلْحَقُهُ مِنْ نَفْسِهِ هُوَ الْحِيَاءُ الْمَفْرُطُ وَمَصْدَرُهُ الْخِزَايَةُ وَالَّذِي يَلْحَقُهُ مِنْ
 غَيْرِ يُقَالُ هُوَ ضَرَبٌ مِنَ الْإِسْتِخْفَافِ وَمَصْدَرُهُ الْخِزْيُ، وَ أَخْزَى مِنَ الْخِزَايَةِ
 وَالْخِزْيِ جَمِيعًا، كَفَر، التَّكْفِير، السَّرُّ وَالتَّغْطِيَةُ حَتَّى يَصِيرَ بِمَنْزِلَةِ مَا لَمْ يَعْمَلْ.

◀ الإعراب

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِي مَوْضِعٍ جَزْءٍ، لأولي الألباب أو في موضع نصب بإضمار أعني أو رفع على إضمار، هم، ويجوز أن يكون مبتدأ، والخبر محذوف تقديره يقولون ربنا قيماً وقعوداً حالان من ضمير الفاعل في يذكرون وعلى جنوبيهم حال أيضاً وحرف الجر يتعلق بمحذوف هو الحال في الأصل تقديره ومضطجعين على جنبهم ويتفكرون معطوف على يذكرون ويجوز أن يكون حالاً أي يذكرون الله متفكرين باطلاً مفعول لأجله والباطل هنا فاعل بمعنى المصدر والمعنى فأخلفتها عبثاً من تدخل النار في موضع نصب بتدخل أو منصوب بفعل دل عليه جواب الشرط وهو فقد أخزيتته و قيل، من مبتدأ والشرط وجوابه الخبر يُنادي صفة، لمنادياً، أو حال من الضمير فيه أن أمثوا أن هنا بمعنى، أي، ويجوز أن تكون مصدرية وصلت بالأمر والتقدير، ينادي للإيمان بأن آمنوا مع الأبرار صفة للمفعول المحذوف تقديره، أبراراً مع الأبرار وأبراراً، على هذا حال، والأبرار جمع برّ وأصله بر مثل كتف وأكتاف على رُسلك أي على سنته رسلك، وعلى، متعلقة، بوعدتنا ويجوز أن يكون بآتنا المِعَاد مصدر بمعنى الوعد.

◀ التفسير

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَالِ الرَّاغِبِ فِي الْمَفْرَدَاتِ، سماء كل شيء أعلاه وقال بعضهم كل سماء بالاضافة الى ما دونها فسماء وبالأضافة الى ما فوقها فأرض الى أن قال والسماء المقابل للأرض مؤنث وقد يذكر ويستعمل للواحد والجمع وقد يقال في جمعها سماوات انتهى.

وقال، الأرض الجرم المقابل وجمعه أرضون ويعبر بها عن أسفل الشيء كما يعبر بالسماء عن أعلاه قال الشاعر:

وأحمر كالدجاج أما سماؤها فزياً وأما أرضها فمحمول انتهى

وَأَمَّا عَجَائِبُ الْخَلْقَةِ فِيهِمَا فَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا عَقْلُ الْبَشَرِ وَمَعَ ذَلِكَ أَمْرٌ بِالتَّفَكُّرِ فِيهِمَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ لِأَنَّ مَا لَا يُدْرِكُ كُلَّهُ لَا يَتْرَكَ كُلَّهُ أَلَا تَرَى أَنَّ تَوْحِيدَ الْعَوَامِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا مِنْ دَلَالَةِ الْآثَارِ عَلَى وَجُودِ الْمُؤَثِّرِ وَمِنْ أَعْظَمِ الْآثَارِ الْمَحْسُوسَةِ وَجُودِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَنَافِعِ الْمَعْدَّةِ لِأَدَامَةِ الْحَيَاتِ لَهُمْ وَلِذَلِكَ أَمَرْنَا بِالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ فِيهِمَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالثَّلْجِ الَّذِي تَجْرِي فِيهِ الْبَحْرُ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْضَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضَرِّفُ الرِّيَّاحُ وَالسَّحَابُ الْمُسَخَّرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْضِرُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ^(٤) وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِيهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ^(٥) وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ.

قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ الْمُرَادُ بِالْخَلْقِ هُنَا التَّرْتِيبُ وَالتَّقْدِيرُ لَا الْإِبْجَادُ مِنَ الْعَدَمِ كَمَا هُوَ مُصْطَلَحُ أَهْلِ الْكَلَامِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِالطَّوْلِ وَالْقَصْرِ فِي أَيَّامِ السَّنَةِ أَوْ بِالثَّوْرِ وَالظَّلْمَةِ وَجَعَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَسِيلَةً وَسَبَبًا لِلْبَقَاءِ

والحياة لآياتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ أَي أَنَّ فِيهَا لآياتٍ أَي علامات دالّات على وجود الصّانع الحكيم الخبير وذلك لأنّ نظم الآثار يدلّ على وجود الخالق الحكيم فوجود الاثر يدلّ على وجود المؤثر ونظمه وترتيبه يدلّ على حكمة الخالق وحسن وتديره كما قيل.

تفكر في نبات الارض وانظر الى آثار ما صنع عليك
ففى راس الزبرجد شاهدات بان الله ليس له شريك
وأما خَصَّ التّعقل فيها بأولي الألباب فقال: لِأُولَى الْأَلْبَابِ ولم يقل
للناس مثلاً لأنّ أُولَى الألباب أي ذوي العقول الخالصة عن شوائب الأوهام
يفهمون من هذه الآيات ما لا يفهمه غيرهم من العوام وليس المراد أنّ غير
أولي الألباب لا يدركون شيئاً منها أصلاً فإنّ هذه الآيات لكونها من المحسوسات
يدركها كلّ واحد من العقلاء على قدر علمه وفهمه وجودة فكره هذا إذا قلنا
أنّ أُولَى الألباب من لهم عقول خالصة عن الأوهام كالأنبياء والأوصياء وقليل
من العلماء على حسب مراتبهم وأما أن قلنا أنّ المراد بهم مطلق ذوي العقول
فالأمر أسهل ولأجل ذلك فسّر الله تعالى أُولَى الألباب بقوله:

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُثُوبِهِمْ

أَي يذكرون على كلّ حالٍ ولا يغفلون عنه طرفة عين في القيام والقعود و
الإضطجاع وبالجملة في كلّ حالٍ والمراد بالذكر، اللّساني والحالي والقبلي و
أن شئت قلت يذكرون الله باللسان، وبالأعضاء والجوارح بسبب الأعمال، و
بالقلب، أعلم أنّهم اختلفوا في معنى الذكر في المقام على أقوال:

الأول: أن يكون الإنسان دائم الذكر لربه.

الثاني: أن يكون المراد به الصلوة وعليه فالمعنى أنّهم يصلّون في حال
القيام فأن عجزوا ففي حال القعود فأن عجزوا ففي حال الإضطجاع والمعنى
أنهم لا يتركون الصلوة على حالٍ.

الثالث: أن يكون قيامه وعوده وإضطجاعه لله تعالى وفي سبيل مرضاته ويعبر عنه بالذكر الحالي، قال بعض المفسرين أن الذكر في الآية يحمل على معناه العام الشامل للصلاة وغيرها ومصادقه الأكمل ذكر القلب وهو توجه النفس إلى خالقه وتذكر حكمه وفضله في حال القيام والقعود والإضطجاع وهذه الحالات التي لا يخلو العبد عنها تكون فيها السموات والأرض معه لا يتفارقان والآيات الإلهية لا تظهر من السموات والأرض إلا لأهل الذكر فكأين من عالم يقضي ليله في رصد الكواكب فيعرف منها ما لا يعرف الناس يتلذذ بذلك العلم ولكنه مع هذا لا تظهر له هذه الآيات لأنه منصرف عنها بالكلية ثم أن ذكر الله تعالى لا يكفي في الاقتداء إلى الآيات ولكن يشترط مع الذكر التفكير فيها فلا بد له من الجمع بين الذكر والفكر فقد يذكر المؤمن بالله ربه يتفكر في بديع صنعه وأسرار خليقته إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره لا بأس به إذا أردنا من الذكر، الذكر اللساني فقط وأما أن أردنا منه الذكر بجميع أحواله من اللساني والحالي والقلبي فلانحتاج إلى هذه القيود التي ذكرها فإن الذكر الواقعي لا يكون إلا متفكراً متوجهاً إلى الآيات متدبراً فيها وهو معلوم لا خفاء فيه وحيث أن معنى الذكر لا يعلمه إلا أهله فنقول قال إمام المتقين ورئيس الذاكرين بعد خاتم النبيين أمير المؤمنين عليه السلام

لِلذِّكْرِ لَأَهْلًا أَحَبُّهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ يَقْطَعُونَ بِهِ
أَيَّامَ الْحَيَاةِ وَيَهْتَفُونَ بِالزَّوْجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فِي أَسْمَاعِ الْعَافِلِينَ وَيَأْمُرُونَ
بِالْقِسْطِ وَيَأْتِمُرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى
الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا فُشَاهِدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ فَكَأَنَّمَا أُطْلِعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طَوْلِ
الْإِقَامَةِ فِيهِ الْخ... (١)

يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

لَمَّا ثَبَتَ الذِّكْرَ لَا يَكْمَلُ إِلَّا مَعَ الْفِكْرِ لَا جَرَمَ قَالَ بَعْدَ قَوْلِهِ: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ
 اللَّهَ قِيَامًا...، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ مَشْعُورًا بِأَنَّ الذَّاكِرَ الْحَقِيقِيَّ يَتَفَكَّرُ
 فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَصَّهْمَا بِالذِّكْرِ فِي الْآيَةِ مَعَ أَنَّ الذَّاكِرَ يَتَفَكَّرُ فِي كُلِّ
 شَيْءٍ وَفِي كُلِّ مَخْلُوقٍ، أَمَّا لَأَنَّهُمَا مِنْ أَجْلِ الْمَحْسُوسَاتِ وَأَعْظَمَهَا وَأَمَّا لِأَنَّ
 كُلَّ مَوْجُودٍ فِي عَالَمِ الْمَادَّةِ بَلْ وَعَالَمِ الْمَلَكُوتِ لَا يَخْرُجُ عَنْهُمَا، وَقَالَ بَعْضُ
 الْمُحَقِّقِينَ دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ مَحْصُورَةٌ فِي قِسْمَيْنِ دَلَائِلَ الْأَفَاقِ وَدَلَائِلَ الْأَنْفُسِ وَ
 لَا شَكَّ أَنَّ دَلَائِلَ الْأَفَاقِ أَجَلٌ وَأَعْظَمُ كَمَا قَالَ تَعَالَى لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَا جَرَمَ أَمَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْفِكْرِ فِي
 خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِأَنَّ دَلَالَتَهَا أَعْجَبُ وَشَوَاهِدُهَا أَعْظَمُ وَكَيْفَ لَا نَقُولُ
 ذَلِكَ وَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ نَظَرَ إِلَى وَرَقَةٍ صَغِيرَةٍ مِنْ أَوْرَاقِ شَجَرَةٍ رَأَى فِي تِلْكَ الْوَرَقَةِ
 عِرْقًا وَاحِدًا مَمْتَدًّا فِي وَسْطِهَا ثُمَّ يَتَشَعَّبُ مِنْ ذَلِكَ الْعِرْقِ عُرُوقٌ كَثِيرَةٌ إِلَى
 الْجَانِبَيْنِ ثُمَّ يَتَشَعَّبُ مِنْهَا عُرُوقٌ دَقِيقَةٌ وَلَا يَزَالُ يَتَشَعَّبُ مِنْ كُلِّ عِرْقٍ عُرُوقٌ
 أُخْرَى حَتَّى يَقِيدَ فِي الدَّقَّةِ بِحَيْثُ لَا يَرَاهَا الْبَصَرُ وَعِنْدَ هَذَا يَعْلَمُ أَنَّ لِلْخَالِقِ فِي
 تَدْبِيرِ مَلِكِ الْوَرَقَةِ حِكْمًا بِالْغَةِ وَأَسْرَارًا عَجِيبَةً وَأَنَّ اللَّهَ أَوْدَعَ فِيهَا قُوًى جَاذِبَةً
 لِمُغْذَائِهَا مِنْ قَعْرِ الْأَرْضِ ثُمَّ أَنَّ ذَلِكَ الْغِذَاءَ يَجْرِي فِي تِلْكَ الْعُرُوقِ حَتَّى يَتَوَزَّعَ
 عَلَى كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ تِلْكَ الْوَرَقَةِ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْغِذَاءِ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ
 وَلَوْ أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفِيَّةَ تِلْكَ الْوَرَقَةِ وَكَيْفِيَّةَ التَّدْبِيرِ فِي إِيجَادِهَا وَإِدَاعِ
 الْقُوًى الْغَاذِيَةِ وَالنَّامِيَةِ فِيهَا لَعَجَزَ عَنْهُ فَإِذَا عَرَفَ أَنَّ عَقْلَهُ قَاصِرٌ عَنِ الْوُقُوفِ
 عَلَى كَيْفِيَّةِ خَلْقِهِ تِلْكَ الْوَرَقَةَ الصَّغِيرَةَ فَكَيْفَ لَا يَقْصُرُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِمَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ أَسْرَارِ الْخَلْقَةِ الْمَوْدَعَةِ فِيهِمَا مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ الشَّمْسِ وَ
 الْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالْبَحَارِ وَالْجِبَالِ وَالْمِعَادِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَغَيْرِهَا مِنَ
 الْمَوْجُودَاتِ فَلَا يَبْقَى مَعَ هَذَا الْقُصُورِ إِلَّا الْإِعْتِرَافُ بِأَنَّ الْخَالِقَ أَجَلٌ، وَأَعْظَمُ

من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين بل ليسلم أن كل ما خلقه فيه حكمٌ بالغة وأسرار عظيمة وأن كان لا سبيل إلى معرفتها فعند هذا يقول بلسان الحال والمقال والقلب.

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا

أي ربنا ما خلقت هذا الذي نراه من العوالم السماوية والأرضية باطلاً ولا أبدعته وأنته عبثاً سُبحانَكَ أي تنزيهاً لك عن الباطل والعبث بل كل خلقك حقٌ مؤيدٌ بالحكم فهو لا يبطل ولا يزول وأن عرض له التحوّل والتحليل والأفول فحقنا عذاب النار بعنايتك وتوفيقك هذا.

ويمكن أن يكون المراد من قوله: وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أي يجمعون بين الذكر والفكر وذلك لأن قوله: وَ يَتَفَكَّرُونَ عطف على قوله: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ و عليه فالمعنى أن أولى الأبواب في الآية عبارة عن الذين يذكرون الله على كل حال قياماً وقعوداً وإضطجاعاً وهم مع ذلك لا يقنعون به بل يتفكرون في خلق السموات والأرض وذلك لأن الإنسان قد يكون ذاكراً ولا يكون متفكراً وقد يكون بالعكس وقد يجمع بين المقامين أما الأول والثاني فلا فضل لهما لأن الذكر بدون الفكر وبالعكس لا يفيد وأما الثالث فله الفضل والشرف والرجحان لأنه يهدي إلى الحق قال تعالى: أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ^(١)

وتوضيح ذلك إجمالاً هو أنه قد يتفكر الإنسان في عجائب خلقه السموات والأرض والأسرار المودعة فيهما من الإتيان والإبداع والحركات وهو غافل عن الخالق القادر الحكيم الذي خلق ذلك على أحسن نظام فهو متفكرٌ بذاكرٍ كأكثر علماء الهيئة من الكفار وقد يكون ذاكراً في يومه وليلته بالمواظبة على

فعل الطاعات بل ولسانه مشغول بالذكر دائماً أو في أغلب الأوقات ومع ذلك لا يعرف الخالق حق المعرفة وذلك كأكثر أهل الذكر من المتصوفة والجهال المتنسكين الذين قصموا ظهر النبي بتنسكهم جهلاً، وقد يكون متذكراً متفكراً، بمعنى أن ذكره فكر وفكره ذكر وهذا هو المراد من الآية ولذلك نقول أن الذكر بدون الفكر كالتصديق بدون التصور فباطل لمن جمع بين الأمرين وإستمتع بهاتين و فاز بالإتصاف بهما في النشأتين فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة ونجوا من عذاب النار في الآخرة كما قيل:

من كل معنى لطيف اجتلى قدحاً وكلّ حادثة في الكون تطربني

ثم أن الإنسان بسبب التفكير والتدبر في مجاري الخلق على هذا النظام المتقن المبرم يعلم تقصيره من حيث هو إنسان عن شكر المنعم عليه بكل شيء يتمتع به وعن القيام بوظائف العبودية فتعلو همّه في طلب الكمال ورفع التّقصير عن نفسه بقدر الإمكان فيقول بلسان الدّعاء والثّناء وقلبه بين الخوف والرّجاء رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا وهذا هو نتيجة الأمرين أعني بهما الذكر والفكر سُبْحَانَكَ أي تنزيهاً لك عن الباطل والعبث فكلّ خلقك حقّ مؤيد بالحكم والمصالح الخفية كما قلت: وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا^(١) ثم أن المراد بالباطل في الآية هو مقابل الحقّ قال الرّاعب في المفردات الباطل يقابل الحقّ و عليه فالمعنى ما خلقت هذا أي هذا الخلق باطلاً أي على غير حقّ فيرجع المعنى ما خلقت هذا إلا بالحقّ والمراد منه رعاية مصالح العباد، نقل الرّازي في تفسيره عن الواحدي أنّه قال الباطل عبارة عن الزّائل الذّاهب الذي لا يكون له قوّة ولا صلاية ولا بقاء وخلق السّموات والأرض متّقنٌ مُحكم ألا ترى إلى قوله تعالى: مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ^(٢) وقال: وَ بَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا^(٣) فكان

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

المراد من قوله: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا هَذَا المعنى انتهى.

أقول ما نقله الرّازي عن الواحدي في معنى الباطل لم يقل به أحد من أهل اللغة فأنهم إتفقوا على أنّ الباطل ضدّ الحقّ، فقوله خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ متقنّ محكم فلا يكون باطلاً مثلاً كلام لا طائل تحته فإنّ الخلق كلّ متقن محكم ولا يختصّ هذا الحكم بهما فليلزم ان لا يكون في الخلق باطل اصلاً وهو كما ترى ضدّ بديهة العقل والنقل وهو فيه عجيب ومن الرّازي اعجب حيث قال لم لا يجوز أن يكون تأويل الآية ما حكيناه عن الواحدي الى أن قال لم لا يجوز أن يكون المراد ربّنا ما خلقت هذا رِخواً فاسد التركيب بل خلقته صلباً محكماً وقوله: سُبْحَانَكَ معناه أنك وأن خلقت السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ صلبة شديدة باقية فأنت منزّه عن الإحتياج اليه والإنتفاع به فيكون قوله: سُبْحَانَكَ معناه هذا انتهى.

ولقائل أن يقول ما خلق الله شيئاً في عالم الخلق رِخواً فاسد التركيب بل كلّ مخلوق خلقه الله صلباً محكماً وصلابة كلّ شيء بحسبه هذا أولاً.

ثانياً: أنّ الصّلاية من مختصّات الجسم الكثيف والسّماء وما فيها من الموجودات بمعزل عن هذه القاعدة أمّا السّماء فليس بجسم قطعاً وأمّا الموجودات فيه فعلى أقسام، قسم منها في عداد الأجرام مثل الشّمس والقمر والكواكب وقسم منها داخل في الأجسام اللّطيفة النّورية مثل الملائكة يبعد أن يكون هناك قسماً أو أقساماً آخر من الموجودات لا يعلمها إلا الله وكيف كان، ليس هناك جسم كثيف حتّى يتّصف بالصّلاية والرّخوة إلا أنّهما في كلّ جسم بحسبه لأنّها من الأمور الإضافيّة وهو واضح وأمّا قوله فأنت منزّه عن الإحتياج اليه الخ فهو حقّ لا مرية فيه إلا أنّه خارج عمّا نحن بصده اذ لم يقل أحد أنّ الله محتاج الى خلقه، اذا عرفت هذا فنقول، قوله: سُبْحَانَكَ معناه تنزيهه تعالى عن إيجاد اللغو والعبث فحيث قال، ما خلقت هذا باطلاً، أي عبثاً، قال سبحانه، أي أنت منزّه عن خلق الباطل والعبث فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الفاء للتفريع.

أَنْ قُلْتَ أَيَّ مَنَاسِبَةٍ بَيْنَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالتَّفَكَّرَ فِيهِمَا وَبَيْنَ الْوَقَايَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ حَتَّى يَتَفَرَّعَ الْوَقَايَةِ عَلَى الذِّكْرِ وَالتَّفَكُّرِ.

قُلْتُ لِمَا كَلَّفَ اللَّهُ أُولَى الْأَلْبَابِ بِالتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالتَّذَكُّرِ قِيَاماً وَقُعُوداً وَإِضْطِجَاعاً كَانَتْ وَظِيقتهم الْقِيَامُ بِمَرَاتِبِ الشُّكْرِ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ عَلَى أَسَاسِ الْمَعْرِفَةِ الْحَاصِلَةِ مِنَ التَّفَكُّرِ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَنْفُسِ ثُمَّ أَقَرَّ الْعَبْدَ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا خَلَقَ هَذَا الْخَلْقَ بِاطِّلَالٍ بَلْ خَلَقَهُ لِأَجْلِ الْإِعْتِبَارِ وَالْقِيَامِ بِوُضَائِفِ الْعِبَادَةِ وَحَيْثُ أَنَّ الْعَبْدَ قَصَّرَ فِي وَضَائِفِهِ صَارَ بِذَلِكَ مُسْتَحَقّاً لِلْعَذَابِ فَلَا جَرَمَ يَنْطَلِقُ لِسَانُهُ بِالذِّعَاءِ وَالثَّنَاءِ فَيَقُولُ مُتَضَرِّعاً إِلَى اللَّهِ نَادِماً عَمَّا فَعَلَهُ أَوْ تَرْكِهِ، فَقَدْ عَذَابَ النَّارِ، فَأَنَا لَمْ نَعْتَبِرْ مِنْ آيَاتِكَ حَقَّ الْإِعْتِبَارِ فَلَا جَرَمَ مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ فَمَا عَبْدُنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ وَمِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُسْتَحَقٌّ لِلْعَذَابِ لَوْلَا فَضْلُكَ وَكَرَمُكَ.

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ

أَيَّ أَذَلَّتْهُ وَاهْتَنَتْهُ فَأَنَّ الْخِزْيَ الَّذِي يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنْ غَيْرِهِ هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْإِسْتِخْفَافِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْخَيَوَةِ الدُّنْيَا^(٣).

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ وَصَفَ مِنْ يَدْخُلُونَ النَّارَ، بِالظَّالِمِينَ لِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ عَلَى غَيْرِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَالظَّالِمُ هُنَا لَا يَخْتَصُّ بِالْكَافِرِ بَلْ هُوَ عَامٌّ يَشْمَلُ الْكَافِرَ وَالْمُسْلِمَ خِلَافاً لِبَعْضِ الْمَفْسَّرِينَ حَيْثُ خَصَّهُ بِالْكَافِرِ.

رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ

المنادي للإيمان هو الرسول ﷺ قيل ذكره بوصف المنادي تفخيماً لشأن هذا النداء وهو قوله: **قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلَحُوا** أَنْ أُمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا أَي المنادي كان يقول أُمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا بِهِ أَي أَمَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِجَمِيعِ مَا جَاء بِهِ مِنْ قَبْلِهِ وَالْإِيمَانُ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ وَالْإِعْتِقَادُ بِالْقَلْبِ وَالْعَمَلُ بِالْجَوَارِحِ عَلَى مَذْهَبِنَا وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَأَمَّا عَلَى مَسَلِكِ الْقَوْمِ فَهُوَ وَالْإِسْلَامُ سِيَانٌ فَكُلُّ مُسْلِمٍ مُؤْمِنٍ وَبِالْعَكْسِ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ الْإِيمَانُ هُوَ الْإِقْرَارُ وَالْإِعْتِقَادُ رَبَّنَا فَاعْفُ رُبَّنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ الْمَطْلُوبُ فِي هَذَا الدَّعَاءِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ:

أحدهما: غفران الذنوب.

ثانيها: تكفير السيئات.

ثالثها: وفاتهم مع الأبرار.

قال بعض المفسرين، الغفران هو السَّتر والتَّغطية، والتَّكْفِيرُ أَيْضاً هُوَ التَّغْطِيَةُ فَالْمَغْفَرَةُ وَالتَّكْفِيرُ بِحَسَبِ اللَّغَةِ مَعْنَاهُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ أَمَّا الْمَفْسُورُونَ فَذَكَرُوا فِيهِ وَجُوهاً:

أحدها: أَنَّهُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ وَإِنَّمَا أُعِيدَ لِلتَّأْكِيدِ لِأَنَّ الْإِلْحَاحَ فِي الدَّعَاءِ وَ الْمُبَالَغَةُ فِيهِ مَدْرُوبٌ.

ثانيها: الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِ مَا تَقْدَمُ مِنَ الذَّنُوبِ وَبِالثَّانِي الْمُسْتَأْنَفِ.

ثالثها: أَنْ يُرِيدَ بِالْغُفْرَانِ مَا يَزُولُ بِالتَّوْبَةِ وَبِالْكُفْرَانِ مَا تَكْفُرُهُ الطَّاعَةُ الْعَظِيمَةُ

رابعها: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِ مَا أَتَى بِهِ الْإِنْسَانُ مَعَ الْعِلْمِ بِكَوْنِهِ مَعْصِيَتِهِ وَ ذَنْباً وَبِالثَّانِي مَا أَتَى بِهِ الْإِنْسَانُ مَعَ جَهْلِهِ بِكَوْنِهِ مَعْصِيَةٍ وَ ذَنْباً أَنْتَهَى نَقْلُهُ لِرَازِي فِي تَفْسِيرِهِ.

اقول ما ذكره ونقله من الجواب أنما هو على أصله وهو أنَّ الْمَغْفَرَةَ وَ

التكفير بحسب اللغة واحد وليس كذلك فأَنَّ المغفرة غير التكفير، قال الرَّاعِبُ الغُفْران والمغفرة من الله هو أن يَصُون العبد من أن يَمَسَّه العذاب إنتهى وقال والتكفير ستره وتَظْطِيتُه حتَّى يَصِيرَ بِمَنْزِلَةِ ما لم يُعْمَلْ ويَصَحَّ أن يكون أصله إزالة الكُفْر والكُفْران نحو التَّمْرِض في كونه إزالة للمَرَض وتقْذِيَةِ الْعَيْنِ في إزالة القَذَى عنه إنتهى.

ثُمَّ أَنَّ الذَّنْبَ فِي الْأَصْلِ الْأَخْذَ بِذَنْبِ الشَّيْ يُقَالُ ذَنْبْتُ أَصَبْتُ ذَنْبَهُ وَتُسْتَعْمَلُ فِي كُلِّ فِعْلٍ يُسْتَوْحَمُ عُقْبَاهُ إِعْتِبَاراً بِذَنْبِ الشَّيْ وَلِهَذَا يُسَمَّى الذَّنْبُ تَبَعَةً إِعْتِبَاراً لِمَا يَحْصُلُ مِنْ عَاقِبَتِهِ انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَأَمَّا السَّيِّئَةُ فَهِيَ مِنَ السُّوءِ وَهُوَ كُلُّ مَا يَغْمُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ، وَالسَّيِّئَةُ الْفِعْلَةُ الْقَبِيحَةُ وَهِيَ ضِدُّ الْحَسَنَةِ وَالْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ ضَرْبَانِ:

أحدهما: بحسب إعتبار العقل والشرع نحو المذكور في قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْقَالٍهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا^(١)

ثانيهما: بحسب إعتبار الطَّبع فكلُّ ما يَسْتَخْفَهُ الطَّبع حَسَنَةٌ وَكُلُّ مَا يَسْتَنْقِلُهُ سَيِّئَةٌ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةِ عَنْ قَوْمِ مُوسَى فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ^(٢) إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ بَيْنَ الذَّنْبِ وَالسَّيِّئَةِ مِنَ النَّسَبِ الْعُمُومُ وَالْخُصُوصُ مُطْلَقاً اذْكَلْ ذَنْبٌ فَهُوَ سَيِّئَةٌ أَيْ مَتَّصِفٌ بِالْقَبِيحِ وَلَيْسَ كُلُّ سَيِّئَةٍ ذَنْباً بَلْ بَعْضُهَا مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ الَّذِي لَهُ تَبَعَاتٌ وَعُقَبَاتٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِثْلُ الزَّنا وَشَرْبِ الْخَمْرِ وَالْقَتْلِ وَنَحْوِهَا.

وَبَعْضُهَا لَيْسَ مِنَ الذَّنْبِ شَرْعاً وَهُوَ مَا لَيْسَ لَهُ تَبَعَاتٌ مِثْلُ تَأْخِيرِ الصَّلَاةِ عَنْ أَوَّلِ وَقْتِهَا مِنْ غَيْرِ عَذْرِ وَالسَّفَرِ فِي شَهْرِ الصَّيَامِ عَمْداً مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ لِأَجْلِ أَنْ لَا يَصُومُ مِثْلاً فِي الصَّيْفِ وَعَدَمُ الْإِعْتِنَاءِ بِشَأْنِ الْعُلَمَاءِ وَالْمَشَاهِدِ الْمَشْرِفَةِ وَالمَسَاجِدِ وَغَيْرِهَا فَأَنَّ هَذِهِ الْأَفْعَالَ قَبِيحَةٌ قَطْعاً عَقْلاً وَشَرْعاً إِلَّا أَنَّهُا لَيْسَتْ مِنَ الذَّنْبِ بِشَيْءٍ بِمَعْنَى تَرْتَبِ الْعُقَابِ عَلَيْهَا وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ تَرَكَ السَّلَامُ فَأَنَّهُ قَبِيحٌ

وليس بذنب بل نقول المستحبات كلها من هذا القبيل حيث أن تركها قبيح و ليس بذنب و الإشتغال بالكسب يوم الجمعة و لا سيما اذا نودي للصلاة منها قبيح و ليس بذنب و هكذا فثبت أن بعض السيئة ذنب وبعضها ليس بذنب فلا عقاب عليه و هو المطلوب اذا علمت ذلك فأعلم أن الله تعالى قال في الذنوب، فأغفر و في السيئات، كفر، لأجل أن المذنب بذنبه مستحق للعقاب فلا جرم يطلب من الله أن يصونه منه فيقول فأغفر لنا و أما المسي فقد لا يكون بفعله مستحقاً للعذاب كما عرفت و لكنه مستحق للفضيحة فقال كفر أي أسترنا عن الفضيحة في الدنيا والآخرة فلا تكرر في الآية و لا تأكيد حتى نحتاج الى الجواب، هذا ما فهمنا من الآية والعلم عند الله فإن أخطأنا فمن أنفسنا أصبنا فبالهامه وتوفيقه.

وأما الدعاء الثالث: وهو قوله تعالى: **وَتَوْقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ الْأَبْرَارِ** جمع برّ أو جمع بارّ كزب و أرباب وصاحب و أصحاب هكذا قال بعض المفسرين والحق أن الأبرار جمع، برّ و أما جمع البار على بررة قيل أن البرّ أبلغ من البار كما أن عدلاً أبلغ من عادل وكيف كان فقد ذكرنا في تفسير هذه المعية وجهين: **الأول:** أن وفاتهم معهم هي أن يموتوا على مثل أعمالهم حتى يكونوا في درجاتهم يوم القيامة.

الثاني: معناه، شاركنا مع الأبرار في جميع ما لهم يوم القيامة، وزاد بعضهم قولاً ثالثاً و هو أن يكون المراد منه كونهم في جملة أتباع الأبرار و أشياعهم و منه قوله تعالى: **فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** (١).

أقول الأحسن أن يقال توفنا مع الأبرار، أي أحشرنا معهم غداً يوم القيامة فهو من قبيل ذكر السبب و إرادة المسبب و أننا قلنا ذلك لأن مجرد الموت معهم لا يكفي في النيل الى السعادة فأكثر من الفساق والكفار يموتون مع الأبرار في زمان واحد و لا تزر وازرة وزر أخرى فالوفاة معهم كناية عن الحشر

معمهم قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي، وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ^(١) فقلوه: فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي هو الحشر مع الأبرار وهو من أعظم النعم وأعلى الدرجات كما سيأتي إن شاء الله في تفسير الآية.

رَبَّنَا وَاتِّبْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ

أي يقولون هؤلاء الأخيار، ربنا وأتينا ما وعدتنا على رسلك أي على السنة رسلك ولا تخزننا أي ولا تفضحنا يوم القيامة أنك لا تخلف الميعاد وهو مصدر بمعنى الوعد قيل إن هذه الدعوات وما في تضامينها من كمال الفراغة والآبتهال ليس لخوفهم مناخلاف الميعاد بل لخوفهم ان لا يكون من جملة الموعودين لسوء عاقبة وقصور في الامتثال فمرجعها الى الدعاء بالتثبيت او للمبالغة في التعبد والخشوع ثم قوله: وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ شبيه بقوله تعالى: وَبَدَأْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ^(٢) فإنه ربما يظن الإنسان أنه على الاعتقاد الحق والعمل الصالح ثم يوم القيامة يظهر له خلاف ما كان يظنه في الدنيا فهناك تحصل الحسرة الكاملة والأسف الشديد وذلك هو العذاب الروحاني وهو أشد من العذاب الجسماني ومما يدل على هذا أنه سبحانه حكى عن هؤلاء العباد المؤمنين أنهم طلبوا في هذه الأنواع الخمسة من الدعاء أشياء فأولها الإحتراز عن العذاب الجسماني وهو قوله: فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وأخرها العذاب الروحاني وهو قوله: وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ وذلك يدل على ما قلناه انتهى.

أقول معنى الآية واضح لا خفاء فيه.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ
 مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ
 فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا
 فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
 سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
 الثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي
 الْأَلْبَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
 الْمِهَادُ (١٩٧)

◀ اللغة

فَاسْتَجَابَ: الإجابة قيل هي الإجابة وحقيقتها هي التحري للجواب
 والتَّهَيُّؤ له لكن عبر به عن الإجابة لقلة إنفكاكها منها.
 أَضِيعُ بضم الألف وكسر الضاد وسكون الياء من أضاع يضيع إضاعةً.
 مَاؤُهُمْ: المأوى المكان.
 الْمِهَادُ: المهد والمهاد المكان الممهد الموطئ.

◀ الإعراب

عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْكُمْ صفة لعاملٍ وَمِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بدل من، منكم وهو بدل
 الشَّيْءِ من الشَّيْءِ وهما لعين واحدة بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ مستأنف ويجوز أن
 يكون حالاً أو صفة فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا مبتدأ وَلَا كُفِّرَنَّ وما إتصل به الخبر وهو
 جواب قسم محذوف ثَوَابًا مصدر وقيل هو حال، وقيل تمييز والثواب
 بمعنى الإثابة مَتَاعٌ قَلِيلٌ أي تقلبهم متاعاً فالمبتدأ محذوف.

◀ التفسير

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ قِيلَ الْإِسْتِجَابَةُ أَخَصَّ مِنَ الْإِجَابَةِ فَأَنَّ الْإِجَابَةَ مَعْنَاهَا الْجَوَابُ حَصَلَ الْمَطْلُوبُ أَمْ لَا وَالْإِسْتِجَابَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ حَصُولِ الْمَطْلُوبِ وَقَدْ يَتَعَدَّى الْفِعْلُ بِنَفْسِهِ وَقَدْ يَتَعَدَّى بِاللَّامِ أَتَى أَي بَأْتِي لَا أَضِيعُ عَمَلًا غَامِلًا مِنْكُمْ مِنَ الْإِضَاعَةِ أَوِ التَّضْيِيعِ عَلَى إِخْتِلَافِ الْقَرَأَتَيْنِ وَالْمَعْنَى أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ الْعَامِلِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى أَي سَوَاءٌ كَانَ الْعَامِلُ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً وَهُوَ مَا حَكَى عَنْهُمْ مِنَ الْمُوَاطَظَةِ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِمْ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَصْنُوعَاتِهِ إِسْتِدْلَالًا وَإِعْتِبَارًا وَالثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ بِالْإِعْتِرَافِ بِرَبُّوبِيَّتِهِ وَتَنْزِيهِهِ عَنِ الْعُبْثِ وَخَلْقِ الْبَاطِلِ وَالِإِسْتِغَالِ بِالذِّعَاءِ وَجَعَلَ هَذِهِ الْأَعْمَالُ سَبَبًا لِلْإِسْتِجَابَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِسْتِجَابَةَ الذِّعَاءِ مُشْرُوطَةٌ بِهَذِهِ الشَّرُوطِ وَبِهَذِهِ الْأُمُورِ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ الْفَرْقِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا لِأَنَّ الذَّكَرَ مِنَ الْأُنْثَى وَالْأُنْثَى مِنَ الذَّكَرِ أَي يَوْجَدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الْآخَرِ، قَالَ الزَّازِي وَفِيهِ وَجُوهٌ أَحْسَنُهَا أَنْ يُقَالَ، مَنْ، بِمَعْنَى الْكَافِ أَي بَعْضُكُمْ كَبَعْضٍ فِي الثَّوَابِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْعِقَابِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَقَالَ الْفُقَهَاءُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ فَلَنْ مَنِّي أَي عَلَى خَلْقِي وَسِيرَتِي وَهِيَ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ بَهَا شَرِكَةِ النِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فِيمَا وَعَدَ لِلْعَمَلِ أَنْتَهَى.

أَقُولُ الْأَحْسَنُ أَنْ يُقَالَ فِي الْمَقَامِ أَنَّ كَلِمَةَ، مَنْ، نَشْئِيَّةٌ أَي أَنَّ الذَّكَرَ نَشَأَ مِنَ الْأُنْثَى وَبِالْعَكْسِ أَي وُجِدَ وَخُلِقَ رُوي عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي أَسْمَعُ اللَّهَ يَذْكُرُ الرِّجَالَ فِي الْهَجْرَةِ وَلَا يَذْكُرُ النِّسَاءَ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى، أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ الْخِ أَقُولُ وَيُمْكِنُ أَنْ يَسْتَدِلَّ عَلَى الْمَدْعَى مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ بِأَنَّ الثَّوَابَ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْعَمَلِ نَفْسَهُ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ صَدَرَ وَهَذَا هُوَ مُقْتَضَى الْعَدْلِ وَالْإِلْزَمُ التَّرْجِيحُ بِلَا مُرْجَحٍ وَهُوَ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَحَيْثُ أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَادِلٌ وَالْعَدْلُ عِبَارَةٌ عَنْ وَضْعِ الشَّيْءِ فِي مَحَلِّهِ كَمَا أَنَّ الظُّلْمَ وَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ فَالْعَقْلُ يَحْكُمُ بِوَضْعِ الثَّوَابِ مِنْ أَيِّ عَامِلٍ صَدَرَ الْفِعْلُ عَلَى فِعْلِهِ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ هَذَا أَوَّلًا.

ثانياً: أَنَّ الْأَنْثَى فِي التَّكْلِيفِ كَالذَّكَرِ فَلَا وَجْهَ لِتَضْيِيعِ عَمَلِهِ بَعْدَ الثَّوَابِ عَلَيْهِ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَا تُكْفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ أَيُّ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَعَ الرَّسُولِ وَالْمَرَادُ فَالَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، الَّذِينَ أُلْجِأَهُمُ الْكَفَّارُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ كَجَعْفَرِ الطَّيَّارِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ سَارُوا إِلَى حَبْشَةَ وَقِيلَ الْمَرَادُ مِنْهُمْ مَنْ أَخْرَجَ مِنْ مَكَّةَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ وَالَّذِينَ أَوْذُوا فِي سَبِيلِي مِثْلَ عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ وَآيِ ذَرٍّ وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ أَوْذُوا فِي طَرِيقِ الْحَقِّ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا، كَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَهُمْ أَوَّلًا تَكْفِيرَ السَّيِّئَاتِ وَتَغْطِيطَهَا عَنْهُمْ فَقَالَ: لَا تُكْفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ.

ثانياً: إِدْخَالَهُمُ الْجَنَّةَ فَقَالَ: وَلَا دُخْلَ لَهَا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

ثالثاً: إِعْطَاءَهُمُ الثَّوَابَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ فَقَالَ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَقَوْلُهُ: وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ قِيلَ أَنَّهُ لِلتَّأَكِيدِ وَالْإِشْعَارِ بِأَنَّ هَذَا الثَّوَابَ فِي غَايَةِ الشَّرَفِ (لَا يَغْرُنُكَ تَقَلُّبُ).

الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ) الْآيَةُ خُطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ظَاهِراً وَآلِى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَاقِعاً قِيلَ نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي الْيَهُودِ كَانُوا يُضْرَبُونَ فِي الْأَرْضِ فَيُضَيِّبُونَ الْأَمْوَالَ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَالَ أَيْضاً هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ وَرَوَى أَنَّ نَاساً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَرُونَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْخَصْبِ وَالرِّخَاءِ وَلَبِنِ الْعَيْشِ فَيَقُولُونَ أَنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ فِيمَا نَرَى مِنَ الْخَيْرِ وَقَدْ هَلَكْنَا مِنَ الْجُوعِ وَالْجَهْدِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَفْظٌ عَامٌ وَالْكَافُ لِلْخُطَابِ وَالْحَقُّ مَا قُلْنَاهُ أَوَّلًا مِنْ أَنَّهُ خُطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمَرَادُ جَمِيعُ الْأُمَّةِ، قَالُوا الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: لَا يَغْرُنُكَ، أَيُّ لَا تَظُنَّ أَنَّ حَالِ الْكَفَّارِ حَسَنَةٌ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَغْتَرَّ فَارِحَ بِالشَّيْءِ الَّذِي يَغْتَرُّ بِهِ فَالْكَفَّارُ مَغْتَرٌّ بِتَقْلِبِهِمُ وَالْمُؤْمِنُونَ مُهْتَمُونَ بِهِ لَكِنَّهُ رُبَّمَا يَقَعُ فِي نَفْسِ مَنْ أَنَّهُ هَذَا

الأملاء للكفار أنما هو خير لهم فيجئ هذا جنوحاً إلى حالهم ونوعاً من الإغترار ولذلك حسنت لا يغرّنك وقال الرّمخشري لا يغرّنك الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد أي لا تنظر إلى ما هم عليه من سعة الرزق وإصابة حظوظ الدنيا ولا تغترر بظاهر ما ترى من تبسطهم في الأرض وتصرفهم في البلاد، فأن قلت كيف جاز أن يغتر رسول الله بذلك حتّى ينهي عنه وعن الإغترار به قلت فيه وجهان.

أحدهما: أن مقدّم القوم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً فكأنه قيل لا يغرّنكم.

الثاني: أن رسول الله كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان وثبت على التزامه كقوله: **وَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَطْعُ الْمُكَذِّبِينَ** وهذا في النهي نظير قوله في الأمر، **أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** وقد جعل النهي في الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب لأنّ التقلب لو عزه لإغتر به فمنع السبب ليمتنع المسبب انتهى.

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ أي ذلك التبسط والتقلب شيء قليل متعوبه ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد وقلته باعتبار إنقضاءه وزواله والمراد بالمأوى المكان الذي يأوون اليه وهو جهنم وعبر بالمأوى إشعاراً بانتقالهم عن الأماكن التي تقلّبوا فيها.

هذا آخر الكلام في تفسير الجزء الثالث و يتلوه الجزء الرابع والحمد لله.

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ
مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ مَا
أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اصْبِرُوا وَ صَابِرُوا وَ رَابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

◀ اللغة

نُزُلًا: بضمّتين ما يعدّ للنّازل من الرّاد والنّزل أيضاً الرّبع يقال طعام كثير النّزل.

لِلْأَبْرَارِ: أبرار جمع برّ وبار وقد مضى البحث فيه عند قوله وتوفنا مع الأبرار.

خَاشِعِينَ: الخُشُوع الضّراعة وأكثر ما يستعمل الخُشُوع فيما يوجد على الجوارح والضّراعة في القلب ولذلك يقال إذا ضرع القلب خشعت الجوارح. رَابِطُوا: يقال فلان رابط الجأش إذا قوى قلبه.

◀ الإعراب

لَكِنَّ الجمهور على تخفيف النّون وقرأ بتشديدها والإعراب ظاهر خَالِدِينَ فِيهَا حال من الصّمبر في لَهُمْ والعامل معنى الإستقرار وإرتفاع الجنّات بالإبتداء وبالجارّ نُزُلًا مصدر وانتصابه بالمعنى لأنّ معنى لهم جنّات

أي نزلهم وعند الكوفيين هو حال أو تمييز ويجوز أن يكون جمع نازل فعلى هذا يكون حالاً من الضمير في خالدين وإذا جعلته مصدراً يجوز أن يكون بمعنى المفعول فيكون حالاً من الضمير المجرور فيها أي منزلة من عند الله أن جعلت نزلاً مصدراً، كان من عند الله صفة له وأن جعلته جمعاً ففيه وجهان:

أحدهما: هو حال من المفعول المحذوف لأن التقدير، نزلاً، إياها.
الثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي ذلك من عند الله (ما عند الله) ما بمعنى الذي وهو مبتدأ وفي الخبر وجهان.
أحدهما: هو خيرٌ ولأبرار نعت للخير.

الثاني: أن يكون الخبر، للأبرار والنية به التقديم أي والذي عند الله مستقر للأبرار، وخيرٌ على هذا خبرتان وقال بعضهم للأبرار حال من الضمير في الظرف والخبر، خبر المبتدأ وهو بعيد لمن يؤمن من في موضع نصب اسم أن ومن سرّة موصوفة خاشعين حال من الضمير في يومين ويجوز أن يكون حالاً من الهاء والميم فيكون العامل، أنزل والله متعلق بخاشعين وقيل هو متعلق بقوله: لا يشترون وهو في نية التأخير أي لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً لأجل الله أولئك مبتدأ لهم أجرهم فيه أوجه.

أحدها: أن قوله: لهم خبر أجر، والجملة خبر الأول وعند ربهم ظرف للأجر، والآخر أن يكون الأجر مرتفعاً بالظرف إرتفاع الفاعل بفعله.
الثاني: أن يكون أجرهم مبتدأ وعند ربهم خبره ويكون، لهم، يتعلق بما دل عليه الكلام من الإستقرار والثبوت لأنه في حكم الظرف.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

التفسير

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَمَّا ذَكَرَ فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ ذَلِكَ التَّقَلُّبَ وَالتَّعَرُّفَ فِي الْبِلَادِ هُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَأَنَّ الْمُتَقَلِّبِينَ فِيهَا يَأْوُونَ بَعْدَ إِلَى جَهَنَّمَ فَدَلَّ عَلَى قَلَّةِ مَا

مَتَّعُوا بِهِ وَعَلَىٰ إِسْتِقْرَارِهِمْ فِي النَّارِ إِسْتَدْرَكَ، ولكن، الأخبار عن المَتَّقِينَ فِي مِقَابِلِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْكَافِرِينَ وَذَلِكَ شَيْئَانِ:

أحدهما: مكان الإِسْتِقْرَارِ وَهِيَ الْجَنَّاتُ.

الثَّانِي: الْخُلُودُ فِيهَا أَعْنِي بِهِ الْإِقَامَةُ فِيهَا دَائِمًا وَالتَّمَتُّعُ بِنَعِيمِهَا سَرْمَدًا فَقَابِلِ جَهَنَّمَ، بِالْجَنَّاتِ، وَقَلَّةُ مَتَاعِ الدُّنْيَا بِالْخُلُودِ الَّذِي هُوَ الدَّيْمُومَةُ فِي النِّعَمِ فَوَقَعَتْ، لَكِنْ، بَيْنَ الضَّادَيْنِ لِأَنَّهُ آلُ مَعْنَى الْجَمْلَتَيْنِ إِلَى تَكْذِيبِ الْكُفَّارِ وَالْإِثْبَاتِ لِلنَّعِيمِ الْمَتَّقِينَ وَذَلِكَ قَالَ: **لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا** وَفِي قَوْلِهِ: **نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقَامَاتِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ مِنْ قَبِيلِ النُّزُلِ وَهُوَ مَا يَعْدُو نَازِلًا مِنَ الصَّيَافَةِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَكُنَّا إِذِ الْجَبَّارُ بِالْحَيْشِ ضَافِنًا جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزُلًا

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، النَّزْلُ الثَّوَابُ وَهِيَ كَقَوْلِهِ: ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَقِيلَ النَّزْلُ الرِّزْقُ وَمَا يَتَغَذَّى بِهِ وَمِنْهُ فَتَزُلُّ مِنْ حَمِيمٍ، أَيْ فَيُغْذَاهُ وَنَقَلَ عَنِ الْهَرَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ الْإِنْزَالُ الَّتِي سَوَّيْتُ وَنَزَلَ عَلَيْهَا وَمَعْنَى مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَيْ لَا مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ وَسَمَّاهُ نُزُلًا لِأَنَّهُ إِرْتِفَاعٌ عَنْهُمْ تَكَالُفِ السَّعْيِ وَالْكَسْبِ فَهُوَ شَيْءٌ مُهَيَّأٌ يَهَيَّيْ لَهُمْ لَا تَعِبَ عَلَيْهِمْ فِي تَحْصِيلِهِ هُنَاكَ وَلَا شَقَّةٌ كَالطَّعَامِ الْمَهَيَّأِ لِلضَّيْفِ لَمْ يَتَعَبْ فِي تَحْصِيلِهِ وَلَا فِي تَسْوِيَّتِهِ وَمَعَالَجَتِهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ أَيْ أَنَّ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِي الدُّنْيَا وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُفَّارِ أَيْ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا يَتَقَلَّبُ فِيهِ الْكُفَّارُ مِنَ الْمَتَاعِ الزَّائِلِ وَقِيلَ، خَيْرٌ، هُنَا لَيْسَتْ لِلتَّفْضِيلِ كَمَا أَنَّهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا** ^(١) وَالْأَظْهَرُ مَا قَدَّمْنَاهُ، وَلِلْأَبْرَارِ مَتَعَلِّقٌ، بِخَيْرٍ وَالْأَبْرَارِ هُمُ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ، وَقِيلَ فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ أَيْ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ لِلْأَبْرَارِ خَيْرٌ لَهُمْ.

قال الطبرسي رحمته الله لكن، للإستدراك فيكون بخلاف المعنى المتقدم فمعناه ليس للكفار عاقبة خير أنما هو للمؤمنين المتقين الذين إتقوا ربهم بفعل الطاعات وترك المعاصي وقال في قوله: لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزلاً من عند الله، بين سبحانه ما يصيرون اليه من النعيم المقيم في دار القرار المعدّة للأبرار والنزول ما يعدّه للضيف من الكرامة والبرد والطعام والشراب، وما عند الله، من الثواب والكرامة، خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ مِمَّا يَتَّقِلَب فِيهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لأنّ ذلك عن قريب سيزول وما عند الله تعالى لا يزول ويروى عن عبد الله بن مسعود أنّه قال ما من نفسٍ برة أو فاجرة إلاّ و الموت خير لها من الحياة فأما الأبرار فقد قال الله، وما عند الله خير للأبرار، و أما الفجار فقال: وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَلَّى لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ^(١) انتهى.

هذا ما ذكره في الآية والعجب من الرّازي حيث قال واحتجّ بعض أصحابنا بهذه الآية على الرّؤية لأنّه لما كانت الجنّة بكلّيتها نزلاً فلا بدّ من الرّؤية لتكون خلعة ونظيره قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلاً^(٢) انتهى كلامه.

أقول على فرض أن تكون الجنّة بكلّيتها نزلاً أي محلاً ومقاماً للأبرار كما هو كذلك ليس في ذلك دليل على الرّؤية لا عقلاً ولا نقلاً وأيّ ملازمة بين كونه نزلاً ورؤية الله تعالى فقوله فلا بدّ من الرّؤية، لانفهم ما أراد منه وهو من أهل المعقول فإن أراد بكلامه هذا الملازمة العقلية فعليه بالبيان والإثبات وأتى له بإثبات ذلك فإنّ كون الجنّة بما فيها من النعم نزلاً للأبرار أمر معقول لا إشكال فيه عقلاً وشرعاً وعرفاً وأما أنّ لازم ذلك هو الرّؤية فهو غير معقول لما ثبت استحالتها عقلاً وشرعاً وهل يعقل ان يكون غير المعقول متريباً او لازماً للمعقول ومحصل الكلام هو أنّ الآية بمعزل عن الرّؤية وسيحجى الكلام في جوازها بما لا مزيد عليه.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

اختلفوا في سبب نزولها فقليل لما مات أصرمحة النجاشي ملك الحبشة و
معنى الأصرمحة بالعربية عطية قال سفيان وغيره صلى عليه رسول الله ﷺ
فقال قائل صلى عليه البلح النصراني وهو في أرضه فنزلت قاله جابر وابن
عبّاس وأنس والحسن وقتادة في النجاشي وأصحابه وعن ابن عبّاس برواية
أبي صالح نزلت في مؤمني أهل الكتاب من اليهود والنصارى وبه قال مجاهد
وقال ابن جريج وابن زيد ومقاتل نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه، و
قال عطاء، نزلت في أربعين من نجران وأثنى وثلاثين من الحبشة وثمانية من
الروم كانوا على دين عيسى فأمّنوا بالنبي ﷺ وقيل غير ذلك ثم أنّ من، في
قوله لمن، الظاهر أنّها موصولة وأجيز أن تكون نكرة موصوفة أي لقوماً.

أقول الحقّ أنّه لما ذمّ الله تعالى أهل الكتاب فيما تقدّم وصف طائفة منهم
بالإيمان وإظهار الحقّ حتّى لا يظنّ ظانّ أنّ جميع أهل الكتاب كانوا على الكفر
والضلالة وتدّل عليه كلمة، من، التي للتبعض أي بعض أهل الكتاب كذلك و
عليه فليس المراد منهم خصوص اليهود والنصارى بل المراد مطلق أهل
الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم فوصفهم الله تعالى.

أولاً: بالإيمان بالله وهو الإقرار والإعتقاد والعمل بالجوارح.

ثانياً: بما أنزل على النبي ﷺ في الشريعة المقدسة من الأحكام حلالها و
حرامها في الكتاب والسنة فقال: مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ.

ثالثاً: إيمانهم بما أنزل اليهم بواسطة أنبياءهم فقال: مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ.

رابعاً: وصفهم بالخشوع والخضوع والإنقياد في جنب الله تعالى الذي هو
ثمرة الإيمان الصحيح السالم عن الإضطراب والشكوك فأذن الخشوع لا يحصل
إلا من الخشية فقال: خَاشِعِينَ لِلَّهِ.

خامساً: بعدم إشتراءهم شيئاً من متاع الدنيا بآيات الله من تحريف
الكتاب أو تفسيره على غير وجهه فقال: لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا و

من كان كذلك فهو مؤمن حقاً وهذا عامٌ في حق جميع المؤمنين هذا كله بناء على أن يكون المراد من أهل الكتاب أهل الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبل الإسلام كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ممن لهم كتاب وأما أن قلنا أن المراد بالكتاب جنس الكتاب وبعبارة أخرى كل كتاب أنزل من الله على نبي من الأنبياء من البدو إلى الختم ليشمل القرآن أيضاً فلا إشكال فيه وعليه فالمقصود من الآية هو بيان أن أهل الكتاب كائناً من كان على صنفين. صنفٌ يعدون منه ظاهراً وليسوا منه واقعاً، وصنفٌ يعدون منه ظاهراً وواقعاً.

أما الأول: فاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ممن كانوا يعدون أنفسهم من أهل الكتاب ظاهراً ولم يكونوا منه واقعاً على ما مرّ الكلام فيه.

الثاني: الذين كانوا معتقدين بكتابهم قبل نزول القرآن وبعده آمنوا به حق الإيمان فهؤلاء أهل الكتاب حقاً ظاهراً وواقعاً هذا بالنسبة إلى أتباع الكتب السماوية قبل طلوع الإسلام وهذا المعنى بعينه جارٍ في حق المسلمين أيضاً، وذلك لأنّ منهم من هو من أهل القرآن ظاهراً وليس من أهله واقعاً كأبي سفيان ومعاوية وغيرهما من المنافقين ومنه من ليس كذلك وهو غيرهم من المؤمنين والحاصل أن أهل الكتاب في كل ملة وأمة حالهم كذلك منهم مؤمن ومنهم غير مؤمن ومجرد إطلاق أهل الكتاب عليهم لا يكفي في مدحهم والثناء عليهم وهذا أصلٌ كلي في جميع الأديان والمِلل وكيف كان فقد وعد الله المؤمنين الأجر والثواب فقال: **أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** يحاسب الخلق كلّهم في إن واحد لأنّه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم قبل أن يعملوها وبعد ما عملوها فلا حاجة به إلى إحصاء عدد ذلك فيقع في الإحصاء إبطاء ولذلك قال أن الله سريع الحساب.

ثم ختم سبحانه وتعالى السورة بالوصية للمؤمنين لأنها توجب إستجابة الدعاء وإيفاء الوعد بالنصر في الدنيا وحسن الجزاء في الآخرة فقال:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أوصاهم الله تعالى بأمر أربعة نافعة في الدنيا والآخرة، أحدها الصبر، وثانيها المصابرة، وثالثها المrabطة، ورابعها التقوى، فالمسائل أربعة:

الأولى: الصبر وهو في اللغة الإمساك في ضيق يقال صبرت الدابة حبستها بلا علف وصبرت فلاناً خلفته خلفه لا خروج له منها، وفي الاصطلاح حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه فالصبر لفظ عام وربما خولف بين أسماءه بحسب اختلاف مواضعه فان كان حبس النفس لمصيبة سمي سراً لا غير ويضاده الجزع وأن كان في محاربة سمي شجاعة و يضاده الجبن وان كان في نانبته فضجرة سمي رحب المصدر الضجر وان كان في امساك الكلام سمي كتماناً قال الله تعالى: **الْصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْأَضْرَاءِ** وسمى القوم صبراً لكونه كالنوع له قال صلى الله عليه وسلم صيام شهر الصبر وثلاثة أيام في كل شهر يذهب وحر الصدر وقوله تعالى: **فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ** قال أبو عبيدة أن ذلك لغة بمعنى الجراءة انتهى كلام الراغب في المفردات.

إذا عرفت معنى الصبر فأعلم أن الله تعالى في كثير من الآيات أمر بالصبر و بشر الصابرين بالثواب والرحمة كما مرّ مراراً وسيجي في المستقبل أيضاً ومن هذه الآيات قوله: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا** خاطب المؤمنين به دون الناس فلم يقل يا أيها الناس مثلاً، إمّا لأجل أن المؤمن يصبر لله، وأمّا لأجل أن الثواب ليس على مطلق الصبر بأيّ داع كان بل على الصبر الذي يكون منبعثاً عن الإيمان بالله و اليوم الآخر والصبر بهذا المعنى مختص بالمؤمن.

الثانية: قوله: **وَ صَابِرُوا** اختلفوا في معناه فقيل إصبر و صابروا بمعنى واحد و عليه فقوله: **وَ صَابِرُوا** للتأكد، وقيل إصبروا على طاعة الله في تكاليفه و صابروا أعداء الله في الجهاد، وقيل أي لا تسأموا وانتظروا الفرح و قال في المفردات في قوله: **أَصْبِرُوا وَ صَابِرُوا** أي إحبسوا أنفسكم على

العبادة وجاهدوا أهوائكم، وقيل معناه المغالبة في الصبر وفي ربط الخيل أي وصابروا الأعداء الذين يقاومونكم ليغلبوكم على أمركم ويخذلون الحق الذي في أيديكم، وقال الرّازي المصابرة عبارة عن تحمّل المكاره الواقعة بينه وبين الغير ويدخل فيه تحمّل الأخلاق الرديئة من أهل البيت والجيران والأقارب ويدخل فيه ترك الانتقام ممّن أساء اليك كما قال تعالى: **وَاعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**^(١) ويدخل فيه الإيثار على الغير كما قال: **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ** ولو كان بهم خصاصة ويدخل فيه العفو عمّن ظلمك كما قال وأن تعفو أقرب للتقوى ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويدخل فيه الجهاد فأنّه تعريض النفس للهلاك ويدخل فيه المصابرة مع المبطلين وحلّ شكوكهم فثبت أنّ قوله إصبروا تناول كلّ ما تعلّق به وعده وأما قوله: **وَصَابِرُوا** تناول كلّ ما كان مشتركاً بينه وبين غيره إنتهى كلامه.

الثالثة: قوله: **وَرَابِطُوا** قال ابن عطية والقول الصحيح هو أنّ الرباط هو الملازمة في سبيل الله أصلها من ربط الخيل ثمّ سمّي كلّ ملازم لثغر من ثغور الإسلام مرابطاً فارساً كان أو راجلاً وقال الزمخشري وابطوا أي فأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين للغزو وقال الله تعالى: **وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**^(٢)

الرابعة: قوله: **وَاتَّقُوا اللَّهَ** حقيقة التقوى أن تقى نفسك من الله أي من غضبه وسخطه وعقوبته ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته ومعرفة ما يرضيه وما يسخطه ولا يعرف هذا إلا من فهم كتاب الله وعرف سنّة نبيه فمن صبر وصابر وابط لأجل حماية الحق وأهله ونشر دعوته فقد أعدّ نفسه بذلك للفلاح والفوز بالسعادة عند الله تعالى هكذا قال بعض المفسرين ثمّ قال أنّ الفلاح هو الفوز والغبية المقصودة من العمل وقد يكون ذلك خاصّاً بالدنيا كقوله تعالى

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

بجود الرب

حكاية فرعون وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَغْلَى^(١) وقد يكون خاصاً بالأخرة كقوله حكاية عن أصحاب الكهف وَلَنْ نَفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا^(٢) وقد يكون مشتركاً بين الدارين وأكثر وعد القرآن المؤمنين بالفلاح من هذا القبيل ومن المعلوم أنَّ الصبر ومصابرة الأعداء، والمُرابطة، والتقوى، كلها من أسباب الفوز على الأعداء في الدنيا كما أنَّها مع حسن النية ومقصد إقامة الحق والعدل الذي هو شأن المؤمن من أسباب سعادة الآخرة وهذه الأعمال كلها إختيارية داخلية في مقدور العبد ولذلك أمر بها فعمله إذاً هو سبب فلاحه إنتهى.

تنبيه إعلم أنَّ الأفعال الصادرة من الإنسان على قسمين:
قسم منها يكون منشأه التقوى وطلب رضى الرب وقسم منها لا يكون كذلك.

أما الثانى: فلا كلام لنا فيه فعلاً، وأما الأول وهو الأفعال التي مصدرها التقوى وهو تعالى أمر فيها بالصبر والمصابرة ولما كانت الأفعال صادر عن القوى أمر بمجاهدة القوى وهى المرابطة وحيث أنَّ الأفعال إذا صدرت كذلك توجب الفوز والفلاح قال: لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ فاتَّقُوا اللَّهَ بالتَّبري عما سوى لكي تفلحوا غاية الفلاح، أو اتَّقُوا القبائح لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ بنيل المقامة الثلاثة المترتبة التي هي الصبر على مضض الطاعات ومصابرة النفس في رفض العادات ومرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات المعبر عنها بالشرعية والطريقة والحقيقة فعلم من هذا أنَّ الصبر دون المصابرة وهى دون المرابطة ولا بد من السلوك حتى يتجاوز العبد عن الأموال والمقامات الى أقصى النهايات.

* * *

سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ
رَقِيبًا (١) وَاتُّوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا
الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمُ إِلَىٰ
أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنْ
النِّسَاءِ مَشْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ
أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَاتُّوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ
نِخْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
هَنِيئًا مَرِيَّتًا (٤) وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ
الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَ
اٰكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥)

◀ اللغة

بَثَّ: البَثُّ التفريق وإثارة الشئ كَبَثَّ الرِّيحُ التُّرابَ وبَثَّ النَّفْسَ ما إنطوت عليه من الغَمِّ والسَّري قال بَثَّته فَأَنْبَثَ.

وَنِسَاءً: النِّسَاءُ والنِّسْوَانُ والنِّسْوَةُ جمع المرأة من غير لفظها كالقوم في جمع المرء

الْأَرْحَامُ: الرَّحِمُ بفتح الراء وكسر الحاء مستودع الجنين ثمَّ أَسْتَعِيرَ لِلْقَرَابَةِ لكونهم خارجين من رَحِمٍ واحدة وجمعه الأرحام.

رَقِيبًا: الرَّقِيبُ الحافظ

حُوبًا: الحُوبُ بضم الحاء الإثم وبفتح الحاء المصدر منه

أَلَّا تَعْدِلُوا: العَوْلُ ترك النصف بأخذ الزيادة ومنه عالت الفريضة اذ زادت في القسمة.

صَدَقَاتِهِنَّ: واحدها صَدَقَةٌ وفيه لغات أكثرها فتح الصَّاد والثانية كسرهما والجمع، صُدُوقٌ بضمَّتَيْنِ والثالثة لغة الحجاز، صَدَقَةٌ والجمع صدقات على لفظها وقد جاءت في التَّنْزِيلِ والمراد بها في المقام المهر.

نَحْلَةً يُقَالُ نَحَلُ ابْنُهُ كَذَا وَأَنْحَلَهُ وَالْإِنْتِحَالُ إِدْعَاءُ الشَّيْءِ وَتَنَاوُلُهُ وَسَمِيَ الصَّدَاقُ بِهَا مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِي مَقَابَلَتِهِ أَكْثَرُ مِنْ تَمَتُّعٍ دُونَ عَوْضٍ مَالِيٍّ.

طِبْنٌ: يُقَالُ طَابَ الشَّيْءُ يَطِيبُ طَيِّبًا فَهُوَ طَيِّبٌ وَأَصْلُهُ مَا تَسْتَلْذُهُ النَّفْسُ. هَنَيْئًا مَرَبَّتًا: الْهَنَى كُلُّ مَا لَا يَلْحَقُ فِيهِ مَشَقَّةٌ وَلَا يَعْقِبُ وَخَامَةٌ وَأَصْلُهُ فِي الطَّعَامِ، وَ الْمَرِي بِالْهَمْزَةِ وَبِدُونِهَا قِيلَ مَعْنَاهُ مَحْمُودُ الْعَاقِبَةِ وَقِيلَ مَعْنَاهُ السَّائِقُ مَعْنَاهُ الْحَلَالُ الطَّيِّبُ وَغَيْرَ ذَلِكَ.

السُّفْهَاءُ: السَّفَهُ حَقَّةٌ فِي الْبَدَنِ وَإِسْتَعْمَلُ فِي خَفَةِ النَّفْسِ لِنَقْصَانِ الْعَقْلِ وَفِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْمُتَّصِفُ بِهِ يُقَالُ لَهُ أَنَّهُ سَفِيهٌ وَجَمْعُهُ سَفْهَاءٌ كَغَرِيبٍ وَغَرَبَاءٍ وَنَجِيبٍ وَنَجَبَاءٍ.

◀ الإعراب

قد مضى القول في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ فِي الْبَقَرَةِ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ بِنَجْعَلِكُمْ، ومن، لإبتداء الغاية وكذلك مِنْهَا رُؤُوسُهَا وَمِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا نَعْتُ لِرِجَالٍ وَلَمْ يُؤْنِثْ حَمَلًا عَلَى الْمَعْنَى لِأَنَّ رِجَالًا بِمَعْنَى عَدَدٍ أَوْ جِنْسٍ أَوْ جَمْعٍ كَمَا ذَكَرَ الْفِعْلَ الْمُسْنَدَ إِلَى جَمَاعَةِ الْمُؤْنِثِ كَقَوْلِهِ وَقَالَ نِسْوَةٌ، وَقِيلَ كَثِيرًا، نَعْتُ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ أَيْ بَنَاءً كَثِيرًا تَسَاءَلُونَ قَرَأَ بِتَشْدِيدِ السَّيْنِ وَالْأَصْلُ تَسْأَلُونَ فَأَبْدَلْتَ التَّاءَ الثَّانِيَةَ سَيْنًا فَرَارًا مِنْ تَكَرُّبِ الْمَثَلِ، وَيَقْرَأُ بِالْتَّخْفِيفِ عَلَى حَذْفِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ لِأَنَّ الْبَاقِيَةَ تَدُلُّ عَلَيْهَا وَدَخَلَ حَرْفُ الْجَرِّ عَلَى الْمَفْعُولِ لِأَنَّ الْمَعْنَى تَحَالِفُونَ بِهِ أَلَّا زُحَامَ يَقْرَأُ بِالنَّصْبِ لِأَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى إِسْمِ اللَّهِ أَيْ وَاتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا، أَوْ أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى مَوْضِعِ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ كَمَا تَقُولُ مَرَرْتُ بِزَيْدٍ وَعَمْرَأَ وَالتَّقْدِيرُ، الَّذِي، تَعْظُمُونَهُ وَالْأَرْحَامُ يَقْرَأُ بِالْجَرِّ لِأَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى الْمَجْرُورِ وَهُوَ ضَعِيفٌ بِالطَّبِيبِ هُوَ الْمَفْعُولُ الثَّانِي لِتَبَدُّلِهَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِلَى مُتَعَلِّقَةٍ بِمَحْذُوفٍ وَهُوَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيْ مِضَافَةٌ إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَقِيلَ هُوَ مَفْعُولٌ بِهِ عَلَى الْمَعْنَى لِأَنَّ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ، لَا تَضِعُوهَا، أَنَّهُ، الْهَاءُ ضَمِيرُ الْمَصْدَرِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ تَأْكُلُوا، أَيْ أَنْ الْأَكْلَ وَالْأَخْذَ حُبًّا هُوَ إِسْمٌ لِلْمَصْدَرِ وَقِيلَ مَصْدَرٌ وَيَقْرَأُ بِفَتْحِ الْحَاءِ وَهُوَ مَصْدَرٌ حَابٍ يَحِبُّ حُبًّا إِذَا ائْتَمَّ وَإِنْ خِفْتُمْ فِي جَوَابِ هَذَا الشَّرْطِ وَجِهَانِ. أَحَدُهُمَا: قَوْلُهُ: فَانْكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ.

الثاني: قَوْلُهُ: فَوَاحِدَةً ثُمَّ أَعَادَ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا لِمَا طَالَ الْفَصْلُ بَيْنَ الْأَوَّلِ وَجَوَابِهِ أَنْ لَا تَنْقَسُطُوا الْجُمْهُورَ عَلَى ضَمِّ التَّاءِ مِنْ، أَقْسَطَ إِذَا عَدَلَ وَقَرَأَ شَاذًّا بِفَتْحِهَا وَهُوَ مِنْ قَسَطَ إِذَا جَارَ، وَتَكُونُ لَا زَائِدَةً مَا طَابَ مَا بِمَعْنَى مَنْ وَلَهَا نِظَائِرٌ كَثِيرَةٌ سَتَمَرَّ بِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَقِيلَ مَا، تَكُونُ لِمَصْفَاتٍ مَنْ يَعْقِلُ وَهِيَ هُنَا كَذَلِكَ وَقِيلَ هِيَ نَكْرَةٌ مَوْصُوفَةٌ بِتَقْدِيرِهِ،

فأنكحوا جنساً طيباً يطيب لكم أو عددٌ يطيب لكم و قيل هي مصدرية أي أنكحوا الطيب من النساء حال من ضمير الفاعل في طاب مثنى وثلاث ورباع نكرات لا تنصرف للعدل والوصف وهي بدل من ما، وقيل هي مال من النساء والواو في ثلاث ورباع، ليست للعطف الموجب للجمع في زمن واحد اذ لو كان كذلك يكون عبثاً فواحدة أي ما نحو واحدة وقرأ على أنه خبر مبتداء محذوف أي فالمنكوحة واحدة أن يكون التقدير فواحدة تكفي أو ما مَلَكَتْ اول للتجир على بابها وقيل لا باحة ما هنا بمنزلة ما في قوله ما طاب ان لا تعول اي الى ان لا تقولوا نحلة مصدر في موضع الحال فعلى هذا يكون حالاً من الفاعلين اي فاعلى وان يكون من الصدقات، وأن يكون من النساء أي منحولات نفساً تمييز والعامل فيه، طبن و المفرد هنا في موضع الجمع لأن المعنى مفهوم ويجوز أن يكون في معنى الجنس فصار كدرهما في قولك عندي عشرون درهما فكلوه الهاء تعود على شيء والهاء في، منه، تعود على المال، هنيئاً مصدر جاء على فعيل وهو نعتٌ لمصدر محذوف أي أكلاً هنيئاً و قيل هو مصدر في موضع الحال من الهاء والتقدير مهنتاً أو طيباً مرتباً مثله وهو فعيل بمعنى مفعول أموالكم التي الجمهور على أفراد، التي، لأن الواحد من الأموال مذكر فلو قال اللواتي لكان جمعاً كما أن الأموال جمع والصفة اذا جمعت من أجل أن الموصوف، جمع، كان و احدها كواحد الموصوف في التذكير والتأنيث جعل الله أي صيرها فهو متعد الى مفعولين والأول محذوف وهو العائد ويجوز أن يكون بمعنى خلق فيكون قياماً حالاً قياماً بالياء والألف وهو مصدر، تام والياء بدل من الواو وأبدلت منها لما أعلت في الفعل وكانت قلبها كسرة وأرزقوهم فيها قيل أن، في، على أصلها والمعنى أجعلوا لهم فيها رزقاً وقيل أنها بمعنى، من.

◀ التفسير

إِعلم أن سورة النساء هي مدنية كلها على المشهور إلا:
قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا^(١).

فأنها نزلت بمكة وقيل هي:

قال الله تعالى: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِكُمْ فِي الْأَكْلَانِ^(٢).

وعدد آياتها مائة وسبع وسبعون آيات في العد الشامي، وسيت في الكوفي، و
خمس في الباقي يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ لِّمَّا خَتَمَ اللَّهُ سورة آل عمران بالتقوى والأمر بها:

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا
اللَّهَ^(٣).

افتتح هذه السورة أيضاً بالأمر بها إلا أن هناك خص الأمر بالمؤمنين هذه
السورة عم الأمر لجميع المتكلمين فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَالنَّاسُ
يطلق على جميع أفراد البشر، لأن الإنسان خلاف الجن والإنس من كل شيء ما
يلي الإنسان والوحشي ما يلي الجانب الآخر له وجمع الإنس أناسي قيل
سُمي الإنسان به لأنه خلق خلقة لأقوام له إلا بأنس بعضهم ببعض ولهذا قيل
الإنسان مدني بالطبع وقيل سُمي به لأنه يأنس بكل ما يألفه، والإنسان إسم
جنس يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع وأختلف في اشتقاقه مع
إتفاقهم على زيادة النون الأخيرة فقال البصريون من الإنس، والهمزة أصلية
وزنه فعلان الكوفيون أنه مشتق من النسيان فالهمزة زائدة وقيل أصله أنسيان
على وزن إفعلان وقيل غير ذلك وكيف كان لا خلاف في صدق الناس على
جميع أفراد الإنسان من العرب والعجم والأبيض والأسود والمذكر و
المؤنث وهكذا فقلوه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ خطاب للجميع أمرهم الله بالتقوى مَرَّ

معنى التقوى غير مرة مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ اتَّفَقَ المفسِّرون على أنَّ المراد بالنفس هنا هو آدم أبو البشر وعليه فالمعنى خلقكم من آدم، ونقل عن ابن عباس أنَّه قال المراد بالناس في قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أهل مكة دون عامة الناس وإستدل على ذلك بقوله تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ لِلَّهِ الْعَرْبُ هُم الَّذِينَ كَانُوا يَتَسَاءَلُونَ بذلك يقولهم أنشدك بالله وبآلؤهم، وأجابوا عنه بأنَّ خصوص آخر الآية لا يمنع من عموم أولها فقوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَامٌ فِي الْكُلِّ وقوله:

وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ

مختصَّ بالعرب والحق في الآية كلها العموم وذلك لأنَّ خصوص المورد لا ينافي في عموم الخطاب، قال الرازي أعلم أنَّه تعالى أمرنا بالتقوى وذكر عقبيه أنَّه خلقنا من نفس واحدة وهذا مشعرٌ بأنَّ الأمر بالتقوى معلَّل بأنَّه تعالى خلقنا من نفس واحدة ولا بدَّ من بيان المناسبة بين هذا الحكم وبين ذلك الوصف ثمَّ قال قولنا خلقنا من نفس واحدة مشتمل على قيتين.

أحدهما: أنَّه خلقنا.

الثاني: كيفية التخلُّق وهو أنَّه خلقنا من نفس واحدة ولكل واحدٍ من هذين القيدين أثر في وجوب التقوى.

أما القيد الأول: وهو أنَّه تعالى خلقنا فلا شك أنَّ هذا المعنى علةٌ لأنَّ يجب علينا الانقياد لتكاليف الله تعالى والخضوع لأوامره ونواهيه وبيان ذلك من وجوه ثمَّ ذكر الوجوه تفصيلاً كما هو دأبه في جميع تأليفاته ولا سيَّما هذا الكتاب بما لا فائدة فيه إن شئت الإطلاع عليه فراجعهُ ولنرجع إلى تفسير الآية فنقول، قد أجمع المفسِّرون على أنَّ المراد بالنفس الواحدة في الآية هو آدم أبو البشر كما مرَّ ولم يخالف فيه أحد ولم يذكروا دليلاً على المدعى والآية لا تدلُّ على أكثر من أنَّ الله خلقنا من نفس واحدة وأما أنَّ المراد بها آدم أو غيره

فَلَايَة ساكنة عنه قال صاحب تفسير المنار نقلاً عن استاده ما هذا لفظه قال الاستاد ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص ولا بالظاهر فمن المفسرين من يقول أن كل نداء مثل هذا يراد به أهل مكة أو قريش فإذا صح هذا هنا جازن يفهم منه بنو قريش أن النفس الواحدة هي قريش أو عدنان وإذا كان الخطاب للعرب جاز أن يفهموا منه أن المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان وإذا قلنا أن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام أي لجميع الأمم فلا شك أن كل أمة تفهم منه ما تعتقده فالذين يعتقدون أن جميع البشر من سلالة آدم يفهمون أن المراد بالنفس الواحدة آدم والذين يعتقدون أن لكل صنف من البشر أباً يحملون النفس على ما يعتقدون (والأصناف الكبرى هي الأبيض والقوقاسي والأصفر المغولي والأسود الزنجي وغيره) وبعض فروع هذا تكاد تكون أصولاً كالأحمر الحبشي والهندي، والأمريكي والملقي ثم قال والقرنية على أنه ليس هنا بالنفس الواحدة آدم قوله: وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً بالتنكير المناسب على هذا الوجه أن يقول وَبَثَّ مِنْهُمَا جميع الرجال والنساء وكيف ينص على نفس معهودة والخطاب عام لجميع الشعوب وهذا العهد ليس معروفاً عند جميعهم فمن الناس من لا يعرف آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما وهذا النسب المشهور عند ذرية نوح مثلاً هو مأخوذ عن العبرانيين فأنهم هم الذين جعلوا للبشر تاريخاً متصلاً بآدم وحدوداً له زمناً قريباً وأهل القين ينسبون البشر إلى أب آخر ويذهبون بتاريخه إلى زمن أبعد من الزمن الذي ذهب إليه العبرانيون والعلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ العبرانيين ونحن لا نكلف تصديق تاريخ اليهود وأن عزوه إلى موسى عليه السلام فإنه لا ثقة عندنا بأنه من التوراة وأنه بقي كما جاء به موسى عليه السلام قال، نحن لا نحتج على ما وراء مدركات الحس والعقل إلا بالوحي الذي جاء به نبينا ﷺ وأتينا نقف عند هذا الوحي لا نزيد ولا ننقص كما قلنا مرّات كثيرة وقد أبهم الله تعالى هنا أمر النفس التي خلق الناس منها وجاء به نكرة فندعها على

إبهامها فاذا ثبت ما يقوله الباحثون من الأمر نج من أن لكل صنفٍ من أصناف البشر أباً، كان ذلك غير واردٍ على كتابنا كما يرد على كتابهم التّوراة لما فيها من النصّ الصّريح في ذلك وهو ممّا حمل باحثيهم على الطّعن في كونها من عند الله تعالى ووحيه، قال، وما ورد في آيات أخرى من مخاطبة النّاس بقوله: يا بني آدم، لا ينافي هذا ولا يعدّ نصّاً قاطعاً في كون جميع البشر من أبنائه اذ يكفي في صحّة الخطاب أن يكون من وجهٍ اليهم في زمن التّنزيل من أولاد آدم وقد تقدّم في تفسير قصّة آدم في أوائل سورة البقرة أنّه كان في الأرض قبله نوع من هذا الجنس أفسدوا فيها وسفكوا الدّماء وإذا كان جماهير المفسّرين فسروا النّفس الواحدة هنا بآدم فهم لم يأخذوا ذلك من نصّ الآية ولا من ظاهرها بل من المسألة المسلّحة عندهم وهي أنّ آدم أبو البشر وقد اختلفوا في مثل هذا التعبير:

قال الله تعالى: **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ^(١).

فقد ذكر الرّازي في تفسيرها ثلاث تأويلات الأوّل ما ذكره القفال وهو أنّه تعالى ذكر هذه القصّة على سبيل ضرب المثل والمراد خلق كلّ واحدٍ منكم من نفسٍ وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانيّة.

الثّاني: أنّ الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد النّبي وهم آل قصي وأن المراد بالنّفس الواحدة قصي.

الثّالث: أنّ النّفس الواحدة آدم، قال، وقد نقل عن الإماميّة والصوفيّة أنّه كان قبل آدم المشهور عند أهل الكتاب و عندنا آدميّون كثيرون قال في روح المعاني و ذكر صاحب جامع الأخبار من الإماميّة في الفصل الخامس عشر خبراً طويلاً نقل فيه أنّ الله تعالى خلق أبينا آدم ثلاثين آدم بين كلّ آدم و آدم

ألف سنة ثم خلق أبونا آدم عليه السلام وروي ابن بابويه في كتاب التوحيد عن الصادق في حديث طويل أيضاً أنه قال لعلك ترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم بلئى والله لقد خلق ألف ألف آدم أنتم في آخر أولئك الأدميين وقال الميثم في شرحه الكبير على النهج ونقل عن محمد بن علي الباقر عليه السلام: أنه قال قد إنقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر و ذكر الشيخ الأكبر (مراده محي الدين العربي) ما يقتضي بظاهره أن قبل آدم بأربعين ألف سنة آدم غيره وفي كتاب الخصائص لابن بابويه كما في الهامش، ما يكاد يفهم منه التعدد أيضاً حيث روي فيه عن الصادق عليه السلام أنه قال أن لله تعالى أثني عشر ألف عالم كل عالم منهم أكبر من سبع سموات وسبع أرضين ما يرى عالم منهم أن لله عز وجل عالماً غيرهم المراد منه وفي المسألة نقول أخرى في الفتوحات وغيرها (لا نفهم معنى هذه العبارة) ثم نقل زين العرب القول بكفر من يقول بتعدد آدم وهذا من جرأته وجرأة أمثاله يتهمجون على ما يكفي المسلمين لأوهى الشبهات وقال وللاستاذ الامام فى هذا المقام رأيان.

احدهما: ظاهر هذه الآية يابى ان يكون المراد بالنفس الواحدة آدم اى سواء كان هو الاب لجميع البشر ام لا لما ذكره من معارضة المباحث العلمية و التاريخية له و من تنكر ما بثه منهما و من زوجها ان قال.

ثانياً: أن ليس في القرآن نص قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم و المراد بالبشر هنا هذا الحيوان الناطق البادئ البشرية المستصب القامة الذي يطلق عليه لفظ الإنسان انتهى كلام صاحب المنار بألفاظه و عباراته و نحن نقول:

أما ما نقله المفسرين من أن كل نداء مثل هذا يراد به أهل مكة أو قريش: **أما أولاً:** أنا لا نعرف من المفسرين الذين يعتنى بقولهم و يسمع كلامهم في تفسير كلام الله من قال بهذه المقالة نعم نسب أبو حيّان في تفسيره هذا القول، الى قيل، ولم ينبه و هو مشعر بالتمريض.

ثانياً: قد ثبت في موضعه أنَّ خصوص المورد في نزول الآية لا يوجب خصوص المعنى.

ثالثاً: أنَّ النَّاسَ معرّف بالألف واللام المفيد للجنس وهو يفيد العموم.

رابعاً: أنَّ القرآنَ و أن نزل بلسان العرب إلاَّ أنَّه لم ينزل لهم دون غيرهم.

أما قوله اذا كان الخطاب للعرب جاز أن يفهموا منه أنَّ المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان، فهو كلام لا طائل تحته لأنَّ فهم النَّاس لا دخل له بأصل المراد ومنه يعلم فساد قوله في سورة الخطاب لجميع أهل الدَّعوة أنَّ كلَّ أمةٍ تفهم منه ما تعتقده، وذلك لأنَّ إعتقاد المخاطب أو السَّامع لا يغير المعنى الواقعي ممَّا هو عليه وبعبارة أخرى القرآن لم ينزل عليَّ وفق مقاصد القاصدين أو فهم المخاطبين فأنَّ الوقوف على أسرار القرآن و متشابهاته منحصراً لمن خوطب به أو أنزل اليه وهو الرِّسول وأهل بيته المعصومين.

وأما القرينة التي ذكرها على مدَّعاه وهي قوله: **وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً** بالتَّنكير وكان المناسب أن يقول جميع الرِّجال والنِّساء، فنقول في الجواب أنَّه قد ثبت أنَّ في التَّنكير من الشُّيوع ما ليس في غيره فقوله تعالى: **رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً** أي ونساء كثيرة وأنت ترى أنَّه تعالى لم يكتف بالشُّيوع حتَّى صرَّح بالكثرة أيضاً.

وأما قوله نحن لا نحتجَّ على ما وراء مدركات الحسِّ والعقل إلاَّ بالوحي الخ.

فهو كلام حق لا مَرية فيه فأننا أيضاً نقف عند الوحي لا نزيد ولا ننقص، و ما نقله عن الإمامية و الصوفية بواسطة الألوسي أو بغير واسطة فنحن فيه من المتوقفين اذ ليس عندي جامع الأخبار و أما كتاب الخصائص لابن بابويه فلم نسمعه الى الآن هف و محصّل الكلام هو أنَّ ما ذكره من الدليل على إثبات مدَّعاه لا يرجع الى محصّل و أما أصل الإدعاء فلا كلام لنا فيه فعلاً.

قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية، و ظاهر السِّياق أنَّ المراد

بِالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ آدَمَ وَمِنْ زَوْجِهَا زَوْجَتَهُ وَهُمَا أَبُو هَذَا النَّسْلِ الْمَوْجُودِ الَّذِي نَحْنُ مِنْهُ وَالِيَهُمَا نَنْتَهِي جَمِيعاً عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ^(٢).

وَأَمَّا مَا إِحْتَمَلَهُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ زَوْجَهَا فِي الْآيَةِ مَطْلُوقَ الذَّكَورِ وَالْإِنْثَاءِ مِنَ الْإِنْسَانِ الزَّوْجَيْنِ اللَّذَيْنِ عَلَيْهِمَا مَدَارُ النَّسْلِ فَيُؤَوَّلُ الْمَعْنَى إِلَى نَحْوِ قَوْلِنَا خَلَقَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مِنْ أَبِي وَأُمِّ بَشَرَيْنِ مِنْ غَيْرِ فَرَقٍ فِي ذَلِكَ بَيْنَكُمْ فَيُنَظَرُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى^(٣).

حَيْثُ أَنَّ ظَاهِرَهُ نَفْيُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ مِنْ جِهَةٍ تَوْلَدُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ زَوْجَيْنِ مِنْ نَوْعِهِ ذَكَرٌ وَأُنْثَى فَفِيهِ فُسَادُ ظَاهِرٍ وَقَدْ فَاتَهُ أَنْ يَبِينُ الْآيَتَيْنِ أَعْنَى آيَةِ النِّسَاءِ وَآيَةِ الْحِجَرَاتِ فَرَقٌ بَيِّنٌ فَأَنَّ آيَةَ الْحِجَرَاتِ فِي مَقَامِ بَيَانِ إِتْحَادِ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ الْحَقِيقَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَنَفْيُ الْفَرْقِ بَيْنَهُمْ مِنْ جِهَةٍ إِنْتِهَاءُ تَكُونُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى أَبِي وَأُمِّ إِنْسَانَيْنِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَبَّرَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ وَلَا يَتَكَبَّرَ إِلَّا بِالْقُوَّةِ وَأَمَّا آيَةُ النِّسَاءِ فَهِيَ فِي مَقَامِ بَيَانِ إِتْحَادِ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ الْحَقِيقَةُ وَأَنَّهُمْ عَلَى كَثَرَتِهِمْ رِجَالًا وَنِسَاءً أَمَّا إِشْتِقَاؤُهُمْ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ وَتَشَعُّبُهُمْ مِنْ مَنْشَأٍ وَاحِدٍ فَصَارُوا كَثِيرًا عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرُ قَوْلِهِ: وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً الْمَعْنَى كَمَا تَرَى لَا يَنْسَابُ كَوْنُ الْمُرَادِ مِنَ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ زَوْجَهَا مَطْلُوقَ الذَّكَرِ وَالْإِنْثَى النَّاسِلَيْنِ مِنَ الْإِنْسَانِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْسَابُ غَرَضُ السُّورَةِ أَيْضاً وَسَاقُ الْكَلَامِ إِلَى أَنْ قَالَ وَظَاهِرُ الْجُمْلَةِ أَعْنَى قَوْلِهِ، وَخَلَقَ

منها زوجها أنها بيان لكون زوجها من نوعها بالتماثل وأن هؤلاء الأفراد المبتوثين مرجعهم جميعاً الى فردين متماثلين متشابهين، لفظة (من) نشأية والآية في مساق قوله تعالى: **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** ^(١) ثم ذكر آيات أخر من هذا الباب انتهى كلامه بلفظه ^(٢).

أقول أنما نقلنا عين عباراته وألفاظه لأمرين:

أحدهما: حفظ الأمانة وأن تعلم أن المفسرين في تفسير الآية فيما وقعوا من الإضطراب في فهم الآية الى ان قنعوا بتفسير الألفاظ ولم يعدلوا عن ظاهر القرآن فقالوا أن المراد بالنفس الواحدة آدم ومن زوجها زوجته كما عرفت أنفاً من كلامه وكلام غيره والعبارات مختلفة، وتارة يقولون ان المراد بالنفس الواحدة آدم وعليه جمهور المفسرين وكذا ولم نظفر بعد الفحص التام على دليل اقامو على هذا الحمل والكتاب ساكت عنه فان سئل منهم سائل من اين اخذتم هذا وحملتكم النفس الواحدة عليه يقولون في الجواب لم يخالف فيه أحد أو عليه الجمهور من المفسرين وأمثال ذلك مما قالوه في تفاسيرهم يعلموا أن المسألة ليست من الفروع حتى يمكن فيها، التشبث بالأجماع كان كذلك فقول الجمهور ليس بحجة والموضوع يبقى على إبهامه كما كان وأعجب من ذلك كله أنك تراهم مصرين على قولهم من غير إقرار منهم على أنفسهم بالعجز وليس هذا إلا الجهل المركب ولا غرو فيه فإن القرآن كلام الخالق وقد قال الله تعالى: **وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ^(٣). ولا سيما أَلَمْتشابهات منه وما نحن فيه من هذا القبيل ولو لم يكن منها فلا أقل من أنه من المعضلات التي لا تصل أفهامنا الى درك حقيقتها اذا عرفت هذا فنقول: لا يبعد أن يكون المعنى في قوله: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ خَلَقَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** وخلق منها أي من النفس زوجها فيه إشارة الى أن لكل نفس زوج منها.

في هذا القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

أي من جنسها والحاصل أن كل نفس وزوجها من جنس واحد من حيث الحقيقة والماهية لا إختلاف فيهما من هذه الجهة وأما الإختلاف بالعوارض والمشخصات، وهذا يجيء كثيراً في القرآن وفي كلام العرب قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةٍ شَهْدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ^(١) أي فأجلدوا كل واحد منهم ثمانين جلدة فإن كان هذا الإحتمال مقروناً بالصحة فهو المطلوب وأن لم يكن فالكلام باقي على إبهامه والله أعلم وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً الْبَثُّ هو التفريق بالإثارة ونحوها قال تعالى: فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا^(٢)

و المقصود منه أن النسل الموجود من الإنسان ينتهي إلى آدم وزوجته على المشهور في تفسير الآية أو ينتهي إلى النفس وزوجته بأي معنى كانت كان لا شك في هذا المعنى كما هو المشاهد المحسوس في أصناف الإنسان من الأبيض والأسود والأحمر وكونهم ميثوثين في نقاط الأرض وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ إختلفوا في معنى الكلام فمنهم من عطف الأرحام على لفظ الجلالة أي إتقوا الأرحام و عليه فالمعنى إتقوا الله في التَسَائِلِ وهو سؤال بعض الناس بعضاً بالله مثل أن يقول أسألك بالله أن تفعل كذا وكذا أي لا تفعلوا ذلك وإتقوا الله في الأرحام بالبر والصلة إليهم، ومنهم من عطف قوله: وَ الْأَرْحَامَ على محل الضمير في قوله: بِهِ وهو النصب أو على الضمير المتصل المجرور وهو الجر و عليه فالمعنى إتقوا التَسَائِلِ والرحم فلا تقولوا أسألك بالله أو أسألك بالرحم، و قرأ الجمهور السبعة بنصب الميم في الأرحام وهو الثابت في القرآن فعلاً وليس هذا إلا من عطف الأرحام على محل الضمير، ونقل الرفع أيضاً بناء على أنه مبتدأ والخبر محذوف قدره ابن عطية، والأرحام أهل أن توصل وقدره الزمخشري والأرحام مما يتقى أو ممّا يتسائل به إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا الرَّقِيبُ الحفيظ والمراقبة المحافظة، والله تعالى رقيب على العباد، أمّا لأنه يحفظ عليهم أعمالهم ليجزيهم بها.

وَأَمَّا لِأَنَّهُ يَحْفَظُهُمْ عَنِ الْآفَاتِ وَالْبَلِيَّاتِ:

من الأول: قوله تعالى: وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ^(١).

من الثاني: قوله: فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ^(٢).

وَأَتُوا آيَاتِنَا مَيِّمُوا أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا.

وصى الله تعالى في الآية السابقة بالأرحام وفي هذه الآية بالأيام وفي الآية مباحث:

الأول: قال الراغب الثِّمَّ إنقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه وفي سائر الحيوانات من قبل أمه، وقال صاحب الكشف اليتامى الذين مات أباءهم فإنفردوا عنهم واليتيم الإنفراد ومنه الرِّمْلَةُ اليتيمة والدُّرَّة اليتيمة وقيل اليتيم في الأناسي من قبل الأباء وفي البهائم من قبل الأمهات قال وحقَّ هذا الإسم أن يقع على الصغار والكبار لبقاء الإنفراد عن الأباء إلا أن في العرف إختص هذا الإسم بمن لم يبلغ مبلغ الرجال فاذا صار بحيث يستغنى بنفسه في تحصيل مصالحه كان كافلاً يُكْفَلُهُ وقيم يقوم بأمره زال عنه هذا الإسم وكانت قریش تقول لرسول الله ﷺ يتيم أبي طالب أمّا على القياس وأمّا على حكاية الحال التي كان عليها حين كان صغيراً ناشئاً في حجر عمّه توضيحاً له وأمّا قوله ﷺ لا يَتِمُّ بعد حلم، فهو تعليم الشريعة لا تعليم اللغة يعني إذا احتلم فإنه لا تجري عليه أحكام الصغار.

أن قلت اليتيم، فعيل وهو يجمع على فعلى كمریض ومرضی وقتیل و قتلى وجريح وجرحى وهكذا فكيف جمع اليتيم على يتامى في القرآن.

قلت قال صاحب الكشف فيه وجهان:

أحدهما: أن يقال جمع اليتيم يتمى ثم يجمع فعلى على فعلى وعليه

فاليتامى جمع يتامى وهو جمع يتيم فاليتامى جمع الجمع.
ثانيهما: أن يقال جمع يتيم يتائم لأنَّ اليتيم جار مجرئ الأسماء نحو صاحب وفارس ثمَّ يقلب اليتائم يتامى انتهى.

ونقل عن القفال أنه قال يجوز يتيم ويتامى كنديم وندامى ويجوز أيضاً يتيم وأيتام كشریف واشرف انتهى وفى المقام الاشكال آخر وهو أنه تعالى: **وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ** ولاشك أن اليتيم لا يجوز دفع المال اليه مادام كونه يتيمًا واما بعد البلوغ فيجوز دفع المال الا أنه ليس بيتيم فكيف قال واتوا اليتامى اقوالهم وقد أجابوا عنه بوجهين:

أحدهما: أن المراد من اليتامى فى الآية الذين بلغوا وكبروا وأتوا سمّاهم يتامى على قانون اللغة أو أنه تعالى سمّاهم بها لقرب عهدهم باليتيم وأن كان قد زال فى هذا الوقت كما يطلق القاتل والضارب على من قتل وضرب فى الماضى قال الله تعالى: **فَأَلْفَىٰ السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ**^(١) ومن المعلوم أنهم كانوا سحرة قبل الإيمان والسجود لله تعالى.

ثانيهما: أن نقول أن المراد باليتامى الصغار والمعنى أَدفعوا اليهم أي الى الصغار أموالهم فى المستقبل بعد زوال صفة اليتيم عنهم ويدل عليه قوله تعالى: **وَأَنْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**^(٢) وسيجيئ تفسيرها.

وفى المقام إحتمال آخر وهو أن يكون المراد بقوله: **وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ** ما يحتاجون اليه لفقتهم وكسوتهم الجواب لا يصح اذ لو كان المراد بالآية ما ذكره هذا القائل لوجب أن يقال واتوا اليتامى من أموالهم وحيث لم يقل ذلك فهذا الإحتمال ساقط عن أصله **وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ** قال بعض المفسرين أنها نزلت فى رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلمّا بلغ المال فمنعه عمّه فتراجعنا الى النبي ﷺ فنزلت هذه

الآية فلمَّا سمعها العمّ قال أطعنا الله و أطعنا الرّسول نعوذ بالله من الحوب الكبير و دفع ماله اليه فقال النّبي ﷺ و من يوق شحّ نفسه و يطع ربّه هكذا فأنّه يحلّ داره أي جنّته فلمّا قبض الصّبي ماله أنفقه في سبيل الله فقال النّبي ﷺ ثبت الأجر و بقي الوزر فقالوا يا رسول الله عرفنا أنّه ثبت الأجر فكيف بقي الوزر و هو ينفق في سبيل الله فقال، ثبت أجر الغلام و بقي الوزر على والده ثمّ أنّ الحَبِيثَ على ما فسّره الرّاغب في المفردات الرّدي و ذلك بتناول الباطل في الإعتقاد و الكذب في المقال و القبيح في الفعل انتهى و لذلك قيل، الخبيث ما يُكره رداءةً و حساسةً محسوساً كان أو معقولاً:

قال الله تعالى: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ^(١).

أي الأعمال الخبيثة من الأعمال الصّالحة و النفوس الخبيثة من النفوس الزّكية و قد مضى تفسير الآية.

و أمّا الخبيث في المقام فالمراد به المال الحرام كما أنّ المراد بالطيّب الحلال منه أي لا تتبدّلوا الحرام بالحلال و في كيفية التّبديل أقوال:

أحدها: معناه لا تستبدّلوا قال صاحب الكشّاف و التّفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز و منه التّعمل بمعنى استعجال و التأخّر بمعنى الإستخار و عن الواحدي أنّه قال، يقال تبدّل الشّيء بالشّيء إذا أخذ مكانه، و عليه فالمعنى لا تبدّلوا الحرام و هو مال اليتامى بالحلال و هو مالكم الذي أبيع لكم من المكاسب و رزق الله المبتوث في الأرض فتأكله مكانه.

ثانيها: لا تبدّلوا الأمر الخبيث و هو إختزال أموال اليتامى بالأمر الطيّب حفظها و التّورع منها و هو قول الأكثرين أنّه كان و ليّ اليتيم يأخذ الجيّد من ماله و يجعل مكانه الدّون بجعل الرّائف بدل الجيّد و المهزول بدل السّمين و طعن صاحب الكشّاف في هذا الوجه فقال ليس هذا بتبدّل و أمّا هو تبدّل.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

ثالثها: معناه أن يأكلوا مال اليتيم سلفاً مع إلزام بدله بعد ذلك وفي هذا يكون متبدلاً الخبيث بالطيب ذكر هذه الوجوه الرّازي في تفسيره وقال الطبرسي رحمته بعد نقل الأقوال وأقوى الوجوه الأول لأنه أنما ذكر عقيب أموال اليتامى فيكون معناه لا تأخذوا السّمين والجيد من أموالهم وتضعوا مكانهما المهزول والرّدي فتحفظون عليهم عدد أموالهم ومقاديرها ويجحفون بهم في صفاتها انتهى.

أقول ما جعله الطبرسي أول الأقوال جعله الرّازي ثانياً والأمر سهل. **أقول** هذا الذي إختاره الطبرسي رحمته لا بأس به إلا أنه لا يلائم التبدل فأخذ السمين والجيد ووضع المهزول والرّدي مكانهما هو التبدل بعينه والآية نهت عن التبدل فقال تعالى: **لَا تَتَّبَدَّلُوا** ولم يقل لا تبدّلوا اللهم إلا أن يقال أن التبدل هنا معناه التبدل لا يقال أن التبدل معناه الاستبدال وعليه فلا إشكال في المعنى باق على حاله اذ لو كان التبدل معناه الاستبدال كما فسّره فلم لم يقل ولا تستبدلوا الخبيث بالطيب وقال ولا تبدّلوا، نعم قال بعض أهل اللغة، الإبدال والتبديل والتبدل والاستبدال بمعنى واحد وهو جعل شيء مكان آخر وبذلك يرتفع الإشكال.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا

أي ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم حتى لا يتفرقوا بين الأموال في حل الإنتفاع بها، وقيل أن (إلى هنا بمعنى «قع») أي لا تاكلوا أموالهم مع أموالكم كما قال الله تعالى: **مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ** أي مع الله والأول اضح وسأتى الكلام في هذه الآية وأن «إلى» ليست بمعنى رمع فانتظر كما قال تعالى: **مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ** أي مع الله، والأول وقوله: **إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** الحوب بالضم الإثم الكبير والمعنى أن أكل مال اليتيم من أعظم الإثم أعادنا الله منه وسيأتى الكلام فيه وإن **خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى** قال الرّازي في الفمردات القسط بكسر القاف هو النصيب بالعدل كالتصف والنصف.

قال الله تعالى: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَمِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ^(١).

قال الله تعالى: وَأَقِيمُوا الزُّنْنَ بِالْقِسْطِ^(٢).

والقسط هو أن يأخذ قسط غيره و ذلك جور و الإقساط أن يعطي قسط غيره و ذلك إنصاف و لذلك قسط الرجل اذا جار و أقسط اذا عدل.

قال الله تعالى: وَ أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا^(٣).

قال الله تعالى: وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ^(٤) أي أعدلوا انتهى

ونقل عن الزجاج أنه قال أصل قسط و أقسط جميعاً من القسط و هو النصيب فاذا قالوا، قسط بمعنى جار أرادوا أنه ظلم صاحبه في قسطه الذي يصيبه ألا ترى أنهم قالوا قاسطته فقسطته اذا غلبته على قسطه فبني قسط على بناء ظلم و جار و غلب و اذا قالوا أقسطه فالمراد أنه صار ذاقسط و عدل فبني على بناء أنصف اذا أتى بالنصف والعدل في قوله و فعله و قسمه انتهى.

اذا عرفت معنى القسط و الأقساط فأعلم أن الجمهور على ضم التاء في الآية من أقسط يقسط أقساطاً و قرأ شاذاً بفتح التاء من قَسَطَ يَقْسُطُ بمعنى جار و ظلم فعلى هذه القراءة تكون، لا، زائدة والمعنى أن خفتم أن تظلموا و تجوروا، على قراءة المشهور فلا تكون زائدة و هو ظاهر و أظن أنهم قرأوا بالتاء من أقسط لأجل الفرار من القول بالزيادة في القرآن و إلا فالمعنى على القراءتين واحد، اذ لا فرق بين قولنا: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا و قولنا أن خفتم أن تظلموا أو تجوروا لأن ضد العدل الظلم و بالعكس، ثم أنهم إتفقوا على أن كلمة، إن، للشرط فالجملة شرطية و قوله فأنكحوا جزاء للشرط و لازم ذلك هو أن يكون النكاح موقوفاً على وجود الشرط و هو الخوف من العدالة و قد ثبت أن المشروط ينتفي بإنتفاء شرطه و عليه فأن ثبت الخوف من إجراء العدالة يجوز النكاح منى و ثلاث و رباع و إلا فلا اذا علمت هذا فنقول كيف جعل الخوف

من إجراء العدل في اليتامى شرطاً للنكاح مثنى و ثلاث و رباع في الآية و أي ربط بين الشرط و المشروط في المقام و لصعوبة الإشكال ترى المفسرين من العامة و الخاصة وقعوا في حيص و بيص فقالوا في حله ما قالوا والإنصاف أنهم لم يقدروا على رفع الإشكال و نحن ننقل من تفاسيرهم ما قالوا فيه و نحيل القضاة اليك فأقض ما أنت قاض.

و قال الطبري في تفسير الآية، إختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم معنى ذلك، و أن خفتم يا معشر أولياء اليتامى ألا تقسطوا في صداقهن فتعدلوا فيه و تبلغوا بصداقهن صدقات أمثالهن فلا تنكحوهن و لكن أنكحوا غيرهن من الغرائب أكثر من واحدة الى أربع و أن خفتم أن تجوروا اذا نكحتم من الغرائب أكثر من واحدة فلا تعدلوا، فأنكحوا منهن واحدة أو ما ملكت أيمانكم، حدثنا ابن حميد قال حدثنا ابن المبارك عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة، و أن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فأنكحوا ما طاب لكم من النساء فقالت يابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في مالها و جمالها و يريد أن ينكحها بأدنى من سنة صداقها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن في اكمال الصداق و أمروا أن ينكحوا ما سواهن من النساء انتهى. ثم ذكر أحاديث كثيرة بالأسناد كلها عن عائشة أنها قالت هي اليتيمة تكون في حجر وليها الخ، ثم قال الطبري فعلى هذا التأويل جواب قوله: **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا قَوْلُهُ: فَأَنْكِحُوا.**

و قال آخرون بل معنى ذلك النهي عن نكاح ما فوق الأربع حذراً على أموال اليتامى أن يتلفها أولياءهم و ذلك أن قرشاً كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء و الأكثر والأقل فاذا صار معدماً مال على مال يتيمة الذي في حجره فأنفقه أو تزوج به فنهوا عن ذلك و قيل لهم أن أنتم خفتم على أموال أيتامكم أن تنفقوها فلا تعدلوا فيها من أجل حاجتكم اليها لما يلزمكم من مؤن نسائكم فلا تجاوزوا فيما تنكحون من عدد النساء على أربع، ثم ذكر ما يناسب هذا القول من الأحاديث.

وقال آخرون بل معنى ذلك أن القوم كانوا يتحَوَّبُونَ في أموال اليتامى ألاَّ يعدلوا فيها ولا يَتَّحِبُونَ في النساء ألاَّ يعدلوا فيهنَّ فقبل لهم كما خفتم ألاَّ تعدلوا في اليتامى فكذلك فخافوا في النساء ألاَّ تعدلوا فيهنَّ ولا تنكحوا منهنَّ إلاَّ من واحدة إلى الأربع ولا تزيدوا على ذلك فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا أيضاً في الزيادة عن الواحدة فلا تنكحوا إلاَّ ما لا تخافون أن تجوروا فيهنَّ من واحدة أو فيما ملكت أيما نكم، ثم ذكر عدّة روايات في ذلك.

وقال آخرون معنى ذلك فكما خفتم في اليتامى فكذلك فتَّخَفَوْا في النساء أن تزنوا بهنَّ ولكن أنكحوا ما طاب لكم من النساء، ثم ذكر عدّة روايات في ذلك.

وقال آخرون، بل معنى ذلك وأن خفتم ألاَّ تقسطوا في اليتامى اللّاتِي أنتم ولا تهنَّ فلا تنكحوهنَّ وأنكحوا أنتم ما حلَّ لكم منهنَّ، ثم ذكر عدّة روايات في ذلك وبعد نقله لهذه الأقوال قال واولى الأقوال التي نقلناها في تاويل الآية قول عن قال تأويلها.

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى

وكذلك ينبغي أن تخافوا في النساء فلا تنكحوهنَّ إلاَّ ما لا تخافوا أن سيجور فيه منهنَّ عن واحدة ولاكن عليكم بما مَلَكَت أيما نكم فإنه أخرى أن لا نجوروا عليهنَّ وأنما قلنا أن ذلك أولى بتأويل الآية لأنَّ الله جلَّ ثناءه إفتتح الآية التي قبلها بالنهاي عن أكل أموال اليتامى بغير حقِّها وخلطها بغيرها من الأموال فقال وأتوا اليتامى أموالهم ولا تبدّلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم أنه كان حوباً كبيراً ثم أعلمهم أنهم أن إتقوا الله في ذلك فتحرّجوا فيه، فالواجب عليهم من إتقاء الله والتحرّج في أمر النساء مثل الذي عليهم من التحرّج في أمر اليتامى وأعلمهم كيف التخلّص لهم من الجور فيهنَّ كما عرّفهم المخلص من الجور في أموال اليتامى فقال أنكحوا أن أمنتهم الجور

في النساء على أنفسكم ما أبحت لكم منهنّ وحلته مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم أيضاً الجور على أنفسكم في أمر الواحدة بأن لا تقدروا على إنصافها فلا تنكحوها ولكن تسزّوا من المماليك فأتكم أخرى أن لا تجوروا عليهنّ لأنهنّ أملاككم وأموالكم ولا يلزمكم لهنّ من الحقوق كالذي يلزمكم للحرائر فيكون ذلك أقرب لكم إلى السلامة من الإثم والجور ففي الكلام إذا كان المعنى ما قلنا متروك إستغنى بدلالة ما ظهر من الكلام عن ذكره وذلك أنّ معنى الكلام وأن خفتم ألا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدّلوا فيها فكذلك فخافوا ألا تقسطوا في حقوق النساء التي أوجبها الله عليكم فلا تتزوّجوا منهنّ إلا ما أمتنّ معه الجور مثنى وثلاث ورباع وأن خفتم أيضاً في ذلك فواحدة وأن خفتم في الواحدة فما ملكت أيماكم فترك ذكر قوله فكذلك فخافوا أن لا تقسطوا في حقوق النساء بدلالة ما ظهر من قوله تعالى:

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ فَأَيْنَ جَوَابُ قَوْلِهِ: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى قِيلَ قَوْلُهُ: فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ غَيْرَ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْمُرَادِ بِذَلِكَ مَا قُلْنَا قَوْلَهُ: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَقُولُوا بَيْنًا فِيمَا مَضَى قَبْلَ أَنَّ مَعْنَى الْإِقْسَاطِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ وَأَنَّ الْقِسْطَ الْجَوْرَ وَالْحَيْفَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، إِنَّتَهَى.

كلامه بالأفاظه وعباراته وإثما نقلناه بطوله مع عدم الفائدة فيه لكي تعلم أن ما قوّاه من الأقوال المنقولة ثم أيّده بهذه الألفاظ لا قوّة فيه أصلاً بل هو أوهم من بيت العنكبوت بل هو خارج عن طور البحث بالكليّة وذلك لأنّ أصل الإشكال أنما هو في وجود الرّبط بين الشّروط والجزاء وعدمه وأمّا ما ذكره الطّبري وإختراره من الأقوال وقدّر في الآية ما شاء وأراد من غير دليل يدلّ عليه فهو لا يرفع الإشكال أصلاً فقلوه أنّ معنى الكلام وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

تُقْسِطُوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها فكذلك فخافوا ألا تقسطوا في حقوق النساء الخ.

كلام لا خلاف فيه إلا أنه لا يستفاد من الآية ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه ويقول في معنى الكلام برأيه هذا كلام الطبري وهو فحل المفسرين عندهم وأما غيره من المفسرين بعده فما قالوا إلا ما قال الطبري لتقدمه عليهم علماً وزماناً، وقد نقل الرّازي في تفسيره أيضاً أقوالاً بعضها عين بعض ما نقله الطبري مثل حديث عائشة وبعضها لم ينقله الطبري فراجعه أن شئت الإطلاع عليها والذي إختاره منها وهو الرابع من الأقوال في تفسيره وقد رواه عن عكرمة أنه قال كان الرجل عنده النسوة ويكون عنده الأيتام فإذا إنفق مال نفسه على النسوة ولم يبق له مال وصار محتاجاً أخذ في إنفاق أموال اليتامى عليهن فقال تعالى: **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى** عند كثرة الزوجات فقد حظرت عليكم أن لا تنكحوا أكثر من أربع كي يزول هذا الخوف وأن خفتم في الأربع أيضاً فواحدة فذكر الطرف الزائد وهو الأربع والنقص وهو الواحدة ونبه بذلك على ما بينهما فكأنه تعالى قال فإن خفتم من الأربع فثلاث فإن خفتم فإثنتان فإن خفتم فواحدة وهذا القول أقرب فكأنه تعالى خوفاً من الإكثار من النكاح بما عساه يقع من الولي من التعدي في مال اليتيم للحاجة إلى الإنفاق الكثير عند التزّوج بالعدد الكثير انتهى كلامه.

وقد نقل الطبرسي رحمته الله أيضاً هذه الأقوال وهكذا غيره من مفسري الشيعة كلهم سلكوا هذا المسلك مع تغيير في الألفاظ والعبارات كما هو لا يخفى على الناظر في أقوالهم، والحق أن الآية مسوقة في الأصل للموصية بحفظ حق يتامى النساء في أموالهنّ وأنفسهنّ دون مطلق اليتامى وذلك لأنه لو كان المراد باليتامى في قوله: **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى** مطلق اليتامى لا يوجد الربط بين الشرط والجزاء في غير يتامى النساء إذ أي ربط بين القسط في أموال اليتامى إذا لم يكونوا من صنف الإناث وبين النكاح من النساء مثني و

ثلاث و رباع و هذا بخلاف ما إذا كان المراد بهم هو يتامى النساء فإن الرِّبْط حينئذ يكون موجوداً و عليه فالمراد باليتامى في الآية النساء و المراد بالنساء في الآية غير اليتامى و عليه فالمعنى وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا إِيَّانَا لَا تَعْدِلُوا فِي يَتَامَى النِّسَاءِ فَتَعَامِلُوهُنَّ كَمَا تَعَامِلُونَ غَيْرَهُنَّ فِي الْمَهْرِ وَ غَيْرِهِ أَوْ أَحْسَنَ، فَأَتْرَكُوا التَّزْوَاجَ بِهِنَّ وَتَزَوَّجُوا مَا حَلَّ لَكُمْ أَوْ مَا رَاقَ لَكُمْ وَحَسَّنَ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ غَيْرَهُنَّ وَ بعبارة أخرى إتركوهنَّ فقد أحللت لكم أربعاً أي وسع عليهم في غيرهنَّ حتَّى لا يظلموهنَّ، فكأنَّه يقول إذا أردتم التَّزْوَاجَ باليتيمة و خفتم أن تسهل عليكم الزَّوجية أن تأكلوا أموالها فأتركوا التَّزْوَاجَ بها و أنكحوا ما طاب لكم من النساء فعلى هذا الرِّبْط بين الشَّرْطِ و الجزاء ظاهر و أمَّا على ما ذكره في تفسير الآية فلا و هو ظاهر على المتأمل في أقوالهم فالآية تقول أن لم تطلب لكم اليتامى للخوف من عدم القسط فلا تنكحوهنَّ و أنكحوا نساءً غيرهنَّ فقله: فَإِنْكَحُوا سَادَ مَسَدَ الجزاء و بهذا القول أخذ بعض المفسرين من العامة و تبعه بعض المعاصرين من الشيعة و لا بأس به (مثنى و ثلاث و رباع) أي فأنكحوا إثنين إثنين و ثلاثاً ثلاثاً و أربعاً أربعاً، و أمَّا فسرناه بذلك لأنَّ بناء مَفْعَل و فَعَّال في الأعداد على تَكْرَرِ المَادَّةِ و قد جيئ العطف بالواو لإفادة التَّخْيِيرِ أي أنتم مخيرون بين إثنين و ثلاثاً و أربعاً و ليست الواو للجمع فيكون في الكلام تجويز الجمع بين تسع نسوة، قال في تفسير الميزان لأنَّ مجموع الإثنين و الثلاث و الأربع تسع و قد ذكر في المجمع أنَّ الجمع بهذا المعنى غير محتمل البتة فأن من قال، دخل القوم البلد مثنى و ثلاث و رباع لم يلزم منه إجتماع الأعداد فيكون دخولهم تسعة تسعة لأنَّ لهذا العدد لفظاً موضوعاً و هو تسع فالعدول عنه الى مثنى و ثلاث و رباع نوع من العيِّ جَلَّ كلامه عن ذلك و تقدَّس، أقول قد إتفق المفسرون من العامة و الخاصة على أنَّ الواو ليست للجمع و المعنى إثنين إثنين و ثلاثاً ثلاثاً و أربعاً أربعاً و يؤيده أن الإسلام لا ينفذ الجمع بين أزيد من أربع نسوة في الدائميات كما أنَّه لا ينفذ

إشترك أزيد من رجلٍ في زوجةٍ واحدة وقد روي في المجمع عن الصادق عليه السلام: أَنَّهُ قَالَ، لَا يَحِلُّ لِمَاءِ الرَّجُلِ أَنْ يَجْرِيَ فِي أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَرْحَامٍ مِنَ الْحَرَائِرِ انْتَهَى.

ولقائل أن يقول أن الجمع في الحكم لا يستلزم الجمع في الزمان فلا محذور، لأن المنهي عنه في باب النكاح ليس مطلق الزائد على الأربع بأي نحو إتفق بل المنهي عنه هو الزائد على الأربع في زمان واحد من حيث الجمع بينهما على سبيل التعاقب فلا إشكال فيه وهو ظاهر إذا عرفت هذا فنقول لو كانت الواو في الآية بحالها لزم منه الجمع في الحكم وهو مما لا إشكال فيه إذا لم يكن الجمع في زمان واحد وحيث أنه لا ملازمة بين الجمعين فلانحتاج إلى هذه التكاليفات ويمكن الجواب عنه بأن القرنية الحالية أو المقالية في الآية تدلنا على المراد وهو الجمع الزماني وذلك لأن الآية بصدد بيان النهي في زمان واحد وأما الجمع على سبيل التعاقب فلا كلام لأحد في جوازه: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَي أَنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا بَيْنَهُنَّ فَأَنْكَحُوا وَاحِدَةً لَا أزيد يدل على أن النكاح بأكثر من واحدة مشروط بالعدالة بين النساء فمن لا يقدر على ذلك لا يجوز له النكاح بأكثر منها فمن نكح آثم لا أن النكاح باطل لعدم دلالة النهي على الفساد في غير العبادات ثم أن المراد بالعدالة بين النساء العدالة في الجماع والعشرة والقسم بين الزوجات الأربع والثلاث والإثنين وأما الميل والمحبة فهما أمران خارجان عن الاختيار فلا يمكن عدّهما من موارد العدالة كما ذهب إليه بعض العامة أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا يريد الإماء وهو عطف على فَوَاحِدَةً أَي أَنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فِي وَاحِدَةٍ فَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، والحق أن، أو، للتخيير والمعنى أن خفتم أن لا تعدلوا بين النساء فأنتم مخيرون بين النكاح بواحدة، من، الحرائر والإكتفاء بما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ من الإماء، وقيل تجب مراعاة الترتيب وهو مما لا دليل عليه قوله: أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ففيل في معناه، أي ذلك أقرب إلى أن لا تميلوا عن

الحقَّ و تجوروا نقلوه عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما يقال عال الرجل يعول
 إذا جار و مال ومنه قولهم عال السهم عن الهدف، مال عنه قال الشاعر:
 قالوا إتبعنا رسول الله وأطرحوا قول الرسول ومألوا في الموازين
 أي جاروا وقال أبو طالب ^{عليه السلام}
 بميزان صدقٍ لا يُغفل شعيرةً له شاهدٌ من نفسه غير عائلٍ
 أي غير مائلٍ
 وقال آخر:

ثلاثة أنفسٍ وثلاث زودٍ لقد عال الزمان على عيالي
 أي جار ومال، يقال عال الرجل يعيل إذا افتقر فصار عالة ومنه قوله تعالى:
 (وإن خفتهم عيلة) الآية ومنه قول الشاعر:

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يُعيل
 نقل القرطبي عن ابن العربي أن عال، على سبعة معانٍ لا ثامن لها.
 يقال عال، بمعنى مال.

الثاني: بمعنى زاد.

الثالث: بمعنى جار.

الرابع: بمعنى افتقر.

الخامس: بمعنى أثقل.

السادس: بمعنى قام يقال عل أي قام بمؤنة العيال ومنه قوله ^{عليه السلام} وأبدأ
 بمن تعول.

السابع: بمعنى غلب ومنه عل صبره أي غلب انتهى.

ثم قال أما ذكره ابن العربي من الحق فلا يصح وقد ذكرنا عال الامر اشتدَّ و
 نفاقم حكاة الجوهرى وقال الآخر يقال عال الرجل فى الارض يعيل فيها ام
 ضرب فيها وقال الاحمر يقال عال الشئ يعلنى عبلاً و فعيلاً اذا عجرک الى
 آخر ما قال.

أقول الحقّ أنّ العول في الآية بمعنى الجور والإعراض عن الحقّ أي ذلك أقرب من أن لا تجوروا أو لا تميلوا في النّفقة من قولهم، عال في الحكم أي مال وجار ومنه الحديث الذي أحصى رمل عالج ليعلم أنّ السّهام لا تعول قيل أوّل من أعال الفرائض عمربن الخطّاب العول عبارة عن قصور التّركة عن سهام ذوي الفروض وهو ضدّ التّعصيب وسيجيئ الكلام فيه في مباحث الإرث إن شاء الله تعالى وكيف كان ففيه دلالة على أنّ أساس التّشريع في أحكام النّكاح على القسط ونفي العول في الحقوق وعليه فمن كثر عياله لزمه أن يعولهم ذلك ما تصعب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال والرّزق الطّيب والقسم والعشرة وغيرها من الحقوق اللاّزمة على الزوج ولذلك قال الله تعالى: **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً إِلَىٰ قَوْلِهِ ذَلِكَ: أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا و هو واضح لا خفاء فيه.**

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا

صَدُقَاتِهِنَّ، بضمّ الدّال جمع صدقة وبنو تميم يقولون، صدقة، بضمّ الصاد و سكون الدّال ويجوز فيه الفتح أيضاً نقل عن المازني أنّه قال صداق المرأة، بالكسر ولا يقال بالفتح ثمّ أنّهم اختلفوا في المخاطبين بهذه الآية فقليل أنّها خطاب للأزواج قاله ابن عبّاس وقتادة وابن زيد وغيرهم قالوا أمرهم الله بأن يتبرّعوا بإعطاء المهور نحلة منهم لأزواجهم وقيل الخطاب للأولياء وذلك لأنّ الوليّ كان يأخذ مهر المرأة ولا يعطيها شيئاً فنهوا عن ذلك وأمروا بدفعه اليهنّ ونقل القرطبي بعد نقله ما نقلناه عن الحضرمي أنّ المراد بالآية المتشاغرون الذين كانوا يتزوجون امرأةً بأخرى فأمروا أن يضربوا المهور، ثمّ قال والأوّل أظهر فإنّ الصّمائر واحدة وهى بجملتها للأزواج فهم المراد لأنّه قال، وأن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى الى قوله: **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً** وذلك يُوجب تناسق الصّمائر وأن يكون الأوّل فيها هو الآخر انتهى كلامه.

أقول الحقُّ أنَّ الآية خطاب للأزواج أعني بهم الرجال إلى يوم القيامة ولا ينافي هذا العموم خصوص المورد لو كان و عليه فالمعنى أعطوا النساء مهوهرن عطية من الله تعالى قيل في وجه ذلك أنَّ الله تعالى جعل الإستمتاع مشتركاً بين الزوجين ثمَّ أوجب لهما بأزاء الإستمتاع مهراً على زوجها فذلك عطية من الله للنساء، وقيل المراد بالنحلة الفريضة لأنَّ النحلة معناها الديانة والملة والشريعة والمذهب يقال فلان يتنحل كذا اذا كان يتدين به ونحلته كذا أي دينه ومذهبه فقوله تعالى: **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً** أي أتوهن مهوهرن فأنَّها نحلة أي شريعة ودين ومذهب وما هو كذلك فهو فريضة و لذلك سُمي الشهرستاني كتابه الذي كتبه في الملل والأديان بالملل والنحل فعلى هذا يصير معنى الآية أعطوا النساء صدقاتهن أي مهوهرن على سبيل الفرض والوجوب فقوله، نحلة حال من الصدقات أي ديناً من الله فرضها و شرعه و أمّا أن حملنا النحلة على العطية فهي منصوبة على المصدر و ذلك لأنَّ النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء فكأنَّه قيل وأنحلوا النساء صدقاتهن نحلة أي أعطوهن مهوهرن عن طيبة أنفسكم و قيل، أنَّها نصب على الحال من المخاطبين أي أتوهن صدقاتهن ناحلين طيبين النفوس بالإعطاء أو من الصدقات أي منحولة معطاة عن طيبة الأنفس، وكيف كان فالآية تدل على وجوب إعطاء المهوهر لهنَّ بعد العقد و هذا ممّا لا كلام فيه إجمالاً إلا أنَّهم اختلفوا في وجوب الإعطاء قبل الدخول و أمّا بعده فلا كلام لأحد فيه و ملخص الكلام فيه هو أنَّ المشهور عند علماءنا أنَّ المرأة تملك الصداق بمجرد العقد ويستقر بالدخول فاذا طلقها بعد الدخول أو مات عنها فلها المهر كلّهُ و هذا ممّا لا خلاف فيه و أمّا اذا طلقها أو مات عنها قبل الدخول فقد اختلفوا فيه.

قال ابن حمزة يلزم المهر بنفس العقد ويستقر بأحد ثلاثة أشياء، بالدخول والموت، وإرتداد الزوج، وقال ابن إدريس متى مات أحد الزوجين قبل

الدَّخُولُ إِسْتَقَرَّ جَمِيعُ الْمَهْرِ كَامِلًا لِأَنَّ الْمَوْتَ عِنْدَ مُحْصَلِي أَصْحَابِنَا يَجْرِي مَجْرَى الدَّخُولِ وَإِسْتِقْرَارُ الْمَهْرِ جَمِيعِهِ وَهُوَ إِخْتِيَارُ شَيْخِنَا الْمَفِيدِ فِي أَحْكَامِ النِّسَاءِ وَهُوَ الصَّحِيحُ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا بِغَيْرِ خِلَافٍ نَبِينًا أَنَّ بِالْعَقْدِ تَسْتَحَقُّ الْمَرْأَةُ جَمِيعَ الْمَهْرِ الْمُسَمَّى وَسَقَطَ بِالطَّلَاقِ وَ قَبْلَ الدَّخُولِ نِصْفُهُ وَالطَّلَاقُ غَيْرُ حَاصِلٍ إِذَا مَاتَ فَبَقِينَا عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ إِسْتِحْقَاقِهِ فَمَنْ إِذْعَى سَقُوطَ شَيْءٍ فِيهِ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْمَاعٍ لِأَنَّ أَصْحَابِنَا مُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَلَا مِنْ تَوَاتُرِ أَخْبَارٍ وَلَا دَلِيلَ عَقْلٍ بَلِ الْكِتَابُ قَاضٍ بِمَا قُلْنَا حَاكِمٌ بِمَا اخْتَرْنَاهُ ثُمَّ نَسَبَ كَلَامَ الشَّيْخِ إِلَى أَنَّهَا أَخْبَارُ أَحَادٍ انْتَهَى.

وَقَالَ ابْنُ جَنِيدٍ، الَّذِي يُوجِبُهُ الْعَقْدُ مِنَ الْمَهْرِ النِّصْفِ وَالَّذِي يُوجِبُ النِّصْفَ الثَّانِي مِنَ الْمَهْرِ بَعْدَ الَّذِي وَجِبَ بِالْعَقْدِ مِنْهُ هُوَ إِيقَاعُ الْوَقَاعِ أَوْ مَا قَامَ مِنْ تَسْلِيمِ نَفْسِهَا لِذَلِكَ انْتَهَى.

وَقَالَ الصَّدُوقُ فِي الْمَقْنَعِ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ لَمْ يَكُنْ دَخَلَ بِهَا وَقَدْ فَرَضَ لَهَا مَهْرًا فَلَهَا نِصْفُهُ وَلَهَا الْمِيرَاثُ وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ وَهُوَ الَّذِي اعْتَمَدَهُ وَأَفْتَى بِهِ إِذَا عُرِفَتْ هَذَا فَنَقُولُ قَالَ الْعَلَامَةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَخْتَلَفِ مَسْأَلَةً، الْمَشْهُورُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا أَنَّ الْمَرْأَةَ تَمْلِكُ الصَّدَاقَ بِالْعَقْدِ وَيَسْتَقَرُّ بِالدَّخُولِ فَإِذَا طَلَّقَهَا قَبْلَ الدَّخُولِ رَجَعَ عَلَيْهَا بِالنِّصْفِ أَنَّ كَانَتْ قَبْضَتْهُ وَقَالَ ابْنُ الْجَنِيدِ الَّذِي يُوجِبُهُ الْعَقْدُ مِنَ الْمَهْرِ الْمُسَمَّى النِّصْفَ وَالَّذِي يُوجِبُ النِّصْفَ الثَّانِي مِنْهُ هُوَ الْوَقَاعُ أَوْ مَا قَامَ مَقَامَهُ مِنْ تَسْلِيمِ الْمَرْأَةِ نَفْسَهَا لِذَلِكَ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ الْعَلَامَةُ عَلَى قَوْلِ الْمَشْهُورِ فَقَالَ، لَنَا، قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً** أَصْنَافُ الصَّدَاقِ الْيَهَنِّ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَهُنَّ وَلَمْ يَفْرُقْ بَيْنَ قَبْلِ الدَّخُولِ وَبَعْدِهِ وَأَمْرٌ أَيْضًا بِإِتْيَانِهِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ فَثَبِتَ أَنَّ الْكُلَّ لَهُنَّ وَمَا رَوَاهُ عُبَيْدَةُ بْنُ زُرَّارَةَ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ قُلْتُ لَهُ رَجُلٌ تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَأَمْرُهَا مَهْرًا فَسَاقَ إِلَيْهَا غَنَمًا وَرَقِيقًا فَوُلِدَتْ عَنْهَا فَطَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ **إِنْ كَانَ قَدْ سَاقَ إِلَيْهَا مَا سَاقَ حَمْلُنَ عِنْدَهُ فَلَهُ نِصْفُهَا وَنِصْفُ وَلَدِهَا وَأَنْ كُنَّ حَمْلُنَ عِنْدَهَا فَلَا شَيْءَ لَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ**

لأنَّ الصَّدَاقَ بَدَلُ البُضْعِ فإذا ملك الزوج البضع بنفس العقد وجب أن تملك المرأة العوض كالمتابعين انتهى كلام العلامة ثم قال، إحتج ابن الجنيدي بأنه لو ملكته بالعقد لاستقر عملاً بالأصل ولم يزل عن ملكها إلا بسبب ناقلٍ كبيع أو هبة أو غيرهما ولم يوجد السبب فلا يتحقق الملك وما رواه يونس بن يعقوب عن الصادق عليه السلام قال سمعته يقول لا يوجب المهر إلا الوقاع في الفرج وعن محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام قال سألته متى يجب المهر قال عليه السلام إذا دخل بها يقتضي عدم الوجوب مع عدم الدخول انتهى وأجابوا عنه بالمنع من الملازمة فإن الوجوب أعم من الاستقرار والعام لا يستلزم الخاص والسقوط لا يمنع الوجوب كالإرتداد والسبب للزوال ثابت وهو الطلاق بنص القرآن وهو قوله تعالى: فَيُضْفُ مَا فَرَضْتُمْ والزوايات محمولة على الاستقرار جمعاً بين الأدلة ولأنه المفهوم من الوجوب في الأغلب والفائدة تظهر فيما نما المهر قبل الدخول والطلاق ثم طلق انتهى.

وقال الشيخ رحمه الله متى مات الرجل عن زوجته قبل الدخول بها وجب على ورثته أن يعطوا المرأة المهر كاملاً ويستحب لها أن تترك نصف المهر فإن لم تفعل كان لها المهر كله وأن ماتت المرأة قبل الدخول بها كان لأوليائها نصف المهر وتبعه ابن البراج في الكامل وقال في التهذيب لورثتها المطالبة بالمهر انتهى.

وأما على قول ابن إدريس فلا فرق بين موت الزوج قبل الزوجة وبالعكس لأن الموت عنده يجري مجرى الدخول وقد نقلنا كلامه في صدر البحث.

أقول الذي يحصل لنا في المقام من كلماتهم وأراءهم هو أن الزوجة تملك نصف المهر لو طلقها الزوج قبل الدخول وتماه بعده وأما في صورة موت الزوج تملك المرأة جميع الصداق إلا أنه يستحب لها أن تترك نصف المهر فإن لم تفعل كان لها المهر كله وتفصيل الكلام في هذه المباحث موكول إلى الفقه. قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية أن هذه الآية تدل على وجوب الصداق

لِلْمَرْأَةِ وَهُوَ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ وَلَا خِلَافَ فِيهِ إِلَّا مَا رَوَى عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ أَنَّ السَّيِّدَ إِذَا زَوَّجَ عَبْدَهُ مِنْ أُمَّتِهِ أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِيهِ صَدَاقٌ وَلَيْسَ بِشَيْءٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: **وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَعَمْ**؛

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ^(١) انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أَقُولُ الآية لا تدل على وجوب الصداق أصلاً بل تدل على وجوب إعطاء الصداق لو كان وذلك لأن الله تعالى لم يأمر بوجوب الصداق بل أمر بإعطاءه بعد تحققه وحيث أن القرطبي لم يفرق بين المقامين ظن أن الأمر بإعطاء الصداق أمرٌ بإيجاده فقال أن الآية تدل على وجوب الصداق لها فلو قال قائل، أدد دينك، أو يجب عليك أداء الدين ليس معناه يجب عليك الدين بل معناه أن كان دينٌ عليك يجب أدائه فقول الله تعالى وأتوا النساء صدقاتهن نحلة، في قوة الشرطية أي أن كان هناك صداقاً يجب عليك أدائه وأن لم يكن فلا مثل مفوضة البضع حيث لا صداق لها وهو ظاهر وأما حد الصداق فقد إتفقوا على أنه لا حد لكثيره لقوله تعالى: **وَآتَيْنُكُمْ إِحْدِيَهُنَّ قِنْطَارًا** وسيأتي البحث فيه في موضعه نعم إختلفوا في قليله والمشهور عندنا أنه خمس مائة درهم.

قال السيد المرتضى رحمته في إنتصاره ممّا إنفردت به الإمامية لا يجاوز بالمهر خمس مائة درهم جياذ قيمتها خمسون ديناراً فما زاد على ذلك رد إلى السنة انتهى.

أَقُولُ سأل المفضل بن عمر أبا عبد الله عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله عيّن مهر المرأة التي لا يجوز للمؤمنين أن يجوزها فقال الستة المحمّدية خمس مائة درهم فمن زاد على ذلك رد إلى السنة ولا شيء عليه أكثر منها وسيأتي الكلام فيه القياً فإن طُبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

فإن طبن النساء لكم عن شيءٍ منه إلى السنة ولا شيءٍ عليه أكثر من خمس مائة درهم منه، أي من الصداق، نفساً، نصب على التمييز والمعنى طابت أنفسهن لكم من الصداق بنقل الفعل من الأنفس اليهن فخرجت النفس مفسرة كما قالوا أنت حسنٌ وجهاً، والفعل في الأصل للوجه فلما حوّل إلى صاحب الوجه خرج مفسراً لموقع الفعل ومثله قررت به عيناً وضقت به ذرعاً هكذا قيل وأما وحّد النفس لأن المراد به بيان موقع الفعل وذلك يحصل بالواحد ومثله عشرون درهماً، و، من، في قوله، منه، للتبيين لا للتبعض والمعنى عن شيءٍ من هذا الجنس الذي هو مهر:

قال الله تعالى: **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ.**

وذلك لأن المرأة لو طابت نفسها عن جميع المهر بالكلية حلّ للزوج أن يأخذها وعليه فالمعنى، فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق عن طيبة النفس من غير أن يكون السبب فيه سوء الخلق والمعاشرة معهن فكلوه هنيئاً مريئاً، و هما صفتان من هنوء الطعام ومرؤه إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه فقوله هنيئاً مريئاً وصف للمصدر أي أكلاً مريئاً أو حال من الضمير أي كلوه وهو هنيئ مريئ يوقف على قوله: **فَكُلُّوهُ** ثم يبتدأ بقوله: **هَنِيئًا مَرِيئًا** على الدعاء قاله الرازي في تفسيره وقال صاحب الكشف الضمير في منه جار مجرى إسم الإشارة كأنه قيل عن شيءٍ من ذلك:

قال الله تعالى: **قُلْ أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ بِحَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ^(١).**

بعد ذكر الشهوات ثم قال، والمعنى، فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق وتجافت عنه نفوسهن طيبات غير مخبئات بما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم فكلوه هنيئاً مريئاً كأنه قيل هنيئاً مرأً، وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة في الإباحة انتهى.

أقول في مرجع الصّميم في قوله: مِنْهُ أَقْوَالٌ لَا بَأْسَ بِذِكْرِهَا.
أحدها: أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الصَّدَاقِ الْمَفْهُومِ مِنَ الصَّدَقَاتِ.

ثانيها: أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى صَدَقَاتِهِنَّ مَسْلُوكاً بِهِ مَسْلَكُ إِسْمِ الْإِشَارَةِ كَأَنَّهُ قِيلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَإِسْمُ الْإِشَارَةِ وَأَنْ كَانَ مُفْرَداً وَلَكِنَّهُ قَدْ يَشَارُ بِهِ إِلَى مَجْمُوعِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ مِنْ دَلِكُمْ ذَكَرَ هَذِينَ الْوَجْهَيْنِ الرَّمَخْشَرِيِّ فِي الْكَشَافِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُمَا.

ثالثها: أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى الْإِتْيَاءِ وَهُوَ الْمَصْدَرُ الدَّالُّ عَلَيْهِ، وَأَتَوْا، قَالَه الرَّاعِبُ.

رابعها: أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الْمَالِ الْمَفْهُومِ مِنَ الصَّدَقَاتِ.

خامسها: أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ أَعَمُّ مِنَ الْمَالِ كَمَا إِذَا كَانَ الصَّدَاقُ تَعْلِيمُ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ هَذَا تَمَامُ الْكَلَامِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا
وَأَكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا.

ففيه نهى عن إعطاء السفهاء أموالكم حال كونهم سفهاء وذلك لأنه تعالى
لَمَّا أَمَرَ بِدَفْعِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْعِيَالِ الصَّدَقَاتِ إِلَى الزَّوْجَاتِ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ
أَنَّ السَّفِيهَ لَا يَجُوزُ دَفْعُ الْمَالِ إِلَيْهِ وَالسَّفِيهَ عَلَى مَا قَالَه الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ
مَنْ لَهُ خَفَقَةٌ وَرَقَّةٌ فِي الْبَدَنِ قَالَ السَّفِيهَ خَفَقَةٌ فِي الْبَدَنِ وَمِنْهُ قِيلَ زَمَامٌ سَفِيهِ كَثِيرُ
الْإِضْطِرَابِ وَثَوْبٌ سَفِيهِ رَدِي النَّسْجِ وَأُسْتَعْمِلَ فِي خَفَقَةِ النَّفْسِ لِنَقْصَانِ الْعَقْلِ
وَفِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ فَقِيلَ سَفِهَ نَفْسَهُ فَمِنْ السَّفِيهِ الدُّنْيَوِيِّ هَذِهِ الْآيَةُ
وَمِنْ الْأُخْرَوِيِّ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا^(١).

وَقَدْ يَعْبُرُ عَنْهُ بِالسَّفِيهِ فِي الدِّينِ إِذَا عَلِمْتَ مَعْنَى السَّفَاهَةِ فَنَقُولُ قَرَأْنَا نَافِعَ وَ
إِبْنَ عَامَرَ، قِيَمًا بَغِيرِ أَلْفٍ وَبِالْقَوْنِ، قِيَمًا بِالْأَلْفِ وَنُقِلَ أَنَّ فِيهِ ثَلَاثَ لُغَاتٍ، قِيَمًا

و قِيماً و قواماً و المراد ما به قوام معاشكم و معادكم و السَّفَه خلاف الرُّشد و قيل أنه قد يكون متعلقه أمر المعاش و قد يكون أمر المعاد و اختلف في معنى الآية على أقوال.

أحدها: أنَّ الخطاب فيها للأولياء أمروا أن يمسكوا أموال اليتامى و يجرؤا عليهم النَّفَقَة و ما يحتاجون اليه و أن يرفقوا بهم بالقول و حسن المعاشرة و الملازمة الى البلوغ و الرُّشد و عليه فالمراد بالسَّفَهَاء هنا هم اليتامى و أنما أضاف الأموال اليهم لأنَّها من جنس ما يقيم به النَّاس معاشهم أو لأنَّها بأيديهم و تحت تصرفهم و الأضافة يكفي فيها أدنى ملاسة أو لأنَّ منهم من يؤل ماله اليهم كأن يكون هو الوارث جرياً على الغالب من كون المتولَّى لذلك من الأقرباء و يدل عليه:

ما رواه علي بن حمزة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزَّ وجلَّ: **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ قَالَ عليه السلام**: هم اليتامى تعطوهم أموالهم حتَّى تعرفوا منهم الرُّشد قلت فكيف يكون أموالهم أمولنا فقال عليه السلام إذا كنت أنت الوارث لهم انتهى.

الثاني: أنَّ الخطاب أيضاً للأولياء و ذلك أنه تعالى لما تضمَّن كلامه السابق على هذه الآية الأمر بدفع مال الأيتام اليهم عقبه بذكر من لا يجوز دفع المال اليه منهم و هو من بلغ سفيهاً فالمراد بالسَّفِيه على هذين القولين من كان ناقص العقل و غير مصلح لأمواله و النَّهْي للتَّحريم.

الثالث: أنَّ الخطاب يسؤال المطففين من المؤمنين أن لا تضعوا أموالهم الى من لا يوثق به في الدِّيانة أو حفظ الأموال و ارجاعها اليهم أو نفاذها الى ما يزيدون او الى ما يريدون فيكون المراد بالسَّفِيه من الصَّف باحر المعيين «الفسق» و افساد المال و يدل على هذا القول ما رواه العياشي عن يونس بن يعقوب قال سئلت ابا عبد الله في قوله تعالى: **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ قَالَ عليه السلام** من لا تثق به انتهى.

و عن إبراهيم بن عبد الحميد عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن هذه الآية فقال عليه السلام كلّ مَنْ شَرِبَ الخمر فهو سفیه انتهی.

وما رواه في قرب الأسناد عن هارون بن مسلم عن سعدة بن زياد قال: سمعت أبا الحسن يقول لأبيه يا أبة أنّ فلاناً يريد الیمن أفلا أزودّه بضاعة لیشتري بها عصب الیمن فقال عليه السلام: له يا بَنی لا تفعل قال و لم قال عليه السلام: لأنّها إذا ذهبت لم تؤجر علیها و لم یخلف علیک لأنّ الله تبارک و تعالی يقول: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الّٰی سَفَهَ أُسْفَهَ بعد النّساء من شارب الخمر انتهی.

وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ فالسّفهاء النّساء والّولد إذا علم الرّجل أنّ إمراة سفیهة مفسدة وولده سفیه مفسد لا ینبغي له أن یسلط واحداً منهما علی ماله الّذي جعل الله له قیاماً یقول معاشاً و أرزقوهم منه و أكسوهم و قولوا لهم قولاً معروفاً والمعروف العدة أي أي ما یعدهم بتسليم مالهم الیهم إذا کبروا و أنّه حافظ ذلك لهم لمصلحتهم و نفقتهم و نحو ذلك ممّا یسلبهم عن أخذه و یكون باعثاً علی إطمئنّانهم انتهی.

و الأخبار كثيرة و یدخل فی هذا الحکم الوصیة الیه و من ثمّ ذهب أكثر الأصحاب الی اشتراط العدالة فی الوصی لأنّها إستئمان علی مال الأطفال و الفاسق لیس أهلاً للإستئمان علی هذا الوجه و أن کان أهلاً للوكالة بوجوب الثّبت عند خبره و لأنّها تتّضمن الرّكون الیه باعتبار فعل ما أوصی الیه من تفرقه المال و صرفه فی الوجوه الشرعیة و الفاسق ظالم لا یجوز الرّكون الیه لقوله تعالى: وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ^(١) و لأنّها إستنابة علی مال الغیر لا علی مال الموصی لا ینتقاله عنه بعد موته و ولاية الوصی أنما تحصل

بعد الموت فيشترط في النَّائب العدالة وذهب ابن إدريس إلى عدم الإشتراط و رَجَّحه في النَّافع المختلف لأنها إستنباط تابعة لإختيار الموصي كالوكالة، و الحقَّ جوازها في ثلثه وخاصَّة نفسه لأنه مالك للتصرف فيه كيف شاء وأما الباقي فلا و عليه فحمل النهي في الآية والزوايات على الكراهية أولى والله أعلم.

وفي المقام فوائد يجب التنبيه عليها.

الأولى: ذكر السَّفه في الآية منفرداً يشعر بأنه نفسه علّة تامّة في الحجر و المنع من التَّصرف سواء بلغ الصَّبي متَّصفاً به أم حدث بعد البلوغ وبه قال الأصحاب و هو ظاهر إطلاق الأخبار واليه ذهب كثير من العامة.

الثانية: تعليق الحكم على الوصف يشعر بأنه العلّة فيه فالآية تدل بإطلاقها على أن وجود الوصف أعني به السَّفه كاف في ثبوت الحجر فلا يحتاج إلى حكم الحاكم و يدلّ عليه أيضاً مفهوم قوله تعالى: فَإِنْ أَنْشَأْتُمْ مِنْهُمْ زُشُدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ^(١) و حيث أثبت الولاية بمجرّد السَّفه فتوقَّفها على أمرٍ آخر لا يحتاج إلى دليل وكذا الكلام في زواله فأنّه لا يحتاج إلى الحاكم و للأصحاب فيها أربعة أقوال:

أحدهما: عدم الإحتياج إليه فيهما.

الثاني: الإحتياج فيهما.

الثالث: عدم الإحتياج في الثبوت فقط.

الرابع: عكسه، و قيل أن موضع النزاع في السَّفه الحادث بعد البلوغ أمّا من بلغ سفيهاً فلا ريب في عدم توقُّفه على ذلك.

الثالثة: ذكر الأصحاب أن السَّفه أنما يمنع من التَّصرف المالي و أمّا غيره كالطلاق والقصاص فلا.

الرابعة: قيل في قوله: وَ أَرْزُقُوهُمْ فِيهَا دون أن يقول منها دلالة على

جواز التَّكْسِبِ لَهم فيها بل و على وجوبه لثَلَا يَفِينِها الإنفاق و قد أورد بعض المحققين على هذا القول بما حاصله أَنَّهُ لم لا يجوز أن يكون المعنى أَنَّهُ تعالى جعل الرِّزْقَ لَهم فيها مضافاً الى أَنَّ التَّكْسِبَ بمال السَّفِيهِ يوجب الضَّمان كما يَدُلُّ عليه ما رواه الشَّيْخُ في الصَّحِيحِ عن الحلبي عن أَبِي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ المَوْثِقُ عن سماعة و ما رواه عن سعيد السَّمان و عن منصور الصَّيقل فَأَنَّها تَدُلُّ بِاطلاقها على لزوم الضَّمان على التَّجَرُّ بما لَهم مطلقاً على كُلِّ حالٍ وبه قال ابن بابويه في الفقيه والمفيد في المقتعة و هو الظَّاهر أيضاً من جماعة من الأصحاب إِلَّا أَنَّ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ بْنَ نَفْيِ الضَّمان عَمَّنْ قصد بذلك النِّظَرَ لليتيم وتبعة جماعة من الأصحاب، وأستدلَّ عليه برواية أَبِي الرِّبيع الدَّالة على الجواز مع ضعفها حملوها على أَنَّ المال كان مشتركاً بينهما وكان نظره إصلاح المال ومع ذلك فَإِنَّمَا يجوز لمن يكون مَلِيّاً لما رواه الشَّيْخُ عن أسباط بن سالم عن أبيه قال سألت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قلت أَخِي أَمَرَنِي أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ مال يَتِيمٍ في حجره يتجر به قال أَنْ كان لأَخِيكَ مالٌ يحيط بمال اليتيم أَنْ تَلْفَ أو أَصَابَهُ شَيْءٌ غَرَمَهُ وإلا فلا يَتَعَرَّضُ لِمال اليتيم، والأخبار بهذا المضمون كثيرة و بالجملة ما يستفاد من الجمع بين الرِّوايات الجواز لمن كان مَلِيّاً مع كونه ضافياً و يَدُلُّ عليه.

ما رواه في الكافي عن أَبِي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: سئل عن يَتِيمٍ قد قرأ القرآن و ليس بعقله باس و له مال على يد رجل فاراد الرَّجُل الَّذِي عنده المال ان يعمل بمال اليتيم مضاربه فاذن له الغلام فقال لا يصلح له أَنْ يعمل به حتَّى يَحْتَلِمَ ويدفع اليه ماله و أَنْ إِحْتَلَمَ يَكُنْ له عقل لم يدفع اليه شَيْءٌ إِنَّتَهَى.

فَدَلَّ هذا الخبر بإطلاقه على عدم الجواز مع إِذْنِ المَمَّيزِ فغيره أولى بالمنع و أقل مراتب النَّهْيِ الكراهة هذا تمام الكلام في الآية من حيث الأحكام و لنرجع الى تفسير ألفاظها فنقول (الَّتِي جعل الله لكم قياماً) أي الأموال الَّتِي

جعل الله لكم قياماً أي لا يحصل قيامكم ولا معاشكم إلا بهذا المال وحيث أن المال كان سبباً للقيام والاستقلال بأمر المعاش سمّاه بالقيام إطلاقاً لإسم المستبب على السبب على سبيل المبالغة يعني كان هذا المال نفس قيامكم وابتغاء معاشكم هكذا قيل والذي يختلج بالبال في معنى الكلام هو أن المراد بالأموال في الآية أموال السفهاء وهذا ممّا لا كلام فيه و عليه فالمراد بالقيام القيام بأمر السفهاء والتصرف في أموالهم فالمعنى: **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ** أي أموالهم التي جعل الله لكم قياماً أي صار المال سبباً لقيامكم بشؤون السفهاء وبعبارة أخرى الأموال التي جعل الله لكم سببها كذا وكذا لا تؤتوها لهم حال كونهم سفهاء **وَآرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا** أي أنفقوا عليهم ما يحتاجون اليه من الأكل والشرب واللباس وغيرها ممّا هو لازم لهم في حياتهم وبقائهم بقدر الكفاف وقولوا قولاً معروفاً، اختلفوا في القول المعروف على أقوال:

أحدها: أنه العدة الجميلة من البر والصلّة.

ثانيها: أنه الدعاء مثل أن يقول عافانا الله وإياك بارك الله فيك وبالجملة كلّ ما سكنت اليه النفوس وأحبته من قول وعمل فهو معروف وكلّ ما أنكرته وكرهته ونفرت منه فهو منكّر.

ثالثها: ما قاله الزجاج قال أي علّموهم أمر دينهم مضافاً إلى الإطعام والكسوة.

رابعها: قال القفال القول المعروف هو أنه أن كان المولي عليه صبيّاً فالولي يعرفه أن المال ماله وهو خازن له وأنه إذا زال صباه فإنه يرّد المال اليه وأن كان المولي عليه سفيهاً وعظه ونصحه وحثه على الصلّة والصوم وسائر الأحكام بقدر الإمكان ورغبه في ترك التبذير والإسراف وعزّفه أن عاقبة التبذير والفقر والإحتياج إلى الخلق ما يشبه هذا النوع من الكلام إنتهى.

وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ
 أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا
 تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ
 غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ
 بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا
 عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ
 مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
 مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ
 كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ
 أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ
 مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ
 الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا
 عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ
 الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ
 فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا (١٠)

◀ اللّٰه

وَابْتَلُوا: أَمَرُ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَهُوَ الْإِخْتِبَارُ أَيْ إِخْتَبَرُوا وَأَمْتَحَنُوا الْيَتَامَى.
 أَنْتُمْ: مِنَ الْإِنْسِ وَهُوَ الْإِلَافَةُ وَكَوْنُ الْقَلْبِ وَضَدَهُ الْوَحْشَةُ وَالْمَعْنَى
 عَلِمْتُمْ وَوَجَدْتُمْ بِحَيْثُ سَكَنَ قَلْبُكُمْ وَأَطْمَأَنَّ.
 رُشْدًا: الرُّشْدُ وَالرُّشْدُ خِلَافُ الْغَيِّ يَسْتَعْمَلُ إِسْتِعْمَالُ الْهَدَايَةِ.
 إِسْرَافًا وَبِدَارًا: السَّرْفُ تَجَاوُزُ الْحَدِّ فِي كُلِّ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ وَأَنْ كَانَ
 ذَلِكَ فِي الْإِنْفَاقِ أَشْهَرُ، وَالْبِدَارُ الْمَسَارَعَةُ.

مَفْرُوضًا: أي معلوماً و الفرض في الأصل القطع.
سَدِيدًا: السَّدَاد والسَّدَد الإستقامة والسَّدَاد ما يسدُّ به الثَّلمة والثَّغْر.
سَعِيرًا: إلتهاب النَّار والباقي واضح.

◀ الإعراب

إِسْرَافًا وِ بَدَارًا مصدران وضعاً موضع الحال و موضع أَنْ يَكْبُرُوا نصب بالمبادرة أي لا تأكلوا مسرفين و مبادرين كبرهم بِالْمَعْرُوفِ الجار و المجرور في موضع نصب على الحال كَفَى بِاللَّهِ الباء زائدة و الجار و المجرور في موضع رفع بأنّه فاعل، كَفَى و حَسِبًا منصوب على الحال أو التَّمييز و التَّقْدِير كفى الله في حال الحساب نَصِيبًا مَفْرُوضًا نصب على الحال مِنْ خَلْفِهِمْ يجوز أن يكون ظرفاً، ليتركوا، و أن يكون حالاً ظَلُمًا مفعول له أو مصدر في موضع الحال.

◀ التفسير

وَ أَتَبَتُوا آلِيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تعالى في الآيات السابقة إيتاء الأيتام أموالهم و منع من دفع المال الى السُّفهاء ذكر في المقام الحُدُ الفاصل بين ما يحل و ما لا يحل و ابتلو اليتامى اى اخبروهم واقبحنهم فى عقولهم و صلاحهم قيل أنّها نزلت فى ثابت بن رفاعه فقال رفاعه و في عمّه و ذلك أنّ رفاعه توفي و قد ترك إبنه و هو صغير فأتى عمّ ثابت الى النّبي و قال أنّ ابن اخي يتيم فى حجرى فما يحل لى ماله و حتّى ادفع اليه ماله فانزل الله هذه الآية ثم أنّهم اختلفوا فى معنى الاختيار و كفيئته فى المقام فقال قوم هو أنّ يتأمل الوصى اخلاق تيممه و يسيع الى اغراضه فتحصيل له بجانبه و ضبط ماله و الاهمال لذلك فإذا توسّم الخير لا بأس أن يدفع اليه شيئاً من ماله يبيح له التعرّف فيه فإن نماء و حسن النظر فيه فقد وقع الإختبار و وجب على

الوصي تسليم جميع ماله اليه و أن أساء النَّظَر فيه وجب عليه إمساك ماله عنده في العلماء من يقول أنه إذا أختبر الصَّبي فوجده رشيداً ترتفع الولاية عنه يجب دفع ماله اليه وإطلاق يده في التَّصرف لقوله تعالى: **حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ** وقال جماعة، الصَّغير لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن يكون غلاماً أو جارية فأن كان غلاماً رَدَّ النَّظَر اليه في نفقة الدَّار شهراً أو أعطاه شيئاً نزرأ يتصرَّف فيه ليعرف كيف تدبيره وتصرفه وهو مع ذلك يراعيه لئلا يتلفه فأن أتلَّفه فلا ضمان على الوصي فاذا رآه متوخياً سلَّم اليه ماله وأشهد عليه و أن كانت جارية رَدَّ اليها ما يرَدُّ الى ربة البيت من تدبير بيتها و النَّظَر فيه فأن رآها رشيدة سلَّم أيضاً اليها مالها وأشهد عليها وإلا بقيا تحت الحجر حتَّى يؤنس رشدهما، وقال الحسن ومجاهد وغيرهما، إختبروهم في عقولهم وأديانهم وتنمية أموالهم انتهى ما ذكره القُرطبي في كلامه.

قال الجزائري رحمته الله في آيات الأحكام ونعم ما قال ما لفظه، ولنذكر شرحها في ضمن فوائد:

الأولى: الخطاب للأولياء الذين بيدهم أموال اليتامى أو لمن كان بيده مال لم يكن ولياً ولا وصياً، والإبتلاء الإختبار وهو يختلف باختلاف أهل المكان الذي نشأوا فيه وأحوالهم، فأن كان من ذوي المكاسب يختبر بالبيع و الشراء والإجارة مثلاً و أن كان من أولاد العلماء والوزراء والرؤساء يختبر بما يناسب حاله وهكذا ولا يكفي موافقته لوضع الشئ موضعه وحفظه و إصلاحه له مرّة واحدة بل لا بدّ من التكرار الى أن يحصل العلم بأنّه بهذه الصّفة وهو المراد بایناس الرشد أي العبارة وقد يكتفي فيه بالظن المتأخّم للعلم و قرأ، أحسبتم أي وجدتم فحذفت إحدى السنين كما في فظلتم تفكّهون، أي ظللتم وحتّى هنا حرف ابتداء وما بعدها جملة مستأنفة وهي جملة الشرطية و الجملة الشرطية الثانية جزاء فالفاء الأولى رابطة للشرط الأول والثانية للثاني

روي ابن بابويه في الفقيه عن الصادق عليه السلام: عن قول الله عز وجل
فَأَنْ أُنْسِتُمْ مِنْهُمْ رِشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ، قال عليه السلام إيناس
الرشد حفظ المال وفي رواية أخرى أن إحتلم ولم يكن له عقل لم
يدفع إليه شيء أبداً.

الثانية: المراد ببلوغ النكاح بلوغ الحد الذي يقدرون معه على الواقعة و
الإنزال أو الحد الذي يمكن فيه الإحتلام وليس المراد بالبلوغ الإحتلام لأن في
الناس من لا يحتلم أو يتأخر إحتلامه ويدل عليه:

ما رواه في الكافي والشيخ وابن بابويه في الحسن عن عبد الله بن
سنان عن أبي عبد الله عليه السلام: قال إذا بلغ الغلام أشده ثلاثة عشر سنة
ودخل في الأربع عشرة سنة وجب عليه ما وجب على المحتملين
إحتلم أو لم يحتلم وكتبت عليه السيئات وكتبت له الحسنات وجاز
له كل شيء إلا أن يكون ضعيفاً أو سفيهاً انتهى

وفي الصحيح عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنقطاع
يتم اليتيم الإحتلام وهو أشده وأن أحتلم ولم يونس منه رشد و
كان سفيهاً أو ضعيفاً فليمسك عنه وليه ماله.

وروي الشيخ عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله قال: سأله أبي
وأنا حاضر عن قول الله عز وجل حتّى إذا بلغ أشده قال عليه السلام:
الإحتلام قال فقال يحتلم في ست عشرة سنة أو سبع عشرة سنة و
نحوها قال إذا أتت عليه ثلاث عشرة سنة ونحوها فقال عليه السلام لا إذا
أتت عليه ثلاث عشرة سنة كتبت له الحسنات وكتبت عليه السيئات
وجاز أمره إلا أن يكون سفيهاً أو ضعيفاً فقال الذي يشتري الدرهم
بأضعافه قال وما الضّعيف قال الأبله انتهى.

أقول لاشك أن الصبي محجور عليه إلى أن يحصل له البلوغ والرشد وهذا القدر
مما أقيم عليه الإجماع من الخاصة والعامة ثم أن البلوغ يعرف بأحد أمور ثلاثة:

أحدها: السُّنن والروايات فيه مختلفة و المشهور المتيقن بين الفقهاء هو خمس عشرة سنة كاملة في الذكر وتسع في الانثى هلالية لأنه المعهود ونقل عن المسالك الإجماع عليه ولا بد من إستكمال السنة الأخيرة فيهما عملاً بالإستصحاب وفتوى الأصحاب وقيل بالإكتفاء في الذكر بأربع عشرة سنة و قيل بثلاث عشرة سنة والدخول في الأربع وقوي هذا القول كثير من الفقهاء و تفصيل الكلام في المسألة خارج عن طور الكتاب.

وأما العامة فذهب الشافعي إلى التحديد، بالخمس عشرة في الذكر و الأنثى أبو حنيفة وصاحبه في الذكر ثمان عشرة سنة والمرأة عندهما كالذكر، وقال مالك البلوغ ان يغظ الصوت او نثيق الغضروف و هو رأس الالف فاما السن فلا تقلق له بالبلوغ وقال داود الحكم بالبلوغ بالسن قال القُرطبي في تفسيره لهذه الآية والبلوغ يكون بخمسة أشياء ثلاثة يشترك فيها، الرجال و النساء و أثنان يختصان بالنساء وهما الحيض والحبل فأما الحيض والحبل فلم يختلف العلماء في أنه بلوغ و أن الفرائض والأحكام تجب بهما وإختلفوا في الثلاث، فأما الانبات والسُّنن فقال الأوزعي و الشافعي وابن حنبل خمس عشرة سنة بلوغ لمن لم يحتلم و هو قول ابن وهب و أصبغ و عبد الملك بن الماجشون و عمر بن عبد العزيز و جماعة من أهل المدينة وإختاره ابن العربي و تجب الحدود والفرائض عندهم على من بلغ هذا السُّنن قال أصبغ بن الفرّج و الذي نقول به أنّ حدّ البلوغ الذي تلزم به الفرائض و الحدود خمس عشرة سنة و ذلك أحبّ ما فيه إلّٰي و أحسنه عندي لأنّه الحدّ الذي يستهم فيه في الجهاد لمن حضر القتال و احتجّ بحديث ابن عمر اذ عُرض يوم الخندق ابن خمس عشرة سنة فأجيز و لم يُجز يوم أحد لأنّه كان ابن أربع عشرة سنة أخرجه مسلم و قال أبو عُمر بن عبد البرّ هذا فيمن عرف مولده و أمّا من جهل مولده و عدّة سنّه أو جحدّه فالعمل فيه بما روي نافع عن أسلم عن عُمر بن الخطاب أنّه كتب إلى أمراء الأجناد إلّا تضربوا الجزية إلّا على من جرت عليه

المواسي، وقال عثمان في غلام سرق أنظره أن كان قد أخضر مأزره فأقطعوه و ساق الكلام في نقل الأقوال الى أن قال وعن أبي حنيفة رواية أخرى تسع عشرة سنة وهي الأشهر.

وقال في الجارية بلوغها لسبع عشرة سنة و عليها النّظر وروي اللؤلؤي عنه ثمان عشرة سنة و قال داود لا يبلغ بالسّن ما لم يحتلم ولو بلغ أربعين سنة فهذه هي الأقوال العامة في السّن بنقل القرطبي و هو أعرف بها لأنّه منهم.

ثانيها: الإنبات، والمراد به إنبات الشّعر الحّسن على العانة فأنّه دليل على البلوغ عند علماءنا أجمع قاله في التذكرة و الحق بذلك أخضرار الشّارب في الدّالة على ذلك وقواه الشّهيد الثّاني في الرّوضة وهذا ممّا لا كلام فيه عندنا و أمّا العامة فمنهم من قال به روي عن مالك أنّه قال به مرّة و الشّافعي في أحد قوليّه و به قال أحمد و إسحاق و أبو ثور و قيل هو بلوغ إلّا أنّه يحكم به في الكفّار فيقتل من أنبت و يجعل من لم ينبت في الذّراي قاله الشّافعي في القول الآخر لحديث عطية القرظي في قصّة اليهود و حكم سعد بن معاذ بقتل الرّجال منهم فقتل من أنبت و بقي من لن ينبت قال و لا إعتبار بالخضرة و الزّغب و أنما يترتّب الحكم على الشّعر و قال ابن القاسم سمعت مالكا يقول العمل عندي على حديث عمر بن الخطّاب لو جرت عليه المواسي لحدّته قال أصبغ قال لي ابن القاسم و أحبّ إليّ إلّا يقام عليه الحدّ إلّا بإجتماع الإنبات و البلوغ أبو حنيفة لا يثبت بالإنبات حكم و ليس هو ببلوغ و لا دلالة على البلوغ الزّهري و عطاء، لا حدّ على من لم يحتلم و هو قول الشّافعي و مال إليه مالك مرّة به بعض أصحابه و ظاهره عدم إعتبار الإنبات و السّن و قال ابن العربي إذا لم يكن حديث ابن عمر دليلاً في السّن فكلّ عددٍ يذكرونه من السّنين فأنّه دعوى و السّن التي أجازها رسول الله ﷺ أولى من سنيّ لم يعتبرها و لا قام في الشّرع دليل عليها وكذلك إعتبر النبي ﷺ الإنبات في بني قريظة فمن عذيري ممّن ترك أمرين إعتبرهما النبي ﷺ فيتاؤله و يعتبر ما لم

يعتبره النبي ﷺ لفظاً ولا جعل الله له في الشريعة نظراً.

ثالثها: الإحتلام وهو يتحقق بخروج الماء الذي منه الولد المسمى بالمنى من الموضع المعتاد ليلاً أو نهاراً يقظةً أو نوماً بجماع أو غيره لكن لا بد أن يكون ذلك في الزمن المحتمل للبلوغ قبله لا يكون دليلاً عليه وأن كان بصفته وحد الزمن في جانب القلة بالنسبة الى المرأة كمال التسع والدخول في العاشرة كما هو ظاهر الأخبار وأما الرجل فليس في الأخبار ما هو صريح الدلالة عليه وذلك لأن في الناس من لا يحتلم أو يتأخر إحتلامه ولما روي في الأخبار أنه أن إحتلم ولم يكن له عقل لم يدفع اليه شيء أبداً نعم هو بضميمة الإنبات أو السن يكون دليلاً على البلوغ وأما الإحتلام وحده فلا هذا تمام الكلام في علائم البلوغ من الإنبات والإحتلام والسن والله أعلم بحقيقة الحال قوله:

فَإِنْ أَنْسَلْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَ
بِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا

فنقول لا شك أن الآية قد دلت على إعتبار الرشد في اليتيم وقد عرفت أن معناه أن يكون له عقل يصلح به أمواله ولا يخدع غالباً في المعاملات و التصرفات اللاتقة به وقال العامة المراد به الصلاح في العقل والدين بعضهم الصلاح في العقل وحفظ المال قال سعيد بن جبير والشعبي على ما نقلوه عنهما أن الرجل ليأخذ بلحيته وما بلغ رشده فلا يدفع الى اليتيم ماله وان كان شيخاً حتى يونس منه رشده وقال الضحاك لا يعطى اليتيم وان بلغ مائة سنته حتى يعلم منه اصلاح ماله وقال مجاهد الرشد فى العقل خاصته واكثر العلماء على ان الرشد لا يكون الا بعد البلوغ وعلى أنه لم يرشد بعد بلوغ الحلم وأن شيخاً لا يزول الحجر عنه وهو مذهب مالك وغيره وقال أبو حنيفة لا يحجر على الحر البالغ اذا بلغ مبلغ الرجال ولو كان أفسق الناس و أشدهم تبذيراً اذا كان عاقلاً وبه قال زفر بن الهذيل وهو مذهب النخعي وقال

الشَّافِعِي أَن كَانَ مَفْسُداً لِمَالِهِ وَدِينِهِ أَوْ كَانَ مَفْسُداً لِمَالِهِ دُونَ دِينِهِ حَجَرَ عَلَيْهِ وَ
أَن كَانَ مَفْسُداً لَدِينِهِ مُصْلِحاً لِمَالِهِ فَعَلِيَ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: يحجر عليه وهو إختيار أبي العباس بن شريح.

الثاني: لا حجر عليه وهو إختيار أبي إسحاق المروزي والأظهر من
مذهب الشافعي قال الثعلبي وهذا الذي ذكرناه من الحجر على السفيه قول
عثمان وعلي والزبير وعائشة وابن عباس وعبدالله بن جعفر ومن التابعين
شريح وبه قال الفقهاء مالك وأهل المدينة والأوزعي وأهل الشام وأبو
يوسف ومحمد وأحمد وإسحاق وأبو ثور قال الثعلبي وإدعى أصحابنا
الإجماع في هذه المسألة هذا ما نقله القرطبي من أقوال العامة في معنى الرشد
والمراد به في الآية إذا عرفت ذلك فأعلم أن المستفاد من الآية أمور ينبغي
التنبه عليها:

أحدها: يفهم منها تقديم الإختبار على البلوغ لقوله تعالى في أول الآية وَ
أَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فالإختبار قبل البلوغ وهو المطلوب
والوجه فيه على ما قيل هو أن مناط الرشد هو عقل المعاش وجوده لا
يتوقف على البلوغ ولأنه يحتاج إلى فسحة من الزمان لتحصيل الوثوق بكثرة
المعاشرة والإمتحانات ويترتب على ذلك المسارعة إلى دفع المال إلى أهله
كما يقتضيه الأمر به في قوله: فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وذهب بعض العامة إلى
أنه أتما يكون بعد البلوغ نظراً إلى أنه تعالى أوجب دفع أموالهم بعد إسناس
الرشد فلو كان الإبتلاء قبله لما جاز ذلك فكيف الوجوب وضعفه ظاهر لأن
لزوم تأخير الدفع عن حصول العلم بالرشد لا يستلزم وجوب تأخير التحصيل
عن البلوغ.

ثانيها: أنه قد استدلل بعضهم بها على صحة تصرفات الصبي المميز
الواقعة بأذن الولي لأن الإبتلاء المأمور به قبل البلوغ وهو أتما يحصل إذا أذن
له الولي في البيع والشراء ونحوهما ليحصل الغرض المقصود من الإختبار.

ثالثها: إطلاق الآية يقتضي جواز دفع المال اليهم بل وجوبه على الفور كما يقتضيه التعقيب بالفاء وذلك لأنه علّق الأمر بالدفع على إستيناس الرّشد فلو توقّف معه على أمرٍ آخر لم يكن الشرط صحيحاً ومقتضاها أيضاً لزوم دفعه اليهم بعد حصول الأمرين من غير توقّف على أذن الحاكم ولأنّ المقتضي للحجر هو السّفه فاذا إرتفع زال المقتضي فيجب أن يزول ويدلّ عليه ظاهر إطلاق الروايات أيضاً فلو أهمل أثم وضمن سيّما عند الطّلب والى ذلك ذهب جماعة من الأصحاب وذهب جماعة منهم المحقّق الى أنّه يتوقّف زواله على حكم الحاكم لأنّ الحجر حكم شرعي ولا يثبت إلا بدليل شرعي وأن السّفه أمرٌ خفيّ والأنظار فيه مختلفة فناسب أن يكون ذلك منوطاً بنظر الحاكم.

رابعها: مقتضي مفهوم الشرط عدم جواز الدّفع عند عدم الرّشد ولو طعن في السنّ لقوله تعالى: **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ** وبذلك قال الأصحاب وأكثر العامة ونقل عن أبي حنيفة أنّه يزداد على زمان بلوغه سبع سنين ثمّ يعطي ماله رشد أم لا وضعفه ظاهر.

خامسها: أنّ الآية تضمّنت النّهي عن أكل مال اليتيم والمراد به مطلق التصرف فقوله لا تأكلوها إسرافاً وبداراً صريح في المدعى ثمّ أنّ الإسراف و البدار منصوبان على التعليل فالأول إيماء الى العقوبة الأخروية و عليه فالمراد به الإسراف على النّص الموجب للدّخول في النّار.

والثّاني: الى العقوبة الدّنيوية أي تحرّزاً من أن يكبروا فتقع العداوة و السّحناء المورثة هلاك الأموال والأنفس أو لأجل المبادرة الى دفعها اليهم اذا كبر ولمّا مر من وجوبه على الفور وقيل المعنى لا تأكلوها لإسرافكم و مبادرتكم كبرهم تفرطون في إنفاقها و تقولون نفقها قبل أن يكبروا فينتزعوها منّا و حينئذٍ فتقييد الأكل بما ذكر مع أنّه محرّم على الإطلاق لما فيه من زيادة القبح و يجوز أن يكونا صفة لمصدر محذوف بيّن الله تعالى فيه نوعي الأكل أي أكلاً إسرافاً وأكلاً بداراً من أن يكبروا فيأخذوه و عليه فيكون، أن يكبروا،

في محلّ النَّصَب على التَّعْلِيل للبدار و يجوز أن يكون نصب الإسراف على الحال و البدار كما مرَّ أو كلاهما على الحال أي مسرفين و مبادرين كبرهم و على الوجهين الأخيرين الظَّاهر أنَّ الإسراف هنا هو خلاف المعروف كما هو المتبادر في العُرف فيدلُّ بمفهومه على جواز الأكل بالمعروف كما هو المستفاد من الأخبار و منها يعرف المصروف الجائز فعلة فيكون باقي الآية من قبيل التصريح بما علّم جوازه من طريق المفهوم والبيان والتفصيل أنَّ من بيده مال الأيتام أمّا أن يكون غنياً أو يكون فقيراً فأن كان غنياً لا يجوز له أن يتناول شيئاً من مال اليتيم لظاهر الأمر المقتضي لذلك واليه ذهب الشافعي و قيل يجوز له ذلك و لكن لا يتجاوز مقدار أجرة مثله حملاً للأمر على الإستحباب كما يشعر به لفظ الإستعفاف في قوله:

وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ

فالمراد بالإستعفاف في الآية هو الاكل من مال اليتيم بمقدار اجره مثله و يدلُّ عليه ما رواه الشيخ عن هشام بن الحكم قال سئلت ابا عبد الله فيمن تولّى مال اليتيم، ماله أن يأكل منه فقال ^{عليه السلام} ينظر الى ما كان غيره يقوم به من الأجر لهم فليأكل بقدر ذلك إلا أنه لا يبعد تقييدها بالأخبار الدالة على أنَّ ذلك أنما هو للمحتاج المشتغل بإصلاح أموالهم بحيث يشغله ذلك عن مال نفسه و أن لا يكون المال قليلاً و هذا في غير الأجير الذي يستأجره الوصي أو القيم لإصلاح مال اليتيم اذ لا شك في جواز إعطاء الأجرة له من ماله وكذا جعل و نحوهما الحاكم في جواز الإستيجار والجعالة لكن اذا لم يوجد متبرعٌ بذلك و إلا فلا و أمّا المحتاج مع حصول القيود التي ذكرناها فلا حرج عليه في ذلك قطعاً مع عدم الإسراف والإفساد لدلالة الآية عليه كما قال:

وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ

ومن المعلوم أن المراد بالأكل بالمعروف هو الأكل الذي لا إسراف فيه ولا إفساد عليه فمراعاة أقل الأمرين من القوت وأجرة مثله أحوط لأن فيه جمع

بين الأخبار ولأنه الأحسن في حفظ مال اليتيم كما يقتضيه قوله تعالى: **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**^(١) ثُمَّ أَنَّ الظاهر من الآية والأخبار الواردة في المقام أنه لا يجب ردّ عوض ما أكل بعد اليسار لأنه في ذلك من قبيل الأجير وهذا هو المشهور وقيل المعنى أَنَّ من كان فقيراً فليأخذ قدر الكفاية والحاجة قرضاً ثُمَّ يردّ عوض ما أخذ إذا أسر.

قاله الطبرسي في مجمع البيان نقلاً عن سعيد بن جبير ومجاهد وأبي العالية والزّهري وعبيدة السلماني قال **مُؤَيَّدٌ**، وهو مروي عن الباقر **ع** ثُمَّ قال معناه يأخذ قدر ما يسدّ به جوعه ويستر عورته لا على جهة القرض عن عطاء بن أبي رباح و قتادة وجماعة ولم يوجبوا أجره المثل لأنّ أجره المثل ربما كان أكثر من قدر الحاجة والظاهر في روايات أصحابنا أنّ له أجره المثل سواء كان قدر كفايته أو لم يكن انتهى.

أما العامة فقد حملوا الأكل بالمعروف على القرض قال القرطبي واختلف الجمهور في الأكل بالمعروف ما هو فقال قوم هو القرض إذا احتاج ويقضي إذا أسر، قاله عمر بن الخطاب وابن عباس وعبيدة وابن جبير والشعبي ومجاهد وأبو العالية وهو قول الأوزعي ولا يستلف أكثر من حاجته قال عمر ألا أني أنزلت نفسي من مال الله منزلة الولي من مال اليتيم أن إستفتيت إستعفتت إفتقرت أكلت بالمعروف فاذا أسرت قضيت روي عبد الله بن المبارك عن عاصم عن أبي العالية **وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** قال قرضاً ثُمَّ قال وقول ثان روي عن إبراهيم وعطاء والحسن البصري والنخعي و قتادة، لا قضاء على الوصي الفقير فيما يأكل بالمعروف لأنّ ذلك حقّ النظر الفقهاء قال الحسن وهو طعمة من الله له، وذلك أنّه يأكل ما يسدّ جوعته ويكتسي ما يستر عورته ولا يلبس الرفيع من الكتان ولا الحلل والدليل على صحّة هذا القول إجماع الأمة على أن الإمام الناظر للمسلمين لا يجب عليه عزم ما أكل

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

بالمعروف لأن الله تعالى قد فرض سهمه في مال الله فلا حجة لهم في قول عمر، فاذا أيسرت قضيت أن لو صح انتهى كلامه.

أقول بعض العامة فرق بين وصي الأب والحاكم فأجاز لوصي الأب أن يأكل بالمعروف وأما وصي الحاكم فلا سبيل له إلى المال بوجه، ونقل عن مجاهد أنه قال ليس له أن يأخذ قرضاً ولا غيره وذهب إلى أن الآية منسوخة نسخها:

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ** ^(١).

وهذا ليس بتجارة وقال زيد بن أسلم أن الرخصة في هذه الآية منسوخة أن الذين يأكلون، أموال اليتامى ظلماً الآية، وقال بعضهم بالفرق بين الحضر والسفر فيمنع إذا كان قتيماً ويجيز إذا احتاج أن يسافر من أجله فله أن يأخذ ما يحتاج إليه ولا يقتني شيئاً قاله أبو حنيفة وصاحبه، وقال أبو قلابة فليأكل بالمعروف مما يجني من الغلة فأما المال الناض فليس له أن يأخذ منه شيئاً قرضاً ولا غيره وروي عكرمة عن ابن عباس في قوله: **وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** قال إذا احتاج واضطر وقال الشعبي كذلك إذا كان منه بمنزلة الدّم ولحم الخنزير أخذ منه فأَن وجد أوفى ونقل عن ابن عباس والنخعي أنهما قالاً أن يأكل الوصي بالمعروف من مال نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم فليستعفف الغني بغناه والفقير يقتر على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال يتيمة قال النحاس وهذا أحسن ما روي في تفسير الآية لأن أموال الناس محظورة لا يطلق شيء منها إلا بحجة قاطعة قال القرطبي بعد نقله ما نقلناه وقد إختار هذا القول الكيا الطبري في أحكام القرآن له فقال تَوَهَّم متوهمون من السلف بحكم الآية أن للوصي أن يأكل من مال الصبي قدر لا ينتهي إلى حد الشرف وذلك خلاف ما أمر الله به في قوله: **لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا**

أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ^(١) ولا يتحقق ذلك في مال اليتيم وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ يَرْجِعْ إِلَى كُلِّ مَالٍ نَفْسَهُ دُونَ مَالِ الْيَتِيمِ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً فَمَعْنَاهُ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَ الْيَتِيمِ مَعَ أَمْوَالِكُمْ بَلْ اقْتَصِرُوا عَلَى أَكْلِ أَمْوَالِكُمْ وَقَدْ ذُلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا وَبَانَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ الإِقْتِصَارُ عَلَى الْبُلْغَةِ حَتَّى لَا يَحْتَاجَ إِلَى أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ فَهَذَا تَمَامُ مَعْنَى الْآيَةِ أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ هَذَا مَا وَصَلَ الْيَنَانُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَلَعَلَّ مَا لَمْ يَصِلْ مِنْهُمَا أَكْثَرَ مِمَّا وَصَلَ غُرُوفِهِ فَأَنَّ تَفْسِيرَ كَلَامِ اللَّهِ إِذَا لَمْ يُؤْخَذْ مِنْ أَهْلِهِ فَلَا مُحَالَةَ تَكُونُ الْأَقْوَالُ فِيهِ مُخْتَلِفَةً وَالْأَرَاءُ مُتَشَتِّتَةً فَلَا يَطْمَئِنُّ الْقَلْبُ إِلَّا بِذِكْرِ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ الرَّسُولُ عَنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى عِدْلًا لِلْكِتَابِ وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْتَّمَسْكِ بِهِمَا مَعًا فِي قَوْلِهِ: «أَتَيْتُ تَارِكًا فِيكُمْ التَّقْلِينَ كِتَابَ اللَّهِ وَعَتَرْتِي أَهْلَ بَيْتِي مَا أَنْ تَمْسُكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضَلُّوا أَبَدًا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرْدَا عَلَيَّ الْحَوْضُ»، الْمَعْلُومُ أَنَّ عِلْمَ الْقُرْآنِ يُوجَدُ عِنْدَ مَنْ خُوطِبَ بِهِ فَنَقُولُ:

رَوَى الْعِيَاشِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ زُرَّارَةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ قَالَ عليه السلام: ذَلِكَ إِذَا حَبَسَ نَفْسَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْيَحْتَرِثَ لِنَفْسِهِ فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ مَالِهِمْ أَنْتَهَى.

وَعَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: فِي قَوْلِ اللَّهِ: وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ قَالَ عليه السلام: هَذَا رَجُلٌ يَحْبِسُ نَفْسَهُ لِلْيَتِيمِ عَلَى حَرْثٍ أَوْ مَاشِيَةٍ وَيَشْغُلُ فِيهَا نَفْسَهُ فَلْيَأْكُلْ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَيْسَ ذَلِكَ لَهُ فِي الدَّنَائِيرِ وَالْدَّرَاهِمِ الَّتِي عِنْدَهُ مَوْضُوعَةٌ أَنْتَهَى.

و في الكافي بأسناده عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزَّ وجلَّ: وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ قال عليه السلام: من كان يلي شيئاً لليتامى و هو محتاج ليس له ما يقيمه فهو يتقاضى أموالهم و يقوم في ضيعتهم فليأكل بقدرٍ ولا يسرف فأن كان ضيعتهم لا تشغله عمّا يعالج نفسه فلا يرز أن من أموالهم شيئاً انتهى.

و بأسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عزَّ وجلَّ: فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ قال عليه السلام: المعروف هو القوت و أنما عني الوصي أو القيم في أموالهم و ما يصلحهم انتهى.

و بأسناده عن حنان بن سدير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: سألني عيسى بن موسى عن القيم للأيتام في الإبل و ما يحل له منها فقلت إذا لاط حوضها و طلب ضالّتها و هنأ جرباها فله أن يصيب من لبنها في غير نهكٍ لضرع و لا فسادٍ لنسلٍ انتهى.

و بأسناده عنه عليه السلام: في قول الله: وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فقال ذلك رجل يحبس نفسه عن المعيشة فلا بأس أن يأكل بالمعروف إذا كان يصلح لهم أموالهم فأن كان المال قليلاً فلا يأكل منه شيئاً والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة ^(١).

فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا.

فقد أمر الله تعالى بالإشهاد عند دفع أموالهم اليهم فبعضهم حمل الأمر على الوجوب و أيّده بأن فيه أي في الإشهاد مبادرة إلى حفظ مال اليتيم وعدم تضييعه لأنّه قد ينكر اليتيم التسليم اليه والمشهور حملة على الإستحباب أو الإرشاد إلى المصلحة كدفع التهمة عنه بأكله و سقوط الضمان لو أنكر اليتيم التسليم قالوا والظاهر من الآية أنّه لا تسمع دعوى الولي التسليم إلاّ بالبينة و

لأنه لا كلفة عليه بذلك ويدل عليه عموم الأخبار وبذلك أفتى الأصحاب واليه ذهب الشافعي وذهب الحنفية إلى أنه يصدق مع اليمين كسائر الأمانة وضعفه ظاهر لأنه خلاف ظاهر الآية مضافاً إلى أنه أمين من جهة الشرع لا من جهة اليمين وليس له نيابة عامة كحاكم الشرع ولا كمال الشفقة كالأب وغير ذلك من الإشكالات وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا أي كفى الله تعالى حاسباً لأعمالكم ومجازياً بها ففيه وعيد لكل جاحد حق والباء زائدة على ما قيل هذا تمام البحث في هذه الآية والحمد لله وحده.

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا.

لما ذكر الله تعالى أمر اليتامى وأموالهم وصله بذكر الموارث قيل نزلت الآية في أوس بن ثابت الأنصاري توفى وترك امرأة يقال لها أم كجة وثلاث بنات له منها فقام رجلان هما ابنا عم الميت وصياه يقال لهما سويد وعرفجة فأخذوا ماله ولم يعطيا إمرأته وبناته شيئاً وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وأن كان ذكراً ويقولون لا يُعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل و طاعن بالرمح وضارب بالسيف وحاز الغنيمة فذكرت أم كجة ذلك لرسول الله ﷺ فدعاهما فقالا يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلاً ولا ينكأ عدواً فقال رسول الله ﷺ إنصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لى فيهن فانزل هذه الآية ردّاً عليهم وإبطالاً لقد لهم وتصرفهم فان الورثة الصغار كان ينبغي ان يكونوا احق بالمال من الكبار انتهى ما ذكره القرصبي في نزول الآية اقول المعنى انه تعالى جعل لكل واحد من الرجال والنساء حصته الميراث اجمالاً ثم بين نصيب كل واحد وأن ذلك مع التساوي في الدرجة بدليل آخر كما في الآية الآتية قيل وفيها دلالة على نفي التعصب لأنه تعالى فرض للنساء كما فرض للرجال في التركة فترك بينهما وذكر الوالدين وفي لفظ الأقرب

دلالة على أنه ليس المراد مطلق الرجال والنساء بل المراد المتساوون في الدّرج ومن ثم لا يرث ولد الولد مع وجود الولد الصّليّ فأقتضت مشاركة جميع أهل تلك الدّرجة من النساء والرجال في التّركة فترث العمّة مع العمّ و بنت العمّ مع ابن العمّ والأخت مع الأخ والقائلون بالتعصّب يمنعون ذلك ويخصّون ما فضل عن الفريضة بالرجال دون النساء وهو خلاف مقتضى الآية فيكون باطلاً وذلك لأنّ المقتضى لتوريثهما واحد فلو جاز حرمان النساء لجاز حرمان الرجال أيضاً والتّالي باطل فالمقدّم مثله وفي قوله: **مَقْرُوضًا** دلالة على أنّ هذا النّصيب يدخل في ملك الوارث بغير الإختيار فلو أعرض عنه لم يخرج عن ملكه إلا بنائلي شرعي وسيأتي تفصيل الكلام فيه:

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا.

قال الطبرسي رحمته الله واختلف من قال أنّها محكمة على قولين أحدهما أنّ الأمر فيه للوجوب والزرّوم عن مجاهد وهو ما طابت به نفس الورثة وقال الآخرون الأمر فيها على النّدب ثم قال وإذا حضر القسمة، معناه إذا شهد قسمة الميراث، أولوا القربى، أي فقراء قرابة الميّت، واليتامى والمساكين، أي يتاماهم ومساكينهم يرجون أن تعودوا عليهم **فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ** أي أعطوهم من التّركة قبل القسمة شيئاً، واختلف في المخاطبين بقوله: **فَارْزُقُوهُمْ** على قولين

أحدهما: أنّ المخاطب بذلك الورثة أمروا بأن يرزقوا المذكورين إذا كانوا لا سهم لهم في الميراث عن ابن عباس وسعيد بن جبّير وابن الزّبير والحسن وأكثر المفسّرون، والآخر أنّ المخاطب بذلك من حضرته الوفاة وأراد الوصية فقد أمر بأن يوصي لمن لا يرثه من المذكورين بشيء من ماله عن ابن عباس وسعيد بن المسيّب واختاره الطّبري انتهى.

أقول الظاهر أنَّ المراد بأولي القُربى قرابة المَيِّت مِمَّن لا يرث منه ويحتمل الأعمَّ منه ومن قرابة الوارث وأما تقيدهم بالفقراء كما فعله الطبرسي فلا دليل عليه وهكذا تقييده اليتامى والمساكين بمن يرجون أن تعوذوا عليهم، لا دليل عليه أما أولاً فلأنه خلاف ما يقتضيه ظاهر العطف فإنَّ اليتامى والمساكين عطف على أولي القربى وقد مرَّ أنَّ المراد بهم مطلق الأقرباء فليكن المعطوف أيضاً كذلك وأما قوله: **فَارْزُقُوهُمْ** فالظاهر أنَّ الأمر ليس للوجوب ولا نعلم قائلاً به منّا، وأما كونها منسوخة أولاً، فالظاهر عدم النسخ ولكن تقييد الورثة بالكبار أولى وأحوط وأنما قلنا بعدم النسخ لأنه ليس في آية الأثر منافاة لهذه الآية حتّى يحكم بالنسخ وإذا كان كذلك و صار النسخ مشكوكاً فيه فالأصل عدمه هذا.

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا.

حذفت الألف من **لْيَخْشَ** للجزم بالأمر ومفعول الفعل محذوف لدلالة الكلام عليه أي ليخش النار أو العقاب أو الله تعالى، وجملة الشرط والجزاء وصلة الموصول وظلماً حال أو صفة لمحذوف أي أكلاً ظلماً وهو خلاف المعروف ففيه دلالة على جواز الأكل بالمعروف من حيث المفهوم، والمعنى أنه ينبغي للمؤمن الذي ترك ذريةً ضعافاً بعد موته خاف عليهم الفقر والضياع، أن يخشى على ورثة غيره من الفقر والضياع ولا يقول لمن يحضر وصيته أن يوصي بما يضّر بورثته وليتَّق الله في ذلك وليتَّق الإضرار بورثة المؤمن، وليقل قولاً سديداً وهو السّليم من خلل الفساد الحقّ بالدّعاء إلى العدل في القسم بما لا يجحف بالورثة ولا يحرم ذوي القربى وأصل السّديد، من سدّ الخلل هكذا فسرها الشيخ في التّبيان وقد نقل القرطبي في تفسيره أقوالاً في تفسيرها.

أحدها: ما نسبته الى ابن عباس وهو أنَّ الآية وعظ للأوصياء أي إفعلوا باليتامى ما تحبّون أن يفعل بأولادكم من بعدكم.

ثانيها: المراد جميع النَّاس أمرهم الله بالإتقاء في الأيتام وأولاد النَّاس و أن لم يكونوا في حجورهم وأن يسدّدوا لهم القول كما يريد كلّ واحدٍ منهم أن يفعل بولده بعده.

وقول ثالث، قاله جمعٌ من المفسّرين هذا في الرّجل يحضره الموت فيقول من يحضرته عند وصيته أنَّ الله سيرزق ولدك فأنظر لنفسك وأوص بمالك في سبيل الله وتصدّق وأعتق حتّى يأتي على عامّة ماله أو يستغفره فيضّر ذلك بورثته فنهوا عن ذلك فكأنَّ الآية تقول لهم كما تخشون على ورثتكم و ذرّيتكم بعدكم فلذلك فاحشوا على ورثة غيركم ولا تحملوا على تبذير ماله قاله ابن عباس وقتادة والسّدي وفيهم وقول رابع قال مقسم وحضرمي نزلت في عكس هذا وهو أن يقول للمتحيّض من يحضره اسك على ورثتك وابق لذلك فليس اخذ احقّ بمالك من أولادك وينهاه عن الوصية فيتضرّر بذلك ذوو القربى وكلّ من يستحق أن يوصى له فقليل لهم كما تخشون على ذرّيتكم وتسرون بأن يُحسن اليهم فكذلك سدّدوا القول في جهة المساكين و اليتامى وإتقوا الله في ضررهم قال القرطبي وهذان القولان مبنيان على وقت وجوب الوصية قبل نزول أية الموارث انتهى ما أردنا ذكره ونشر الى بعض الأخبار الواردة في الباب من طريق أهل البيت.

فعن عيون الأخبار فيما كتب الرضا الى محمّد بن سنان و حرّم أكل مال اليتيم ظلماً لعلّ كثيرة من وجوه الفساد أوّل ذلك أنّه اذا أكل مال اليتيم ظلماً فقد أعان على قتله اذ اليتيم غير مستغنٍ ولا محتمل لنفسه ولا عليم بشأنه و لاله من يقوم عليه ويكفيه كقيام والديه فاذا أكل ماله فكأنّه قد قتله وصيّره الى الفقر والفاقة مع خوف الله وجعل له من العقوبة في قوله: **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ**.

ولقول أبي جعفر عليه السلام: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ فِي أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ عِقُوبَتَيْنِ عِقُوبَةٌ فِي الدُّنْيَا وَعِقُوبَةٌ فِي الْآخِرَةِ فِي تَحْرِيمِ مَالِ الْيَتِيمِ إِسْتِغْنَاءَ الْيَتِيمِ وَإِسْتِقْلَالَهُ بِنَفْسِهِ وَالسَّلَامَةَ لِعَقْبِهِ أَنْ يَصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُ لَمَّا أَوْعَدَهُ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْعِقُوبَةِ الْحَدِيثِ.

وَعَنْ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ قَالَ عليه السلام: أَنَّ فِي كِتَابِ عَلِيِّ أَنْ أَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ سَيِّدْرَكَه وَبَالَ ذَلِكَ فِي عَقْبِهِ مِنْ بَعْدِهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: وَلَيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ فِي الْمَوْتِ عَنْ سَمَاعَةٍ قَالَ سَمِعْتَهُ يَقُولُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْعَدَ فِي مَالِ الْيَتِيمِ عِقُوبَتَيْنِ أَمَّا أَحَدُهُمَا، فَعِقُوبَةُ الْآخِرَةِ النَّارُ وَأَمَّا عِقُوبَةُ الدُّنْيَا فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَيُخْشَ الَّذِينَ إِلَىٰ قَوْلِهِ: قَوْلًا سَدِيدًا يَعْنِي لَيُخْشَ أَنْ أَخْلَفَهُ فِي ذَرْبِهِ كَمَا صَنَعَ بِهِؤَلَاءِ الْيَتَامَىٰ انْتَهَىٰ

وَعَنْ الْمُعْلَىٰ بْنِ خُنَيْسٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: مَنْ أَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَنْ يَظْلِمُهُ وَعَلَىٰ عَقْبِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: وَلَيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا إِلَىٰ قَوْلِهِ: قَوْلًا سَدِيدًا انْتَهَىٰ.

وَعَنْ الْكَافِي عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ مَوْلَىٰ آلِ سَامٍ عَنْهُ عليه السلام: سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَنْ يَظْلِمُهُ أَوْ عَلَىٰ عَقْبِهِ أَوْ عَلَىٰ عَقْبِ عَقْبِهِ انْتَهَىٰ وَالْأَحَادِيثُ نَقَلْنَاهَا عَنْ آيَاتِ الْأَحْكَامِ لِلجَزَائِرِيِّ رحمته الله.

أَقُولُ يَسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَنْ أَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ فَالْمَعْنَىٰ فِي وَلَيُخْشَ اللَّهُ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذَرْبَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ، أَيْ وَ لَيُخْشَ اللَّهُ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا، فَاتَّهَمُوا لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذَرْبَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ، سَيِّدْرَكَه وَبَالَ ذَلِكَ فِي عَقْبِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ فَيُؤْكَلُ أَمْوَالُ أَوْلَادِهِمْ كَمَا أَكَلُوا أَمْوَالَ أَوْلَادِ غَيْرِهِمْ وَأَمَّا عَلَىٰ الْمَشْهُورِ فَاتَّهَمُوا نَزَلَتْ لِلَّذِينَ

يجلسون عند المريض ويقولون أن أولادك لا يغنون عنك من الله شيئاً فقدّم مالك في سبيل الله فيفعل المريض ما يقولون له فيبقى أولاده ضائعين كلاً على الناس فأمرهم الله أن يخافوا الله في هذه المقالة ويقدرّون أن أولادهم هم المخلفون ويفعلون بهم ما هم أشاروا به ويؤيده أن النبي ﷺ نهى أن يُوصي بأكثر من الثلث وقال عليّاً والثلث كثير، وقال عليّاً لسعد، لأن تدع ورثتك أغنياء أحبّ إليّ من أن تدعهم عالة يتكفّفون الناس بأيديهم والله أعلم بكلامه.

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا.

أتما علّق الوعيد في الآية لمن يأكل أموال اليتامى ظلماً لأن من يأكله على وجه الإستحقاق على ما مرّ بيانه مفصلاً لا يدخل في الوعيد وهو واضح وأتما يدخل فيه الأكل على غير وجه الإستحقاق فقوله: ظُلْمًا نصب على المصدر أي أن من أكل مال اليتيم فأنه يظلمه ظلماً، وأما قوله: إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا ف قيل في معناه أن أكل مال اليتيم ظلماً يبعث يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه ومن أذنيه وأنفه وعينه يعرفه من رآه بأكل مال اليتيم، وقيل أنه على وجه المثل من حيث أن فعل ذلك يصير إلى جهنم فتمتلاً بالنار أجوافهم عقاباً على ذلك الأكل كما قال الشاعر:

وَأَنْ الَّذِي أَصْبَحْتُمْ تَحْلُبُونَهُ دَمٌ غَيْرَ أَنَّ اللَّوْنَ لَيْسَ بِأَحْمَرَ

يصف أقواماً أخذوا الإبل في الدية يقول فالذي تحلبون من ألبانها ليس لبناً أتما هو دم القتل وقوله: وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا فالصلّى لزوم النار للإحراق أو التسخن أو الإنضاج.

وفي تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لما أُسرى بي إلى السماء رأيتُ قوماً تقذف في أجوافهم النَّارَ وتخرج من أدبارهم فقلتُ من هؤلاء يا جبرئيل فقال هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً.

وفي الكافي عن أبي جعفر عليه السلام يجي يوم القيامة والنَّار تلتهب من بطنه حتى يخرج لهب النَّار من فيه يعرفه اهل الجمع انه آكل مال اليتيم انتهى.

آيات الاحكام للجزائري و روى في تفسير نورالثقلين:

عن الباقر عليه السلام انه قال: قال رسول الله يبعث ناس من قبورهم يوم القيامة ما حجج افواههم ناراً. قيل يا رسول الله من هؤلاء فقراء الامة.

وبأسناده عن أبي بصير قال سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: من أكل مال أخيه ظلماً ولم يرده اليه أكلَ جذوة من النَّار يوم القيامة انتهى. والأخبار في الباب كثيرة أعادنا الله منه ولما بين في هذه الآيات حكم الأيتام و أموالهم وأشار الى ثبوت الإرث إجمالاً فقال:



يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ
الْأُنثَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا
تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ
لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ
وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ
الْثُلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ
وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ أَوْ
دَيْنٍ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنْ
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ
مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ
لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ
لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثَّمَنُ
مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ
إِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ
أَخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا
أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلْثِ مِنْ بَعْدِ
وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةُ
مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ
يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ
مُّهِينٌ (١٤)

◀ اللّغة

يُوصِيكُمُ اللَّهُ: الوَصِيَّةُ التَّقَدُّمُ الى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظٍ من قولهم أَرْضٌ وَاصِيَّةٌ مُتَّصِلَةٌ النَّبَاتِ.

كَلَّالَةٌ: الكَلَالَةُ فِي الْأَصْلِ الْإِحَاطَةُ وَمِنْهُ الْإِكْلِيلُ لِإِحَاطَتِهِ بِالرَّأْسِ وَمِنْهُ الْكَلَالَةُ لِإِحَاطَتِهِ بِالْعَدَدِ فَالْكَلَالَةُ تَحِيطُ بِأَصْلِ النَّسَبِ الَّذِي هُوَ الْوَلَدُ وَقَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ رُؤْيِ أَنَّ النَّبِيَّ سُئِلَ عَنِ الْكَلَالَةِ فَقَالَ مِنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ، وَقَالَ أَيْضاً الْكَلَالَةُ إِسْمٌ لِمَا عَدَا الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ مِنَ الْوَرْتَةِ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ إِسْمٌ لِمَنْ عَدَا الْوَلَدَ وَسَيَأْتِي شَرْحُهَا فِي التَّفْسِيرِ وَبَاقِي اللَّغَاتِ وَاضِحٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ.

◀ الإعراب

لِلَّذِكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ الْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ بِيُوصِي لِأَنَّ الْمَعْنَى يَفْرَضُ لَكُمْ أَوْ يَشْرَعُ فِي أَوْلَادِكُمْ وَالتَّقْدِيرُ فِي أَمْرٍ أَوْلَادَكُمْ فَإِنْ كُنَّ الضَّمِيرُ لِلْمَتْرُوكَاتِ أَيْ فَإِنْ كَانَتْ الْمَتْرُوكَاتُ وَذَلْ ذَكَرَ الْأَوْلَادَ عَلَيْهِ فَوْقَ اثْنَتَيْنِ صَفَةً النِّسَاءِ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً بِالنَّصْبِ أَيْ كَانَتْ الْوَارِثَةُ وَاحِدَةً وَبِالزَّعْفِ عَلَى أَنَّ، كَانَ، تَامَةً الْإِصْفُ بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ لَغَتَانِ فَإِنْ كَانَ لَهٗ إِخْوَةٌ الْجَمْعُ هُنَا لِلْأُنثَيْنِ لِأَنَّ الْأُنثَيْنِ يَحْجَبَانِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ وَعِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ عَلَى بَابِهِ وَالْأُنثَانِ لَا يُحْجَبَانِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالاً مِنَ السُّدُسِ تَقْدِيرُهُ مُسْتَحَقّاً مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ وَالْعَامِلُ الظَّرْفُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفاً أَيْ يَسْتَقَرُّ لَهُمْ ذَلِكَ بَعْدَ إِخْرَاجِ الْوَصِيَّةِ أَوْ دَيْنٍ أَوْ، لِأَحَدٍ، الشَّيْئَيْنِ وَلَا تَدُلُّ عَلَى التَّرْتِيبِ كَذَا قِيلَ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ مَبْتَدَأٌ لَا تَذَرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا الْجُمْلَةُ خَبَرُ الْمَبْتَدَأِ فَرِيضَةٌ مَصْدَرٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ أَيْ فَرَضَ ذَلِكَ فَرِيضَةً وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ كَانَ، تَامَةً وَرَجُلٌ فَاعِلُهَا يُورَثُ صَفَةً لَهُ كَلَّالَةٌ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي يُورَثُ.

وقيل أنها ناقصة ورجل إسمها ويورث خبرها وكلاهما حال أيضاً غير مُضَافٍ حال من ضمير الفاعل في يُوصي نازراً خالداً فيها نازراً مفعول ثانٍ ليدخل وخالداً حال من المفعول الأول ويجوز أن يكون صفة، لنار، لأنه لو كان كذلك لبرز ضمير الفاعل لجريانه على غير من هو له ويخرج على قول الكوفيين جواز جعله صفة لأنهم يشترطون إبراز الضمير في هذا النحو من الكلام.

◀ التفسير

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ حَكَمَ الْإِرْثِ إجمالاً فصله في هذه الآية فقال: يُوصِيكُمُ اللَّهُ وَصِيَّةَ اللَّهِ عِبْرَةٌ عَنْ أَمْرِهِ وفرضه أي يأمركم الله ويفرض عليكم والدليل عليه قوله تعالى: وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذِكْرُكُمْ وَصِيَّتُكُمْ بِهِ^(١) أي ذلك يأمركم ويفرض عليكم وعليه فالمعنى يأمركم الله ويعهد اليكم (في أولادكم) أي في توريثهم بعد الموت والخطاب للأحياء بأن يعلموا ويقسموا بينهم التركة إذا نَزَلَ بأحدهم الموت على الوجه المقرر في الشرع، وقيل الخطاب للحكام والقضاة بأن يقسموا بينهم كذلك والأظهر أن الخطاب لجميع الناس كما هو ظاهر الآية فتخصيصه بالقضاة والحكام لا وجه له ثم أن المراد بالأولاد هنا ما يلد حياً ذكراً أو أنثى.

قالت الشافعية الأولاد في الآية وفي كل موضع حقيقة في أولاد الصلب فأما ولد الابن فأتما يدخل فيه بطريق المجاز ولذلك إذا حلف أن لا ولد له وله ولد ابن لم يحنث، وإذا أوصى لولد فلان لم يدخل فيه ولد ولده وأما أبو حنيفة فيقول أنه يدخل فيه أن لم يكن له ولد صلب ومعلوم أن الالفاظ لا لا

تتغير و قال ابن المنذر ظاهر الآية أنّ الميراث لجميع الاولاد من المؤمن و الكافر فلما ثبت عن رسول الله ﷺ أنّه قال لا يرث المسلم الكافر عليم ان الله اراد بعض فلا يرث المسلم الكافر وبالعكس.

أقول ما ذكره ابن المنذر لا يرجع الى محصلٍ أمّا أولاً فلأنّ الخطاب في الآية للمسلم و الكافر ما دام كونه كافراً و أن كان مخاطباً بهذا الخطاب و غيره من الأحكام الفرعية إلا لا يقدر على العمل في حال الكفر ففضّح أن يقال أنّ المخاطب بالآية للعمل بها إنّما هو المسلم لا غيره و عليه فالمراد بقوله، في أولادكم، أولاد المسلمين و أمّا الكفار فهم خارجون عن الآية خروجاً تخصّيصاً لا تخصيصاً فظاهر الآية لا يشمل أولاد الكفار من بدو الخطاب، وثانياً قوله لا يرث المسلم الكافر و لا الكافر المسلم، في حيز المنع فإنّ المسلم يرث الكافر و لا عكس، قال القرطبي قلت في أولادكم، دخل فيهم الأسير في أيدي الكفار فإنّه يرث ما دام تعلم حياته على الإسلام و به قال كافة أهل العلم إلا النخعي فإنّه قال لا يرث الأسير ثمّ قال القرطبي و لم يدخل في عموم الآية ميراث النبي ﷺ لقوله ﷺ لا نورث ما تركناه صدقة و سيأتى بيانه في مريم، و كذلك لم يدخل القاتل عمداً لأبيه أو جدّه أو أخيه أو عمّه بالسنة و إجماع الأمة إنتهى كلامه.

أقول أمّا الأسير فإنّه داخل في الحكم قطعاً و قول النخعي خارج عن قانون الشرع و أمّا ميراث النبي فهو أيضاً داخل في عموم الآية بلا كلام و ذلك لأنّ قوله تعالى: **يُوصِيكُمُ اللَّهُ** عامّ لجميع المسلمين و من المعلوم أنّ الرسول رئيس المسلمين و صدرهم فكيف لم يدخل في عموم الآية ميراثه و أمّا ما رواه من قوله: لا نورث ما تركناه صدقة، فهو حديث مجعول رواه أبو بكر و شهدت به عائشة و تابعها عمر لمصلحة سياسية و هى أخذ فدك و غضبها و الدليل على بطلانه أمّا أولاً فلأنّه مخالف لنصّ الكتاب و قد ثبت أنّ الحديث إذا كان مخالفاً للكتاب فأضربوه على الجدار و ثانياً أنّ المسلم يرث المسلم و

المنع يحتاج الى دليل مخرج كالإرتداد و القتل و ما نحن فيه ليس من هذا القبيل فإذا كان الرسول ﷺ في صدر المسلمين وإبنته فاطمة سلام الله عليها أيضاً كذلك بعد أبيه ولم تفعل شيئاً يمنعها عن إرثها فلم لا ترث ولذلك قالت في خطبتها التي خطبت بها في مسجد النبي ﷺ يا بن أبي قحافة ترث في كتاب الله ولا أرث أبي لقد جئت شيئاً فرياً، وقالت عائشة في موضع آخر منها، أفخصكم الله بأية أخرج منها أبي، أم هل تقولون أهل ملتين لا يتوارثان و لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من ابن عمي ألخ فكيف يقول القرطبي لم يدخل في عموم الآية ميراثه وأما قوله و سيأتي بيانه في مريم و سيأتي بياننا أيضاً في مريم في جوابه إنشاء الله.

لِلذَّكَرِ مِثْلُ مَثَلِ الْأُنثِيَيْنِ أَي إِذَا اجْتَمَعَ مِنْهُمْ فِي مَرْتَبَةٍ ذَكَرٌ وَأُنْثَى أَوْ ذَكَورُ وَأُنَاثُ فَلِلذَّكَرِ مِنْهُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ أَي سَهْمُ الرَّجُلِ مِنَ الْمِيرَاثِ مِثْلُ سَهْمِ الْأُنثِيَيْنِ فَسَهْمُ الرَّجُلِ سَهْمُ الْأُنْثَى وَسَهْمُهَا نِصْفُ سَهْمِ الرَّجُلِ. روي لجهة التضعيف علل منها ما عن الفقيه في الصحيح عن هشام أن ابن أبي العرباء قال لمحمد بن النعمان الأحول ما بال المرأة الضعيفة لها سهم واحد و للرجل القوي الموسر سهمان قال فذكرت ذلك لأبي عبد الله، فقال عائشة أن المرأة ليس عليها عاقلة وليس عليها نفقة ولا جهاد وعدد أشياء غير هذا على الرجل فلذلك جعل له سهمان ولها سهم انتهى.

و عن الكافي عن يونس بن عبد الرحمن عن الرضا عليه السلام قال قلت له جعلت فداك كيف صار الرجل إذا مات وولده من القرابة سواء ترث النساء نصف ميراث الرجال وهن أضعف من الرجال وأقل حيلة فقال عليه السلام لأن الله فضل الرجال على النساء بدرجة ولأن النساء يرجعن عيالاً على الرجال انتهى.

و روي عن الصادق عليه السلام: أن الحَبَّاتِ التي أكلها آدم عليه السلام وحواء

كانت ثمانية عشر فأكل آدم اثني عشر وأكلت حواء ستاً فلذلك صار للذكر ضعف الأنثى والله أعلم.

فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثًا مَا تَرَكَ

أشار سبحانه الى حكم النساء المنفردات عن الأولاد الذكور بقوله: فَإِنْ كُنَّ أَيُّ فَاُنْ كُنَّ الأولاد نساءً، فالثانث باعتبار الخبر كقولهم من كانت أمك أو باعتبار التأويل بالمولدات والمتروكات وقوله: فَوْقَ اثْنَتَيْنِ أَيُّ ثَلَاثًا فصاعداً وهو صفة نساء أو خبر ثان، فلهنّ، أي للنساء، وأن كُنَّ مائة، ثلثا ما ترك، الميّت يشتركن فيه (وأن كانت واحدة) أي وأن كانت المولودة واحدة فَلَهَا النِّصْفُ أي للمولودة النصف، فالثلثان فرض المتعددات والنصف فرض الواحدة بحسب الأصل وما بقي من الفريضة يرّد عليهنّ كما دلّت عليه الأخبار.

وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ

أي أن كان للميّت ولد أو أولاد أبواه حيّين بعد موته فلابويه لكل واحد منهما السدس، من أصل التركة والباقي للولد أو الأولاد ففي إنحصار الأولاد في الذكور يقسم المال بينهم بالسوية وفي صورة الإنفراد فالمال بعد إخراج سهم الأبوين كلّ له وان كانوا مختلفين بالذكورية والأنثوية فالمال يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين فاذا فرضنا أن زيدا مات وله أب وأم وولد وأولاد كذا لك وفرضنا التركة بعد إخراج الديّين ان كانت وهكذا سائر المستثنّين سمائة درهم ستّ مائة درهم، فسهم الأب مائة درهم وهو السدس وسهم الأم أيضاً كذلك فيبقى أربع مائة درهم فأن كان الولد منحصر فالمال له وأن كانوا متعدّدين فالمال يقسم بينهم على ما مرّ بيانه على كتاب الله هذا اذا كان للميّت ولد مع الأبوين فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ أَيُّ أَنْ مَاتَ وَكَانَ وَارِثُهُ منحصرّاً بالأبوين ولم يكن له ولد معهما كما في الصورة السابقة فحينئذٍ لامه

الثَّلاثُ والباقي كله للأب كما قال فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ وتوضيحه، أَنَّ الثَّلاثَ لِلْأُمِّ في صورة الاجتماع مع الأب وعدم الأولاد للميت، والباقي للأب وأما في صورة الإنفراد بأن كان الوارث منحصراً في الأم فكان لها الثَّلاثُ تسميةً والباقي يرَدُّ عليها، ولو كان منحصراً بالأب فالمال كله له بالفرض والفرق بينهما أَنَّ الأم يرَدُّ عليها الباقي والأب يرث الكل تسميةً لا بالرَدِّ هذا إذا لم يكن للميت أخوة. فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ خاصةً فأنهم يمنعونها عما زاد عنه توفيراً للأب من جهة العيلة وعليه فما زاد عن السدس للأب إذا لا يرث الأخ والأخوة مع وجود الأبوين فالأخوة تُحجب الأم لا الأب إلا أن لهذا الحجب شروط:

الأول: كونهم ذكرين أو ذكر وأختين أو أربع أخوات ويدل على الحجب بالأربع وبالدَّكر أو الأثنين كون الإمرأتين بمنزلة الرجل في سائر الأحكام ورد بذلك أخبار متعددة عن أهل البيت عليهم السلام مضافاً إلى إجماع الطائفة عليه ولا ينافي ذلك التصير بصيغة الجمع لأنه قد ثبت إطلاقها على الاثنين حقيقة بل قد يقال أَنَّ أَقْلَ الجمع أثنان سلّمنا لكن نقول أَنَّ الأخوين مع الإضافة إلى الميت تصير الأخوة ثلاثة ويدل على هذا.

مارواه الشيخ في الحسن عن أبي العباس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا ترك أخوين فهم أخوة مع الميت حجباً للأم وأن كان واحداً لم يحجب.

وقال عليه السلام: إذا كنَّ أربع أخوات حجبن الأم عن الثَّلاثِ لأنَّهنَّ بمنزلة الأخوين وأنَّ كنَّ ثلاثاً لم يحجبن انتهى.

على أَنَّ الإستعمال فيه مجازاً لا شك فيه والقرنية فيه هنا إجماع السلف والخلف على ذلك لأنه لم ينقل إعتبار كون الحجب بثلاثة فصاعداً إلا عن ابن عباس.

الثان: أن لا يكونوا كفرة ولا أرقاء وهو مروي عن أبي عبد الله عليه السلام خلاف فيه بين الأصحاب والمشهور أن القاتل أيضاً ملحق بهما بل نقل عن الشيخ الإجماع عليه وخالف في ذلك الصدوقان وابن أبي عقيل نظراً إلى عموم الآية وعدم دليل صالح للتخصيص.

الثالث: أن يكونوا للأب والام أو للأب ويدل عليه الأخبار مضافاً إلى أنه موضع وفاق بين الأصحاب.

الزابع: كون الأب حياً ويدل عليه سياق الآية ورواية بكير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **الأم لا تنقص من الثلث أبداً** إمع الولد والأخوة إذا كان الأب حياً وهذا هو المشهور بين الأصحاب.

الخامس: يفهم منها كونهم منفصلين بالولادة لأن من كان في البطن لا يسمي أخاً عرفاً ويدل عليه مضافاً إلى التعليل المذكور رواية العلابن الفضل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **أنّ الطفل والوليد لا يحجب ولا يرث إلا ما أذن بالصّراخ ولا شيء أكنه البطن وأن تحرّك إلا ما اختلف عليه الليل والنّهار** وهذا هو المشهور بين الأصحاب بل المخالف في هذه المسألة غير معلوم.

السادس: كونهم أحياء عند موت الموروث فلو إقترن موتها بموته أو إشتبه فلا حجب وهذا هو المتبادر من الآية والروايات.

السابع: يفهم من الآية المغايرة بين الحاجب والمحجوب فلعله شرط في ذلك وهو المعلوم من الأخبار فلو كانت الأم هي رابعة الأخوات فلا حجب كما في المجوس وفي الشبهة كأن وطئ الرجل إبنته فأولدها أخوها لأبيها فمع وجود هذه الشرائط السبعة يثبت الحجب وإلا فلا إذا عرفت ذلك ففي الآية مسائل لا بدّ من التنبية عليها:

أحدها: أن مفهوم الواحدة في قوله: **وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ** يقتضي أن الأنتين لا يكون فرضها النصف بل الثلاثين ومفهوم **فَوْقَ اثْنَتَيْنِ** ينفيه، توضيحه أن قوله تعالى: **وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً** أي أن كانت المولودة

واحدة فلها النصف ومفهوم هذا الكلام هو أنَّ المولودة أن كانت أثنين فصاعداً مثلاً فليس لها النصف بل لها الثلثان لأنَّ الأمر يدور مدار الثلثين و النصف، وأما قوله قبل ذلك فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ فمفهومه أنَّ النساء لو كنَّ اثنتين مثلاً فلهنَّ النصف لأنَّ الثلثين حقَّ النساء لو كنَّ فوق اثنتين وهو الثلاث فصاعداً وهو واضح ولازم ذلك هو أنَّ النساء لو كنَّ اثنتين كان فرضهما الثلثين والنصف معاً وهو كما ترى أما الثلثان فلكونهما أكثر من واحدة النصف فلكونهما اثنتين وعدم كونهما فوق اثنتين ومن المعلوم أنَّ الجمع بين النصف و الثلثين محال فلو فرضنا أنَّ المال المقسوم ثلاثون قولاً فنصفه وثلثاه يصير خمس و ثلاثون درهما والمفروض أنَّ المال ثلاثون وكيف التوفيق ولذلك صارت المسئلة من العصريات فعن ابن عباس انه قال أنَّ لهما النصف عملاً بمفهوم قوله تعالى: فَوْقَ اثْنَتَيْنِ وفيه نظر لما ذكرناه من التعارض بين المفهومين ولا ترجيح لأحدهما على الآخر، بل الترجيح في جانب الثلثين لوجوه.

أحدها: أنَّه تعالى ذكر أنَّ للذكر مثل حظَّ الأنثيين وهذا ممَّا لا كلام فيه و مقتضاه أنَّ للبنات الواحدة مع أخيها الواحد الثلث فبالطريق اولى أن يكون لها مع أختها الثلث فيكمل لهما الثلثان وعليه فلا يبعد أنَّه تعالى إكتفى بهذا البيان على النص على الثنتين بخصوصهما وصرح بما زاد عليهما وبالواحدة. ثانيها: النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام مضافاً الى إجماع الطائفة عليه.

الثاني: أنَّه تعالى ذكر أنَّ للأختين الثلثين فيدل بطريق الأولوية على أنَّ البنيتين كذلك لأنهما أمس رحماً وأصق قرابةً ولأنهما لا يخلوان من الأثر في حالٍ من الأحوال بخلاف الأختين.

الثالث: قوله: وَلَا يَوْرِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ أراد به الجنس الشامل للذكر والأنثى والمنفرد والمتعدد والصلب و ولد

الولد غير أن الولد أن كان بنتاً واحدة فما بقى بعد النصف والسدسين يرّد إجماساً إن لم يكن هناك حاجب والأرباعاً وأن كان معهم ذكر أو ذكور أو كان الولد أكثر من واحدة أو كان الولد ذكراً أو ذكوراً فلي لهما سوى السدس والذي يدل على الرّد آية أولوا الأرحام والأخبار وأجماع الطائفة وقد ثبت بطلان القول بالتعصب عندنا.

ويدل على كون الرّد بالطريق المذكورة تساوي الوالدين والولد في القرابة بالنسبة إلى الميت فيكون على نسبة سهامهم.

الرابع: قد دلت الآية على مشاركة الوالدين للأولاد والآية الآتية تدل على مشاركة الزوجين لهم أيضاً فيفهم من ذلك مشاركتهما للوالدين ويدل عليه الأخبار ففي رواية إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: أربعة لا يدخل عليهم ضرر في الميراث، للوالدين السدسان أو ما فوق ذلك، وللزوج النصف أو الربع، وللمرأة الربع أو الثمن ونحو ذلك من الأخبار وهو مما أجمعت الأمة عليه فعلى هذا لو كان مع الوالدين زوج أو زوجة ولم يكن هناك إخوة كان للأمة ثلث التركة وللزوج أو الزوجة من التركة حصتهما العليا وما بقى منهما يكون للأب وعليه دلت الأخبار عن معدن الوحي وهو الظاهر من إطلاق الآية حيث جعل الله تعالى لها الثلث مع عدم الولد وذهب العامة إلى أن لها ثلث ما بقى بعد حصة الزوجين نظراً إلى قوله: **وَوَرِثَةُ آبَوَاهُ** وأن المعنى أتهما الوارثان له بلا مشارك لهما مطه وهو ضعيف لأنه تقييد بلا دليل ولأنه ما كان يحتاج إلى قوله: **فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ** ولأنه لا يفهم وحيد ثبوت فريضة الأم مع وجود وارث غير الولد فكيف يكون لها ثلث ما بقى مع كونه سدس الأصل فته.

الخامس: إطلاق الآية مقيد بأمور وهي أن لا يكون الوارث رَقاً ولا كافراً قاتلاً ونحو ذلك من موانع الأثر وهي كثيرة أنهاها في الدروس إلى عشرين.

السادس: المذكور في الآية هو حكم الأولاد من الذكور والأنثى المقطوع بذكوريتهم وأنوثيتهم فأما الخنثى المشكل فلا يبعد إستنباط حكمها من الآية فتعطى النصف من نصيب الذكر والنصف من نصيب الأنثى، وقال بعضهم بالقرعة وبعضهم الى عدّ الأضلاع هذا في غير الحجب وأما فيه فهي بحكم الأنثى قطعاً.

السابع: إطلاق الأولاد في الآية يشمل أولاد الأولاد فيقومون مقام آبائهم ويرث كل واحد منهم نصيب من يتقرب به والأخبار به كثيرة وذهب السيد المرتضى وتبعه جماعة منهم معين الدين المصري وابن إدريس الى أن الأولاد يقتسمون مقاسمة الأولاد من غير إعتبار من يتقربون به فلو خلف بنت ابن و ابن بنت فللذكر الثلثان وللأنثى الثلث ولو كان مع ابن البنت أحد الأبوين أو هما معاً فكما لو كان الأبْن للصلب ولو كانا أو أحدهما مع بنت الأبْن فكما لو كانا أو أحدهما مع البنت للصلب ومستندهم أنهم أولاد حقيقة فيدخلون في معوم، يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ويدل على كونهم أولاداً تحريم حلالهم في قوله وحلائل أبناءكم وتحريم بنات الأبْن والبنت لقوله وبناتكم هذا والمشهور ما ذكرناه أولاً من أنهم يقومون مقام آبائهم فيرث كل واحد منهم من يتقرب به وللبحث فيه مقام آخر.

الثامن: يظهر من الآية أن الورثة يشتركون في جميع التركة لكن خرج من ذلك ما يجيء به أكبر الولد من الذكور لقيام الدليل عليه وهذا الحكم مما انفردت به الإمامية والأخبار في كمية ما يجيء به مختلفة والإقتصار على السيف والخاتم والمصحف وثياب جلده احوط.

مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ أَوْ دِينَ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

اي ان تقسيم التركة بين الورثة إنما هو بعد وصية الموصى او دينه و عليه فإذا مات يجب إخراجهما عن التركة قبل التقسيم وإختلفوا في تقديم أحدهما

على الآخر فقال قوم بتقديم الوصية على الدين وقال الآخرون بتقديم الدين عليها والمشهور تقديم الدين ولا خلاف عندنا فيه وأن أحاط بالمال.

وأما الوصية فقد قيل أنها مقدمة على الميراث بمعنى أنه يجب إخراجها من التركة أولاً بعد إداء الدين أن كان، ثم تقسيم التركة بين الورثة وقيل بل الموصى له شريك الوارث فله الثلث ولهم الثلثان وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال أنكم تقرأون في هذه الآية الوصية قبل الدين وأن رسول الله صلى الله عليه وآله قضى بالدين قبل الوصية قال الطبرسي رحمته الله بعد نقله ما نقلناه والوجه في تقديم الدين على الوصية في الآية هو أن لفظ، أو، إنما هو لأحد الشيئين أو الأشياء ولا توجب الترتيب فكأنه قال من بعد أحد هذين مفرداً أو مضموماً إلى الآخر وهذا أقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين أي جالس أحدهما مفرداً أو مضموماً إلى الآخر انتهى.

وأما قوله: **أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ** قيل في معناه أنكم لا تدرون أي هؤلاء أنفع لكم في الدنيا فتعطونه من الميراث ما يستحق ولكن الله قد فرض الفرائض على ما هو عنده حكمة، عن مجاهد.

ثانيها: لا تدرون بأيهم أنتم أسعد في الدنيا والدين والله يعلمه فأقسموه على ما بينه من المصلحة فيه، عن الحسن.

ثالثها: لا تدرون أن نفعكم بترية آباءكم لكم أكثر أم نفع آباءكم بخدمتكم أياه وإنفاقكم عليه عند كبره أكثر، عن الجبائي.

رابعها: أن المعنى أطوعكم لله من الآباء والابناء أرفعكم درجة يوم القيامة لأن الله يشفع المؤمنين بعضهم في بعض فإن كان الوالد أرفع درجة عند الله في الجنة من ولده رفع الله إليه ولده في درجته لتقر بذلك عينه وأن كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله والديه إلى درجته لتقر بذلك أعينهم، عن ابن عباس.

خامسها: لا تدرون أي الوارثين والمورثين أسرع قومًا فيرثه صاحبه فلا تتموا موت الموروث ولا تستعجلوه، عن أبي مسلم.

ذكر هذه الوجوه الطبرسي رحمته الله في تفسيره قَرِيبَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا.

قوله: قَرِيبَةً منصوب على المصدرية لتأكيد الجملة الأولى أي فرض الله ذلك فرضاً أن الله كان عليمًا، بمصالح العباد (حكيمًا) في أفعاله يضع كل شيء في موضعه.

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ

الخطاب في قوله لكم، للرجال، والأزواج جمع الزوج، بين الله تعالى في هذه الآية ميراث الزوج والزوجة مع وجود الولد و عدمه ثم حكم الكلالة فنقول نصت الآية الكريمة على أن لا يحجب الزوج عن الربع والزوجة عن الثمن أحد وأنه لا يحجبهما عن النصيب الأعلى إلا الولد بشرط أن يكون وارثاً ذكرأ كان الولد أو أنثى فتدل الآية على مشاركتها للاولاد مطلقاً وأن نزلوا للاباء علوا ولسائر الورثة بالطريق الأولى وفي قوله: لَهُنَّ دلالة على أن المعتبر في هذه الصورة ولدها وأن لم يكن ولدًا للزوج كما أن في قوله: لَكُمْ دلالة على أن المعتبر ولده وأن لم يكن ولدًا لها وهذه الأحكام لا خلاف فيها، قيل أن لفظ الأزواج تناول الأحرار والعبيد والمسلمين والكفار والنكاح الدائم والمنقطع لكن خرج غير الأحرار وغير المسلمين بالنص والأجماع على كون الكفر والرق مانعاً من الميراث وأما النكاح المنقطع فباختلاف فيه الأصحاب لأختلاف الأخبار فيه وأظهرها عدم التوثرث إلا مع شرطه إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية فنقول إذا ماتت الزوجة ولم يكن لها ولد سواء كان الولد من هذا الزوج الوارث أم من غيره فللزوج نصف ما ترك وأن كان لها ولد فله أي للزوج الربع والى هذين الحكمين أشار الله تعالى بقوله: وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ الى قوله: فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ أي أن الميراث بعد إخراج الوصية والدين مر الكلام فيهما في الآية السابقة و قلنا أن إخراج الدين مقدم على الوصية هذا إذا كان

الميت زوجة والوارث الزوج فلو عكس الأمر بأن مات الزوج وورثت الزوجة فلها الربع إن لم يكن للزوج ولد منها أو من زوجة غيرها، وأما إذا كان للزوج ولد منها أو من غيرها فلها الثمن من التركة بعد الدين والوصية والى هذا الحكم أشار بقوله:

وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا وَيُجِبُ التَّنْبِيهِ عَلَى أُمُورٍ.

أحدها: أن إطلاق الزوج والزوجة يتناول المقصود عليها وأن لم يحصل الدخول بها فترثه ويرثها ويتناول المطلقة رجعيًا لأنها في حكم الزوجة فترث وتورث ما دامت في العدة نعم يستثنى من الحكم الأول المريض فإنه مشروط بالدخول فأن مات في مرضه ولم يدخل فلا مهر ولا ميراث ويدل عليه حسنة زرارة عن أحدهما عليه السلام قال ليس للمريض أن يطلق وله أن يتزوج فأن هو تزوج ودخل بها وهو جائز وإن لم يدخل بها حتى مات في قرصة قطيلقه باطل ولا ولا ميراث انتهى. ويلحق بالحكم الثاني ما لو طلقها وهو وفيها فأنها ترثه الى سنته ما لم يبرأ من قرصه أو تزوج المثرة.

الثاني: أن الزوجة ترث من جميع التركة وأنها لاتحرم من شئ منها إلا أن الأخبار الواردة في الباب دلت على حرمانها من بعض الأشياء.

حسنة زرارة وبكير وفضيل وبريد ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام: أن المرأة لا ترث من تركه زوجها من تربة دارٍ أو أرضٍ إلا أن يقوم الطوب والخشب قيمة فتعطى ربعها أو ثمنها أن كان من قيمة الطوب والجذوع والخشب انتهى. صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: أن المرأة لا ترث مما ترك زوجها من القرى والدور والسلاح والدواب شيئاً وترث من المال و

الفرش والثياب ومتاع البيت مما ترك ويُقَوِّم النقص والأبواب والجذوع والقصب فُتْعَطِي حَقَّهَا مِنْهُ.

رواية أخرى لمحمد بن مسلم قال قال أبو عبد الله تَرِثُ الْمَرْأَةُ الطَّوْبَ وَلَا تَرِثُ مِنَ الرَّبَاعِ شَيْئاً قَالَ قُلْتُ كَيْفَ تَرِثُ مِنَ الْفُرْعِ وَلَا تَرِثُ مِنَ الرَّبَاعِ شَيْئاً فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ لَهَا مِنْهُمْ نَسَبٌ تَرِثُ بِهِ وَإِنَّمَا هِيَ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَتَرِثُ مِنَ الْفُرْعِ وَلَا تَرِثُ مِنَ الْأَصْلِ وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ دَاخِلٌ لِسَبَبِهَا.

ما رواه يزيد الصائغ قال سمعتُ أبا جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: النِّسَاءُ لَا يَرِثُنَ مِنْ رِبَاعِ الْأَرْضِ شَيْئاً وَلَكِنْ لَهُنَّ قِيَمَةُ الطَّوْبِ وَالْخَشَبِ قَالَ قُلْتُ أَنَّ النَّاسَ لَا يَأْخُذُونَ بِهَذَا قَالَ إِذَا وَلَّيْنَا ضَرْبِنَاهُمْ بِالسُّوْطِ فَأَنْتَهَوْا وَإِلَّا ضَرْبِنَاهُمْ بِالسَّيْفِ انْتَهَى.

ما عن حماد بن عثمان عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّمَا جُعِلَ قِيَمَةُ الْخَشَبِ وَالطَّوْبِ لئَلَّا يَتَزَوَّجْنَ فَيَدْخُلَ عَلَيْهِمْ مِنْ يَفْسُدُ مَوَارِثُهُمْ. مَا كَتَبَهُ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى ابْنِ سَنَانٍ، عَلَّةٌ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَرِثُ مِنَ الْعَقَارِ شَيْئاً إِلَّا قِيَمَةَ الطَّوْبِ وَالنَّقْضِ لِأَنَّ الْعَقَارَ لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُهُ وَقَلْبُهُ وَالْمَرْأَةُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَقْطَعَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ مِنَ الْعِصْمَةِ وَيَجُوزُ تَغْيِيرُهَا وَتَبْدِيلُهَا وَلَيْسَ الْوَلَدُ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ التَّفْصِي مِنْهُمَا وَالْمَرْأَةُ يُمْكِنُ الْإِسْتِبْدَالُ بِهَا فَمَا يَجُوزُ أَنْ يَجِيءَ وَيَذْهَبَ كَانَ مِيرَاثُهُ فِيمَا يَجُوزُ تَبْدِيلُهُ وَتَغْيِيرُهُ إِذَا شَبَّهَهَا وَكَانَ الثَّابِتُ الْمَقِيمُ عَلَى حَالِهِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الثَّبَاتِ وَالْقِيَامِ انْتَهَى.

والأخبار في الباب كثيرة جداً وفيما نقلناه كفاية لأهل الحق ثم أن هذه الروايات هي المقيدة لإطلاق الآية وبها أخذ فقهاءنا كلهم إلا ابن الجنيدي فإنه ذهب إلى أنها لا تحرم من شيء من التركة ولا حجة فيه في مقابل الإجماع وتحقيق الكلام في الفقه، ثم بناءً على المشهور فالأظهر حرمانها من نفس

الأرض عيناً وقيمة سواء كانت الأرض بياضاً أو مشغولة بزرع أو شجر أو بناء فحرمانها من أعيان ما فيها من الأشجار والألات والأبنية وتعطي قيمتها بل لا يبعد حرمانها من الأشجار عيناً وقيمة لدخولها في العقار والقرى.

الثالث: يظهر من الآية أنه لا يزيد الرجل على النصف ولا المرأة على الربع في حال من الأحوال وهو كذلك مع وجود مشارك من الورثة بصريح الأخبار والإجماع وأما في صورة وجود المُشارك فأن كان الميّت هو الزوجة فالظاهر أنّ الزوج يرث المال كلّ نصفه بالتسمية ونصفه الآخر بالرد عليه وهذا هو المشهور بين الأصحاب لما روي محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام: في إمراة توفيت ولم يعلم لها أحد ولها زوج قال عليه السلام الميراث لزوجها انتهي. ونحوها من الأخبار وأما أن كان الميّت هو الزوج فالظاهر أنه لارد عليها بل يكون الباقي للإمام يدفع اليه في أيام حضوره وأما في غيبته فيكون الحكم فيه كالحكم في سائر أمواله عليه السلام وهذا هو المشهور بين الأصحاب ثم أنّ حكم الواحدة من الأزواج والثنتين والثلاث والأربع في الربع أن لم يكن له ولد ولا ثمن أن كان له ولد، واحد بمعنى أنّ الربع أو الثمن يقسم بينهما لأن الله عزّ وجل لم يفرق بين حكم الواحدة فيهن وبين حكم الجميع كما فرق بين حكم الواحدة من البنات والواحدة من الأخوات وبين حكم الجميع منهن.

وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ

اختلف أهل اللغة في معنى الكلالة فقال الفراء الكلالة ما خلى الوالد والولد سموا كلاله لإستدراحتهم بنسب الميّت الأقرب فالأقرب من تكلفة الشئ إذا إستدار فكل وارث ليس بوالد للميّت ولا ولد له فهو كلاله مؤرثة.

وعن الصحاح الكل الذي لا ولد له ولا والد يقال منه كل الرجل يكل كلاله والعرب تقول لمن يرثه كلاله أي لم يرثه عن عرض بل عن قرب وإستحقاق قال الفرزدق:

ورثتم فتاة الملك غير كلاله عن ابن مناف عبد شمس وهاشم
وفي القاموس الكلاله الإعياء ومن لا ولد له ولا والد والأكليل في التاج و
شبهه عصابة تزين بالجواهر.

وعن معاني الأخبار في الصحيح بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال الكلاله
الكلالة ما لم يكن والد ولا ولد.

وفي الصحيح عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال اذا ترك الرجل
أباه وأمه وابنه وابنته أو ترك واحداً من هؤلاء الأربعة فليس الذين هم عني
الله قل الله يفتيكم في الكلاله فظهر مما ذكرناه أن الكلاله هم الأقارب غير
الوالد والولد سموا بذلك إعتباطاً وإرتجالاً أو أخذاً من الأكليل لإستدارتهم
بالنسب وخلو الوسط عن الوالد والولد أو من الكلال وهو الأعياء فكأنهم
لتنالهم الميراث من بعد على إعياء وضعف وتطلق على الوارث والموروث
من جهة إنتساب كل واحد منهما الى الآخر وهى مصدر تناول الذكر والأنثى و
إنتصابه فى الآية لأنه خبر (لكان) ورجل اسمها ويورث صفة للرجل او امرأة
عطف عليه والمعنى وان كان الموروث كلاله ويجوز ان (كان) تامّة و(كلالة
حالا) من الضمير فى يورث والمعنى ان وجد رجل مورث فطلّل النسب اذا
عرفت ذلك فنقول معنى الآية وأن كان رجل مورث أو امرأة مورثة، كلاله، و
له، أي وللرجل أو للمرأة، وإكتفى بحكم الرجل لإقتضاء العطف إشتراكهما
فيه أن يكون مرجع الضمير فى، وله، الكلاله الشاملة للرجل و المرأة بإعتبار
موصوفها وهو الميت أو الموروث أي وللميت أو الموروث الكلاله أخت أو
أخت فلكل واحد منهما، أي لكل واحد من الأخ والأخت السُّدس من التركة
وإن كان أي أن كان من ينتسب أكثر من ذلك أي أكثر من الأخ والأخت أي
أخوين فصاعداً أو أختين فصاعداً أو هما معاً فهُم شُرَكَاءُ فى الثُلث أي فلهم
الثُلث فريضة يشتركون فيه و يقتسمونه على السوية من بعد وصية يوصى
بها أو دين غير مُضَارٍ نصب على الحال والعامل فيه، يوصى أي يوصى بها

حال كونه غير مضار فالإضرار راجع الى الوصية والذين معاً أما في الوصية فبأن يزيد على الثلث، وأما في الدين فبالاقرار به في مرضة لاجل الافرار بالورثة أي أن يقتسم التركة بعد إخراج الدين والوصية كما مرّ وصية نصب على المصدر في موضع الحال والعامل، يوصيكم، صحّ وصيّة من الله والله عليم حليم أي أن ذها الحكم وغيره من الأحكام فرض عليكم من الله تعالى وأنما قلنا ذلك لما مرّ سابقاً أن الوصية من الله معناها الفرض والوجوب ثم أن المراد بالأخوة في المقام الأخوة من جانب الأم لأنهم يتساوون في الميراث وأما الأخوة من طرف الأب فلا وحيث قال في الآية فهم شركاء في الثلث، علمنا أن المراد الأخوة من طرف الأم فهم المرادون في الآية، ويدل على ذلك ما رواه في الكافي عن بكير بن أعين قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام امرأة تركت زوجها وأخوتها لأمها وأخوتها لأبيها فقال عليه السلام للزوج النصف ثلاثة أسهم وللأخوة والأخوات من الأم الثلث الذكر والأنثى فيه سواء وبقي سهم فهو للأخوة والأخوات من الأب للذكر مثل حظّ الأنثيين لأن السهام لا تعول ولا تنقص الزوج من النصف ولا الأخوة من الأم من ثلثهم لأن الله عزّ وجلّ يقول فأن كانوا أكثر فهم شركاء في الثلث وأن كانت واحدة فلها السدس والذي عني الله في قوله: وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أُنْمَا عَنِي بِذَلِكَ الأخوة والأخوات من الأم خاصة هذا تمام الكلام في تفسير الآية إجمالاً والتفصيل موكول إلى كتب الفقهية.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

قالوا، تلك بمعنى، هذه، أي هذه أحكام قد بينها لكم لتعرفوها وتعملوا بها ومن يطع الله ورسوله، في قسمة الموارث بل في جميع الأحكام ويعمل بها كما أمره الله تعالى: يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، جزاء بما

عمل و أطاق فَأَنَّ الْجَنَّةَ لِلْمُطِيعِ الْعَامِلِ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا فَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَ ذَلِكَ، أَيِ ذَلِكَ الْخُلُودِ فِيهَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا دُثُورَ.

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَتَجَاوَزْ وَيَخَالَفْ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، يُدْخِلُهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا أَيُّ أَنَّ اللَّهَ سَيَدْخِلُهُ النَّارَ لِعَصْيَانِهِ وَتَمَرُّدِهِ خَالِدًا فِيهَا بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا وَ لَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ أَيِ مضافاً إِلَى دُخُولِهِ النَّارِ لَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ فِيهَا أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ.

قالوا سَمَاءٌ مُهِينًا لِأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُهُ عَلَى وَجْهِ الْإِهَانَةِ كَمَا أَنَّهُ يَثِيبُ الْمُؤْمِنَ عَلَى وَجْهِ الْكِرَامَةِ، وَ قَدْ حَمَلَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ الْآيَةَ عَلَى مَنْ تَعَدَّى حُدُودَ اللَّهِ وَ عَصَاهُ مُسْتَحْلًا لِذَلِكَ وَ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا كَافِرًا وَ أَنَّمَا حَمَلَهَا عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ بَعْضِيَانَهُ لَا يَكُونُ مَخْلَدًا فِي النَّارِ، وَ لِقَائِلِي أَنْ يَقُولَ أَيُّ دَلِيلٍ مِنَ الْعَقْلِ أَوْ النَّقْلِ دَلٌّ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَكُونُ مَخْلَدًا فِي النَّارِ حَتَّى نَحْتَاجَ إِلَى حَمْلِ الْآيَةِ عَلَى خِلَافِ ظَاهِرِهَا مَعَ أَنَّا نَعْلَمُ عِلْمًا لَا شَكَّ لَنَا فِيهِ أَنَّ فِي الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ عَصْرِ وَ زَمَانٍ يَوْجَدُ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ ذَنْبًا مِنَ الْكُفَّارِ أَلَيْسَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مِلْجَمٍ وَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ وَ ابْنُ زِيَادٍ وَ مَعَاوِيَةُ وَ يَزِيدُ وَ شَمْرُ ذِي الْجَوْشَنِ وَ أَمْثَالُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ أَنَّهُمْ أَشَدُّ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَ هَكَذَا أَمْثَالُهُمْ نَعَمْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ أَنَّ عِلَّةَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ هِيَ الْكُفْرُ لَا غَيْرَهُ مِنَ الْمَعَاصِي فَالْمُسْلِمَ لَا يَكُونُ مَخْلَدًا فِيهَا وَ أَتَى لَهُ بِإِثْبَاتِ ذَلِكَ.

وَالَّذِينَ يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ
فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَأِنْ شَهِدُوا
فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ
أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا
مِنْكُمْ فَاذْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ
عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ
يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ
كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ
الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ آلَانَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ
وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)

◀ اللغة

وَالَّذِينَ: جمع التي وكذلك اللواتي.

الْفَاحِشَةُ: الفحش و الفحشاء و الفاحشة ما عظم قبحه من الافعال و
الاقوال و المراد بها في الآية الزنا و الباقي واضح.

◀ الاعراب

وَالَّذِينَ: موقعها الرفع بلا ابتداء أو يُجْعَلُ اللَّهُ أو عاطفة و التقدير او الى
ان يجعل الله لهن يجوز أن يتعلّق بيجعل و أن يكون حالاً من، سبيلاً، إِنَّمَا
التَّوْبَةُ مبتدأ وفي الخبر وجهان: أحدهما هو عَلَى اللَّهِ أي ثابتة على الله فعلى

هذا يكون لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ حَالاً مِنَ الضَّمِيرِ فِي الظَّرْفِ وَهُوَ قَوْلُهُ عَلَى اللَّهِ، وَالْعَالُ فِيهَا الظَّرْفُ أَوْ الْإِسْتِقْرَارُ.

وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي مَوْضِعِهِ وَجِهَانِ:

أحدهما: هو جَزْ عَطْفُهُ عَلَى الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَيْ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ، الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مَبْتَدَأً وَخَبَرَهُ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ وَاللَّامُ لَامُ الْإِبْتِدَاءِ وَلَيْسَتْ لِلنَّفْيِ.

◀ التفسير

بعد بيان حكم الميراث للرجال والنساء بينَ حكم الحدود في النساء فقال: **وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ** إِتَّفَقَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمَا فِي الْمَقَامِ الزَّانَاكَانَتِ بِحَسَبِ اللَّغَةِ أَعَمَّ مِنْهُنَّ نِسَاءُكُمْ أَيْ أَنَّ النِّسَاءَ اللَّاتِي يَزِينُ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ أَيْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْعُدُولِ وَالْخُطَابِ لِلْحَاكِمِ وَالْأُثْمَةُ فَإِنْ إِجْرَاءُ الْحُدُودِ يَحْتَاجُ إِلَى أَذْنِ الْحَاكِمِ الشَّرْعِيِّ فَلَا يَجُوزُ لغيرِ الْحَاكِمِ إِجْرَاءُ الْحَدِّ عَلَى الْمَشْهُورِ وَالْمَعْنَى أَطْلُبُوا أَرْبَعَةً مِنَ الشُّهُودِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدَمِ الْإِقْرَارِ وَقِيلَ أَنَّ الْخُطَابَ لِلزَّوْجِ فِي نِسَاءِهِمْ أَيْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَقْوَى وَنَقَلَ الرَّازِي عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِي أَنَّهُ قَالَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: **وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ** السَّحَاقَاتِ وَحَدُّهَا الْحَبْسُ إِلَى أَنْ تَمُوتَ وَهَذَا الْقَوْلُ مُخَالَفٌ لِإِجْمَاعِ الْمُفَسِّرِينَ إِذْ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ فَإِنْ شَهِدُوا أَيْ فَإِنْ شَهِدَ الشُّهُودُ عَلَى الزَّانَا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ أَيْ فَأَحْبِسُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ هَذِهِ أَوَّلُ عَقُوبَاتِ الزَّانَا وَكَانَ هَذَا فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَتَوَقَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا أَيْ حَتَّى يَدْرِكَهُنَّ الْمَوْتُ فَيَمْتَنَ فِي الْبُيُوتِ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا قَالُوا لِمَا نَزَلَ قَوْلُهُ: **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ** ^(١) قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: خَذُوا عَنِّي خَذُوا عَنِّي قَدْ

جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبَكَرَ بِالْبَكَرِ وَالثَّيْبَ بِالثَّيْبِ الْبَكَرَ تَجَلَدُ وَتَنْفَى وَالثَّيْبُ تَجَلَدُ وَتَرْجَمُ.

في الآية مسائل.

الأولى: هذه الآية منسوخة عند جمهور المفسرين.

وهو المروى عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله فقد روى العياشي في تفسيره عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن هذه الآية: وَاللَّاتِي يَأْتِينَ أَلْفَاحِشَةً مِنْ نِسَائِكُمْ إِلَى قَوْلِهِ: سَبِيلًا قَالَ عليه السلام: هذه منسوخة قلت كيف كانت قال عليه السلام كانت المرأة إذا فجرت فقام عليها أربعة شهود أدخلت بيتاً ولم تحدث ولم تكلم تجالس وأتيت بطعامها وشرابها حتى تموت قال أو يجعل الله لها سبيلاً، فقال عليه السلام جعل السبيل الجلد والرجم والإمسك في البيوت. وروى في أصول الكافي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام: في حديث طويل يقول فيه و سورة النور أنزلت بعد سورة النساء و تصديق ذلك أن الله عز وجل أنزل عليه في سورة النساء وَاللَّاتِي يَأْتِينَ أَلْفَاحِشَةً إِلَى قَوْلِهِ: سَبِيلًا والسبيل الذي قال عز وجل هو سورة أنزلناها وفرضناها إلى قوله و ليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، و في غوالي اللبالي قال النبي صلى الله عليه وآله خذوا عني جعل الله لها سبيلاً الْبَكَرَ بِالْبَكَرِ جلد مائة وتغريب عام و الثَّيْبَ بِالثَّيْبِ جلد مائة والرجم.

الثانية: قوله: يَأْتِينَ أَلْفَاحِشَةً أي يفعلنها وفي نسبه اليهن دلالة على أن المكروهة على الفعل لا يكون عليها هذا الحكم لأنها لم تفعل الفعل بإختيارها بل أكرهها غيرها عليه ويدل على رفع الحكم عنها حديث الرفع أيضاً وهو قوله صلى الله عليه وآله: رفع عن أمتي تسعة وعد منها ما استكرهوا عليه.

الثالثة: قوله: نِسَاءَكُمْ قيل المراد بهن المؤمنات وقيل الزوجات والأول أظهر وأوفق بعموم الآية لأن الحكم عام كما تقتضيه الروايات.

الرابعة: قوله: فَاسْتَشْهِدُوا والخطاب لحكام الشرع كما مر الكلام فيه صريحة الدلالة على أن شهود الزنا ينبغي أن تكون أربعة وفي قوله منكم، دلالة على أنه يشترط فيهم الإسلام والدكورة وأما سائر الشروط المعتمدة فيه فتعلم من دليل آخر.

الخامسة: مقتضى الآية أن الإمساك في البيوت عقوبة وحد لهن وهو الذي دلت عليه رواية أبي بصير المذكورة وقيل أن ذلك ليس على وجه الحد بل صيانة لهن ومحافظة عليهن من أن يفعلن مثل ذلك الفعل.

السادسة: في قوله: أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا دلالة على أن هذا الحكم من قبيل المعنى بغاية من أول الأمر فليس من الفسخ المصطلح المشروط فيه التأبید.

وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا

وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ قال الحسن وعطا المراد بقوله: وَالَّذَانِ الرَّجُل والمرأة، وقال السدي وابن زيد هما البكران من الرجال والنساء وقال مجاهد هما الرجلان الزانيان نقل هذه الأقوال في التبيان ثم قال مكي قال الرماني قول مجاهد.

لا يصح لأنه لو كان كذلك لم يكن للتثنية معنى لأنه أتما يجيء الوعد والوعيد بلفظ الجمع لأنه لكل واحد منهم أو بلفظ الواحد لدلالته على الجنس الذي يعم جميعهم فأما التثنية فلا فائدة فيها ثم قال الرماني والأول أظهر وقال أبو مسلم هما الرجلان يخلوان بالفاحشة بينها وروى عن النبي ﷺ قال قال السحاق زنا النساء بينهن ومباشرة الرجل للرجل الزنا ومباشرة المرأة للمرأة

زناء قال ولا يعرف فى كلام العرب جمع بين الذكر والانثى فى لفظ التذكير اذا تقدمه ما يدل عليه كقوله: **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ** ثم قال، أعد الله لهم، والى هذا التأويل فى معنى الرجلين ذهب أهل العراق فلا يحدون للوطي وهذا قول بعيد والذي عليه جمهور المفسرين أن الفاحشة فى الآية، الزناء فقول أبى مسلم ومجاهد لا سبيل اليه بقى فى المقام قولان:

أحدهما: أن المراد بقوله واللذان، الرجل والمرأة.

الثانى: أن المراد بهما البكران وهو قول السدى.

الأول: مردود لأن الرجل والمرأة اذا أتيا بالفاحشة أى الزناء ليس حكمهما فى جميع الموارد ما ذكره فى الآية وهو قوله: **فَأَذُوهُمَا اللَّهُمَّ** إلا أن يقال كان الحكم فيهما فى أول الأمر كذلك ثم نسخ، بقى فى المقام قول واحد وهو أن المراد بهما البكران ويؤيده ما ذكر فى آخر الرواية التى رواها العياشى عن أبى بصير عن أبى عبد الله عليه السلام قال قوله: **وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَلَا عِلَّاءَ لِنَعْنِي** البكر اذا أتت الفاحشة التى أنتتها هذه الثيب، فأذوهما، قال تحبس، فأن تابا وأصلحا فأن الله كان تواباً رحيماً.

قال صاحب آيات الأحكام بعد نقله ما نقلناه، مقتضى هذه الرواية أن أية الأولى: **وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فِي الثَّيْبِ** من النساء وهذه الآية، فى البكر منهن وأن حكمها معاً الحبس وفيه إشكال لأنه عبر تعالى بصيغة تثنية المذكر فلا يناسب هذا التفسير مع أنه عبر هناك بالحبس فى البيوت وهنا بالإيذاء ثم قال ويمكن التوجيه بأن يقال المراد بقوله عليه السلام **عَنْ** يعنى البكر، الجنس الشامل للذكر، والأنثى أى الزانى والزانية كما قاله جمع من المفسرين ويكون إتيان الصيغة بصورة المذكر من باب التغليب فتكون الآية الأولى لبيان حكم الثيبين وأنه حبس مؤبد فى بيت كما وصف وهذه الآية لبيان حكم البكرين وأنه حبس غير مقيد بكونه على الوجه المذكور فى الآية الأولى ولا يخفى ما فيه من التكليف وعلى كل حال هي منسوخة ثم قال، و

قال علي بن إبراهيم في تفسيره كان في الجاهلية اذازنى الرجل والمرأة تحبس في بيت الى أن تموت ثم نسخ ذلك بقوله: **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي** انتهى.

ما أردنا نقله من آيات الأحكام وقال بعضهم أن المراد بالآيتين شيء واحد و أن هذه الآية كانت سابقة على الأولى نزولاً وكانت عقوبة الزنا، الإيذاء ثم نسخ بالحبس ثم نسخ بالجلد والرجم وإستقر الحكم على ذلك، وقال الآخرون أن الآية الأولى لبيان حكم السحق والثانية لبيان حكم اللواط وأن حكمها باق غير منسوخ والى هذا التأويل ذهب أهل العراق فهذه هي الأقوال المنقولة عنهم في الآية.

أقول ومن المحتمل أن تكون الآية الأولى لبيان حكم الزنا بالنساء بعد الشهادة والثانية أيضاً لبيان حكم الزنا قبل الشهادة وبعبارة أخرى كان الحكم في الصدر الأول قبل النسخ حبس الزانية في البيت بعد شهادة الشهود وأما قبلها فكان الحكم الإيذاء لعدم ثبوت الزنا شرعاً وكيف كان فالآيتان منسوختان بإجماع المفسرين و عليه فتطويل الكلام فيهما لا طائل تحته.

و أما قوله: **فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا** معناه أن رجعا عن الفاحشة بالتوبة وأصلحا العمل فيما بعده، فأعرضوا عنهما، أي أعرضوا عن أذاهما وأصفحوا عنهما، أن الله كان تواباً رحيماً، أي أنه تعالى يقبل التوبة عن عباده ويرحمهم، قالوا في الآية دلالة على نسخ القرآن بالسنة لأنها نسخت بالجلد والرجم وقد ثبت بالسنة وأما من لم يجوز نسخ القرآن بالسنة يقول أن هذه الآية نسخت بالجلد في الزنا وأضيف الرجم اليه زيادة لا نسخاً وأما الأذى المذكور في الآية منسوخ لأن الجلد والرجم من الإيذاء ثم بعد ما أشار الله تعالى في آخر الآية الى التوبة بقوله: **إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً** فصل الكلام فيها وبين شرائطها فقال:

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

إِعلم أنَّ التَّوبَةَ بفتح التَّاء مصدر قولك تاب يتوب و تَوْبَةً ومعناها الرَّجُوع يقال تاب اذا رجع عَمَّا كان عليه و أَمَّا في الشَّرِيعَةِ المقدَّسة فهي ترك الذَّنْب و الرَّجُوع الى الطَّاعَةِ قال الرَّاعِب في المفردات التَّوب ترك الذَّنْب على أَجْمَل الوجوه و هو أبلغ وجوه الإعتذار فَأَنَّ الإعتذار على ثلاثة أوجه:

أَمَّا أن يقول المعتذر لم أفعل، أو يقول فعلت لأجل كذا أو فعلت وأساءت و قد أفلعت و لا رابع لذلك و هذا الأخير هو التَّوبَة و التَّوبَة في الشَّرْع ترك الذَّنْب لقبحه والذَّم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعادة و تدارك ما امكنه يتدارك من الاعمال بالاعادة فان اجتمعت هذه الاربعة فقد كمل شرائط التَّوبَة انتهى كلامه.

و عن امير المؤمنين التَّوبَة تجمعها ستَّة اشياء على الماضي الذَّنْب الندامة و للفرائض بالاعادة فقول إجتمعت و للفرائض الإعادة، و ردَّ المظالم، و إستحلال الخصوم، و أن تعزم أن لا تعود، و أن تربي نفسك في طاعة الله كما ربَّيتها في معصية الله، و أن تذكَّرها مرارات الطَّاعَةِ كما أدقَّتْها حلالة المعصية، اذا عرفت حقيقة التَّوبَة و شرائطها إجمالاً فنقول قوله: **إِنَّمَا التَّوبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ** كلمة، أنما، تفيد الحصر أي أنَّ التَّوبَة لا تكون بغير ذلك و اختلفوا، في معنى الجهالة في الآية، نُقل عن مجاهد و قتادة و ابن عباس و عطا و ابن زيد أنَّهم قالوا هو أن يفعلوها على جهة المعصية لله تعالى لأنَّ كُلَّ معصية لها جهالة لأنَّه يدعو اليها الجهل و يزيئها للعبد و أن كانت عمداً.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

الثاني: أنَّ المعنى أي بحال كحال الجهالة التي لا يعلم صاحبها ما عليه في مثلها من المضرة.

الثالث: قال الفراء معنى، بجهالة أي لا يعلمون ما فيه من العقوبة.

الرابع: أي وهم يجهلون أنَّها ذنوب و معاصي إختاره الجبائي قال يفعلونها بجهالة أَمَّا بتأويل يخطئون فيه أو بأن يفرطوا في الإستدلال على قبحها.

قال الزماني، هذا ضعيف لأنه خلاف إجماع المفسرين قال أبو العالية أن أصحاب رسول الله كانوا يقولون، كل ذنب أصابه عبد فجهالة وقال قتادة أجمع أصحاب رسول الله على ذلك انتهى ما ذكره الشيخ في التبيان.

وقال القرطبي، السوء في هذه الآية وفي سورة الأنعام، أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة، يعلم الكفر والمعاصي فكل من عصي ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصية.

وروي عن الضحاك ومجاهد أنهما قالوا الجهالة هنا العمد وقال عكرمة أمور الدنيا كلها جهالة وقال الزجاج إختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية وغير ذلك من الأقوال المذكورة في تفاسيرهم.

أقول المسألة أوضح من أن تخفى على أحد من العقلاء فلا نحتاج في تفسير الجهل الى هذه الأقوال الخارجة عن موضوع البحث وذلك لأن الجهل ضد العلم فكل فعل يفعله الفاعل لا يخلو حاله من أمور:

أحدها: أنه يعلم ما يفعل موضوعاً وحكماً كما اذا تصرف في مال الغير بدون إذن صاحبه وهو عالم بكونه موضوعاً للغضب المحرم في الشريعة فله علمان علم بكونه غصباً وهو العلم بالموضوع وعلم بكونه حراماً وهو العلم بالحكم فهو عالم بالغضب موضوعاً وحكماً.

ثانيها: أنه لا يعلم ما يفعل لا موضوعاً ولا حكماً كما اذا لم يعلم أنه غصب ثم لم يعلم أنه حرام فهو جاهل بالغضب موضوعاً وحكماً.

ثالثها: أنه عالم بالموضوع وجاهل بالحكم أي أنه يعلم أن هذا من مصاديق الغضب ولكن لا يعلم حرمة في الشريعة المقدسة.

رابعها: عكس الثالث أي أنه يعلم بحرمة الغضب ولا يعلم أنه من مصاديق الغضب فهذه أمور أربعة لا يخلو كل فعل منها في صورة العلم والجهل لأن العلم مقابل للجهل فاذا جاء التقسيم في الجهل جاء في العلم أيضاً وبالعكس اذا عرفت هذا فنقول اذا عصي المكلف فإن كان جاهلاً بالموضوع

والحكم معاً فلا شيء عليه وكذلك اذا كان جاهلاً بالموضوع فقط و أما اذا كان جاهلاً بالحكم عالماً بالموضوع فأن قصر في العلم بالحكم فهو في حكم العاقد و إلا فلا و أما اذا كان عالماً بهما فال عذر له قطعاً، فقوله تعالى: **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ** معناه يعصون الله بجهالة سواء كان الجهل بالموضوع فقط أو به وبالحكم معاً أو بالحكم فقط دون الموضوع بشرط عدم التقصير في العلم به فلو كان عالماً بهما أو كان عالماً بالموضوع و قصر في العلم بالحكم فهو غير معذور و عليه فالمراد بالجهالة معانها المتعارف و مفهوم الآية أن العامل بالسوء عن علم لا توبة له لأن الله تعالى قال: **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى** وجه الحصر المستفاد من كلمة، أنما، أي أن التوبة منحصرة بالجاهل و مفهوم هذا الكلام هو عدمها في حق العالم و هو مشكل جداً.

و يظهر من كلمات بعض المحققين أن العالم الذي لا يقبل توبته بمفهوم الآية أنما هو العالم المعاند اللجوج لا مطلق العالم و هو الذي يؤخر التوبة حتى الموت و أما غيره فلا يكون كذلك و توضيحه إجمالاً أن العالم على قسمين معاند و غير معاند والأول يؤخر التوبة الى وقت الموت والثاني لا يؤخرها و مفهوم الآية ناظر الى المعاند بدليل قوله تعالى بعد هذه الآية.

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ إِنِّي تُبْتُ آلَانَ و سيحيي الكلام فيها و من المعلوم أن القرآن تفسيره بعضه بعضاً فكانت الآية التالية لهذه الآية و الدليل على ما ذكرناه قوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** فبقوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** أي يتوبون حضور الموت فأولئك، الذين يتوبون من قريب أي قبل حضور الموت، يتوب الله عليهم، أي يقبل توبتهم لأنها وقعت في محلها، وكان الله عليمًا، بالعباد و بأفعالهم وأقوالهم و نياتهم،

حكيماً، بمواضع الأمور وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ آلَانَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا أَيَّ أَنْ التَّوْبَةَ لَا تَقْبَلُ مِنْ صَنَفَيْنِ:

أحدهما: من عمل السُّوء وكان مريماً عليه حتى إذا حضره الموت فتأب حين موته.

ثانيهما: من مات على الكفر ثم ندم بعد الموت هكذا قيل في تفسير الكلام وهو بعيد لأنَّ الندامة بعد الموت لا تفيد وهذا غير محتاج الى الذكر والحق أن يقال معناه ولا الذين يموتون على كفرهم ويتوبون حين الموت كما فعله فرعون وبعبارة أخرى التوبة حين حضور الموت لا تقبل سواء كانت من مسلم أم من كافر إذا كان المسلم عالماً عنوداً وأما إذا كان جاهلاً فتقبل قبل الموت كما وردت به الأخبار وأما قوله: **أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** فالمُشار اليهم بقوله: **أُولَئِكَ الْكُفَّارُ**، الذين يموتون على كفرهم ويمكن أن يكون المراد الكُفَّار وغيرهم من المعاندين الذين لا تقبل توبتهم إذا حضرهم الموت هذا تمام الكلام في تفسير الآية ولنختم الكلام بذكر ما قاله بعض العرفاء في الباب:

قال، التوبة لا تصح إلا بعد معرفة الذنب، وذلك لأنَّ التوبة هي الرجوع عن مخالفة حكم الحق الى موافقته فما لم يعرف المكلف حقيقة الذنب وكون الفعل الصادر عنه مخالفاً لحكم الحق لم يصح له الرجوع عنه و شرائط التوبة ثلاثة أشياء:

أحدها: الندم.

ثانيها: الإعتذار.

ثالثها: الإقلاع.

فالندم بالقلب، والإعتذار باللسان بكثرة الإستغفار، والإقلاع بالجوارح الكف عن الذنب حتى ينخرط في سلك الرجوع عنه بالكلية وإلا لم تصح توبته. قال بعضهم أن التوبة على ثلاثة أقسام:

توبة العامة وتوبة الخاصة، وتوبة الأوساط.

فالتوبة العامة لاستكثار الطاعة فأنها تدعو الى ثلاثة أشياء، الى جحود نعمة السر والإهمال ورؤية الحق على الله، والإستغناء الذي هو عين الجبروت و التوثب على الله.

أما توبة الخاصة من تضييع الوقت فأنه يدعو الى درك النقيصة و يطفئ نور المراقبة و يكدّر عين الصّحة و توبة الأوساط من إستقلال المعصية و هو عين الجراءة و المبارزة و محض التدّين بالحمية، و الإسترسال للقطيعة و حيث إنجرّ البحث الى التوبة فلا بأس بذكر بعض ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في الباب قال عليه السلام:

إِنَّ اللَّهَ يَنْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ يَنْقُصُ الثَّمَرَاتِ وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ
وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ لِيَتَوَبَّ تَائِبٌ وَيُقْلَعَ مُقْلَعٌ وَيَتَذَكَّرُ مُتَذَكِّرٌ وَيَزْدَجِرُ مُزْدَجِرٌ
وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةً الْخَلْقِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ:
(اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ
وَبَيِّنٍ) فَرَجِمَ اللَّهُ أَمْرًا اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ. ^(١)

و قال عليه السلام:

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَذْبَرَتْ وَأَذْنَتْ بِوَدَاعٍ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَأَشْرَفَتْ
بِاطْلَاعٍ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ، وَغَدَا السَّبَاقُ، وَالسَّبْقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ، أَفَلَا
تَأْتُبُ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ، أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ، ^(٢) الخ...

و قال عليه السلام:

فَبَادِرُوا الْمَعَادَ سَابِقُوا الْأَجَالَ. فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطَعَ بِهِمْ الْأَمَلُ وَيَزْهَقَهُمْ
الْأَجَلُ وَيَسُدُّ عَنْهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةُ مَنْ
كَانَ قَبْلَكُمْ ^(٣) الخ.

وقال عليه السلام:

قَبْلَ أَنْ يَحْمَدَ الْعَمَلُ وَيَنْقَطِعَ الْمَهْلُ وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ ^(١) الخ.

وقال عليه السلام في قصار الحكم:

ولا خير في الدنيا إلا لِرَجُلَيْنِ رَجُلٍ أَذْنَبَ ذُنُوبًا فَهُوَ يَتَذَكَّرُهَا بِالتَّوْبَةِ وَرَجُلٍ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ ^(٢)...

وقال عليه السلام:

وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولُ ^(٣)...

وقال عليه السلام:

لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَزْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ الْعَمَلِ وَيُرْجَى التَّوْبَةَ. بِطُولِ الْأَمَلِ... ^(٤) وأمثال هذه المواعظ في نهج البلاغة كثيرة جداً.

وأما الأخبار الواردة في الباب من طريق العامة والخاصة فهي أيضاً كثيرة لا يخفى على أحد حسن التوبة وأنها من أعظم النعم على العباد اللهم وفقنا لها قبل حضور الأجل بحق محمد وآله الطاهرين ونقول اللهم إنا نتوب اليك من قبائح أفعالنا فتب علينا أنك أنت التواب الرحيم.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا
النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا
اتَّيْمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَ
عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى
أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا
(١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَ
اتَّيْمْتُمْ إِخْدِيَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا
أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ
تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ
وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَلَا تَنْكِحُوا مَا
نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ
أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَ
خَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَ
أُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ
الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرِيَاءُيَكُمُ اللَّاتِي
فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ
فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَ
حَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ
تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد الرابع

◀ اللّٰغَةُ

وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ: العضل المنع أي لا تمنعهن من التزّوج.
 آسْتَبْدَلْ: مصدر من إستبدل وهو جُعِلَ شَيْءٌ مكانَ آخر وهو أَعْمَ من
 العوض فأنَّ العوض هو أن يصير لك الثَّانِي بِإِعْطَاءِ الْأَوَّلِ، والتبديل قد يقال
 للتغيير محله وأن لم يأت ببدله.

قِنْطَارًا: القِنْطَار بكسر القاف قيل في معناه هو ألف ومائتا أَوْقِيَّة، وقيل
 أربعون أَوْقِيَّة وقيل مائة وعشرون رطلاً وهكذا قال الرَّاعِب هو غير محدود و
 القدر في نفسه وإنَّما هو بحسب الإضافة كالغنى ولذلك إختلفوا فيه.

بُهْتَانًا: هو من البُهْت يُقال بِهِتْ بُهْتًا وَبُهْتَانًا أي قال عليه ما لم يفعله
 إِنْثَامًا: الإثم بكسر الألف والإِثَام إسم للأفعال المبطنة عن الثَّوَاب وجمع
 الإِثْم آثَام

وَمَقْتًا: المَقْت بفتح الميم و سكون القاف البُغْض الشَّدِيد وكان سُمِّيَ
 تَزْوَج الرَّجُلِ إمْرَأَةً أَبِيهِ نِكَاحَ الْمَقْتِ.

◀ الإِعْرَابُ

أَنْ تَرِثُوا فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، فاعِل، يَحِلُّ وَالنِّسَاءَ فِيهِ وَجْهَانِ:
 أحدهما: هو المفعول الأول والنِّسَاءَ عَلَى هَذَا هُنَّ الْمَوْرُوثَاتِ.
 الثَّانِي: أَنَّهُ الْمَفْعُولُ الثَّانِي وَالتَّقْدِيرُ أَنْ تَرِثُوا مِنَ النِّسَاءِ الْمَالَ.

كَرَّهًا مصدر في موضع الحال من المفعول وفيه الضمّ والفتح وَلَا
 تَعْضُلُوهُنَّ منصوب عطفاً على، تَرِثُوا أي وَلَا أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ، وقيل هو جزم
 بالنهي فهو مستأنف لِتَذْهَبُوا اللَّامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِتَعْضُلُوهُنَّ وفي الكلام حذف تقديره و
 لَا تَعْضُلُوهُنَّ مِنَ النِّكَاحِ أَوْ مِنَ الطَّلَاقِ مَا لَيْسَ مُؤَهَّنٌ الْعَائِدَ عَلَى، ما، محذوف
 تقديره ما آتِيَمُوهُنَّ إِيَّاهُ وهو المفعول الثاني إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ فِي

موضع نصب على الإستثناء المنقطع وقيل في موضع الحال تقديره إلا في حال إتيانهن الفاحشة وقول ثالث هو إستثناء متصل تقديره ولا تعضلوهن في حال إلا في حال إتيان الفاحشة مُبَيَّنَةٌ صفة لفاحشة بِالْمَعْرُوفِ مفعول أو حال أَنْ تَكْرَهُوا فاعل عسى خبر لها هاهنا لأن المصدر إذا تقدّم صارت، عسى، بمعنى قرب فاستغنت عن تقدير المفعول المسمى خبراً وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ ظرف للإستبدال وفي قوله وَآتَيْتُمْ إِحْدِيَهُنَّ قِطْعًا إِنْشَاءً:

أحدهما: أنه جمع الضمير والمتقدّم زوجان.

الثاني: أن التي يريد أن يستبدل بها هي التي تكون قد أعطاهها مالا فينهاه عن أخذه فأما التي يريد أن يستحدثها فلم يكن أعطاهها شيئا حتى عن أخذه و قد أجابوا عن الأول بأن المراد بالزوج الجمع لأن الخطاب لجماعة الرجال و عن الثاني بأنه وضع الظاهر موضع المضمّر وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ كَيْفَ، في موضع نصب على الحال و التقدير تأخذونه جائرين قد أَقْضَى في موضع الحال أيضاً وَأَخَذْنَ أَي و قد أخذن لأنها حال معطوفة مِنْكُمْ متعلق، بأخذن أو حالا من ميثاق مِنَ النِّسَاءِ في موضع الحال من، ما، أو من العائد عليها إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ فِي، ما، وجهان:

أحدهما: هي بمعنى من.

الثاني: هي مصدرية و الإستثناء منقطع إِنَّهُ الهاء ضمير النكاح وَمَقَاتِلَ الكلام ثم يستانف و سَاءَ سَبِيلًا أَي وساء هذا السبيل أَمْهَاتِكُمْ الهاء زائدة بَنَاتِكُمْ لام الكلمة محذوفة مِنَ الرِّضَاعَةِ في موضع الحال من أخواتكم وَأَنْ تَجْمَعُوا في موضع رفع عطفاً على أَمْهَاتِكُمْ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إستثناء منقطع في موضع نصب.

﴿التفسير﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ إِنْ خَلَفُوا فِي سَبَبِ نَزُولِهَا مِنْهُمْ مَنْ قَالَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقُّ بِأَمْرِهِ أَنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزْوُجَهَا وَأَنْ شَاءَ وَازْوُجُوهَا وَأَنْ شَاءَ وَالْمِيزَاجُوهَا فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا وَنَفْسُهَا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَقِيلَ كَانَ مَنْ عَادَتْهُمْ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ يَلْقَى ابْنَهُ مِنْ غَيْرِهَا أَوْ أَقْرَبَ عَصْبَةٍ ثَوْبَهُ عَلَى الْمَرْأَةِ فَيَصِيرُ أَحَقُّ بِهَا مِنْ نَفْسِهَا وَمِنْ أَوْلِيَاؤِهَا فَإِنْ شَاءَ تَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ صَدَاقٍ إِلَّا الصَّدَاقَ الَّذِي أَصْدَقَهَا الْمَيِّتَ وَأَنْ شَاءَ زَوْجَهَا مِنْ غَيْرِهِ وَأَخَذَ صَدَاقَهَا وَلَمْ يُعْطِهَا شَيْئاً شَاءَ عَضْلُهَا لِتَقْتَدِيَ مِنْهُ بِمَا وَرِثَتْهُ مِنَ الْمَيِّتِ أَوْ تَمُوتَ فَيَرِثَهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ.

وَقِيلَ كَانَ الْمَوَارِثُ أَنْ سَبَقَ فَأَلْقَى عَلَيْهَا ثَوْباً فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا وَأَنْ سَبَقَتْهُ فَذَهَبَتْ إِلَى أَهْلِهَا كَانَتْ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا، وَقِيلَ كَانَ يَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ عَجُوزٌ وَنَفْسُهُ تَتَوَقَّعُ إِلَى الشَّابَّةِ فَيَكْرَهُ فِرَاقَ الْعَجُوزِ لِمَالِهَا فَيُمْسِكُهَا وَلَا يَقْرِبُهَا حَتَّى تَقْتَدِيَ مِنْهُ بِمَالِهَا أَوْ تَمُوتَ فَيَرِثُ مَالَهَا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَأَمْرُ الزَّوْجِ أَنْ يَطْلُقَهَا أَنْ كَرِهَ صَحْبَتَهَا وَلَا يُمْسِكُهَا كَرِهَ ذِكْرَ هَذِهِ الْوُجُوهِ الْقُرْطُبِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ وَلَنَرْجِعَ إِلَى تَفْسِيرِ الْآيَةِ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهَ أَيُّ لَا تَجْعَلُوا النِّسَاءَ كَالْمَالِ يورِثُ عَنْ الرِّجَالِ يورِثُ الْمَالُ فَالْخُطَابُ لِلأَوْلِيَاءِ وَقِيلَ الْخُطَابُ لِأَزْوَاجِ النِّسَاءِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُحْسِبُونَ النِّسَاءَ فِي الْبُيُوتِ مَعَ سُوءِ الْعَشْرَةِ طِمَاعِيَّةً ارْتِهَاءً وَيَقْتَدِينَ بِبَعْضِ مَهْوَرَهْنَ، وَقَالَ الطَّبْرَسِيُّ، لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ أَيُّ نِكَاحِ النِّسَاءِ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا أُتِيَتْهُنَّ أَيُّ لَا تَمْنَعُوهُنَّ عَنِ النِّكَاحِ أَوْ لَا تَحْبِسُوهُنَّ وَإِخْتَلَفُوا فِي الْمَخَاطَبِ بِهَذَا النَّهْيِ عَلَى أَقْوَالٍ:

أحدها: أَنَّ الْمَخَاطَبَ بِهِ جَمِيعُ الرِّجَالِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الرِّجُلَ كَانَ يُكْرَهُ زَوْجَتُهُ وَيُرِيدُ مَفَارَقَتَهَا فَكَانَ يَسِيءُ الْعَشْرَةَ مَعَهَا وَيَضِيقُ عَلَيْهَا حَتَّى تَقْتَدِيَ مِنْهُ نَفْسَهَا بِمَهْرِهَا وَهَذَا الْقَوْلُ إِخْتَارَهُ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ فَكَأَنَّهُ

قَالَ تَعَالَى لَا يَحِلُّ لَكُمْ التَّزْوِجُ بِهِنَّ بِالْإِكْرَاهِ كَمَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ بَعْدَ التَّزْوِجِ بِهِنَّ الْعِضْلُ، وَالْحَبْسُ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا أُتَيْتُمُوهُنَّ.

ثانيها: الخطاب للوارث بأن يترك منعها من التزويج بمن شاءت وأرادت كما كان يفعلها أهل الجاهلية فأنهم كان يحبسون امرأة الميت وعرضهم أن تبذل المرأة ما أخذت من ميراث الميت أو من الصداق.

ثالثها: الخطاب للأولياء وأنه تعالى نهاهم عن عضل المرأة من التزويج بمن شاءت.

رابعها: الخطاب للأزواج فأنهم كانوا يطلقون المرأة ومع ذلك كانوا يعضلونهن عن التزويج ويسيئون الأمر عليهن لغرض أن يأخذوا منهن شيئاً و الحق أن النهي عام والخطاب للكل وذلك لأن بعض المسلمين في زماننا هذا أيضاً يفعلون ذلك فيضيقون على المرأة في المعاشرة وحتى في الغذاء واللباس وأمثال ذلك بل لا يقنعون بذلك فيضربوهن ويشتموهن ويظلموهن بأنواع الظلم كل ذلك لأجل أن المرأة تفتدي منه نفسها بمهرها بل وبأكثر من مهرها.

وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا أُتَيْتُمُوهُنَّ عَامٌّ يَشْمَلُ الْكُلَّ الْمَطْلُوبُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ قِيلَ الْمَرَادُ بِهَا الشُّوْزُ وَشَكَاةُ الْخَلْقِ وَإِيْذَاءُ الزَّوْجِ وَأَهْلِهِ وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ سُوءُ الْعِشْرَةِ مِنْ جِهَتَيْنِ فَقَدْ عَذَرْتُمْ فِي طَلَبِ الْخَلْعِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، إِلَّا أَنْ يَفْحَشْنَ عَلَيْكُمْ.

وقيل المراد بها الزنا وفي قوله مبينة إشعار بأن الزنا لا بد من أن يبين بسبب الإقرار أو شهادة الشهود وأما صرف التهمة فهو لا يكفي وعليه فالمستثنى منه هو أخذ الأموال أي لا يجوز أخذ المال منهن إلا في هذه الصورة.

وقيل المستثنى منه هو الحبس والإمساك في قوله: فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ

أي لا تحبسوهن إلا في هذه الصورة وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وهو النصف في المبيت و النفقة و حسن السيرة والعشرة.

فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعل الله فيه خيراً كثيراً
أي فأن كرهتم معاشرتهن و مصاحبتهن فعسى أن يكون في هذه الكراهة
خيراً كثيراً أما لكم و أما للمرأة و أما لكما جميعاً.
أما الأول: فلأن الصبر على هذه المصيبة يؤجب لكم الأجر في الآخرة
هذا أولاً.

ثانياً: أن المؤمن في دار الدنيا لابد له من الإبتلاء فأن الدنيا دارٌ بالبلاء
محفوفة، والله تعالى بحكمته إبتلاه بهذه البلية ولعلها أسهل من غيرها وهو لا
يعلم أنه لو خرج منها دخل في بلية أشد و أعظم مما كان فيه و عليه ففي البقاء
على هذه الحالة له خيرٌ كثير.

أما الثاني: وهو رجوع الخير الى المرأة فلعلها لو تخلصت من هذا الزوج
وجدت زوجاً خيراً منه و هي أيضاً لا تعلم به.

أما الثالث: فلأن المتاركة بينهما ربما تكون مصلحة لهما في الدنيا والآخرة
بأن يجد الزوج زوجة خيراً منها و هي أيضاً تجد زوجاً خيراً منه وإذا كان
كذلك فقد ظهر حسن كلامه تعالى حيث قال: فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا الْخ
والسر فيه أن المصالح و المفساد لا يعلمها إلا الله فحري بالعبد تفويض أمره
الى الله في جميع الأمور:

قال الله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَ
أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^(١).

ففي هذه الآية دلالة صريحة على أن العبد لا يعلم المصالح و المفسدات المترتبة على الفعل:

قال الله تعالى: وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنْ أَلْعَلْمِ إِلَّا قَلِيلًا^(١).

و أيضاً دلالة على أن الأوامر والنواهي في الشريعة تابعة للمصالح والمفاسد الواقعية فلا يؤمر العبد إلا بما فيه مصلحة كما لا ينهى إلا عما فيه مضرة ومفسدة ولذلك يجب على العبد تسليم أمره اليه تعالى في جميع الموارد تتحقق العبودية إلا به قوله تعالى:

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَ أُنْتِيْتُمْ إِخْدِيَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا

أي أن أردتم تخلية المرأة سواء إستبدل مكانها أولم يستبدل، و أنتم أحدهن قنطاراً أي مالاً كثيراً من المهر، فلا تأخذوا منه، أي من الزوج شيئاً، بدون رضاها، روي أن الرجل منهم اذا أراد أن تتزوج بامرأة اخرى رمى زوجته بالفاحشة حتى يلجئها الى الاقتداء بما اقطاعها من الصداق فنهى الله تعالى عن ذلك وفي الآية دلالة على مغالاة في المهر روي ان عمر قال النبي الا لاتغالوا في فهور نسائكم فقامت امرأة وقالت يابن الخطاب الله يعطينا و أنت تمنع وتلت هذه الآية فقال عمر كل الناس أفقه من عمر حتى المخدرات ورجع عن كراهة المغالاة.

قال الرازي بعد نقله ما نقلناه عنه، وعندني أن الآية لا دلالة فيها على جواز المغالاة لأن قوله: وَ أُنْتِيْتُمْ إِخْدِيَهُنَّ قِنْطَارًا لا يدل على جواز إيتاء القنطار كما أن قوله: لَوْ كَانَ فِيْهِنَّ إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَنَسْتَدْتَا^(٢) لا يدل على حصول الألهة و الحاصل أنه لا يلزم من جعل الشيء شرطاً لشيء آخر كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع الى آخر كلامه.

في آيات القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

أقول: العجب من الرّازي و هو من رجال العلم و الفلسفة بإدعاءه كيف قال بهذه المقالة و لم يعلم الفرق بين الشرط اذا كان محالاً ممتنعاً في نفسه وبينه اذا كان جائزاً ممكن الوقوع ففي الصورة الأولى يكون المشروط أيضاً محالاً لتعليقه على الشرط المحال و ما علق على المحال محال و أما في الصورة الثانية فلا يكون تحقق المشروط محالاً لتعليقه على الممكن الجائز و ما علق على الممكن ممكن ألا ترى أنك اذا قلت إن طرث إلى السماء لا تقتل أو لا تحبس مثلاً علقت عدم القتل والحبس على الطيران الذي هو محال له في حد نفسه لعدم إمكان الطيران إلى السماء لغير الطير فالمعنى يرجع إلى أنك تقتل أو تحبس لا محالة.

و أما اذا قلت أن خرجت من بيتك تقتل فقد علقت المشروط و هو القتل على الخروج و هو أمر ممكن في حد نفسه أي أن الخروج وعدم الخروج على حد سواء بالنسبة إليك فلك أن تخرج ولك أن لا تخرج وهذا هو معنى الممكن فإن معناه أن وجود لاشئ وعدمه بالنسبة إلى ذاته على سواء اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى: **وَ أَتَيْتُمُ إِحْدِيهِنَّ قِنطَارًا شرط وقوله: فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا مشروط و أنما قلنا، وَ أَتَيْتُمُ إِحْدِيهِنَّ قِنطَارًا شرط لأنه عطف على أن أردتم أي و أن أردتم إستبدال زوج مكان زوج و أن أتيتم أحدهن قنطاراً الخ أو نقول أن الجملة واحدة وكيف كانت فلا شك في وجود الشرط و المشروط ثم أن الشرط و هو إيتاء القنطار أي المال الكثير بالنسبة إلى البازل في المهر و صداق المرأة أمر ممكن في حد نفسه لا إستحالة فيه و إذا كان الشرط ممكناً، فالمشروط أيضاً ممكن لما بيناه، وهذا بخلاف قوله تعالى: **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**^(١) لأن وجود الآلهة في حد ذاته أمر مستحيل كما ثبت في محله فالمشروط و هو الفساد مترتب عليه بقياس الآية على ما نحن فيه قياس مع الفارق و أن شئت قلت هو نوع من المغالطة كما هو دأب**

إمام المشككين فثبت أن قوله تعالى: **وَ اتَّيْتُمْ إِحْدِيهِنَّ قِنطَارًا** يدل على جواز إتيانه والدليل عليه وقوعه في الشريعة المقدسة وعدم منع الشرع منه و بذلك قد ظهر لك أن قوله والحاصل أنه لا يلزم من جعل الشيء شرطاً لشيء آخر كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع، كلام لا طائل تحته وذلك لأننا لا نقول كل شرط فهو جائز الوقوع بل نقول أن هذا الشرط جائز الوقوع وأن كان بعض الشروط لا يجوز وقوعها وقد قلنا أن الشرط على قسمين محال وممكن، وما نحن فيه من الثاني وأما قوله وقد يقول الرجل لو كان الإله جسمًا لكان محدثًا و هذا حق ولا يلزم منه أن قولنا الإله جسم حق، فقد ظهر لك بطلانه أيضاً لأن الشرط في هذا الكلام وهو الجسمية محال ممتنع بالأدلة العقلية وما ثبت إقتناعه لا يوجد أبداً ولا كلام لنا فيه وأمثاله من الشروط الممتنعة كثيرة إلا أن ما نحن فيه ليس منها وهو المطلوب.

أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا والهمزة للإسْتِفْهَام الإنكاري أي لا تأخذوه كذلك فإنه إثم مبين أي ذنب ومعصية ظاهرة لا خفاء فيها لأنه من التصرف في مال الغير بدون رضی صاحبه فهو من مصاديق الغصب واقعاً وأن كان في الظاهر برضاه وذلك لأن رضی المكره كعدمه فأن الإكراه والإضطراب والنسيان وأمثالها كلها من مصاديق حديث الرفع المشهور بين العامة والخاصة و قوله ﷺ رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي تِسْعَةٌ أَيْ أَثَارَهَا وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا.

قيل أصل أفضى من الفضاء الذي هو السعة يقال فضى يفضوا فضوا و فضاء إذا اتسع وقيل معنى وصل يقال أفضى فلان إلى فلان أي وصل إليه و أصله أنه صار في فرجته وفضاءه ثم أنهم اختلفوا في معنى الإفضاء في الآية، فقيل أنه كناية عن الجماع وهو قول ابن عباس ومجاهد والسدي وأمثالهم.

وقيل الإفضاء أن يخلو بها وأن لم يُجامعها وتُقل عن الكلبي، أن الإفضاء أن يكون معها في لحاف واحد جامعها أو لم يُجامعها قال بعض المحققين **إعلم** أن النكاح بالنسبة إلى المهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يخلو عن ذكر المهر بالكلية وتسمى مفوضة البضع.

الثاني: أن يذكر إجمالاً كأن يفوض الحكم إلى أحد الزوجين وتسمى مفوضة المهر.

الثالث: أن يذكر المهر قل أو أكثر وهو الأكثر وعلى التقادير فأما أن يفارقها بطلاق أو نحوه من الأسباب قبل الدخول، أو بعده قال اقام تصير سبته و سياى الكلام فيها والمراد بالاستبدال فى المقام العقد على زوجه بعد مفارقة الاخرى بالطلاق والمراد أنه لا يجوز له ان تاخذ ممام عطاها شيئاً وان قل اذا اراد طلاقها الأ برضاها وقيدة بالاستبدال جرياً على الغالب فهانها فوائد لا باس بالإشارة إليها تكميلاً للبحث.

الأولى: فى ذكر الإرادة والأخذ المقيّد بالبهتان إشعار بأن المنهي عنه هو الأخذ بعنوان الإكراه والإلجاء لها على ذلك فلو كان البذل بإرادتها هي وطيب نفسها كما فى عوض الخلع فلا منع فيه فلا منافاة بين هاتين الآيتين وأية الخلع وقيل ليس له أن يأخذ عوض الخلع عملاً بمقتضى هذه الآية وقيل هي منسوخة بأية الخلع وكلا القولين باطلان لا وجه لهما.

الثانية: فى الآية دلالة على جواز المره أى قدر شاء وبذل عليه إطلاق قوله: **فأتوهن أجورهن**. وقوله: **وصدقتهن**. وإطلاق قوله: **فدصف ما قرضتكم** وقوله **عليها**: المهر ما تراضى عليه الناس وفى رواية زرارة الصداق ما تراضيا عليه قل أو أكثر وخالف فى ذلك المرتضى **مؤيد** فى الانتصار فقال ممّا انفردت به الإمامية أنه لا يتجاوز بالمهر خمس مائة درهماً جيداً قيمتها خمسون ديناراً فما زاد على ذلك رد إلى السنة والجواب أن الإجماع لم يثبت والأخبار الواردة فيه تحمل على الإستحباب وتفصيل الكلام فيه فى الفقه.

الثالثة: أَنَّ الظَّاهِرَ مِنَ الْإِفْضَاءِ هُوَ الْجَمَاعُ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ فِي تَعْلِيلِ النَّهْيِ وَالْإِنْكَارِ بِالْإِفْضَاءِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَهْرَ أَنَّمَا يَسْتَقَرُّ بِهِ دُونَ الْخُلُوعِ وَ سَيَاتِي الْكَلَامِ فِيهِ أَيْضاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي مَوْضِعِهِ.

الرابعة: اِخْتَلَفُوا فِي الْمِيثَاقِ الْغَلِيظِ عَلَى أَقْوَال:

أحدها: قَالَ السَّيِّدِي وَ عَكْرَمَةُ وَ غَيْرُهُمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ هُوَ قَوْلُهُ **عَلَيْهَا** فَإِتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَأَتَّكُمَ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ وَ اسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ. **ثانيها:** قَوْلُهُ تَعَالَى: **فَإِمْسَاكِ بِمَعْرِفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ** ^(١) قَالَهُ الْحَسَنُ وَ ابْنُ سِيرِينَ وَ قَتَادَةُ.

ثالثها: عَقْدَةُ النِّكَاحِ فِي قَوْلِ الرَّجُلِ نَكَحْتُ وَ مَلَكَتْ ذَكَرَ هَذِهِ الْوُجُوهُ الْقُرْطُبِيُّ.

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ جَمَاهُورُ الْمُفَسِّرِينَ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَزَوَّجُونَ بِأَزْوَاجِ آبَاءِهِمْ فَنَهَاكَمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ.

رَوَى فِي تَفْسِيرِ عَلِيِّ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِي الْجَارُودِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا** فَإِنَّهُ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي أَوَّلِ مَا أَسْلَمُوا مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ إِذَا مَاتَ حَمِيمُ الرَّجُلِ وَلَهُ إِمْرَأَةٌ أَلْقَى الرَّجُلُ ثَوْبَهُ عَلَيْهَا فَوَرِثَ نِكَاحَهَا بِصَدَاقِ حَمِيمِهِ الَّذِي كَانَ أَصْدَقَهَا فَكَانَ يَرِثُ نِكَاحَهَا كَمَا يَرِثُ الْمَالُ فَلَمَّا مَاتَ أَبُو قَيْسٍ بْنُ الْأَسْلَتِ أَلْقَى مُحْصَنٌ بِنَ أَبِي قَيْسٍ ثَوْبَهُ عَلَى إِمْرَأَةِ أَبِيهِ وَ هِيَ كَبِيشَةُ بِنْتُ مَعْمَرِ بْنِ مَعْبَدٍ فَوَرِثَ نِكَاحَهَا ثُمَّ تَرَكَهَا لَا يَدْخُلُ بِهَا وَ لَا يَنْفَقُ عَلَيْهَا فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ **ﷺ** فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاتَ أَبُو قَيْسٍ بْنُ الْأَسْلَتِ فَوَرِثَ ابْنُهُ مُحْصَنٌ نِكَاحِي فَلَا يَدْخُلُ

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

الجلد الرابع

عَلَيَّ يَنْفِقَ عَلَيَّ وَلَا يَخْلِي سَبِيلِي فَأَلْحَقْ بِأَهْلِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْجِعِي إِلَى بَيْتِكَ فَإِنْ يَحْدُثَ اللَّهُ فِي شَأْنِكَ شَيْئًا أَعْلَمْتُكَ فَنَزَلَ، وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاءُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ الْأُتَى، فَلَحِقَتْ بِأَهْلِهَا وَقَدْ رَوَى عَنْهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلَبِ سَنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خَمْسَ سَنَنِ أَجْرَاهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الْإِسْلَامِ.

منها، أَنَّهُ حَرَّمَ نِسَاءَ الْأَبَاءِ عَلَى الْأَبْنَاءِ فَأَنْزَلَ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ فعلى هذا يكون المراد منكوحات الأب، فما، موصولة و عائدها محذوف، النساء، بيان لما، وقيل المعنى لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ أي مثله فتكون، ما، مصدرية فيتناول النهي حلائل الأباء وكل نكاح فاسد قد تعارف عندهم.

الأول: أظهر وأما الاستثناء فقليل أَنَّهُ يَكُونُ مَقْطَعًا أَي لَكِنْ مَا سَلَفَ لَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهِ، وَقِيلَ بِالِاتِّصَالِ وَعَلَيْهِ فَهُوَ مُسْتَثْنَى مِنَ اللَّفْظِ مِنْ قَبِيلِ التَّعْلِيقِ عَلَى الْمَحَالِّ مَبَالِغَةٍ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّأْيِيدِ وَالْمَعْنَى أَنَّ أَمَكْنَكُمْ نِكَاحَ مَا سَلَفَ فَأَنْكِحُوهُ فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ غَيْرُهُ وَذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ فَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ فَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُفْهَمُ بِهِمْ فُلُوكَ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَابِ، وَقَوْلُهُ لَا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ أَنَّ قُطُوفَهَا سَرِيعٌ وَيُمْكِنُ أَنَّ يَكُونُ مُسْتَثْنَى مِنَ الْمَعْنَى اللَّازِمِ لِلنَّهْيِ وَهُوَ الْعِقَابُ وَالْمُؤَاخَذَةُ كَأَنَّهُ قِيلَ أَنْتُمْ مُؤَاخِذُونَ بِهَذَا الْفِعْلِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ قَبْلَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّهُ لَا عِقَابَ فِيهِ تَفْضُلًا وَعَفْوًا مِنْهُ كَمَا يَشْعُرُ بِهِ لَفْظُ، كَانَ، الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ كَانَ مُحَرَّمًا قَبْلَ ذَلِكَ أَيْضًا حَيْثُ وَصَفَهُ بِالْفَاحِشَةِ أَيْ الزَّانَا، أَوِ الْقَبِيحِ، وَقَوْلُهُ: مَقْتًا أَي يَبْغُضُ اللَّهُ صَاحِبَهُ وَكَانُوا يَسْمَوْنَ الْوَلَدَ مِنْ زَوْجَةِ أَبِيهِ الْمَقْتَى كَالْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ وَأَبُو مَعِيْطٍ جَدُّ الْوَلِيدِ بْنِ عَقْبَةَ، وَ سَاءَ سَبِيلًا أَي بِشِطِّ الطَّرِيقِ ذَلِكَ النِّكَاحُ فعلى هذا يكون الضمير المنصوب، بأن، راجعاً إلى النكاح الذي كان عليه أهل الجاهلية وقيل أَنَّهُ رَاجِعُ إِلَى النِّكَاحِ بَعْدَ النَّهْيِ دُونَ مَا قَبْلَهُ وَرَبَّمَا يَرُشِدُ إِلَى كَوْنِهِ لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا قَبْلَ النَّهْيِ إِنْتِظَارُهُ ﷺ لِلْوَصِيِّ وَ كَوْنِهِ مِنْ سَنَنِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ وَ مِنْ ثَمَّ قِيلَ أَنَّ، زَائِدَةٌ أَوْ يُقَالُ أَنَّ، كَانَ، قَدْ تَسْتَعْمَلُ فِي مُجَرَّدِ الثَّبُوتِ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ، وَقَوْلُهُ كَانَ قَبْلَ

كُلُّ شَيْءٍ وَكَانَ قَبْلَ الْقَبْلِ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ دَالَّةٌ عَلَى التَّحْرِيمِ إِبْتِدَاءً وَإِسْتِدَامَةً وَأَمَّا فَعَلُهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ قَبْلَ نَزُولِهَا مِنْ تَحْرِيمِ حُلَاثِلِ الْآ عَلَى الْأَبْنَاءِ كَانَ إِقْطَاعًا مِنَ الْمُتَعَارَفِ عِنْدَ الْجَاهِلِيَّةِ وَمِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ غَيْرِهِ وَاعَادَ كَوْنَهُ حَلَالًا أَوْ حَرَامًا شَرْعًا وَأَمَّا أَجَرَ اللَّهِ تَعَالَى مَا نَقَلَهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ فِي هَذِهِ الْمَمْلَةِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ مَبَاحَةً فِي شَرْعٍ مِنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُولِ وَعَلَيْهِ فَرِيضَةٌ كَانَتْ مَمْنُوعَةً وَاسْتِعْمَالُهَا فِي مَجْرَدِ الثَّبُوتِ خِلَافَ حَقِيقَتِهَا لَا يَحْمِلُ عَلَيْهِ إِلَّا مَعَ الْوُجُوبِ وَهِيَ مَفْقُودَةٌ هَكَذَا أَفَادَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ إِذَا عُرِفَتْ هَذَا فَهَذَا أَحْكَامٌ لَا بَدَلَ لَنَا مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهَا.

الأول: أَنَّ الظَّاهِرَ مِنْ لَفْظِ النِّكَاحِ فِي الْآيَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْعَقْدَ أَمَّا بِنَاءٌ عَلَى كَوْنِهِ حَقِيقَةً فِيهِ شَرْعًا أَوْ لِأَنَّهُ الْأَكْثَرُ وَالْأَشْبَحُ فِي اسْتِعْمَالِ الشَّرْعِ سِيَمًا فِي الْقُرْآنِ وَعَلَيْهِ فَيَدْخُلُ فِي الْحُكْمِ بِالتَّحْرِيمِ، مَنْ عَقَّدَ عَلَيْهَا الْأَبَ دَائِمًا وَمَنْقَطَعًا وَأَنْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا دُونَ الْمَرْئِي بِهَا وَالْمَوْطُوءَةِ بِالْمَلِكِ لِعَدَمِ الْعَقْدِ عَلَيْهِنَ، إِلَّا بِدَلِيلٍ خَارِجٍ هَذَا إِذَا قُلْنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالنِّكَاحِ فِي الْآيَةِ الْعَقْدَ الْمَجْرَدَ عَنِ الْوُطْئِ أَوْ مَعَهُ وَأَمَّا إِذَا قُلْنَا أَنَّ النِّكَاحَ فِي الْمَقَامِ أُرِيدَ بِهِ الْوُطْئُ كَمَا هُوَ أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِيهِ فَيَدْخُلُ فِي الْحُكْمِ مَوْطُوءَةُ الْأَبِ سَوَاءٌ كَانَتْ بِالْعَقْدِ أَمْ لَمْ تَكُنْ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ لَفْظَ النِّكَاحِ حَقِيقَةً فِي الْوُطْئِ لُغَةً كَمَا قِيلَ وَالْأَصْلُ عَدَمُ النُّقْلِ أَوْ أَنَّهُ قَدْ اسْتَعْمَلَ فِيهِ شَرْعًا اسْتِعْمَالًا كَثِيرًا فَيَتَحَقَّقُ التَّحْرِيمُ بِهِ وَأَمَّا التَّحْرِيمُ بِمَجْرَدِ الْعَقْدِ فَهُوَ مُسْتَفَادٌ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ كَالْإِجْمَاعِ وَالزَّوَايَاتِ وَفِي الْمَقَامِ قَوْلُ ثَالِثٍ وَهُوَ إِشْتِرَاكُهُ بَيْنَ الْمَعْنِيَيْنِ وَهُوَ مَبْنًى عَلَى الْقَوْلِ بِالإِشْتِرَاكِ وَجَوَازِ اسْتِعْمَالِهِ فِي مَعْنِيَةٍ وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ مَجْمَعِ الْبَيَانِ قَالَ الْعَلَامَةُ رحمته الله فِي الْمَخْتَلَفِ عِنْدَ نَقْلِهِ قَوْلَ الشَّيْخِ رحمته الله يَحْرِمُ الزَّانِيَةَ عَلَى أَبِ الزَّانِي وَأَبْنَاهُ ثُمَّ نَقَلَ عَنْ ابْنِ إِدْرِيسَ وَالمفيد والمرضى القول بالإباحة ما لفظه لنا قوله تعالى: وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَالْإِسْتِدْلَالُ عَلَى تَعْمِيمِ التَّحْرِيمِ بِهَذِهِ الْآيَةِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَقَامَيْنِ الْأَوَّلُ، أَنَّ النِّكَاحَ وَيراد به الوطئ كما يراد به العقد ويدل عليه أَنَّهُ

حقيقة في اللغة للوطي إجماعاً فيكون كذلك في الشرع لأصالة البقاء وعدم النسخ والتغيير وقد أستعمل فيه كقوله فأنكحوا ما طاب لكم وغير ذلك من الآيات والأثار بل نقول أنه لما كان حقيقة في الوطي لم يكن حقيقة في غيره ولألزم الإشتراك والأصل عدمه وإستعماله في العقد في نحو قوله تعالى: إِذَا تَكَتَّخْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ^(١) مجاز لأنه خير من الإشتراك ووجه حسن المجاز أن العقد يؤدي الى الوطي فأشبه العلة فحسن التجوز ولو سلم أنه حقيقة شرعية فلا يمنع من إستعماله في حقيقة اللغوية بل قد أستعمل كما بيناه إذا تقرر هذا فنقول النهي يتناول النكاح بمعنى الوطي لأنه حقيقة فيه ولأنه لما كان العقد المؤدي الى الوطي لا دائماً يثمر إنتشار الحرمة كان الوطي الذي هو أبلغ منه أولى بإنتشارها انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول ما حققه العلامة رحمته لا مرية فيه وهو الحق الحقيقي بالإتباع وبه قال الشيخ أبو جعفر الطوسي رحمته قبله في كتاب العدة على ما نقل عنه فإنه قال النكاح إسم للوطي حقيقة ومجاز في العقد لأنه يوصل اليه وأن كان في عرف الشرع قد إختص بالعقد كلفظ الصلاة وغيرها انتهى.

وذهب ابن إدريس الى أنه حقيقة في العقد وقال، الإستدلال بقوله: وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ عَلَىٰ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِي الْوُطِيِّ مِنْ قَبْلِ التَّمَسُّكِ ببيت العنكبوت لأنه لا خلاف أنه اذا كان في الكلمة عرفان لغوي وشرعي كان الحكم بعرف الشرع ذون اللغة ولا خلاف في أن النكاح في عرف الشرع هو العقد حقيقة وهو الطاري على عرف اللغة كالنسخ له فلوطي الحرام لا يطلق عليه في عرف الشرع إسم النكاح بلا خلاف انتهى وأجاب عنه العلامة بأن كون النكاح مستعمالاً في عرف الشرع في العقد لا ينافي الحقيقة الأصلية والاستعمال الشرعي فيها وقد بينا وروده في الوطي شرعاً كهذه الآية.

قال الله تعالى: فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجَ غَيْرِهِ^(١)

قال الله تعالى: فَانْكِحُوهُمْ بِأَذْنِ أَهْلِيهِمْ وَانْتَهُنَّ أَجُورَهُنَّ^(٢)

قال الله تعالى: وَانْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ^(٣)

والتعليل يدل على إرادة الوطئ وقوله ^{عائلاً} تناكحوا تناسلوا وغير ذلك مما لا تحصى كثرة والوطئ الحرام لا يطلق عليه في عرف الشرع إسم النكاح و ادعاء الإجماع عليه خطأ ولهذا يقسم النكاح الى محلل ومحرم في الشرع ومورد القسمة مشترك بين الأقسام وصادق عليها انتهى ما أردنا نقله من كلامه فثبت وتحقق من هذه الكلمات أن لفظ النكاح حقيقة في الوطئ مجاز في العقد فقوله تعالى: وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ معناه تحرم معقودة الأب على ابنه وابن ابنه وهكذا حرمة دائمية سواء كان العقد دائمياً أم إنقطاعياً وسواء دخل العاقل بالمعقودة أم لم يدخل بها وسواء كان الأب والإبن نسبين أورشاعيين، وأما إذا لم يعقد عليها ولكن زنى بها فقال الشيخ وأكثر الفقهاء بالحرمة أيضاً لعدم الفرق وقال ابن إدريس بالإباحة ونسب هذا القول الى السيد المرتضى والمفيد أيضاً حجة المشهور أن النكاح حقيقة في الوطئ في أصل اللغة وهو قد حصل فيدخل في عموم قوله: وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ وحجة ابن إدريس ومن وافقه أن النكاح في الشرع العقد وهو لم يحصل وإطلاقه على الوطئ وأن كان موافقاً لأصل اللغة إلا أنه في دوران الأمر بين المعنى الشرعي واللغوي إذا أستعمل اللفظ في الشرع كان الحكم بعرف الشرع وهو العقد دون اللغة والمفروض عدم العقد فلا تحرم هذا الثاني يدخل في قوله: آبَاؤُكُمْ أجداد الأب و أجداد الأم وان علق فمعقودة الجدل

مثلاً حكمها مقصودة الاب في الحرفة و هكذا موطوتة الجدّ عل مافر الكلام فيه ويدلّ عليه:

ما رواه الشيخ في الصحيح عن محمد بن مسلم عن احدهما عليهما السلام أنّه قال: لو لم يحرم على الناس أزواج النبي ﷺ لقول الله عزّ وجلّ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبداً، حرّم على الحسن والحسين ﷺ بقول الله عزّ وجلّ: وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ وَلَا يَصْلَحَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَنْكِحَ إِمْرَأَةً جَدَّهُ انتهى.

و في تفسير العياشي عن الحسين بن سدير قال: سمعتُ أبا عبد الله ﷺ يقول أنّ الله حرّم علينا نساء النبي بقوله ولا تنكحوا ما نكح آباءكم من النساء انتهى.

الثالث: حيث ذكرنا أنّ المراد من النكاح العقد في الشرع وأن كان للوطي بحسب اللغة فالمراد بالعقد الصحيح منه لأنّه المتبادر من الإطلاق فلا تحرم المعقود عليها بالعقد الفاسد كما اذا كانت المرأة في العدة والمكرهه أو حالة الإحرام وأمثال ذلك وأما الفضولي منه فمن قال بعدم صحّته فهو داخل في الفاسد عنده فلا تحرم على الابن وأما من قال بصحّته وتوقفه على الإجازة ولم تحصل فالظاهر أنّه كذلك لحصول الكاشف عن فساده وكذا لو زنى الأب بعد هذا العقد ثمّ حصلت الإجازة ولو لم تحصل الإجازة فالحكم فيه حكم الزنا قبله.

الرابع: قالوا منظورة الأب وملمؤسته لا يتناولها لفظ النكاح لما عرفت أنّه حقيقة في العقد أو الوطى أو مشترك بينهما فتدخل في قوله تعالى وأحلّ لكم ما وراء ذلك فيكون حلالاً على الابن وذهب بعض الفقهاء الى التحريم اذا كان النّظر والممس بشهوة وهذا القول أوفق بالإحتياط.

الخامس: المراد بالأب الذي ولدك بالنكاح الصحيح أو حكمه فالولد المخلوق من ماء الزنا لا تحرم عليه منكوحة الزاني على القاعدة والأقوى حرمة مراعاة للإحتياط ولا سيما في الفروج هذا كله على المشهور بين المفسرين الطبري فهو سلك مسلكاً آخر في تفسير الآية فإنه ذكر في تفسيره أقوالاً من العامة ثم قال ما هذا لفظه:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب على ما قاله أهل التأويل في تأويله أن يكون معناه، ولا تنكحوا من النساء نكاح أباءكم إلا ما قد سلف منكم فمضي في الجاهلية فإنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً فيكون قوله: **مِنَ النِّسَاءِ** من صلة قوله: **وَلَا تَنْكِحُوا** ويكون قوله: **مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ** بمعنى المصدر ويكون قوله: **إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ** بمعنى الإستثناء المنقطع انتهى.

أقول ملخص كلامه أن المعنى، لا تنكحوا نكاحاً مثل نكاح أباءكم، فإن أنكحتهم كانت بغير ولي ولا شهود وعلى سبيل القهر والإلجاء على ما مر بيانه وعليه فالنهي أنما وقع على أن لا ينكحوا مثل نكاح أباءهم الفاسد وتبعه على هذا التفسير بعضهم وإذا كان كذلك فتكون، من، متعلقة بتنكحوا، وما، في ما نكح، مصدرية قالوا ولو كان معناه ولا تنكحوا النساء اللاتي نكح أباءكم لوجب أن يكون موضع ما، من، وليس كذلك وقد أجابوا عنه بأن، ما، بمعنى، الذي، أي ولا تنكحوا الذي نكح أباءكم أو بمعنى، من، أي لا تنكحوا من نكح أباءكم والدليل عليه إجماع الأمة وإتفاق المفسرين قال القرطبي بعد نقله ما نقلناه عنه في جوابه والدليل عليه أن الصحابة تلفت الآية على ذلك المعنى ومنه إستدلّت على منع نكاح الأبناء حلال الأباء وقد كان في العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة وكانت في قريش مباحة مع التراضي إلى آخر ما قال: **إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ** إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا قالوا أن الإستثناء منقطع لأنه لا يجوز إستثناء الماضي من المستقبل والمعنى لكن ما قد سلف فلا جناح عليكم قاله

الطَّبْرَسِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ الْقُرْطَبِيُّ أَيُّ لَكِنْ مَا قَدْ سَلَفَ فَأَجْتَنَّبُوهُ وَدَعُوهُ، بَعْدَ قَوْلِهِ بِأَنَّ الْإِسْتِثْنََاءَ مُنْقَطِعٌ.

أَقُولُ لَا نَفْهَمُ مَعْنَى كَلَامِ الْقُرْطَبِيِّ وَلَعَلَّهُ إِشْتَبَاهَ مِنْهُ فَأَنَّ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ هُوَ نِكَاحُ حُلَاثِلِ الْأَبَاءِ وَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ وَلَا زَمَّ الْإِسْتِثْنََاءُ بِقَوْلِهِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ هُوَ الْجَوَازُ وَمَعْنَى قَوْلِهِ فَأَجْتَنَّبُوهُ وَدَعُوهُ هُوَ عَدَمُ الْجَوَازِ وَهُوَ كَمَا تَرَى فَالْآيَةُ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِ الْقَائِلِ، لَا تَبِعْ مِنْ مَتَاعِي إِلَّا مَا بَعْتَ أَيُّ لَكِنْ مَا بَعْتَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْكَ فِيهِ وَقَدْ ذَكَرَ الرَّازِيُّ فِي قَوْلِهِ: **إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ وَجُوهًا**:

الأول: مَا نَقَلَهُ عَنِ السَّيِّدِ صَاحِبِ حُلِّ الْعَقْدِ أَنَّهُ قَالَ هَذَا إِسْتِثْنََاءٌ عَلَى طَرِيقِ الْمَعْنَى لِأَنَّ قَوْلَهُ: **وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ** قَبْلَ نَزُولِ آيَةِ التَّحْرِيمِ فَإِنَّهُ مَعْقُوفٌ عَنْهُ.

الثاني: مَا نَقَلَهُ عَنِ صَاحِبِ الْكَشَافِ أَنَّهُ قَالَ هَذَا كَمَا إِسْتِثْنَى، غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ، مِنْ قَوْلِهِ، وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ، فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ، يَعْنِي أَنَّ امْكِتَمَكُمْ أَنْ تَنْكِحُوا مَا قَدْ سَلَفَ فَانْكِحُوهُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكُمْ غَيْرُهُ وَذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَالْغَرَضُ الْمُبَالِغَةُ فِي تَحْرِيمِهِ وَسَدُّ الطَّرِيقِ إِلَى ابْتِغَايِهِ.

الثالث: إِنْ الْآهَانَا بِمَعْنَى بَعْدَ أَيِّ بَعْدَ مَا سَلَفَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى** ^(١) أَيِّ بَعْدَ الْمَوْتِ.

الرابع: مَا نَقَلْنَاهُ عَنِ الطَّبْرَسِيِّ وَقَدْ مَرَّ فَهَذِهِ هِيَ الْوُجُوهُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: **إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ** وَاحْسِنُهَا مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرَسِيُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى النِّكَاحَ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ بِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ:

أولها: أَنَّهُ فَاحِشَةٌ قِيلَ لِأَنَّ زَوْجَةَ الْأَبِ تُشَبِّهُ الْأُمَّ فَكَانَتْ مُبَاشَرَتُهَا مِنْ أَفْحَشِ الْفَوَاحِشِ.

ثانيها: المقت وهو في الأصل البغض وكانت العرب تقول للرجل من امرأة أبيه، مقيت فسمي تعالى هذا النكاح، مقتاً، اذ هو ذا مقت يلحق فاعله هكذا قيل نقل القرطبي عن أبي العباس أنه قال سألت ابن الأعرابي عن نكاح المقت فقال هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه.

ثالثها: قوله: وَ سَاءَ سَبِيلًا أي بئس الطريق هذا في أمر النكاح وهو من أهم الأمور، فقولوه: فَأَحْسَنُ إشارة إلى القبح العقلي، وقوله: مَقْتًا إلى القبح الشرعي، وساء سبيلاً، إلى القبح في العرف والعادة قاله الرّازي في تفسيره:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَ خَالَاتُكُمْ وَ بَنَاتُ الْأَخِ وَ بَنَاتُ الْأَخْتِ أَي حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ نكاح أمهاتكم ونكاح بناتكم الخ...

فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وأُثِمّا قلنا ذلك لأنّ التّحريم لا يتعلّق بالأعيان و أُنّما يتعلّق بأفعال المكلفين حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ كُلّ إمْرَأَةٍ رَجَعَ نَسَبُكِ إِلَيْهَا بِالْوِلَادَةِ مِنْ جِهَةِ أُمِّكَ بِأَنَاتٍ رَجَعَتْ إِلَيْهَا أَوْ بِذِكْرِ فِيهَا أُمِّكَ وَ ذَلِكَ كَجَدَّتِكَ مِنْ أَبِيكَ وَ مِنْ أُمِّكَ وَ بَنَاتُكُمْ الْبَنَاتُ جَمْعُ الْبِنْتِ وَ هِيَ كُلّ إمْرَأَةٍ رَجَعَ نَسَبُهَا إِلَيْكَ بِالْوِلَادَةِ بِدَرَجَةٍ أَوْ بِدَرَجَاتٍ بِأَنَاتٍ رَجَعَ نَسَبُهَا أَوْ بِذِكْرِ فَبِنْتُ الْبِنْتِ عَلَيْكَ حَرَامٌ كَمَا أَنَّ بِنْتَ الْإِبْنِ عَلَيْكَ حَرَامٌ وَ هَكَذَا وَ أَخَوَاتُكُمْ الْأَخَوَاتُ جَمْعُ الْأَخْتِ قَالُوا كُلّ أَنْثَى وَلَدَهَا شَخْصٌ وَلَدُكَ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى فِيهِ أَخْتُكَ وَ هِيَ حَرَامٌ عَلَيْكَ وَ عَمَّاتُكُمْ هِيَ جَمْعُ عَمَّةٍ أَخْتُ الْأَبِ فَكُلّ ذَكَرٍ رَجَعَ نَسَبُكِ إِلَيْهِ فَأَخْتُهُ عَمَّتُكَ وَ لَا فَرْقَ فِي هَذَا الْحَكْمِ بَيْنَ الْعَمَّةِ لِلْأَبِ وَ الْعَمَّةِ لِلْأُمِّ فَأَخْتُ أَبِيكَ عَمَّتُكَ وَ أَخْتُ جَدِّكَ عَمَّتُكَ فَصَاعِدًا عَلَيْكَ حَرَامٌ كَأَخْتِ أَبِيكَ وَ أَخْتُ أَبِي أَبِيكَ فَصَاعِدًا وَ خَالَاتُكُمْ جَمْعُ خَالَةٍ فَكُلّ أَنْثَى رَجَعَ نَسَبُكِ إِلَيْهَا بِالْوِلَادَةِ فَأَخْتُهَا خَالَتُكَ وَ قَدْ تَكُونُ الْخَالَةُ مِنْ جِهَةِ أَبِيكَ مِثْلَ أَخْتِ أُمِّ أَبِيكَ أَوْ أَخْتِ جَدَّةِ أَبِيكَ فَصَاعِدًا وَ بَنَاتُ الْأَخِ وَ بَنَاتُ

الْأُخْتِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ بَنَاتِ الْأَخِ وَبَنَاتِ الْأُخْتِ حُكِمَهُنَّ حَكَمَ بَنَاتِ الصُّلْبِ قَالَ الطَّبْرَسِيُّ رحمته إِذَا خَاطَبَ الْمُكَلِّفِينَ بِلَفْظِ الْجَمْعِ كَقَوْلِهِ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ثُمَّ أَضَافَ الْمَحْرَمَاتِ بَعْدَهُ إِلَيْهِمْ بِلَفْظِ الْجَمْعِ فَالْأَحَادُ يَقَعُ بِأَزَاءِ الْأَحَادِ فَكَأَنَّهُ قَالَ حَرَّمَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ نِكَاحَ أُمِّهِ أَوْ مَنْ يَقَعُ عَلَيْهَا إِسْمُ الْأُمِّ وَنِكَاحَ بِنْتِهِ يَقَعُ عَلَيْهَا إِسْمُ الْبِنْتِ وَكَذَلِكَ الْجَمِيعُ ثُمَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ أَعْنَى الْأُمّهَاتِ وَ الْبَنَاتِ وَ الْأَخَوَاتِ وَ الْعَمَّاتِ وَ الْخَالَاتِ وَ بَنَاتِ الْأَخِ وَبَنَاتِ الْأُخْتِ هِيَ الْمَحْرَمَاتُ بِالنِّسْبِ وَ هِيَ سَبْعَةٌ وَآلِ هَذَا أَشَارَ ابْنُ عَبَّاسٍ حَيْثُ قَالَ حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ النِّسَاءِ سَبْعًا بِالنِّسْبِ ثُمَّ قَالَ وَ السَّابِعَةُ وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاءُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَ لَا كَلَامَ لِأَحَدٍ مِنَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا يَحْرُمُ بِالنِّسْبِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَحِلُّ مِنَ النِّسَاءِ وَ مَا يَحْرُمُ فَحَرَّمَ اللَّهُ سَبْعًا مِنَ النِّسْبِ ثُمَّ قَالَ وَ ثَبَتَ الرِّوَايَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ حَرَّمَ مِنَ النِّسْبِ سَبْعٌ وَ مِنَ الصُّهْرِ سَبْعٌ قَالَ وَ السَّبْعُ الْمَحْرَمَاتُ بِالصُّهْرِ وَ الرِّضَاعِ، الْأُمّهَاتُ مِنَ الرِّضَاعَةِ، وَ الْأَخَوَاتُ كَذَلِكَ، وَ أُمّهَاتُ النِّسَاءِ وَ الرِّبَائِبُ وَ حَلَائِلُ الْأَبْنَاءِ وَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ وَ السَّابِعَةُ وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاءُكُمْ.

قَالَ الطَّحَاوِيُّ وَكُلُّ هَذَا مِنَ الْمُحْكَمِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ وَغَيْرِ جَائِزٍ نِكَاحَ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بِإِجْمَاعٍ، إِلَّا أُمّهَاتُ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَدْخُلْ بِهِنَّ أَزْوَاجُهُنَّ فَأَنَّ جُمْهُورَ السَّلَفِ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْأُمَّ تَحْرُمُ بِالْعَقْدِ عَلَى الْإِبْنَةِ وَ لَا تَحْرُمُ الْإِبْنَةَ إِلَّا بِالْدَّخُولِ بِالْأُمِّ وَبِهَذَا قَوْلُ جَمِيعِ أَئِمَّةِ الْفَتْوَى بِالْأَمْصَارِ انْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ فِي الْمَقَامِ تَنْبِيْهَانِ لَا يَدُّ مِنْ ذِكْرِهِمَا:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ تَحْرِيمَ النِّكَاحِ مِنْ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ مِنَ الطَّرَفِ الْآخَرِ أَيْضًا فَلَا مُحَالَةَ يَكُونُ الْحُكْمُ بِتَحْرِيمِ الْأُمِّ وَأَنْ عَلَتْ عَلَى الْوَلَدِ وَأَنْ نَزَلَ، مُقْتَضِيًا لِتَحْرِيمِ الْوَلَدِ وَأَنْ نَزَلَ عَلَى الْأُمِّ وَأَنْ عَلَتْ وَكَذَا الْكَلَامُ فِي الْبَوَاقِي وَ لَعَلَّهُ النَّكْتَةُ فِي تَخْصِيصِ اللَّهِ تَعَالَى الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ بِالرِّجَالِ وَ لَمْ يَذْكُرِ الْعَكْسَ وَ يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ وَ هُوَ التَّحْرِيمُ مِنَ الطَّرَفَيْنِ الْإِجْمَاعُ وَالْأَخْبَارُ.

ثانيهما: أنه لا خلاف بين العلماء في ثبوت النسب المذكور بالنكاح الصحيح والمراد به الوطئ المستحق شرعاً عند الفاعل أو في نفس الأمر وأن حرم بالعارض كالوطئ في الحيض، والتقيّد بنفس الأمر ليدخل فيه الوطئ بقصد الزنا ثم تبين أنها زوجته أو أمته فأَنْ نكاحه صحيحٌ وأن أثم بأقدامه على ذلك، والتقيّد بعند الفاعل ليدخل فيه نكاح المجوسي لأمّه أو أخته فأولدها ويلحق به وطي الشبهة إذا كانت من الطرفين ولو إختصت بأحدهما إختص به الولد على الأظهر وأما الزنا فلا يثبت به النسب اجماعاً ويدل عليه اخبار كثيرة وهل يثبت به التحريم المطلق بالنسب فتحرم على الزاني النسب المخلوقة من ماته كما يحرم على الزانية المتولد فيها بالزنا ولا يثبت فيه خلاف بين العامة والخاصة.

أما العامة قال الرّازي في تفسيره المسألة الثانية قال الشافعي البنت المخلوقة من ماء الزنا لا تحرم على الزاني وقال أبو حنيفة تحرم، حجة الشافعي أنها ليست بنتاً له فوجب أن لا تحرم أتما قلنا ليست بنتاً لوجوه.

الأول: أنّ أبا حنيفة إما أن يثبت كونها بنتاً له على الحقيقة وهي كونها مخلوقة من ماءه أو بناءً على حكم الشرع بثبوت هذا النسب والأول باطل على مذهبه طرداً وعكساً أما الطرد فهو أنه إذا إشتري جارية بكرةً وإفترضها وحبسها في داره فأدت بولد فهذا الولد معلوم أنه مخلوق من ماءه مع أنّ أبا حنيفة قال لا يثبت نسبها إلا عند الإستلحاق ولو كان السبب هو كون الولد متخلفاً من ماءه لما توقّف في ثبوت هذا النسب بغير الإستلحاق وأما العكس فهو أنّ المشرقي إذا تزوج بالغريبة وحصل هناك ولد فأبو حنيفة أثبت النسب هنا مع القطع بأنه غير مخلوق من ماءه فثبت أنّ القول بجعل التخليق من ماءه سبباً للنسب باطل طرداً وعكساً على قول أبي حنيفة وأما إذا قلنا النسب إتما يثبت بحكم الشرع فهذا هنا أجمع المسلمون على أنه لا نسب لولد الزنا من الزاني ولو إنتسب إلى الزاني لوجب على القاضي منعه من ذلك الإنتساب

فثبت أن إنتسابها اليه غير ممكن لا بناءً على الحقيقة ولا بناءً على حكم الشرع.
الوجه الثاني: التمسك بقوله الولد للفراش وللعاشر الحجر فقوله الولد للفراش يقتضي حصر النسب للفراش.

الثالث: لو كانت بنتاً لأخذت الميراث لقوله تعالى: **لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ** ولثبت له ولاية الإجماع لقوله **عَلَيْهَا** زَوْجُوا بَنَاتِكُمُ الْأَكْفَاءَ ولو جب عليه نفقتها وحضانتها ولحلت الخلوة بها فلمّا لم يثبت شيء من ذلك علمنا إنتفاء البتنية وإذ ثبت أنها ليست بنتاً له وجب أن يحلّ التزوّج بها لأنّ حرمة التزوّج بها أمّا للبنتية أو لأجل أنّ الزّناء يوجب حرمة المصاهرة وهذا الحصر ثابت بالإجماع و البنتية باطلة كما ذكرنا و حرمة المصاهرة بسبب الزّناء، أيضاً باطلة كما تقدّم فثبت أنها غير محرّمة على الزّاني انتهى و قال القرطبي و روي عن مالك أنّ الزّناء يحرم الأمّ والإبنة و أنّه بمنزلة الحلال و هو قول أهل العراق ثمّ قال و الصحيح من قول مالك و أهل الحجاز أنّ الزّنى لا حكم له و هو قول الشافعي و أبو ثور لأنّه لمّا ارتفع الصّدّاق في الزّناء و وجوب العدة والميراث و لحوق الولد و وجوب الحدّ ارتفع أن يحكم له بحكم النكاح الجائز و روي الدّارقطني من حديث الزّهري عن عروة عن عائشة قالت سألت رسول الله ﷺ عن رجل زنى بإمرأة فأراد أن يتزوّجها أو أبنتها فقال لا يحرم الحرام الحلال أمّا يحرم ما كان بنكاح قال و من الحجّة للقول الآخر إخبار النبي عن جريح وقوله يا غلام، من أبوك، قال فلان الرّاعي، فهذا يدلّ على أنّ الزّناء يحرم كما يحرم الوطئ الحلال و يستدلّ به أيضاً على أنّ المخلوقة من ماء الزّاني بأمرها و هو المشهور قال **عَلَيْهَا** لا ينظر الله إلى رجلٍ نظر إلى فرج امرأة و إبنتها و لم يفعل بين الحلال و الحرام و ساق الكلام إلى أن قال و قال عبد الملك المباحسون أنّها تحلّ الصحيح لقوله تعالى: **وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا** ^(١) يعني بالنكاح الصحيح على ما يأتي في الفرقان انتهى كلامه.

أما الخاصة قال العلامة رحمته الله في المختلف، إختلف علماؤنا في الزناء، هل ينشر حرمة التزويج بأمها وبنتها فأثبتته الشيخ وأبو البراج وابن حمزة، وقال المفيد والسيد المرتضى والصدوق في المقنع وسائر وابن إدريس أنه لا ينشر الحرمة فحل للرجل نكاح أم المزني بها وأبنتها سواء تقدم العقد على الزنا أو تأخر والمعتمد الأول أقام الدلائل على إثبات مدعاه مفضلاً وقال بعد ذلك، مسألة قال الشيخ رحمته الله يحرم الزانية على أب الزاني وأبنته وهو مذهب أبي الصلاح وابن البراج وابن حمزة وابن زهرة ونقل عن ابن إدريس وعن المفيد والسيد المرتضى الإباحة والمعتمد الأول ثم أقام الدلائل بما لا مزيد عليه وقال في موضع آخر منه مسألة قد بينا فيما سلف أن الزناء ينشر حرمة المصاهرة على قول كثير من أصحابنا ومنع آخرون منه ويلزم القائل بذلك في الزناء القول به في عقد الشبهة وطئي الشبهة وقال ابن إدريس فأما عقد الشبهة فعندنا لا ينشر الحرمة ولا يثبت تحريم المصاهرة بحال والوجه الأول وقد تقدم قال رحمته الله المطلب الرابع في بقايا أسباب التحريم مسألة المخلوقة من ماء الزناء تحرم عليه قاله في الخلاف والمبسوط (أي قاله الشيخ) وإستدل عليه في الخلاف بوجهين:

الأول: أنه إذا زنى بإمرأة حرّم عليه بنتها وانتشرت الحرمة وهذه بنتها وطريقة الإحتياط تقتضي تجنب هذا.

الثاني: لقوله تعالى: **وَبَنَاتُكُمْ** وهذه بنته لغةً وأن لم تكن شرعاً، ثم نقل عن ابن إدريس أيضاً القول بالتحريم في المقام مع أنه في غير هذا المقام لا يقول بنشر الحرمة في الزناء كما عرفت من كلامه وهو دليل على أن المخلوقة من ماء الزاني تحرم على الزاني بلا خلاف عند علماء الشيعة وإن اختلفوا في غيرها والوجه فيه هو أن المخلوقة من ماء الزاني بنيت الزاني لغته وعرفاً كما قال الشيخ فهي داخلة تحت قوله: **وَبَنَاتُكُمْ** بحسب أصل اللغة والعرف وأيضاً قوله تعالى: **إِلَّا آلَتِي** وَلَدْنَهُمْ حيث جعل المولدة مطلقاً أما

فيكون المتولدة بنتاً لا محالة على حسب القانون اللغوي نعم الأحكام الشرعية المتعلقة بالنسب منتفية هنا لحكمة شرعية أما حقيقة البنتية والأختية والأمومية فلا وأن شئت قلت هي بنت له حقيقةً ولازم ذلك هو ترتب جميع الأحكام المتعلقة بالبنت عليها إلا ما خرج منها بالدليل ونحن نقول به فكلما أخرجه الدليل أخرجناه وكلما أبواه أبقيناه ومن المعلوم أن الدليل لم يخرج أكثر مما يتعلق بالنسب وأما ما يتعلق بغيره فهو باقٍ على حاله وما نحن فيه من هذا القبيل إذ نفي النسب لا يلزم نفي حرمة التزوج بها فالتنسب منتفٍ بالدليل وأما حرمة التزوج بها باقٍ على الأصل من تحريم البنت على الأب هذا تمام الكلام في المحرمات بالنسب وأما المحرمات بالرضاع: فقال تعالى: **وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ** سَمَاهُنَّ تَعَالَى أُمَّهَاتٌ لِلْحَرَمَةِ وَكُلٌّ أَنْتَى إِنْ تَسَبَّتَ إِلَيْهَا بِاللَّبَنِ فَهِيَ أُمٌّ فَالَّتِي أَرْضَعْتِكَ أَوْ أَرْضَعْتَ امْرَأَةً أَرْضَعْتَكَ أَوْ رَجُلًا أَرْضَعْتَ بِلْبَانِهِ مِنْ زَوْجَتِهِ وَ أُمٌّ وَلَدٍ لَهُ فَهِيَ أُمٌّكَ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَكَذَلِكَ كُلُّ امْرَأَةٍ وَلَدَتْ امْرَأَةً أَرْضَعْتَكَ أَوْ رَجُلًا أَرْضَعْتَكَ فَهِيَ أُمٌّكَ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمٌّ الْأَخَوَاتِ فَهِيَ جَمْعُ الْأَخْتِ وَالْمَرَادُ بِهِنَّ بَنَاتُ الْمَرْضُوعَةِ وَهِنَّ ثَلَاثٌ، الصَّغِيرَةُ الْأَجْنَبِيَّةُ الَّتِي أَرْضَعْتَهَا أُمٌّكَ بِلْبَانِ أَبِيكَ سِوَاءِ أَرْضَعْتَهَا مَعَكَ أَوْ مَعَ وَلَدٍ قَبْلَكَ أَوْ بَعْدَكَ وَالثَّانِيَةِ، أَخْتُكَ لِأُمِّكَ دُونَ أَبِيكَ وَهِيَ الَّتِي أَرْضَعْتَهَا أُمٌّكَ بِلْبَانِ غَيْرِ أَبِيكَ.

وَالثَّالِثَةُ: أَخْتُكَ لِأَبِيكَ دُونَ أُمِّكَ وَهِيَ أَرْضَعْتَهَا زَوْجَةَ أَبِيكَ بِلَيْنِ أَبِيكَ وَ أُمُّ الرِّضَاعَةِ وَأَخْتُ الرِّضَاعَةِ لَمْ تَحْرَمَا فَإِنَّ الرِّضَاعَةَ سَبَبُ تَحْرِيمِهِمَا وَكُلٌّ مِنْ يَحْرَمُ بِالنَّسَبِ مِنَ اللَّاتِي مَضَى ذِكْرُهُنَّ تَحْرَمُ أَمْثَالَهُنَّ بِالرِّضَاعِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ **أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا حَرَّمَ بِالنَّسَبِ** قَالَ الطَّبْرَسِيُّ **مَعْنَى** بَعْدَ ذِكْرِهِ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُ فَتَبَيَّنَ بِهَذَا الْخَبَرِ أَنَّ السَّبْعَ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ بِالنَّسَبِ عَلَى التَّفْصِيلِ الَّذِي مَرَّرْ ذَكَرَهُ مَحْرَمَاتُ بِالرِّضَاعِ ثُمَّ قَالَ، وَالْكَلَامُ فِي الرِّضَاعِ يَشْتَمِلُ عَلَى فصول.

أحدها: مدّة الرّضاع وقد اختلف فيها فقال أكثر أهل العلم لا يحرم إلا ما كان في مدّة الحولين وبه قال أصحابنا وهو مذهب الشّافعي وأبو يوسف ومحمّد أبو حنيفة حولان ونصف وقال مالك حولان وشهر وإتفقوا على أن رضاع الكبير لا يحرم.

ثانيها: قدر الرّضاع وقد اختلف فيه أيضاً وقال أبو حنيفة أن قليله وكثيره يحرم وروي ذلك عن ابن عمر وابن عباس وهو مذهب مالك والأوزاعي الشّافعي أنما يحرم خمس رضعات وبه قالت عائشة وسعيد بن جبير وقال أصحابنا لا يحرم إلا ما أنبت اللّحم وإنشدّ العظم وأنما يعتبر ذلك برضاع يوم وليلة لا يفصل بينها برضاع امرأة أخرى أو بخمس عشر رضعة متواليات لا يفصل بينها برضاع امرأة أخرى وقال بعض أصحابنا المحرم عشر رضعات متواليات.

ثالثها: كيفيّة الرّضاع فعند أصحابنا ما وصل إلى الجوف من الثدي في المجرى المعتاد الذي هو الفم وأما ما يوجر أو يسعط أو يحقن به فلا يحرم بحال ولبن الميتة لا حرمة له في التّحريم وفي بيع ذلك خلاف هذا ما ذكره الطّبرسي رحمته الله في المقام وهو حق لا كلام فيه إلا أنه لا يفي بالمقصود فلا بدّ لنا من التّنبيه على أمور فنقول.

إعلم أن ظاهر إطلاق الآية دال على ترتّب الحكم على مسماه كيف إتفقوا على أي حال وبه أخذ بعض العامة ولكن النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام قيده بشروط.

أحدها: كونه من امرأة لا من رجل ولا من خنثى مشكل وكونه عن نكاح أي وطئ محلّل فيندرج فيه المعقود عليها بالعقد الدّائم والمنقطع وملك اليمين الشّامل للمحلّلة إجماعاً ويلحق به نكاح الشّبهة على المشهور فلو درّأ عن نكاح أو كان من الزّناء لا ينشر الحرمة بلا خلاف لصحيحة عبد الله بن سنان عن الصادق عليه السلام: قال سألتها عن لبن الفحل فقال عليه السلام هو ما أرضعت إمرأتك من لبنك ولبن ولّدك إمرأة.

أخرى، و أطلق بعض الأصحاب إعتبار النكاح وقيدَه آخرون بالحمل والأقوى إعتبار الإنفصال كما قاله في التحرير.

الشَّروط الثَّاني: تقديره بواحدٍ من أمور ثلاثة.

الأول: إنبات اللَّحْم وشدَّ العظم ويدل عليه ما رواه الشَّيخ في الحَسَن عن حماد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام لا يحرم من الرضاع إلا ما أنبت اللَّحْم والدَّم، وعن عبد الله بن سنان قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لا يحرم من الرضاع إلا ما أنبت اللَّحْم وشدَّ العظم، والأخبار به كثيرة.

الثَّاني: العدَد و قد اختلف فيه الأصحاب على ثلاثة أقوال لأختلاف الأخبار في ذلك فذهب ابن الجنيْد الى الإكتفاء برضعة واحدة تملأ جوف الولد بأي نحو إتفق إستدلالاً بعموم الآية وصحيحة علي بن مهزيار عن إبي الحسن أنه كتب اليه يسأله عما يحرم من الرضاع فكتب اليه قليله وكثيره حرام. و ذهب أكثر المتقدِّمين من اصحابنا كالْمفيد و سلاّر و ابن ابي عقيل و غيرهم من المتأخِّرين العلامة في المختل و ولده في المحقِّقين و الشَّهيد الى ان قال معتبر عشر رضات و قال بعضهم على الحصول بالخمس عشرة المتوالية و اليه قال اكثر المتأخِّرين.

الثالث: التقدير بالزمان والمشهور أنه يوم و ليلة و قيل خمسة عشر يوماً وليالهنَّ ليس بينهنَّ رضاع و قيل ستته كاملة، لما رواه في الفقيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألتُه عن الرضاع قال لا يحرم من الرضاع إلا ما إرتضع من ثدي واحد سنة انتهي.

و قيل سنتان، لما رواه زرارة عنه عليه السلام قال: سألتُه عن الرضاع قال لا يحرم من الرضاع إلا ما رضع من ثدي واحد حولين كاملين.

الشَّروط الثَّالث: أن يقع الرضاع قبل إستكمال الحولين، لما رواه في الكافي في الصَّحيح عن عبد الملك عن أبي عبد الله عليه السلام يقول عليه السلام لا إرضاع بعد فطام قلت جعلت فداك و ما الفطام قال عليه السلام الحولين الذي قال الله عزَّ وجلَّ و

حكى في التذكرة الإجماع عليه و أنه قول أكثر أهل العلم فلو كان الرضاع الواقع بعد الفطام قبل إتمام الحولين أيضاً ينشر الحرمة و أما إذا كان بعد الحولين وقبل الفطام فهو لا ينشر الحرمة وبالجمله المنط هو الحولان لا الفطام وقيل بالعكس.

الشرط الرابع: أن يكون اللبن لفحل واحد فيحرم أحد الرضيعين على الآخر و أن تعددت المرضعة ولا يحرم أحدهما على الآخر لو تعددوا إن اتحدت المرضعة، فقد روي ابن بابويه بأسناده في الصحيح عن بريد العجلي قال قلت لأبي جعفر عليه السلام رأيت قول رسول الله ﷺ يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، فسرّه لي فقال عليه السلام كل امرأة أرضعت من لبن فحلها ولد امرأة أخرى من جارية أو غلام فذلك الرضاع الذي قال رسول الله ﷺ يحرم بالرضاع ما يحرم من النسب الى غير ذلك من الروايات المتعددة و ذهب الطبرسي رحمه الله الى عدم اشتراط إتحاد الفحل بل يكفي إتحاد المرضعة لأنه يكون بينهم إخوة الأم فيدخل في عموم قوله: و أمهاتكم من الرضاعة و عموم قوله ﷺ يحرم بالرضاع ما يحرم بالنسب لأن الأخ من الأم يحرم إجماعاً، و قال القرطبي التحريم بالرضاع أنما يحصل إذا إتفق الإرضاع في الحولين و لا فرق بين قليل الرضاع وكثيره عندنا إذا وصل الى الأمعاء ولو مصّة واحدة و إعتبر الشافعي في الرضاع شرطين.

أحدهما: خمس رضعات لحديث عائشة.

الثاني: كونه في الحولين فأن كان خارجاً عنهما لم يحرم و إعتبر أبو حنيفة بعد الحولين ستة أشهر و قال مالك الشهر ونحوه و قال زفر مادام يجترئ باللين و لم يفطم فهو رضاع و أن أتى عليه ثلاث سنين و قال الأوزاعي إذا فطم لسنة واستمر فطامه فليس بعده رضاع وإنفرد الليث بن سعد من بين العلماء أن رضاع الكبير يوجب التحريم و هو قول عائشة وساق الكلام الى أن قال وذهب من عدا هؤلاء من أئمة الفتوى الى أن الرضعة الواحدة تحرم إذا تحققت كما

ذكرنا متمسكين بأقل ما ينطلق عليه إسم الرضاع انتهى كلامه أقول الأقوال في الباب كثيرة جداً بحيث لا تكاد تنضبط وفما ذكرناه كفاية و من أراد الإطلاع على أكثر منه فعليه بكتب الفقهاء.

إذا عرفت هذا فاعلم أن الشروط المذكورة من طريق أهل البيت إذا اجتمعت في الرضاع فقد حصل الرضاع المحرم وانتشر التحريم وصارت المرضعة أمًا كما يقتضاه نص الكتاب وعليه الإجماع ويتبعها في ذلك آباءها وأمهاتها علو فيصيرون أجداداً وجدّات للمرتضع وأخواتها وأخوتها يصيرون أخوالاً وخالات وأولادها يصيرون أخوة وأخوات لأن ذلك من لوازم الآموم فيدخل تحت مقتضى الآية بطريق الإلتزام وكذا حكم المرتضع بالنسبة إلى هؤلاء لأنه لازم للنسبة فيصير ولدًا لها وأولاده وأن نزلوا حفدة لها ولأبائها وأمهاتها وابن أخت للأخوال والخالات وأخاً لأولادها ولده وأن نزلوا ولد أخ فيدخل جميع ذلك في مقتضى الآية بطريق الإلتزام ولا خلاف فيه بين المسلمين ثم أن العلامة رحمته في التذكرة إستثنى من هذه القاعدة أربع صور:

الأولى: أم الأخ والاخت حرام من النسب لأنها، إماً، أم أوزوجة أب، وأما في الرضاع فإن كانت كذلك حرمت والألم تحرم كما لو حصل الرضاع من الأجنبية.

قال بعض المحققين وفيه نظر لأن أم الأخ والأخت ليست من المحرمات السبع من النسب وذلك لأنها أن كانت أمًا فهي محرمة لذلك لا لكونها أم أخ وأن كانت زوجة أب فجهة التحريم تلك لا لكونها أم أخ مع أن التحريم من جهة المصاهرة فعدم التحريم في المرضعة، لفقد الجهتين.

الثانية: أم ولد حرام لأنها إماً بنت أو حليلة إبن وفي الرضاع قد لا يكون أحداها كما لو أرضعته الأجنبية.

أقول والكلام في هذه كالأولى لأنها ليست من السبع النسبية من هذه الجهة بل من جهة النسبية أو كونها حليلة الإبن مع أنها من المصاهرة لا النسب.

الثالثة: جدّة الولد في النسبة حرام لأنها أمك أو أم زوجتك وقد لا يكون من الرضاع كذلك كما لو أرضعته الأجنبية فأَنَّ أمّها جدّته وليست بأمك ولا أمّ زوجتك، والكلام فيها كما سبق فأَنَّ جدّة الولد ليست محرّمة من هذه الجهة بل من إحدى الجهتين المذكورتين.

الرابعة: أخت ولدك في النسب حرام عليك لأنها بنت أوريثته وإذا أرضعت اجنبيته ولدك فبنتها أخت ولدك وليست احداً منها ولا تحرم أخت الاخ في النسب ولا في ارضاع اذا لم يكن اختاً بان يكون له اخ من الاب و أخت من الام نافّة يجوز للاخ من الاب نكاح الأخت من الام وفي ارضاع لو أرضعت امرأة وأرضعت صغيرة اختاً صغيرة أجنبية منك يجوز لأخيك نكاحها أختك من الرضاع.

والكلام في إستثناءها كما سبق من أنّ أخته ليست من السبع وأنها مشتركة بين المحرّم بالنسب والمصاهرة فلا تحرم هذا تمام الكلام في المحرّمات بالرضاع وأما المحرّمات بالمصاهرة فهي قسمان:

الأول: ما يقتضي التحريم عيناً وهو أربع مسائل:
الأولى: أم الزوجة لقوله تعالى: **أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ.**
الثانية: بنتها مع الدخول بالأم.

الثالثة: حليّة الإبن والرابعة، منكوحة الأب وقد مرّ الكلام فيها.

القسم الثاني: ما يقتضي التحريم جمعاً وهو ثلاث مسائل:
الأولى: الجمع بين الأربع وما زاد.

الثانية: الجمع بين الأختين.

الثالثة: الجمع بين الأم والبنت مع عدم الدخول بالأم إذا عرفت هذا فنقول فالأولى أعني بها أم الزوجة لا خلاف في تحريمها بين الأمة في الجملة لقوله تعالى وأُمَّهَاتُ نِسَاءكُمْ وفي التعبير بصيغة الجمع إشعار بأن المراد ما يشمل الجدّات وأن علون وما يشمل النسب والرضاع ولا خلاف فيه أيضاً و

في التعبير بلفظ النساء دلالة على كون المراد ما يشمل العقد الدائم والمنقطع والموطوءة بالملك الشامل للتحليل وهذا أيضاً لا خلاف فيه وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ أي تحرم عليكم ربائبكم والربيبة بنت الزوجة من زوج آخر مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ أي أن كانت الربيبة من الزوجة المدخول بها فهي حرام عليك وإلا فلا كما قال تعالى: فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أي فلا جناح عليكم في التزويج بها أي بالربيبة إذا لم تكونوا دخلتم بأمهاتهن.

وإعلم أنَّ هذا الحكم صار معركة الأراء بين الفقهاء فذهب بعض الفقهاء مِنَّا إلى أنَّ الأمَّ والبنت في هذا الحكم سواء فإذا لم يدخل بأحدهما حلَّتْ له الأخرى وأما إذا دخل بأحدهما حرمت عليه الأخرى أبداً وذهب الأكثرون وهو المشهور إلى تحريم أمِّ الزوجة مؤبداً إذا عقد على البنت سواء دخل بها أم لم يدخل وأما إذا عقد على الأم فلا تحرم عله البنت قبل الدخول بالأم نعم في صورة الدخول تحرم البنت مؤبداً ومحصل الكلام هو أنه يشترط في جانب البنت الدخول وأما في جانب الأم فلا يشترط بل مجرد العقد يكفي في تحريم البنت.

قال العلامة رحمته في المختلف، مسألة: المشهور عند علماءنا أجمع إلا ابن أبي عقيل والصدوق تحريم أمِّ الزوجة مؤبداً سواء دخل بالبنت أم لا وقال ابن أبي عقيل الشرط عند آل الرسول في الأمهات ولا ربائب جميعاً الدخول فإذا تزوج الرجل المرأة ثم مات عنه أو طلقها قبل أن يدخل بها فله أن يتزوج أمها وأبنتها وأما الصدوق فإنه روى في كتاب من لا يحضره الفقيه عن جميل بن دراج عن الصادق أنه سأل عن رجل يتزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها هل له أن يتزوج إبتها قال عليه السلام الأم والإبنة في هذا سواء إذا لم يدخل بأحدها حلَّتْ له الأخرى وقال في المقنع إذا تزوج البنت فدخل بها أو لم يدخل فقد حرمت عليه الأم وقد روي أنَّ الأمَّ والبنت في هذا سواء إذا لم يدخل بأحدهما حلَّتْ له الأخرى.

أقول منشأ الخلاف في الحكم هو نفس الآية فأنّها هي الاصل في الباب لأنّ وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَ رِبَايِكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ الى قوله: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فقوله تعالى: اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ قيد و وصف في الآية و هذا ممّا لا كلام فيه إلّا أنّ البحث وقع في متعلّق القيد والوصف و أنّ هذا الوصف أو القيد أو الشرط أو ما شئت فسمّه، الى أيّ شيء يرجع والإحتمالات ثلاثة لا رابع لها.

أحدها: أن يكون قوله: اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ الى الأُمَّهَات أي أُمَّهَات النساء و عليه فالمعنى أُمَّهَات النساء اللَّاتِي دخلتم بهنّ حرام عليكم و لازم ذلك حرمة الأمّ بشرط الدّخول في البنت و أمّا في صورة عدم الدّخول بها فلا تحرم الأمّ.

ثانيها: أن يكون الوصف أو القيد للرّائب و عليه فالمعنى تحرم ربايبكم اللَّاتِي في حجوركم لكن لا مطلقاً بل بشرط كونهنّ من النساء اللَّاتِي دخلتم بهنّ اذا كانت الرّبيبة من النساء اللَّاتِي لم يدخل بهنّ فلا تحرم و لازم ذلك حرمة الرّائب بشرط كونهنّ من النساء اللَّاتِي دخلتم بهنّ و هذه الصّورة عكس الصّورة السابقة لأنّ في السابقة حرمت الأمّ بعد الدّخول في البنت و في هذه الصّورة تحرم البنت بسبب الدّخول في الأمّ.

ثالثها: أن يكون القيد لهما جمعاً و عليه فالمعنى حرمت الأمّ و البنت بعد الدّخول باجديهما فلا فرق فيها من الجهة فاذا دخلت بالأمّ حرمت عليك البنت مويّداً و اذا دخلت بالبنت حرمت الأمّ كذلك اي مويّداً فالشرط في حرمة المويّد من الطرفين الدّخول و لازم ذلك عدم الحرمة لعدمه اذا دخلت اذا عرفت هذا فنقول لمّا ذهب ابن أبي عقيل و الصدوق و من تبعهما الى رجوع الشرط أو القيد أعني به الدّخول المستفاد من قوله: اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ الى الأُمَّهَات و الرّائب جميعاً أي حرمة كلّ واحدة من الأمّ و الرّبيبة مشروطة بالدّخول في الأخرى فلا جرم أفتوا بجواز التّزوج بكلّ واحدة منهما

إذا لم يدخل بها وهو ظاهر وأما المشهور من الفقهاء فقد أرجعوا القيد وهو الدخول إلى النساء في قوله: **مِنْ نِسَائِكُمْ** بدليل أن الأقرب يمنع الأبعد قال العلامة في الجواب ما لفظه والجواب بمنع عود الوصف إلى الجملتين معاً فأنا قد بينا في أصول الفقه أولوية رجوع الوصف والشرط والاستثناء إلى الأخير من الجمل المتعاقبة ولأن شرط الدخول هنا عائد إلى الرئائب خاصة فإنه قال: **مِنْ نِسَائِكُمْ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ** والرئائب من النساء لا محالة فيصح أن يرجع اليهن لأنه شرط أن تكون من نساءنا، وما أمهات النساء فلن من نساءنا بل نساءنا فيهن وإذا تعدد رجوع الشرط إلى الأولى وجب اختصاصه بالأخيرة انتهى كلامه. ومن المعلوم أن القيد إذا كان للأخيرة هو عدم تحريم البنت إذا لم يدخل بالأُم وبعبارة أخرى بناءً على هذا القول إذا عقد على البنت تحرم عليه أمها سواء دخل بالبنت أم لا وأما إذا عقد على الأم فلا تحرم عليه البنت أبداً ما لم يدخل بالأُم فله أن يطلق الأم مثلاً ثم تزوج بالبنت.

وأما الإحتمال الأول وهو رجوع القيد إلى الأمهات خاصة فهو باطل بالإجماع وعليه فالأمر يدور مدار الإحتمالين المذكورين أعني بهما الثاني والثالث وعليهما يدور كلام الفقهاء كما عرفت ولا شك أن رجوع القيد إلى الأخيرة أوفق بالقواعد الأصولية فإن الأقرب يمنع الأبعد وعليه إتفاقهم في الأصول وهو القول المشهور عندهم وعليه فإذا تزوج الرجل بالمرأة حرمت عليه أمها بمجرد العقد دخل بها أو لا وأما ابنتها فلا تحرم عليه إلا بعد الدخول بأُمها وهذا هو مقتضى القاعدة إلا أن الإحتياط في مسألة الفروج مما لا يخفى حسنه على أحد فقول ابن أبي عقيل والصدوق ومن تبعهما أوفق به والحمد لله رب العالمين قوله: **وَخَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ** قد قلنا في صدر المبحث أن المحرمات بالمصاهرة على قسمين:

قسم يقتضي التحريم عيناً وقسم يقتضيه جمعاً.

أَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: فمنه أُمُّ الزَّوْجَةِ وقد مضى الكلام فيه، ومنه بنت الزَّوْجَةِ مع الدَّخُولِ بِالْأُمِّ وهو أيضاً قد مضى ومنه حليمة الإبن، والكلام إشارة إليها. وأما منكوحة الأب فقد مرَّ البحث فيها في قوله: **وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ** فنقول قوله تعالى: **وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمُ الْحَلَائِلُ** جمع حليمة، وهي مأخوذة أماً من الحِلِّ ضدَّ الحرام أو من الحلول لأنها تحلَّ مَعَهُ في فراشه أو من الحلِّ ضدَّ العقد لأنه يحلُّ أزارها عند الجماع، وأنما قيّد حلائل الأبناء بالأبناء الصلبية لإخراج ولد البنتي ويدخل في الحكم حلائل أولاد الأولاد وأن نزلوا وكذا حلائل أولاد البنات ولا خلاف فيه بين المسلمين وفي حكمه الولد من الرضاع لقوله **عَلَيْهِ السَّلَامُ** يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب والإطلاق في الحلائل يشمل الدائم والمنقطع سواء دخل بهنَّ أم لا وعليه فالمعنى حرَّمت عليكم حلائل أبناءكم أيضاً بمقتضى العطف.

وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا أي وحرَّم عليكم الجمع بينهما فحذف الفعل لدلالة سابقه عليه والحكم في هذه المسألة ممَّا أجمع عليه علماء الإسلام إلا أنَّ هاهنا أحكام قد تعرَّضوا لها فنحن أيضاً نشير إليها إجمالاً تنميماً للبحث.

الأول: قالوا إطلاق الآية يقتضي تحريم الجمع بينهما في العقد والوطي و أنه لا فرق فيه بين الدائم والمنقطع وملك اليمين ولا بين كونهما من النسب أو من الرضاع ولا بين كونهما من الأبوين أو من أحدهما والكُلُّ ممَّا لا خلاف بين الأصحاب والنصوص به كثيرة وبه قال أكثر العامة.

الثاني: ظاهر إطلاق التحريم بينهما يقتضي بطلان العقد لإقتضاء النهي الفساد والى هذا ذهب أكثر المتأخرين.

وقيل أنَّ المحلَّ صالح للعقد ومتعلِّق النهي وصف الجمع فلا يقتضي فساد العقد من أصله فلوزال هذا الوصف بمفارقة أحدهما كان العقد صحيحاً بالنسبة إلى الأخرى ومن ثمَّ ذهب الشيخ وابن الجنيدي وابن البراج.

في الكافي بهذا السُّنَد بدون إرسال عن أبي عبد الله عليه السلام في رجل تزَّوج خمساً في عقدٍ واحدة قال عليه السلام يخلِّي سبيل أيهنَّ شاء ويُمسك أربعاً انتهى.

الثالث: لو سبق العقد على أحداها صحَّ ولبطل الآخر سواء كان عالماً أو جاهلاً وسواء دخل بالأخيرة أم لا ويدل عليه ما رواه في الكافي والفقهاء في الصحيح عن زرارة بن أعين قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن رجل تزَّوج امرأة بالعراق ثم خرج إلى الشام وتزَّوج امرأة أخرى فإذا هي أخت امرأة التي بالعراق قال عليه السلام يفرق بينه وبين التي تزَّوجها بالشَّام ولا يقرب المرأة حتَّى تنقضي عدَّة الشَّامية قلت فإن تزَّوج امرأة ثم تزَّوج أمها وهو لا يعلم أنَّها أمها قال عليه السلام قد وضع الله عنه جهالته بذلك ثم إذا علم أنَّها فلا يقربها ولا يقرب البنت حتَّى تنقضي عدَّة الأم فإذا إنقضت عدَّة الأم حلَّ له نكاح البنت قلت فإن جاءت الأم بولدٍ قال عليه السلام هو ولده ويكون ابنه وأخا إمرأته وإلى هذا القول ذهب أكثر الأصحاب وذهب ابن الجنيْد إلى أنَّه لو تزَّوج بأخت امرأة وهو لا يعلم فرَّق بينهما أن كان لم يدخل بالثَّانية فإن دخل بها خيَّر أيهما شاء ويخلِّي سبيل الأخرى ولا يقرب التي يختار حتَّى تنقضي عدَّة التي فارق.

الرابع: لو دخل بالثَّانية جاهلاً ثم علم وفارقها فإنَّ لها المهر وعليها العدَّة تحرم عليه الأولى مدَّة عدَّة الثَّانية ذهب الشَّيخ وجماعة إلى التَّحريم، الأكثر بالعدم لصحة عقدها ظاهراً وباطناً وعقد الثَّانية طارِ فیتوجَّه النَّهي اليه.

الخامس: يجوز الجمع بين الأمتين بالملك وعليه دلَّت النُّصوص. هذا آخر الكلام في تفسير الجزء الرَّابع ویتلوه الجزء الخامس والحمد لله.

الفهرست

سورة آل عمران	٩
الآيات ٩٣ الى ٩٥	٩
اللغة	٩
الإعراب	٩
التفسير	١٠
الآيات ٩٦ و ٩٧	١٤
اللغة	١٤
الإعراب	١٥
التفسير	١٥
الآيات ٩٨ الى ١٠٠	٣٦
اللغة	٣٦
الإعراب	٣٦
التفسير	٣٧
الآيات ١٠١ الى ١٠٣	٤١
اللغة	٤١
الإعراب	٤٢
التفسير	٤٢
الآيات ١٠٤ الى ١٠٧	٥٧
اللغة	٥٧

٥٧	الإعراب
٥٨	التفسير
٦٨	الآيات ١٠٨ و ١٠٩
٦٨	اللغة
٦٨	الإعراب
٦٨	التفسير
٧٠	الآية ١١٠
٧٠	اللغة
٧٠	الإعراب
٧٠	التفسير
٧٩	الآيات ١١١ الى ١١٥
٧٩	اللغة
٨٠	الإعراب
٨٠	التفسير
٨٨	الآيات ١١٦ و ١١٧
٨٨	اللغة
٨٨	الإعراب
٨٨	التفسير
٩٤	الآيات ١١٨ الى ١٢٠
٩٤	اللغة
٩٥	الإعراب
٩٦	التفسير
١٠٢	الآيات ١٢١ و ١٢٢
١٠٢	اللغة
١٠٢	الإعراب
١٠٣	التفسير

الآيات ١٢٣ الى ١٢٩	١٠٩
اللغة	١٠٩
الإعراب	١١٠
التفسير	١١٠
الآيات ١٣٠ الى ١٤٣	١٢٣
اللغة	١٢٤
الإعراب	١٢٥
التفسير	١٢٦
الآيات ١٤٤ الى ١٤٨	١٥٨
اللغة	١٥٨
الإعراب	١٥٩
التفسير	١٥٩
الآيات ١٤٩ الى ١٥١	١٨١
اللغة	١٨١
الإعراب	١٨٢
التفسير	١٨٢
الآيات ١٥٢ و ١٥٣	١٩٦
اللغة	١٩٦
الإعراب	١٩٧
التفسير	١٩٧
الآيات ١٥٤ و ١٥٥	٢٠٦
اللغة	٢٠٦
الإعراب	٢٠٧
التفسير	٢٠٨
الآيات ١٥٦ الى ١٥٩	٢٢٦
اللغة	٢٢٦

٢٢٧	الإعراب
٢٢٧	التفسير
٢٤٩	الآيات ١٦٠ الى ١٦٣
٢٤٩	اللغة
٢٤٩	الإعراب
٢٥٠	التفسير
٢٦١	الآية ١٦٤
٢٦١	اللغة
٢٦١	الإعراب
٢٦١	التفسير
٢٦٧	الآيات ١٦٥ الى ١٧٠
٢٦٧	اللغة
٢٦٨	الإعراب
٢٦٨	التفسير
٢٨٥	الآيات ١٧١ الى ١٧٥
٢٨٥	اللغة
٢٨٥	الإعراب
٢٨٦	التفسير
٢٩٥	الآيات ١٧٦ الى ١٧٨
٢٩٥	اللغة
٢٩٥	الإعراب
٢٩٥	التفسير
٣٠٨	الآيات ١٧٩ و ١٨٠
٣٠٨	اللغة
٣٠٨	الإعراب
٣٠٩	التفسير

الآيات ١٨١ الى ١٨٤.....	٣١٩
اللغة.....	٣١٩
الإعراب.....	٣١٩
التفسير.....	٣٢٠
الآيات ١٨٥ و ١٨٦.....	٣٣٠
اللغة.....	٣٣٠
الإعراب.....	٣٣٠
التفسير.....	٣٣١
الآيات ١٨٧ الى ١٨٩.....	٣٤٥
اللغة.....	٣٤٥
الإعراب.....	٣٤٥
التفسير.....	٣٤٦
الآيات ١٩٠ الى ١٩٤.....	٣٤٣
اللغة.....	٣٤٣
الإعراب.....	٣٤٤
التفسير.....	٣٤٤
الآيات ١٩٥ الى ١٩٧.....	٣٧٧
اللغة.....	٣٧٧
الإعراب.....	٣٧٧
التفسير.....	٣٧٨
الآيات ١٩٨ الى ٢٠٠.....	٣٨١
اللغة.....	٣٨١
الإعراب.....	٣٨١
التفسير.....	٣٨٢

سورة النساء..... ٣٩١

الآيات ١ الى ٥ ٣٩١

اللغة..... ٣٩٢

الإعراب..... ٣٩٣

التفسير..... ٣٩٥

الآيات ٦ الى ١٠ ٤٢٨

اللغة..... ٤٢٨

الإعراب..... ٤٢٩

التفسير..... ٤٢٩

الآيات ١١ الى ١٤ ٤٤٩

اللغة..... ٤٥٠

الإعراب..... ٤٥٠

التفسير..... ٤٥١

الآيات ١٥ الى ١٨ ٤٦٨

اللغة..... ٤٦٨

الإعراب..... ٤٦٨

التفسير..... ٤٦٩

الآيات ١٩ الى ٢٣ ٤٨٠

اللغة..... ٤٨١

الإعراب..... ٤٨١

التفسير..... ٤٨٣